

# **تنبيه العقول إلى كنوز ثلاثة الأصول**

تأليف/

**د. عبدالرحمن بن سليمان الشمسان**

**الجزء الثاني**



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ





**الأصل الثاني: مَعْرِفَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالْأَدِلَّةِ، وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.**

الدِّينُ لغة: «الذال والياء والنون أصل واحد إليه ترجع فروعه كلها وهو جنس من الانقياد والذل»<sup>(١)</sup>. ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل:

وأسلمت وجهي لمن أَسَلَمْتُ	له الأرض تحمل صخرًا ثَقَالًا
وأسلمت وجهي لمن أَسَلَمْتُ	له المزن تحمل عذبا زَلَالًا
إذا هي سِيقَتْ إلى بلدة	أطاعت فصَبَّت عليهم سَجَالًا
وأسلمت وجهي لمن أَسَلَمْتُ	له الريح تُصَرِّفُ حَالًا فَحَالًا <sup>(٢)</sup>

أي استسلمت لطاعة من استسلم لطاعته الأرض والمزن والريح وانقادت له. و«هو الطاعة والجزاء والعادة والخلق»<sup>(٣)</sup>.

فالخلق يفسر بالدين وكذلك الدين يفسر بالخلق كما قال ابن عباس عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] أي لعل دين عظيم<sup>(٤)</sup>.

**حالات كلمة الدين بحسب اشتقاقها وتعديتها:**

١ - أَنْ يتعدى بنفسه فيقال دانه دينًا فيكون بمعنى الحساب والجزاء ومنه ﴿مَلِكِ يَوْمِ

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٣١٩).

(٢) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٤٦).

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (١٤/ ١٨١-١٨٢) و«تاج العروس» (٩/ ٢٠٨) و«المفردات» (١٨١) و«نزهة الأعين النواظر» (١/ ١٨٤) و«النهاية في غريب الحديث» (٢/ ١٤٨).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (١٤٠٧).

الَّذِينَ ﴿[الفاتحة: ٣] أي يوم الجزاء والحساب.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥] دينهم الحق: أي جزاءهم على أعمالهم الجزاء الحق<sup>(١)</sup> ويكون بمعنى القهر فيقال دنته فدان أي قهرته فذل، فيكون من الأعلى إلى الأدنى.

٢- أَنْ يُعَدَّى بِاللَّامِ فيقال: «دان له» أي أطاعه وخضع له، ومنه قوله ﷺ لقومه لما شكوه على عمه أبي طالب: «إِنِّي أريد منهم كلمةً واحدةً تدين لهم بها العربُ، وتؤدي إليهم العَجَمُ الجزية...»<sup>(٢)</sup>.

أي تطيعهم وتخضع لهم<sup>(٣)</sup> فيكون من الأدنى إلى الأعلى.

٣- أَنْ يُعَدَّى بِالْبَاءِ فيقال: «دان به» أي اتخذه ديناً وعادةً وخلقاً.

أما في الاصطلاح: «الدين هو الطاعة الدائمة اللازمة التي قد صارت عادةً وخلقاً»<sup>(٤)</sup>.

الإسلام ينقسم إلى قسمين:

الأول: الإسلام العام: وهو دين الرسل عليهم الصلاة والسلام كلهم جميعاً.

قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ

الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢] وقال مينا وصية إبراهيم ويعقوب عليه السلام: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٥٦٥).

(٢) أحمد (١/ ٢٢٧)، والترمذي (٥/ ٣٦٥-٣٦٦)، كتاب «تفسير القرآن» / باب ومن سورة (ص). رقم

(٣٢٣٢)، وقال: «هذا حديث حسن». واللفظ له، و«السنن الكبرى» للنسائي (٨/ ٩٠) رقم

(٨٧١٦).

(٣) «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ١٤٨).

(٤) «قاعدة في المحبة» (٣٢) لابن تيمية.

وَيَعْقُوبُ يَبْنِيَنَّ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿البقرة: ١٣٢﴾. وقال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢] وغير ذلك من الآيات.

قال شيخ الإسلام: «وكان دينه الذي ارتضاه الله لنفسه هو الإسلام: الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، ولا يقبل من أحد ديناً غيره لا من الأولين ولا من الآخرين وهو دين الأنبياء وأتباعهم كما أخبر الله تعالى بذلك عن نوح ومن بعده إلى الحواريين»<sup>(١)</sup>.

الثاني: الإسلام الخاص: وهو مقصود المؤلف هنا، وهو الدين الذي بعث الله به نبينا محمداً ﷺ وقد صار اسم الإسلام علماً عليه، فإذا ذكر الإسلام عرف السامع أن المقصود به دين نبينا محمد ﷺ. وهو الدين الذي لا يقبل الله غيره قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿وَمَنْ﴾: هنا شرطية فتفيد العموم أي أن عموم الخلق مطالبون باتباعه ومن لم يتبعه منهم فهو كافر مردود عليه عمله غير مقبول.

قال شيخ الإسلام: «قوله ومن يتبع غير الإسلام ديناً. صيغة عامة، وصيغة «من» الشرطية من أبلغ صيغ العموم كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن جرير: «أي ومن يطلب ديناً غير دين الإسلام ليدين به فلن يقبل الله منه وهو في الآخرة من الخاسرين»<sup>(٣)</sup>.

(١) «الجواب الصحيح» (١ / ٨١) وقد ذكر تسع أدلة على ذلك فراجعه إن شئت.

(٢) «الجواب الصحيح» (٢ / ١١٨) ولكلامه بقية فراجعه إن شئت.

(٣) «جامع البيان» (٣ / ٣٣٩).

وقال شيخ الإسلام: «الإسلام الخاص هو الذي بعث الله به محمداً ﷺ المتضمن لشرعية القرآن، ليس عليه إلا أمة محمد ﷺ والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا»<sup>(١)</sup>.  
 بالأدلة: الدليل هو المرشد والهادي الموصل إلى المقصود<sup>(٢)</sup>.  
 فيجب تعلمها؛ لأن «من فارق الدليل ضل السبيل»<sup>(٣)</sup>.  
 وأعظم الأدلة في باب معرفة دين الله هو كلام الله وكلام رسوله ﷺ.  
 وربط معرفة الإسلام بالأدلة لما يلي:

١ - أن الكتاب والسنة هما حُجَّةُ الله التي أنزلها الله على خلقه قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] «فكل من بلغه القرآن فقد أنذر به وقامت عليه حجة الله به»<sup>(٤)</sup>.

٢ - أن الكتاب والسنة هما مصدرا العلم بالله وبدينه. قال ابن عبد البر: «وأما أصول العلم فالكتاب والسنة»<sup>(٥)</sup>.

ولهذا وجب اتباعهما دون غيرهما وتحليل ما أحلا وتحريم ما حرما<sup>(٦)</sup>.

٣ - أنه لا يمكن أن يجتمع الناس إلا على الكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَزُدْهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٩٤).

(٢) «انظر: تهذيب اللغة» (١٤/ ٦٦).

(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٨٣).

(٤) «الصواعق المرسلة» (٢/ ٧٣٥).

(٥) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٣٣).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٩/ ١٩).

وما ذلك إلا لأن الكتاب والسنة هما الميزان الحق لمعرفة صحيح الأقوال من سقيمها. والإسلام لغة: هو الدخول في السِّلْم ومنه قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨] قال الأزهري: «عنى به الإسلام وشرائعه كلها»<sup>(١)</sup>.

وقال: «أما الإسلام ففيه قولان: أحدهما: هو المستسلم لأمر الله. والثاني: هو المخلص لله العبادة من قولهم سلّم الشيء لفلان أي خلّصه، وسلّم له الشيء أي خلص له»<sup>(٢)</sup>. وقال به علماء السلف ومنهم: أبو عمرو الداني حيث قال: «الإسلام هو الاستسلام والانقياد والمتابعة»<sup>(٣)</sup>.

أما في الاصطلاح: فكما عرفه المؤلف حيث قال الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله.

الاستسلام: مشتق من المسالمة وعدم المنازعة ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] أي استسلما لما أمرا به. وقوله: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]، إذا الاستسلام: انقياد القلب لأمر الله مع ترك الاعتراض فيما لا يلائم الإنسان ومنه قوله تعالى: ﴿تَوَقَّيْ مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١] «أي اجعلني ممن استسلم لرضاك»<sup>(٤)</sup>. و«الاستسلام لله وحده هو أصل عبادته وحده وذلك يجمع معرفته ومحبته والخضوع له»<sup>(٥)</sup>.

(١) «تهذيب اللغة» (١٢/ ٤٤٩).

(٢) المرجع السابق (١٢/ ٤٥١).

(٣) «الرسالة الوافية» (٨٨) وانظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣٧٤) و«شرح حديث مثل الإسلام» للحافظ ابن رجب (٢٠ و ٢٣).

(٤) «المفردات» للراغب (٢٤٦) وانظر: «تهذيب اللغة» (١٢/ ٤٤٩)، وانظر: «الصارم المسلول» (٥١٩).

(٥) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ١١٥).

وحصره ابن القيم في أحواله الأربع بالقلب فقال: «هو الخلاص من شُبُهَةٍ تعارض الخبر، أو شهوة تعارض الأمر، أو إرادة تعارض الإخلاص، أو اعتراض يعارض القدر والشرع» ثم علق عليه فقال: «وصاحب هذا التخلص هو صاحب القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به»<sup>(١)</sup>.

فمن استسلم لله وحده دون ما سواه فهو المسلم الموحد. الذي لا أحسن ديناً منه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

ومعنى «أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ»: أي أخلص نيته لله وابتغى بعمله وجهه.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: الإحسان هو الانقياد في فعل الطاعة مع المتابعة للنبي ﷺ<sup>(٢)</sup> ومن استسلم لله حق الاستسلام ذاق طعم الإيمان كما قال النبي ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسلاً»<sup>(٣)</sup>. فالرّضى بالله رباً: هو الرضى بربوبيته وألوهيته.

والرّضى باللاهية يتضمن الرضى بمحبته وحده وخوفه ورجائه والإنابة إليه والتبتل إليه وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرّضى بربوبيته: يتضمن الرضى بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به والاعتماد عليه، وأن يكون راضياً بكل ما يفعل به وهذا يتضمن رضاه بما يقدر عليه<sup>(٤)</sup>.

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٤٧).

(٢) انظر: «النبوات» (١/ ٤١٦)، و«تفسير القرآن العظيم» (١٠١).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ١٧٢).

فالاستسلام لله بالتوحيد: هو «الإخلاص وهو حقيقة الإسلام»<sup>(١)</sup> لأن المستسلم لله هو «المتخلص من شوائب الشرك فسليم لربه وخلص له كالعبد الذي سلم لمولاه ليس فيه شركاء متشاكسون»<sup>(٢)</sup>.

وينافي الاستسلام أمر ويفسده آخر:

أما الذي ينافيه فهو الكبر: فمن استكبر ولم يستسلم لله لم يكن مسلماً، كاليهود الذين قال الله فيهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

ولذلك صارت عقوبة المستكبرين نار جهنم ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وأما الذي يفسده فهو الشرك: لأنه استسلام لله ولغيره معاً كما صنع أهل الكتاب الذين استسلموا لله ولغيره، قال جل وعلا: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُهُ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] ولذلك هددهم وتوعدهم على شركهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [يونس: ٢١].

ويُخَدِّشُهُ آفَاتٌ ثَلَاثٌ هِيَ:

- ١ - رؤية العمل.
- ٢ - طلب العوض عليه.
- ٣ - رضاه به وسكونه إليه.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠ / ١٤).

(٢) «بدائع الفوائد» (٢ / ١٣٣).

فعلاج رؤيته عمله هو مشاهدته جهل نفسه وظلمها كما قال تعالى في وصفه لنفس الإنسان ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] وأن طبعها الكسل والبطالة وحب الشهوات كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...﴾ [آل عمران: ١٤]، وفي الوقت نفسه يشاهد منه الله عليه وفضله عليه وتوفيقه له وأنه بالله لا بنفسه، فالخير الذي يصدر منه إنما هو من الله وبالله قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، مَا زَكَّيْكُمْ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١] حتى أكرم خلقه وأتقاهم لا يمكن أن يثبت على الدين إلا بتثبيت الله إياه. ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]. فكيف بغيره، والله هو المتفضل على المؤمنين بأن حب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان، ولو لم يجب الإيمان وزينه في قلوبهم لما آمنوا. قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧] ولما كانت نعمة الهداية منه سبحانه ولا يمكن حصولها إلا منه اعترف بها أهل الجنة فقالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

فتكون رؤية العبد لأعماله في الحقيقة كرؤيته لصفاته الخلقية من سمعه وبصره وإدراكه وقوته، وسلامة أعضائه، فالكل مجرد عطاء الله ونعمته وفضله.

أما ما يخلصه من طلب العوض على العمل: فعلمه بأنه عبد محض والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضاً ولا أجر، إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضل منه وإحسان إليه وإنعام عليه.

وأما علاج رضاه بعمله وسكونه إليه فأمران:

١ - مطالعة العبد عيوبه وتقصيره في عمله، وما في العمل من حظٍّ للنفس ونصيب للشيطان قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لا يجعل أحدكم للشيطان شيئاً من صلاته، يرى أن حقاً



عليه ألا ينصرف إلا عن يمينه»<sup>(١)</sup>.

فجعل هذا القدر اليسير النزر حظاً ونصيباً للشيطان من صلاة العبد فما الظن بما فوقه.

٢- العلم بما يستحقه الرب سبحانه من حقوق العبودية وآدابها الظاهرة والباطنة وشروطها وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيهما حقها ويرضى بها لربه.

ولهذا كان السلف يجتهدون في العبادة ويخشون ألا تقبل منهم فعن عائشة رضي الله عنها

قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]

قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون، ويتصدقون وهم يخافون ألا تقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات»<sup>(٢)</sup><sup>(٣)</sup>.

ثم ثنى بالأساس الثاني وهو الانقياد له بالطاعة والانقياد هو: المتابعة مع المطاوعة<sup>(٤)</sup>.

وقيل: الاستجابة بسهولة<sup>(٥)</sup> لسلامته من الإباء والامتناع<sup>(٦)</sup> وفي ذلك إجلال وإكرام<sup>(٧)</sup>.

والطاعة: هي فعل الأوامر وترك النواهي.

والانقياد يكون بالجوارح ولهذا قيل: «الانقياد هو: الاتباع بالأفعال»<sup>(٨)</sup>. فيفعل العبد

بجوارحه كل طاعة لله راضية بذلك نفسه.

(١) البخاري مع الفتح (٢/ ٣٣٧)، كتاب «الأذان»/ باب الانفتال والانصراف عن اليمين. رقم (٨٥٢).

(٢) الترمذي (٥/ ٣٢٧)، كتاب «التفسير»/ باب ومن سورة المؤمنين. رقم (٣١٧٥).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٩٢-٩٥).

(٤) «شرح مختصر الروضة» (١/ ٧٣).

(٥) «الواضح» (١/ ١٣٣) لابن عقيل.

(٦) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٩٠).

(٧) «الصارم المسلول» (٥٢١).

(٨) «الشهادتان» للجبرين (٨١).

فمن حُرِّمَ الانقياد لله حرم الدين كله. وذلك أن «من لم ينقد لأمره فهو إما مكذب له أو ممتنع عن الانقياد لربه وكلاهما كفر صريح»<sup>(١)</sup>.

ككفر إبليس فإنه لما أمره الله بالسجود لآدم لم ينقد لأمره وامتنع عن السجود ظاناً أنه خير من آدم لأن مادته من النار ومادة آدم من الطين ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

فكان سبب كفره استكباره وامتناعه عن السجود وعدم انقياده، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

قال شيخ الإسلام: «فإنه سمع أمر الله، فلم يكذب رسولاً، ولكن لم ينقد للأمر ولم يخضع له واستكبر عن الطاعة فصار كافراً»<sup>(٢)</sup>. وذلك «أن العاصي المستكبر وإن كان مصداقاً بأن الله ربه، فإن معاندته له ومحادثته تنافي هذا التصديق، ولهذا قالوا: من عصى الله مستكبراً كإبليس كفر بالاتفاق ومن عصى مشتهياً لم يكفر عند أهل السنة والجماعة»<sup>(٣)</sup> وذلك أن العاصي المشتهي «يعتقد وجوب ذلك الفعل عليه ويجب أن يفعله، لكن الشهوة منعه من الموافقة، فقد أتى من الإيمان بالتصديق والخضوع والانقياد، وذلك قول وعمل لكن لم يكمل العمل»<sup>(٤)</sup>.

وقد جمع الله بين استسلام القلب له بالتوحيد وانقياد الجوارح بالعبادة في غير ما آية من كتابه فقال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢].

(١) «الصارم المسلول» (٥٢١).

(٢) «الصارم المسلول» (٥١٩).

(٣) «الصارم المسلول» (٥٢١) بشيء من التقديم والتأخير.

(٤) «الصارم المسلول» (٥٢٢).

قال السعدي: «من أسلم وجهه لله أي أخلص لله أعماله، متوجهاً إليه بقلبه وهو مع إخلاصه محسن في عبادة ربه بأن عبده بشره فأولئك هم أهل الجنة وحدهم»<sup>(١)</sup>.

كما جمعها النبي ﷺ في حديث حكيم بن معاوية عن أبيه حين جاءه يسأله عن الإسلام فقال فبالذي بعثك بالحق ما الذي بعثك به قال: «الإسلام» قال: وما الإسلام: قال: «أن يسلم قلبك لله تعالى، وأن توجه وجهك إلى الله تعالى، وتصلي الصلوة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة...»<sup>(٢)</sup>.

وحديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده حين سأل النبي ﷺ بم بعثك ربك إلينا؟ قال: «بالإسلام»، قلت: وما آيات الإسلام؟ قال: «أن تقول: أسلمت وجهي إلى الله، وتخليت، وتقيم الصلوة، وتؤتي الزكاة»<sup>(٣)</sup>.

وحديث عمرو بن عبسة قال: قال رجل يا رسول الله! ما الإسلام؟ قال: «أن يسلم قلبك لله ﷻ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك...»<sup>(٤)</sup>.

ف «قوله أن يسلم قلبك لله إشارة إلى تصحيح الاعتقاد وقوله أن يسلم المسلمون من لسانك ويدك إشارة إلى تصحيح المعاملات الظاهرة»<sup>(٥)</sup>.

ومن الأمثلة على ذلك:

ما روته أم سلمة قالت: «لما نزلت ﴿يَذْنِبْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] خرج نساء

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٥٦).

(٢) أحمد (٣/٥).

(٣) النسائي (٥/٤-٥)، كتاب الزكاة/ باب وجوب الزكاة.

(٤) أحمد (٤/١١٤)، قال الهيثمي: «رواه أحمد والطبراني في «الكبير» بنحوه، ورجاله ثقات». «مجمع

الزوائد» (٥٩/١) رقم (١٩٩).

(٥) «شعب الإيمان» (١/١٥٠).

الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من الأكسية»<sup>(١)</sup>.

ويوضحه حديث صفية بنت شيبة قالت: بينما نحن عند عائشة قالت وذكرت نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة: إن لنساء قريش لفضلاً وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار وأشدّ تصديقاً بكتاب الله ولا إيماناً بالتنزيل لقد أنزلت سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] فانقلب رجالهن إليهن يتلون ما أنزل إليهن فيها ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابة ما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرجل فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه فأصبحن يصلين وراء رسول الله ﷺ الصبح معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان»<sup>(٢)</sup>.

أما البراءة من الشرك وأهله: فهي بغض المؤمن للشرك والمشركين بغضاً ينتج عنه عداوتهم وتكفيرهم والبعد عنهم في مساكنهم والهجرة من ديارهم وجهادهم بالقلب واللسان والجوارح<sup>(٣)</sup>.

ويدل لذلك فعل الخليل عليه الصلاة والسلام ومن معه حيث تبرؤوا من المشركين ومن معبوداتهم، فكانوا لنا أسوة وقدوة.

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٰ إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

فأوجب الله في هذه الآية البراءة من العامل (المشرك) ومن العمل (الشرك). والبراءة من الشرك وأهله هي سنة المرسلين عليهم الصلاة والسلام فيها هو نوح

(١) أبو داود (٢/٤٥٩)، كتاب «اللباس» / باب في قوله تعالى: ﴿يَذْنِبْنَ عَلَىٰ نَكَبٍ مِنَ الْجَبَلِ﴾. رقم (٤١٠١).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/١٠٧) رقم (١٥٢٣٣).

(٣) انظر: «قاعدة في المحبة» لشيخ الإسلام (١٣٣).

عليه لشدّة بغضه للمشرّكين وعداوته لهم يدعو عليهم بالهلاك فيقول فيما ذكره الله عنه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

وهود عليه أظهر للمشرّكين البراءة منهم ومن معبوداتهم والتحدّي لهم كما قال الله تعالى عنه: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤-٥٥].

وخاتمهم ﷺ أمره ربه بعداوتهم ومفاصلتهم فأنزل عليه سورة كاملة في ذلك:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «ليس في القرآن سورة أشدّ لغيظ إبليس من هذه السورة؛ لأنها توحيد وبراءة من الشرك» (١).

بل «مقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشرّكين ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة» (٢).

ولما كان الله حقيقةً بالتبري من الكافرين وجب علينا نحن أن نتبرأ منهم قال ابن القيم عند قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ﴾ «لما كان الكفر وصفاً ثابتاً - أي للكافر - لازماً لا يفارقه، فهو حقيق أن يتبرأ الله منه... فحقيق بالموحد البراءة منه براءة محضة» (٣).

(١) «النكت والعيون» للهاوردي (٦/٣٥٨).

(٢) «بدائع الفوائد» (١/١٣٨).

(٣) «بدائع الفوائد» (١/١٣٩-١٤٠).

## عوامل ضعف البراءة من الكفار

لضعف البراءة من الكفار أسباب من أهمها:

(١) الجهل بأحكام الدين: من أعظم أسباب التهاون في أمر ما: هو الجهل بحكمه أو الجهل بخطورة إهماله. ولهذا بين الله حكم الولاء والبراء أوضح بيان وأجلاله في أي كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

(٢) الجهل بحال العدو: لما كان الجهل بحال العدو سبباً رئيساً في ضعف البراءة منه جلى الله لنا حال أعدائنا وأوضحه مبيناً بغضهم لنا وحقدهم الشديد علينا، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْأَيَّاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١١٨) هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١١٩) إِنْ تَمَسَّسْتُمْ حَسَنَةً سَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا....﴾ [آل عمران: ١١٨-١٢٠].

واستهزاءهم بربنا ورسولنا وعقولنا وديننا وعباداتنا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافَرِ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٧-٥٨].

وحسدهم إيانا على هذا الخير الذي من الله به علينا ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وأنهم لا يرضون عنا إلا بالردة عن دين الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]. متخذين جميع الوسائل لذلك دائماً إلى قيام الساعة ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ

دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا» [البقرة: ٢١٧] نسأل الله أن يثبتنا على دينه.

(٣) ضعف الإيمان: كلما ضعف الإيمان ضعف التمسك بدين الله تعالى وصار المرء لا يبالي بأمر الله ونهيه بل ولا يبالي بمحبة من يحب وبغض من يبغض.

فهاهم المنافقون لما ضعف إيمانهم أو عُدِمَ خافوا الدوائر فصاروا ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣] فأرادوا أن يجعلوا يداً مع المؤمنين وأخرى مع الكافرين.

(٤) حُبُّ الدنيا: حب الدنيا يضعف البراءة من المشركين وربما أفقدها نهائياً لظنه أن صلاح دنياه لا يكون إلا بمداهنتهم وموالاتهم وإرضائهم والتقرب إليهم. وأحسن من شخص هذه الظاهرة ابن عباس رضي الله عنه حيث قال: «من أحب الله، وأبغض الله، وعادى في الله، ووالى في الله فإنه لا تنال ولاية الله إلا بذلك، ولا يجد رجل طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصيامه حتى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس اليوم في أمر الدنيا وذلك لا يجزئ عن أهله شيئاً يوم القيامة»<sup>(١)</sup> ورواه المروزي وزاد ثم قرأ: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]<sup>(٢)</sup>.

قال شيخنا العثيمين معلقاً على قول ابن عباس: «إذا كان الناس قد تغيروا في زمنه فما بالك بالناس اليوم؟ فقد صارت مؤاخاة الناس -إلا النادر- على أمر الدنيا بل صار أعظم من ذلك. فباعوا دينهم بدنياهم قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧] ولما كان غالب ما يحمل على الخيانة هو حب الدنيا أعقبها بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]<sup>(٣)</sup>.

(١) «الزهد» لابن المبارك (١٢٠-١٢١) رقم (٣٥٣).

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (١/٤٠٦) رقم (٣٩٦).

(٣) «القول المفيد» (٢/١٥٦-١٥٧).

٥- دعوى التسامح: وهذه شَنْشَنَةٌ ظهر بها قوم غيّرُوا مناط الولاء والبراء فجعلوه حول طمع الدنيا وانتهاب خيراتها فقط أما الدين فلا يبغض من أجله ولا يعادى من أجله ومن ذلك قول أحدهم: «إن التسامح يعد خطأ حضاريًا يقضي بمنح الآخرين حرية التعبير عن الآراء والأفكار التي تغاير الآخرين كما يسمح بالعيش وفقًا للمبادئ والمعتقدات التي لا ندين بها سوية. إن التسامح أصبح إذًا مسألة لا يمكن فصلها عن الحرية وحقوق الإنسان. إن التسامح يجب أن يشمل الجميع وكل الأديان على وجه الأرض»<sup>(١)</sup>.

ويقول الآخر: «نحن لا نعادي اليهود لأنهم يهود ولكن نعاديهم لأنهم اغتصبوا فلسطين وشرّدوا أهلها وقتلوه».

عوامل قوة الولاء والبراء:

لقوة الولاء والبراء عوامل أهمها:

(١) معرفة حكمه في الإسلام:

فمن عرف حكم موالاة المسلمين وبغض الكافرين وعداوتهم وأنّه السياج الواقعي من الوقوع في الشرك وأن من موالاة الكفار ما يكون كفرًا ومنه ما يكون ذنبًا عظيمًا أو جب له ذلك بغض الكفار وعداوتهم والبعد عنهم.

(٢) معرفة حال العدو:

وذلك بأن يعرف المسلمون ما يُكُنُّه الكفار لهم من الحقد الشديد، والحسد الأكيد، والحرص المستمر على إغوائهم وإخراجهم من دينهم مع الاستهزاء المتواصل برّهم ودينهم ورسولهم فإذا عرف المسلم هذا كله اشتد بغضه لهم وعداوته إياهم.

(١) «دعوة التقريب بين الأديان» (٤/١٥٢٦).



## (٣) قوة الإيمان:

كلما قوي إيمان العبد بربه قاده ذلك إلى عظيم محبته له ولأمره وبغضه لما يبغضه فإنه لا يجتمع حب الله وحب أعدائه.

أتحب أعداء الحبيب وتدعي حباله ما كان ذاك في إمكان

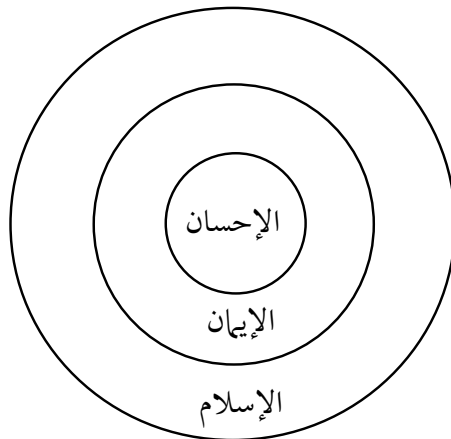
إضافة إلى أنه إذا قوي إيمان العبد قوي توكله على الله ومن قوي توكله على الله لم يبال بالكافرين ولم يخش قوتهم وسطوتهم.

وَهُوَ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ: الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ وَالْإِحْسَانُ. وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ. فَأَرْكَانُ  
الْإِسْلَامِ خَمْسَةٌ.

وهو: أي دين الإسلام ثلاث مراتب بعضها فوق بعض فأدناها وما فيها دني:  
الإسلام ثم أعلى منه الإيمان ثم أعلى منهما الإحسان.

قال شيخ الإسلام: «فإن هذه الدرجات الثلاث التي هي الإسلام والإيمان  
والإحسان داخلية في الدين كما قال في الحديث الصحيح: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم  
دينكم» بعد أن أجابه عن هذه الثلاث»<sup>(١)</sup>.

ومراتب: جمع مرتبة، والمرتبة والرتبة هي المنزلة الرفيعة<sup>(٢)</sup> وبيان ذلك أن الكافر قد  
بلغ في الضلال منتهاه قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِلَّاكَّا لَا نَنْعِمُ بِهِمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤] ولذلك  
انحطت مرتبته في الحضيض في أسفل سافلين، فإذا أسلم تبوأ منزلة عالية رفيعة، فإن ترقى  
في مدارج الكمال بلغ مرتبة الإيمان، وإن كان ذا هممة عالية وعزيمة صادقة اجتهد في طاعة  
ربه حتى بلغ أعلى المراتب وأزكاها وهي مرتبة الإحسان فكل محسن مؤمن مسلم وكل  
مؤمن مسلم ولا عكس.



(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/١٥٨).

(٢) «اللسان» (١/٤١٠).

أي كل مرتبة من مراتب الدين لها أركان وأسس تقوم عليها ثم بدأ ببيان أركان الإسلام وأنها خمسة، فقال: فأركان الإسلام خمسة.

يدل لهذه الأركان الخمسة حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله، وإقامُ الصَّلاة، وإيتاءُ الزَّكاة، وصومُ رمضان»<sup>(١)</sup>.

وفي لفظ: «بُني الإسلام على خمس دعائم»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن رجب: «إن الإسلام مثله كبنيان، وهذه الخمس دعائمه وأركانه التي يثبت عليها البنيان، وإذا كانت هذه دعائم البنيان وأركانه، فإنها إذا زالت كلها سقط البنيان ولم يثبت بعد زوالها»<sup>(٣)</sup>.

والأركان لغة: جمع ركن وهو جانب الشيء الأقوى الذي يستند إليه.

اصطلاحًا: ما توقف الشيء على وجوده وكان جزءًا من حقيقته.

إذا أركان الشيء أجزاءه التي لا يتحقق بدونها.

(١) سبق تخريجه.

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (١/٤١٩).

(٣) «فتح الباري» (١/٢٠).

شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ،  
وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ.

الركن الأول هو الشهادتان معاً وإنما جعلنا ركناً واحداً لأمرين:

(١) أن شهادة أن لا إله إلا الله مشتملة على الإيمان بالرسول ﷺ مستلزمة له كما أن الإيمان بالرسول ﷺ مستلزم للإيمان بالمرسل ولا بد<sup>(١)</sup>، ولذلك صار الطعن في الرسول طعنًا في مرسله وقدحاً في صفاته. قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

(٢) أن صحة العبادات تنبني على تحقيقها معاً وذلك أن العمل لا يقبل إلا إذا توفر فيه شرط الإخلاص والمتابعة فالإخلاص لله عز وجل تضمنته شهادة أن لا إله إلا الله، وأما المتابعة فتضمنتها شهادة أن محمداً رسول الله<sup>(٢)</sup>. فبالشهادة الأولى يعرف المعبود وما يجب له وبالثانية كيف يعبد وبأي طريق يصل إليه<sup>(٣)</sup>.

معنى الشهادة لغة:

ذكر الأزهري للشهادة معاني هي العلم والقول والبيان والكتابة<sup>(٤)</sup>، والشاهد: هو العالم الذي يبين ما علمه<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (٥٥٤).

(٢) انظر: «شرح الأصول» للعثيمين (١١٤).

(٣) «معارج القبول» (٣٩/٢).

(٤) أي الحكم والقضاء.

(٥) «تهذيب اللغة» (٧٣/٦).

وقال في «اللسان»: «الشهادة خبر قاطع تقول به»<sup>(١)</sup>.

ولا تنافي بين هذه المعاني الأربع لأن كل معنى منها يدل على مرتبة من مراتب الشهادة كما حقق ذلك أهل العلم<sup>(٢)</sup>.

وسأتناول هذه المراتب بالاختصار:

**المرتبة الأولى: العلم:** وذلك أن الشاهد بالحق لا بُدَّ أن يكون عالماً به معتقداً بقلبه

صحة المشهود به وثبوته قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

**المرتبة الثانية: القول والتكلم:** فمن قال قولاً وتكلم به فقد شهد به وإن لم يكن معلماً

به لغيره، ولا مخبراً به سواء ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

**المرتبة الثالثة: البيان والإخبار والإعلام أي بيان الشيء للناس وإخبارهم به فمن**

أخبر عن شيء فقد شهد به سواء ذكره بلفظ الشهادة أو بدون لفظها ومنه قوله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا أَمَلَكِيَّةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنِ شَاءَ أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] فهو لاء أخبروا خبراً مجرداً ومع ذلك سماه الله شهادة.

**المرتبة الرابعة: الحكم والقضاء:** أي حكم الله وقضى وكتب أنه لا إله إلا الله<sup>(٣)</sup>.

وفي هذا إلزام وإيجاب بتوحيده سبحانه وإفراده بالعبادة ويدل لذلك أي كثيرة منها

قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا

إِلَهِينَ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارְهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

(١) «لسان العرب» (٣/ ٢٣٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٦٨-١٧١)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٤٥١-٤٥٥).

(٣) «تهذيب اللغة» (٦/ ٧٣)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٧٣) والذي يظهر أن هذه المرتبة خاصة بالله

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

«وهذا كثير في القرآن يوجب على العباد عبادته وتوحيده، ويحرم عليهم عبادة ما سواه، فقد حكم وقضى أنه لا إله إلا هو»<sup>(١)</sup>. و«وجه استلزام شهادته سبحانه لذلك: أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو فقد أخبر وبيّن وأعلم وحكم وقضى أن ما سواه ليس بإله، وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم، فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره، وذلك يستلزم الأمر باتخاذ وحده إلهًا، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهًا»<sup>(٢)</sup>. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢] وقال تعالى عن لقمان إنه قال: ﴿يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّكَ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وفي الاصطلاح: الإخبار بالشيء بعد تيقن صحته.

فيكون معنى شهادة أن لا إله إلا الله. أعلم - بقلبي -، وأقول وأبيّن - بلساني - أنه لا إله إلا الله وألتزم بما دلت عليه من التوحيد<sup>(٣)</sup>.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤ / ١٧١).

(٢) «مدارج السالكين» (٣ / ٤٥٤).

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (٦ / ٧٣).

**فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

شهادة الله لنفسه بالتوحيد هي أجل شهادة وأعظمها وأصدقها وأعدلها وأولها.

قال ابن عباس: «شهد الله بنفسه لنفسه قبل أن يخلق الخلق، ولم يكن سماء ولا أرض ولا بر ولا بحر فقال شهد الله أنه لا إله إلا هو»<sup>(١)</sup>.

﴿اللَّهُ﴾: اسم مشتق من إله، قال أبو الهيثم: الله أصله إله قال الله عز وجل: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وإله: بمعنى مألوه أي معبود على وزن فعال بمعنى مفعول، قال الليث: «التأله بمعنى التعبد»<sup>(٢)</sup>. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤]. أي مألوه

فيهما قال قتادة: «يعبد في السماء ويعبد في الأرض»<sup>(٣)</sup>، وبهذا فسر أهل العلم:

قال ابن عباس: الله: «ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين»<sup>(٤)</sup>.

وقال شيخ الإسلام: «الإله هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالاً وإكراماً»<sup>(٥)</sup> وبمثله قال ابن القيم<sup>(٦)</sup> وابن رجب<sup>(٧)</sup> وغيرهم.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤ / ١٦٨).

(٢) «تهذيب اللغة» (٦ / ٤٢٢-٤٢٤) و«اللسان» (١٣ / ٤٦٨-٤٦٩) و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (٢٤).

(٣) «تفسير عبد الرزاق» (٢ / ١٦٦) رقم (٢٧٩٥).

(٤) «جامع البيان» (١ / ١٢٣).

(٥) «مجموع الفتاوى» (١ / ٢٢).

(٦) «مدارج السالكين» (٣ / ٤٦٠).

(٧) «تحقيق كلمة الإخلاص» (٢٣-٢٤).

أنه: أن للتوكيد والضمير يعود على الله ﷻ.

لا: نافية للجنس بمعنى ليس.

إله: اسمها مبني على الفتح.

ف(لا إله): تنفي جميع الآلهة والمعبودات.

إلا: أداة استثناء فاستثنى من المعبودين معبوداً واحداً فقط، وهو الله ﷻ فأثبت له العبادة وحده لا شريك له، فقال إلا هو: فالضمير (هو) يعود إلى الله ﷻ؛ لأنه هو الذي يجب أن يخضع، ويدل له وحده مع كامل محبته.

وشهادة الرب بوحدانيتها بطريقتين:

(١) طريق القول: وذلك بما أنزله من كتبه على رسله عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

وبين تعالى أن جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام كلهم أخبروا عن الله أنه شهد لنفسه بذلك فقال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

(٢) طريق الفعل: وذلك أن الله شهد على وحدانيته بمخلوقاته التي جعلها آيات دالة على ذلك قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

قال ابن كيسان: «شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمات عند خلقه أنه لا إله إلا هو»<sup>(١)</sup>.

(١) «زاد المسير» (١/ ٣١١).



وقال شيخ الإسلام: «الدليل بين المدلول عليه ويظهره، فهو بمنزلة المخبر به الشاهد به كما قيل: سل الأرض من فجر أنهارها، وغرس أشجارها، وأخرج ثمارها، وأحيا نباتها، وأغطش ليلها، وأوضح نهارها، فإن لم تجبك حوارًا أجابتك اعتبارًا»<sup>(١)</sup>.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾: ومعنى شهادة الملائكة وأولو العلم الإقرار<sup>(٢)</sup>، وقيل الإظهار والإعلام والبيان وجميعها حق فهي متضمنة لها معًا فهم أقرروا وأظهروا وأعلموا وبينوا دين الله تعالى<sup>(٣)</sup>.

فشهدوا لله بالتوحيد وأنه لا معبود بحق إلا هو سبحانه. واستشهاد الرب جل وعلا أهل العلم على أجل مشهود به، وهو توحيده يدل على فضلهم ورفعتهم:

﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾: أي قائمًا بالعدل كما في قوله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥]. والقيام بالقسط يتناول أمرين:

(١) القول: فقوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ بعد ذكر الشهادة: معناه أي متكلمًا بالعدل مخبرًا به أمرًا به. وذلك أن العدل هو أفراد المستحق للعبادة بها والمستحق للعبادة هو الله سبحانه فأخبرنا بها. بل وأمرنا بها.

(٢) الفعل: ففي قوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ تنبيه على عدل الله في أفعاله ومجازاته حيث يجازي المخلصين بجنت النعيم ويعاقب المشركين بالنار. فالله جل وعلا يشهد وهو قائل بالقسط عامل به لا بالظلم.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤ / ١٧٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٤ / ١٦٨).

(٣) انظر: «صفوة الآثار والمفاهيم» (٤ / ٧١).

وقوله ﴿قَائِمًا﴾ منصوب على الحال وفيه وجهان:

- (١) أنه حال من فاعل ﴿شَهِدَ﴾ أي شهد الله حال قيامه بالقسط أنه لا إله إلا هو.
- (٢) حال من ﴿هُوَ﴾ أي لا إله إلا هو قائمًا بالقسط ومعنى ذلك أنه وحده هو الإله المستحق للعبادة مع كونه قائمًا بالقسط ورجح شيخ الإسلام الثاني لتضمنه شهادة الملائكة وأولي العلم بالأميرين معًا فقال: «وهذا الوجه أرجح فإنه يتضمن أن الملائكة وأولي العلم يشهدون له بأنه لا إله إلا هو، وأنه قائم بالقسط»<sup>(١)</sup>.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: أعادها الله مرة أخرى مجردة لتكون شهادة للتالي نفسه.

قال جعفر بن محمد: «الأوّلَى وصف وتوحيد، والثانية رسم وتعليم، أي قولوا لا إله إلا الله. ومعنى هذا أن الأولى هو ذكر أن الله شهد بها فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ والتالي للقرآن إنما يذكر أن الله شهد بها هو والملائكة وأولوا العلم، وليس في ذلك شهادة من التالي نفسه بها، فأعاد الله ذكرها مجردة ليقولها التالي، فيكون التالي قد شهد بها أنه لا إله إلا هو»<sup>(٢)</sup>.

﴿الْعَزِيزُ﴾ العِزُّ في الأصل: القوة والشدة والغلبة والرفعة والامتناع<sup>(٣)</sup> ويأتي العزيز في أوصاف الله على عدة معان:

- ١ - القويُّ الشديد من عزَّ يَعِزُّ بفتح العين إذا اشتد وصلب.
- ٢ - الممتنع فلا يغلبه شيء من عزَّ يعزُّ بكسر العين إذا امتنع.
- ٣ - الغالب على كل شيء من عزَّ يعزُّ بضم العين إذا غلب.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٧٧) وانظر: «مدارج السالكين» (٤٥٧-٤٥٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٧٩ - ١٨٠)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٤٥٩).

(٣) «لسان العرب» (٥/ ٣٧٤-٣٧٩).

٤ - عزيز القدر فليس كمثله شيء<sup>(١)</sup>.

فيكون معنى العزيز: هو الذي له العزة كلها عزة القوة، وعزة الامتناع، وعزة الغلبة وعزة القدر. فقهر جميع المخلوقات وامتنع أن يناله أحد منها ودانت له وخضعت لعظمته وارتفع قدره وعظم شأنه فلا يماثله أحد.

﴿الْحَكِيمُ﴾: بمعنى الحاكم وهو القاضي، فهو فعيل بمعنى فاعل، فهو الحاكم بين عباده أو ذو الحكمة أو العالم. والحكم: هو العلم والفقه ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا﴾ [مريم: ١٢] أي علمًا وفقهاً. والقضاء بالعدل<sup>(٢)</sup>.

والمحكم للأشياء المتقين لها كما قال تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ لِدَيْهِ أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

قال ابن جرير: «الحكيم الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل»<sup>(٣)</sup>.

وقال شيخ الإسلام: «والحكيم يتضمن حكمه وعلمه وحكمته فيما يقوله ويفعله فإذا أمر بأمر كان حسنًا، وإذا أخبر بخبر كان صدقًا، وإذا أراد خلق شيء كان صوابًا، فهو حكيم في إرادته وأفعاله وأقواله»<sup>(٤)</sup>.

وقرن الله سبحانه بين اسميه العزيز والحكيم في ست وأربعين آية من كتابه وذلك لحكم عظيمة منها:

(١) أن اقترانهما يدل على كمال القدرة والعلم وذلك «أن العزة: كمال القدرة، والحكمة: كمال العلم، وبهاتين الصفتين يقضي سبحانه ما يشاء، ويأمر وينهى، ويشيب

(١) «تهذيب اللغة» (١/ ٨٢-٨٥).

(٢) «تفسير الأسماء الحسنى» للزجاج (٥٢)، و«لسان العرب» (١٣/ ١٤٠-١٤٥).

(٣) «جامع البيان» (١/ ٣٤٦).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٨٠).

ويعاقب فهاتان الصفتان: مصدر الخلق والأمر»<sup>(١)</sup>.

(٢) أن اقترانهما يدل على كمال الملك والحمد كما في هذه الآية، فاسمه العزيز يتضمن الملك واسمه الحكيم يتضمن الحمد.

ومن المعلوم أن كمالهما لا يكون إلا لله وحده فتضمن هذان الاسمان «عزته المنافية للذل وحكمته المنافية للسفه والجهل والعيب»<sup>(٢)</sup>.

(٣) أن عزته وقوته وامتناعه محكومة بحكمته وعدله<sup>(٣)</sup>.

فتضمنت هذه الآية: وحدانيته المنافية للشرك، وعدله المنافي للظلم وعزته المنافية للعجز والذل وحكمته المنافية للسفه.

ففيها إثبات التوحيد، والعدل، والحكمة، والقدرة ولهذا كانت أعظم شهادة.

(١) «الجواب الكافي» (١٨٠).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤ / ١٨١)، وإن أردت الاستزادة فارجع إلى «مجموع الفتاوى» (١٤ / ١٦٨ - ٢٠١).

(٣) «أسماء الله الحسنى» لعمر الأشقر (٧٢).

## ومعناها: لا معبود بحق إلا الله.

لا: حرف نافية للجنس تعمل عمل إن ويكون اسمها نكرة.  
إله: فعال بمعنى مفعول أي مألوه بمعنى معبود، والمعبود: هو الذي يخضع له ويدل له مع كمال محبته.

فيكون لا إله: أي لا معبود. ففي هذا نفي لجميع ما يعبد من دون الله. وخبر (لا) محذوف لأن العرب جرى في لغتها أن خبر لا النافية للجنس يحذف إذا كان واضحاً.  
قال ابن مالك في آخر باب «لا» النافية للجنس:

وشاع في ذا الباب إسقاط الخبر إذا المراد مع سقوطه ظهر<sup>(١)</sup>  
وتقديره: «حق» وهو الصواب من وجهين:

الأول: أنه هو الذي ورد به الدليل قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

الثاني: أن الآلهة المعبودة كثيرة ولم يناع المشركون في وجودها وإنما نازعوا في كون العبادة خاصة لله دونها ﴿أَجْعَلُ لِلَّهِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وقوله بحق: أي لا يستحق العبودية إلا هو سبحانه. فعبوديته وحده حق واجب ثابت له سبحانه لا يشركه فيه غيره.

إلا: أداة استثناء.

الله: فاستثنى من المعبودين إلهاً واحداً هو الله عز وجل؛ لأنه هو المستحق للعبادة وحده.

(١) «ألفية ابن مالك» (٢٣).

قال الطبري عند تفسير لا إله إلا الله: «فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهية، ويجوز لك وللخلق عبادته إلا الله الذي هو خالق الخلق ومالك كل شيء»<sup>(١)</sup>.  
والله: أصله إله ولا يكون إلهًا حتى يكون معبودًا وحتى يكون لعبده خالقًا ورازقًا ومدبرًا وعليه مقتدرًا، فمن لم يكن كذلك فليس بإله وإن عبده ظلمًا، بل هو مخلوق ومُتَعَبَّدٌ<sup>(٢)</sup>.

قال البقاعي: «لا إله إلا الله» أي انتفى انتفاءً عظيمًا أن يكون معبودًا بحق غير الملك الأعظم<sup>(٣)</sup>.

وبهذا يتضح أن معناها لا معبود بحق إلا الله.

خاصيتا كلمة التوحيد:

(١) أن جميع حروفها جوفية، ليس فيها من الحروف الشفهية، للإشارة إلى الإتيان بها من خالص جوفه وهو القلب لا من الشفتين.

(٢) أنه ليس فيها حرفٌ مُعْجَمٌ بل جميعها متجردة عن النقط، إشارة إلى التجرد عن كل معبود سوى الله تعالى<sup>(٤)</sup>.

(١) «جامع البيان» (٥٣/٢٦).

(٢) «تهذيب اللغة» (٦/٤٢٣-٤٢٤).

(٣) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (١٦٤/٧).

(٤) «معنى لا إله إلا الله» للزركشي (٨٩-٩٠) ذكرت هاتين الخاصيتين لما فيها من التأكيد على الإخلاص.

لَا إِلَهَ : نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ . إِلَّا اللَّهُ : مُثَبِّتًا الْعِبَادَةَ لِلَّهِ . وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكَ فِي مُلْكِهِ .

رَكْنَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هُمَا :

(١) النفي : حيث بدأ به فقال : « لا إله » وللبداء بالنفي سر عجيب وذلك « لأن النفي تفرغ القلب . فإذا كان خاليًا كان أقرب إلى ارتسام التوحيد فيه ، وإشراق نور الله تعالى »<sup>(١)</sup> .

والمنفي « إله » ورد نكرة مفردًا ، وفائدة كونه نكرة أن النكرة المنفية تفيد العموم<sup>(٢)</sup> فتنفي كل آلهة .

وأما كونه مفردًا فلأن نفي المفرد يدل على استغراق نفي الجنس فكان أبلغ من نفي الجمع<sup>(٣)</sup> . ففي قوله « لا إله » نَفْيٌ لَجَمِيعِ الْآلِهَةِ الْمَعْبُودَةِ . ولذا ورد النفي بـ ( لا ) « لأنها أبلغ وأدل على دوام النفي »<sup>(٤)</sup> .

(٢) الإثبات : وهو إثبات الألوهية لله وحده . حيث استثناه من جميع المعبودات فقال « إلا الله » .

والقاعدة في ذلك : « أن الاستثناء من النفي إثباتٌ ومن الإثبات نفيٌ »<sup>(٥)</sup> .

(١) « معاني لا إله إلا الله » للزركشي (١٩) .

(٢) المرجع السابق (٩٦ و ١٠٩) .

(٣) المرجع السابق (٩٨ - ١٠٠) .

(٤) « بدائع الفوائد » (١ / ١٣٧) .

(٥) « معاني لا إله إلا الله » (١١١) .

ويتضح سر الجمع بين النفي والإثبات من وجهين:

- (١) أن الجمع بين النفي والإثبات أبلغ صيغ الحصر<sup>(١)</sup> أي حصر الإلهية لله تعالى وحده.
- (٢) أن النفي المحض عدم محض، والعدم ليس بشيء فلا يثبت به توحيد. أما الإثبات المجرد فإنه لا يمنع المشاركة فلا يثبت به لوحده توحيد فوجب الجمع بينهما حتى يتم حصر الألوهية لله تعالى وقصرها عليه وحده فلا يشاركه في العبادة أحد.

ولأجل ذلك صارت طريقة القرآن الجمع بينهما:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْتُمْ﴾ [يوسف: ٤٠].

قال ابن القيم في تفسيره لسورة الكافرون: «طريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات فينفي عبادة ما سوى الله ويثبت عبادته، وهذا هو حقيقة التوحيد والنفي المحض ليس بتوحيد، وكذلك الإثبات بدون النفي. فلا يكون التوحيد إلا متضمناً للنفي والإثبات وهذا حقيقة لا إله إلا الله»<sup>(٢)</sup>.

وأكد المؤلف وجوب إفراد العبادة لله بقوله: (وحده) ثم زاد ذلك بياناً ووضوحاً فقال: (لا شريك له في عبادته). قال شيخ الإسلام: «تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله: أن ينفي عن قلبه ألوهية ما سوى الحق ويثبت في قلبه ألوهية الحق فيكون نافياً لألوهية كل شيء من المخلوقات مثبتاً لألوهية رب العالمين رب الأرض والسموات وذلك يتضمن اجتماع القلب على الله وعلى مفارقة ما سواه»<sup>(٣)</sup>.

(١) المرجع السابق (٩١).

(٢) «بدائع الفوائد» (١/ ١٣٤).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٢٥).



وقوله: (كما أنه ليس له شريك في ملكه): استدلال بالربوبية على الألوهية أي كما أنه المتفرد بالملك فليس له شريك ولا معين ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢] فيجب أن يفرد بالعبادة وحده<sup>(١)</sup>.

والقاعدة تقول: «من انفرد بالملك والخلق والتدبير وجب إفراده بالألوهية والعبادة».

وَمَنْ بَخَلَّهْ وَمَلَكْهْ تَفْرِدَا      فاعبده وحده كذلك السعدا  
شروط لا إله إلا الله:

الشرط: هو ما توقف الشيء على وجوده، فإذا عدم الشرط عدم المشروط.  
فلا بد للانتفاع بكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» من تحقيق شروطها، ومما يدل على أن لها شروطاً: قول النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»<sup>(٢)</sup>.

وهذا الحديث دليل على أن لها شروطاً من وجهين:

١ - قوله: «فإذا فعلوا» فأتى بـ«إذا» التي هي أحد أدوات الشرط، فدل ذلك على أن لهذه الكلمة العظيمة شروطاً.

٢ - قوله: «إلا بحقها» فمن لم يقم بحقها لا تنفعه هذه الكلمة، كما فهم ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأقره عليه الصحابة رضي الله عنهم.

قال ابن بطال عند هذا الحديث: (فمن أقر بما عليه قوتل فقد حرم دمه وماله إلا بظهور نقض شرائط ما أقر به بعد الإقرار بجملته، وذلك هو الحق الذي قال ﷺ: «إلا

(١) انظر: «شرح الأصبهانية» (١١٤).

(٢) البخاري.

بحقها»<sup>(١)</sup>.

ولذلك أكد عليها العلماء:

ومن ذلك ما قال الحسن البصري رحمه الله للفرزدق وهو يدفن امرأته: «ما أعددت لهذا اليوم؟ قال شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة. قال الحسن: نعم العُدَّة، لكن لـ (لا إله إلا الله) شروطاً فإياك وقذف المحصنة»<sup>(٢)</sup>.

وكما في جواب وهب بن منبه عندما سئل عن مفتاح الجنة كما في البخاري «قيل لو هب بن منبه أليس مفتاح الجنة: لا إله إلا الله؟ قال: بلى ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك»<sup>(٣)</sup> والأسنان هي الشروط. وإليها أشار البرهاري بقوله: «شهادة أن لا إله إلا الله لا تقبل من صاحبها إلا بصدق النية، وخالص اليقين»<sup>(٤)</sup>. وصرح بذلك ابن عبد الهادي، فقال: «فإن من شروط كلمة الإخلاص باللسان: التصديق بذلك وتحقيقه بالقلب وإلا فهو منافق»<sup>(٥)</sup>.

وقال حافظ حكيمي:

وبشروط سبعة قد قيدت	وفي نصوص الوحي حقاً وردت
فإنه لم ينتفع قائلها	بالنطق إلا حين يستكملها <sup>(٦)</sup>

(١) شرح صحيح البخاري (٢/ ٥٣).

(٢) «الإخلاص» لابن رجب (١٤)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٨٤).

(٣) البخاري مع الفتح (٣/ ١٠٩)، كتاب «الجنائز»/ باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله.

(٤) «شرح السنة» (٤٧).

(٥) «مسألة في التوحيد» ٧٧-٧٨.

(٦) «معارج القبول» (١/ ٣٠٧).

وجمعها بعضهم بقوله:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع محبة وانقياد والقبول لها

الأول: العلم المنافي للجهل.

العلم في اللغة نقيض الجهل<sup>(١)</sup>.

واصطلاحاً: معرفة معناها وما دلت عليه من نفي الإلهية عما سوى الله، وإثباتها لله وحده، والبراءة من الشرك وأهله<sup>(٢)</sup>.

قال المعلمي: «وقد دل الكتاب والسنة والإجماع والمعقول على أنه لا يكفي النطق بها بدون معرفة معناها»<sup>(٣)</sup>.

وأدلة هذا الشرط كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

والشهادة بالحق هي قول لا إله إلا الله<sup>(٤)</sup>.

و«الاستثناء منقطع أي: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم»<sup>(٥)</sup> بحقيقة توحيد الله ف«يعلمون بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم»<sup>(٦)</sup>.

وقال الألوسي: «إلا من شهد بالحق الذي هو التوحيد، وهم يعلمون؛ أي: يعلمونه الجملة في موضع حال، وقيد بها لأن الشهادة عن غير علم بالمشهود به لا يُعَوَّلُ عليها»<sup>(٧)</sup>.

(١) «لسان العرب» (١٣/٤٥٧).

(٢) انظر: «العبادة» للمعلمي (١٥٨-١٥٩).

(٣) «العبادة» (١٤٤).

(٤) «جامع البيان» (٢١/٦٥٤)، و«معالم التنزيل» (٤/١٤٧).

(٥) «تفسير ابن كثير» (٤/١٧٣).

(٦) «معالم التنزيل» (٤/١٤٧).

(٧) «روح المعاني» (٢٥/١٤٨).

وقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

أي: «واعلم يا رسولنا أنه لا معبود تنبغي له العبادة منك ومن الخلق إلا الله تعالى الذي خلق الخلق»<sup>(١)</sup>.

وقال السعدي عند هذه الآية: «العلم لا بُدَّ فيه من إقرار القلب ومعرفته بمعنى ما طلب منه علمه، وتامه أن يعمل بمقتضاه، وهذا العلم الذي أمر الله به - وهو العلم بتوحيد الله - فرض عين على كل إنسان لا يسقط عن أحدٍ كائنًا من كان. بل كل مضطر إلى ذلك»<sup>(٢)</sup>.

وبالعلم قيدها رسول الله ﷺ فقال: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»<sup>(٣)</sup>.

قال الشيخ سليمان بن سحمان:

فأولها العلم المنافي لخصمه      من الجهل إن الجهل ليس بمُسْعِد  
فلو كان ذا علم كثير وجاهلا      بمدلولها يوماً فبالجهل مُرْتَدٌ<sup>(٤)</sup>

الثاني: اليقين المنافي للشك.

اليقين في اللغة: إزاحة الشك وتحقيق الأمر<sup>(٥)</sup>.

(١) «جامع البيان» (٥٣/٢٦).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٧٨٧) ولقد أطل في بيان الطرق الموصلة إلى العلم بأنه لا إله إلا هو فراجعها إن شئت.

(٣) مسلم (٥٥/١)، كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً. رقم (٢٦).

(٤) «عقد الجواهر» (١٧٧/٣).

(٥) «تهذيب اللغة» (٩/٢٤٥).

وقال الجوهري: اليقين هو العلم وزوال الشك<sup>(١)</sup>.

واصطلاحاً: اعتقاد ما دلت عليه كلمة التوحيد اعتقاداً جازماً ينافي الشك<sup>(٢)</sup>، فهو «العلم الراسخ في القلب الثابت فيه»<sup>(٣)</sup>، و«لا يوصف باليقين إلا من اطمأن قلبه علماً وعملاً»<sup>(٤)</sup>، ولذا قال الشيخ حافظ حكمي: «اليقين المنافي للشك بأن يكون قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة يقيناً جازماً، فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين، لا علم الظن، فكيف إذا دخله الشك»<sup>(٥)</sup>. ومما يدل على اشتراطه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

إنما هنا للحصر حصر المؤمنين على الحقيقة وهم الذين استيقنت قلوبهم بالإيمان، ثم لم يشكوا في وحدانية الله وحققوا ذلك بالجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس واستمروا على ذلك إلى الممات.

ولذا أتى بـ (ثُمَّ) للإشعار بأن اشتراط عدم الارتياب ليس في حال إنشاء الإيمان فقط بل فيه وفيما يستقبل فهي كما في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠]<sup>(٦)</sup>.

قال السعدي: «وشرط الله تعالى في الإيمان عدم الريب وهو الشك، لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني بما أمر الله بالإيمان به، الذي لا يعتريه شك بوجه من الوجوه»<sup>(٧)</sup>.

(١) «الصحاح» (٦٩/٧).

(٢) «الدرر السنية» (١٢٢/٢).

(٣) «المفهم» (٢٠٦/١).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٢٨١/٧).

(٥) «معارج القبول» (٣٠٨/١).

(٦) «التحرير والتنوير» (٤١١١/٤).

(٧) «تيسير الكريم الرحمن» (٨٠٢).

ومما يدل على اشتراط اليقين قوله ﷺ لأبي هريرة رحمته الله في حديث طويل وفيه: «فمن لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة»<sup>(١)</sup>.

وكذلك قوله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة وفيه: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله لا يلقي الله بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيحجب الجنة»، وفي رواية: «إلا دخل الجنة»<sup>(٢)</sup>.

«فاشترط ﷺ في دخول قائلها الجنة أن يكون مستيقناً بها قلبه غير شاكٍّ فيها، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط»<sup>(٣)</sup>.

فالشك والإيمان نقيضان لا يجتمعان في قلب عبد أبداً، فمن شك فقد كفر، كما هي حال المنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٥]، وكذلك الكفار الصرحاء الذين قالوا لرسولهم: ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾<sup>(٤)</sup> قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ٩-١٠]، ولما قال: ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ [الكهف: ٣٦]، ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴾ [الكهف: ٣٧]، كفر لأنه شك في قيام الساعة، فكيف بمن شك في التوحيد كله.

(١) مسلم (١/ ٥٩-٦٠)، كتاب «الإيمان» / باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً. رقم (٣١).

(٢) مسلم (١/ ٥٦-٥٧)، كتاب «الإيمان» / باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً. رقم (٢٧).

(٣) «معارج القبول» (١/ ٣٠٩).

قال الشيخ سليمان بن سحمان:

ومن شك فليكي على رفض دينه      ويعلم أن الشك ينفي يقينها  
 ويعلم أن الشك ينفي يقينها      بها قلبه مستيقناً جاء ذكره  
 ولا تنفع المرء الشهادة فاعلمن      إذا لم يكن مستيقناً ذا تجرد<sup>(١)</sup>

الثالث: الإخلاص المنافي للشرك:

الإخلاص لغة: «الخاء واللام والصاد أصل مطرد، وهو تنقية الشيء وتهذيبه»<sup>(٢)</sup>.

والإخلاص اصطلاحاً: هو إفراد الله بالقصد في الطاعة<sup>(٣)</sup>.

فالإخلاص مناف للشرك ولذا قال شيخ الإسلام: وتحقيق الإخلاص بخلو القلب مما سوى الله وسكونه إلى الله تعالى<sup>(٤)</sup>.

ومن أدلته قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

قال شيخ الإسلام: «إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه وهو الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه... وهذا هو حقيقة لا إله إلا الله»<sup>(٥)</sup>.

(١) «عقود الجواهر» (٣/ ١٧٧).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٢٠٨).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٩١) وقريب منه تعريف ابن القيم حيث يقول الإخلاص: تجريد القصد طاعة

للمعبود «إعلام الموقعين» (٢/ ١٨٢).

(٤) «الاستقامة» (١/ ١٩٥).

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٩-٥١).

ومن السنة حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه»<sup>(١)</sup>.

ف«قلبه متعلق بخالصاً فيكون تقديره ناشئاً من قلبه»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن حجر: «أكد الإخلاص بقوله «من قلبه» لأن الإخلاص محله القلب.

فإسناده إلى محله أبلغ في التأكيد كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٣]»<sup>(٣)</sup>.

«فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى»<sup>(٤)</sup>. وأوجب له إخلاص العبادة كلها لله تعالى، ونُجِّيَ من عذاب جهنم، ولهذا قال ﷺ: «فإن الله حَرَّمَ على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله»<sup>(٥)</sup>.

وفي رواية: «لن يوافي عبد يوم القيامة يقول لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله، إلا حرم الله عليه النار»<sup>(٦)</sup>.

وَمَنْ حَرَّمَ الإخلاص وقع في الشرك. والمشرك لا قيمة له ولا لعمله عند الله تعالى. قال تعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»<sup>(٧)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (١/ ١٩٣)، كتاب «العلم» / باب الحرص على الحديث. رقم (٩٩).

(٢) «عمدة القاري» (٢/ ١٢٧).

(٣) «فتح الباري» (١/ ١٩٤) و(١١/ ٤٤٣).

(٤) «فتح المجيد» (١/ ١٣٨).

(٥) مسلم (١/ ٤٥٦)، كتاب «المساجد» / باب الرخصة في التخلف عن الجماعة لعذر. رقم (٣٣).

(٦) البخاري مع الفتح (١١/ ٢٤١)، كتاب «الرقاق» / باب العمل الذي يبتغي به وجه الله. رقم (٦٤٢٣).

(٧) سبق تخرجه.



قال الشيخ سليمان بن سحمان:

وثالثها الإخلاص فاعلم وضده هو الشرك بالمعبود في كل مقصد  
وإخلاص أنواع العبادة كلها كذا النفي للشرك المفند والنَّد<sup>(١)</sup>

الرابع: الصدق المنافي للكذب:

والصدق لغة: الصاد والదال والقاف أصل يدل على قوة في الشيء قولاً أو غيره،  
ومن ذلك: الصدق الذي هو ضد الكذب، سمي بذلك لقوته في نفسه<sup>(٢)</sup>.

وفي الاصطلاح: هو مطابقة الخبر للواقع، وذلك بأن يواطيء القلب اللسان فيتطابق  
الظاهر والباطن عند الإقرار بكلمة التوحيد «لا إله إلا الله».

قال ابن عبد الهادي: «فإن من شروط كلمة الإخلاص باللسان: التصديق بذلك  
وتحقيقه بالقلب، وإلا فهو منافق»<sup>(٣)</sup>.

وذلك لأن «الإيمان الحقيقي: ما تواطأ عليه القلب واللسان»<sup>(٤)</sup>.

ومن أدلة ذلك: قول الله تعالى: ﴿لَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا أَمْنًا وَهُمْ لَا

يُفْتَنُونَ ۚ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

«أي وليظهرنَّ الله صدق الصادق منهم في قيله آمنّا من كذب الكاذب»<sup>(٥)</sup>.

ومن السنة: حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يشهد

(١) «عقود الجواهر» (٣/ ١٧٦).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٣٣٩).

(٣) «مسألة في التوحيد» (٧٧-٧٨)، وانظر: «الدرر السنية» (٢/ ٣٥٩)، و«قرة عيون الموحدين» (١٥).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٤٢)، وانظر: «معارج القبول» (١/ ٣١٠).

(٥) «جامع البيان» (٨/ ١٩) انظر: «معالم التنزيل» (٦/ ٢٣٢).

أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَدَقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ»<sup>(١)</sup>.  
وفي رواية لأحمد: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَادَقًا مِنْ قَلْبِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»<sup>(٢)</sup>.

«فاشترط ﷺ في إنجاء من قال هذه الكلمة من النار أَنْ يَقُولَهَا صَدَقًا مِنْ قَلْبِهِ، فَلَا يَنْفَعُهُ مَجْرَدُ التَّلَفُّظِ بِدُونِ مَوَاطَاةِ الْقَلْبِ»<sup>(٣)</sup>.

وذلك لِأَنَّ الصَّدَقَ فِي «هَذِهِ الْكَلِمَةِ مَطْهَرٌ لِلْقَلْبِ مِنْ كُلِّ مَا سِوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَمَنْ صَدَقَ فِي قَوْلِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَمْ يَحِبَّ سِوَاهُ، وَلَمْ يَرْجِ إِلَّا إِيَّاهُ، وَلَمْ يَخْشَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ، وَلَمْ يَتَوَكَّلْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ بَقِيَّةٌ مِنْ أَثَرِ نَفْسِهِ وَهُوَاهُ. وَمَتَى بَقِيَ فِي الْقَلْبِ أَثَرٌ لِسِوَى اللَّهِ فَمِنْ قِلَّةِ الصَّدَقِ فِي قَوْلِهَا»<sup>(٤)</sup>.

ولما كانت قلوب المنافقين مرضى وَلَمْ يَصْدُقُوا فِي شَهَادَتِهِمْ كَذَّبَهُمُ اللَّهُ وَفَضَحَهُمْ فَأَنْزَلَ فِيهِمْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: «والصدق والإخلاص متلازمان لا يوجد أحدهما بدون الآخر، فإن لم يكن مخلصاً فهو مشرك، ومن لم يكن صادقاً فهو منافق»<sup>(٥)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (١/ ٢٢٦)، كتاب «العلم» / باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا. رقم (١٢٨).

(٢) أحمد (٥/ ٢٢٩).

(٣) «معارج القبول» (١/ ٣١١).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٦٢٦).

(٥) «قرة عيون الموحدين» (١٤-١٥).

الخامس: القبول المنافي للرد: والقبول لغة: هو الرضا بها وميل النفس إليها<sup>(١)</sup>.  
واصطلاحاً: هو رضا القلب بهذه الكلمة والتزامه بما دلت عليه من إخلاص العبادة  
لله، وترك عبادة ما سواه<sup>(٢)</sup>.

ومعنى ذلك: أنَّ كلمة التوحيد لا تنفع صاحبها إذا نطق بها، ولو كان عالماً بمعناها،  
مخلصاً فيها، مصداقاً بها، حتى يقبلها ويلتزم العمل بها حتى يموت.  
قال المعلمي: «ومنها<sup>(٣)</sup>: أن يكون النطق بها على سبيل الالتزام؛ أي: التزام أن يعمل  
طول عمره بمضمون كلمة التوحيد، ولا يخالفها»<sup>(٤)</sup>.

ومن أدلة القبول قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا  
أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

قال المعلمي: وهذا متضمن الالتزام لتصريحه بأن إرسال الرسل إلى قومهم كان  
لدعوتهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة غيره، وإجابة الرسل معناها قبول ما أرسلوا به،  
ولما جعلت الشهادة إعلاناً بقبول ما أرسل به الرسل كانت متضمنة التزام الشاهد ألا يعبد  
إلا الله<sup>(٥)</sup>.

وقال أيضاً بعد كلام سبق: «فَعَلِمَ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ مِنْ شَرَطِ الْإِعْتِقَادِ بِكَلِمَةِ الشَّهَادَةِ أَنْ  
تَكُونَ عَلَى سَبِيلِ الْإِلْتِمَامِ»<sup>(٦)</sup>.

(١) «تاج العروس» (١/٧٤٣٣) و«اللسان» (١١/٥٤٠) و«المصباح المنير» (١٨٦).

(٢) «مجموع فتاوى ابن باز» (١/٢٣٢) جمع الطيار.

(٣) أي من شروط لا إله إلا الله.

(٤) «العبادة» (١٤٩).

(٥) المرجع السابق (١٥٠).

(٦) المرجع السابق (١٥٨).

قال الحلبي: «لو قال الوثني: لا إله إلا الله وكان يزعم أنَّ الصنم يقربه إلى الله لم يكن مؤمناً حتى يتبرأ من عبادة الصنم»<sup>(١)</sup>.

ويوضح ذلك: أن الكاهن الكتابي الذي أقر لرسول الله بأنه نبي، والحبرين اللذين سألاه عن ثلاث مسائل، وأبا طالب لم يدخلوا في الإسلام مع شهادتهم بأنه نبي؛ لأنهم لم يلتزموا بالإسلام والعمل بما دلت عليه الشهادة<sup>(٢)</sup>، فقبول كلمة التوحيد يقتضي أن يقبل الإسلام كله، أخباره وأحكامه، فيقبل أخباره بالتصديق، فمن كذب منها شيئاً ثابتاً فقد انتقض شرط القبول، وإذا انتقض القبول انتقضت شهادة أن لا إله إلا الله، ويقبل أحكامه فيلتزمها، فمن ظنَّ أنه يسعه الخروج عن شريعة النبي ﷺ، أو أنه غير مكلف بها، فقد انتقض شرط القبول، وبالتالي انتقضت شهادة أن لا إله إلا الله.

وقبول كلمة التوحيد وما تقتضيه هو سبب النجاة قال تعالى في شأن من قبلها: ﴿ثُمَّ نَبِّئِ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

أما رادُّها فعقوبته النار. قال الله في شأن من ردَّها: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾<sup>(٢٢)</sup> مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿[الصافات: ٢٢-٢٣] ثم بين الله تبارك وتعالى أن استكبارهم عن قول لا إله إلا الله وعدم قبولهم لها هو سبب تعذيبهم بالنار فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾<sup>(٢٥)</sup> وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ هَذَا الشَّاعِرِ مَجْنُونٍ ﴿[الصافات: ٣٥-٣٦] ثم أكد تعذيبهم مرة أخرى جزاء ردِّهم وعدم قبولهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾<sup>(٢٨)</sup> وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿[الصافات: ٣٨-٣٩].

(١) «فتح الباري» (١٣/ ٣٥٩).

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ٥٥٧).

ثم بين نجاة من قبل كلمة التوحيد فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿فَوَكَهَهُمْ مَلَكُومٌ﴾ (٤١) فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ [الصفات: ٤٠-٤٩]، وضرب النبي ﷺ المثل في بيان أهمية القبول وخطورة الرد فقال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تُمسك ماءً ولا تنبتُ كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم. ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»<sup>(١)</sup>.

قال ابن سحمان:

وثنائها وهو القبول وضده	هو الرد فافهم ذلك القيد ترشد
كحال قريش حين لم يقبلوا الهدى	وردُّوه لما أن عتوا في التمرّد
وقد علموا منها المراد وأنها	تدل على توحيده والتفرد
فقالوا كما قد قاله الله عنهم	بسورة (ص) فاعلمن ذاك تهتد <sup>(٢)</sup>

السادس: الانقياد المنافي للترك: وعرفه أهل اللغة بأنه الخضوع تقول قدته فانقاد واستقاد لي. إذا أعطاك مقاده<sup>(٣)</sup>. وهو: الاستجابة بسهولة «وقيل: المتابعة مع المطاوعة». واصطلاحاً: هو الخضوع لله والاستجابة لما دلت عليه كلمة التوحيد من أفراد الله بالعبادة والإتيان بحقوقها ولوازمها بالقلب والجوارح.

(١) البخاري مع الفتح (١/ ١٧٥)، كتاب «العلم» / باب فضل من علم وعلم. رقم (٧٩)، ومسلم

(٤/ ١٧٨٧)، كتاب «الفضائل» / باب بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم. رقم (٢٢٨٢).

(٢) «عقود الجواهر» (٣/ ١٧٧).

(٣) «لسان العرب» (٣/ ٣٧٠) و«الصحاح» (٢/ ١٠٠) مادة (قود).

قال ابن باز: «فإن قالها ولم يعبد الله وحده، ولم ينقد لشريعته، بل استكبر عن ذلك؛ فإنه لا يكون مسلماً كإبليس وأمثاله»<sup>(١)</sup>.

وهذا الشرط هو المحكّ العملي الحقيقي للإيمان فإنه لا يتحقق إلا بأداء حقوق لا إله إلا الله والعمل بما تقتضيه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢].

ومعنى قوله ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ﴾ أي: ينقاد بسهولة ويتذلل له بالعبودية ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي محسن فيها بأن يعبد الله وحده كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه. ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ والعروة الوثقى هي شهادة أن لا إله إلا الله<sup>(٢)</sup>.

ثم بين تعالى أن من لم ينقد ولم يسلم وجهه إلى الله وعاند أمر الله وشرعه فقد كفر، فقال بعدها مباشرة: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ...﴾ وأن ماله العذاب الشديد فقال: ﴿نُمْنِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣-٢٤].

قوله: ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: «شديد ثقيل لا ينقطع عنهم أصلاً ولا يجدون لهم منه مخلصاً»<sup>(٣)</sup>. وهذا هو الترك المنافي للانقياد، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧].

قال شيخ الإسلام: «فنفي الإيمان عمن تولى عن العمل، وإن كان قد أتى بالقول»<sup>(٤)</sup>. وذلك لأن «حقيقة الدين هو الطاعة والانقياد، وذلك إنما يتم بالفعل لا بالقول

(١) «مجموع فتاوى الشيخ ابن باز» (١/ ٢٣٢) جمع الطيار.

(٢) «جامع البيان» (٩٧/ ٢١)، «تيسير الكريم الرحمن» (٦٥٠) و«أضواء البيان» (١/ ٣٤٥).

(٣) «نظم الدرر» للبقاعي (٦/ ٣٥٧).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٤٢).

فقط، فمن لم يفعل لله شيئاً، فما دان لله ديناً، ومن لا دين له، فهو كافر»<sup>(١)</sup>.

قال ابن سحمان:

وخامسها فالانقياد وضده	هو الترك للمأمر أو فعل مفسد
فتنقاد حقاً بالحقوق جميعها	وتعمل بالمفروض حتماً وتقتد
وتترك ما حرم الله طائعاً	ومستسلماً لله بالقلب ترشداً
فمن لم يكن لله بالقلب مسلماً	ولم يك طوعاً بالجوارح يقتد
فليس على نهج الشريعة سالكاً	وإن خال رُشداً ما أتى من تعبد <sup>(٢)</sup>

السابع: المحبة المنافية للبغض: أي محبة هذه الكلمة العظيمة «لا إله إلا الله» ولما اقتضته ودلت عليه محبة خالصة لا يشوبها بشرى، ولا ينقضها ببغض شيء مما دلت عليه بل يجب عليه بغض ما يناقضها.

واشترط المحبة لكونها أصلاً كل عمل ديني فـ«ليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله والتقرب إليه بما يحبه ولا تمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه، وهذا حقيقة لا إله إلا الله»<sup>(٣)</sup>.

قال ابن القيم مبيناً شرطية المحبة: المحبة روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه.... فمن لا محبة له لا إسلام له البتة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله<sup>(٤)</sup>.

(١) «شرح العمدة» لابن تيمية، كتاب الصلاة (٢/ ٨٦).

(٢) «عقود الجواهر» (٣/ ١٧٧).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٢٨) وانظر: (١٠/ ٤٨-٤٩).

(٤) «مدارج السالكين» (٣/ ٧-٢٧)، وانظر: «طريق المهجرتين» (٥٧٧).

ومن أدلة المحبة قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ<sup>ط</sup> وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾: أي من أهل الأنداد لأندادهم لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئاً ومحبته عين شقاء العبد وفساده وتشتت أمره فلهذا توعدهم الله بقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾<sup>(١)</sup>.

ويجب على العبد في المحبة أمور:

(١) أن يحب الله محبة خالصة من كل قلبه فهو أعظم محبوب بل هو المحبوب لذاته. قال شيخ الإسلام: «فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه من سواهما»<sup>(٢)</sup>. وذلك لأن «القلب إنما خلق لأجل حب الله تعالى وهذه هي الفطرة التي فطر الله عليها عباده»<sup>(٣)</sup>.

(٢) أن يحب دين الله كله ويفرح به. قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

(٣) أن يحب رسول الله ﷺ أعظم من محبته لنفسه ووالده وولده والناس أجمعين لقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»<sup>(٤)</sup>.

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٨٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٠٦/١٠).

(٣) المرجع السابق (١٣٤/١٠).

(٤) البخاري مع الفتح (٥٨/١)، كتاب «الإيمان»/ باب وجوب حب الرسول ﷺ من الإيمان. رقم (١٥)، =



(٤) أن يحب أهل الإيمان العاملين بـ (لا إله إلا الله) الملتزمين بشروطها وأركانها لقول النبي ﷺ: «ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وأن يحبَّ المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار»<sup>(١)</sup>.

(٥) بُغْضُ كُلِّ ما يناقض هذه الكلمة العظيمة فيكره الكفر والكافرين كرهاً شديداً.

قال الشيخ ابن سحمان:

ورابعها شرط المحبة فلتكن	مُحِبًّا لما دلت عليه من الهد
ومن كان ذا حب لمولاه إنما	محبه للدين شرط فقيّد
وأحب رسول الله أكمل من دعا	إلى الله والتقوى وأكمل مرشد
أحب من الأولاد والنفس بل ومن	جميع الورى والمال من كل أتلد
وطارفه والوالدين كليهما	بآبائنا والأمهات فنفتد
وأحب لحب الله من كان مؤمناً	وأبغض لبغض الله أهل التمرّد
وما الدين إلا الحب والبغض والولا	كذاك البرا من كل غاؤ ومعتد <sup>(٢)</sup>

فضائل لا إله إلا الله:

هذه الكلمة العظيمة لا إله إلا الله هي كلمة التقوى التي ألزم الله بها عباده قولاً وعملاً واعتقاداً فقال: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

ومسلم (١/ ٦٧)، كتاب «الإيمان» / باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة. رقم (٤٤).

(١) سبق تخريجه.

(٢) «عقود الجواهر» (٣/ ١٧٦).

وكلمة التقوى هي لا إله إلا الله قال ابن جرير: ألزمهم لا إله إلا الله التي يتقون بها النار وأليم العذاب. ثم نقل مثل ذلك عن جمع من السلف منهم ابن عباس وعلي عليه السلام وكذلك عن عمرو بن ميمون ومجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة وعطاء وغيرهم<sup>(١)</sup>.  
فإلزام الناس بها يدل على علوها ورفعتها وعظم فضلها، ولذلك اعتنى العلماء بذكر فضائلها وألفوا فيها المصنفات<sup>(٢)</sup>.

ومن فضائلها:

- ١ - أنها أول ما يدخل به في الإسلام.
- ٢ - أنها توجب دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب.
- ٣ - أنها توجب عدم الخلود في النار.
- ٤ - أنه لأجلها خُلِقَ الخلق والجنة والنار وأرسلت الرسل وأنزلت الكتب وشرع الجهاد في سبيل الله.
- ٥ - أنها أثقل من السموات والأرض في الميزان.
- ٦ - أنها أعلى شعب الإيمان كلها.
- ٧ - أن قائلها أحق الناس بشفاعته النبي ﷺ.
- ٨ - أنها أفضل الكلام.
- ٩ - أن عدم قبولها يوجب الخلود في النار.
- ١٠ - أنها تطرد الشيطان وتقمعه.
- ١١ - أنها تمنع شيطان الإنس أيضًا.

(١) «جامع البيان» (١١/٣٦٣).

(٢) مثل «فضل لا إله إلا الله». تأليف يوسف بن حسن بن عبد الهادي.

- ١٢- أنها ترضي الرحمن.
- ١٣- أنها تزيل الهمَّ والغمَّ.
- ١٤- أنها تجلب الفرح والسرور.
- ١٥- أنها تقوي القلب.
- ١٦- أنه لا يقاتل على شيء من الكلام إلا عليها.
- ١٧- أن مَنْ قالها فقد عصم نفسه وماله.
- ١٨- أنها آخر كلام ينبغي أن يقوله العبد.
- ١٩- أنها توجب إجابة الدعاء.
- ٢٠- أنها توجب لصاحبها الدخول من أي أبواب الجنة الثانية شاء.
- ٢١- أنها أثقل الأعمال في الميزان.
- ٢٢- أنها أحب إلى الله مما طلعت عليه الشمس مع سبحان الله والحمد لله.
- ٢٣- أنها تُفْتَحُ لها أبواب السماء حتى تُفْضِيَ إلى العرش.
- ٢٤- أنها توجب المغفرة لقاءها.
- ٢٥- أن قولها مع ما ورد معها يعدل عتق الرقاب.
- ٢٦- أنها تمحو السيئات وتتساقط بها الذنوب.
- ٢٧- أنها الفرق بين دار الإسلام ودار الكفر، وبين المسلم والكافر.
- ٢٨- أنها تبرئ صاحبها من الشرك<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: «زاد المعاد» (١/ ٣٤) و«فضل لا إله إلا الله» لابن عبد الهادي و«الإخلاص» لابن رجب (٥٢-).

(٦٧)، و«الكلام المنتقى» لابن حجي (٦٨-٧٦).

وفي الجملة: ف «فضائل هذه الكلمة وحقائقها وموقعها من الدين فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون وهي حقيقة الأمر كله»<sup>(١)</sup>.

مقتضى لا إله إلا الله:

يظن بعض الناس أن النطق بلا إله إلا الله كاف في أن يكون العبد مسلماً وما درى أن النطق بها دون اعتقاد القلب وعمل الجوارح من سمات المنافقين. ومن هنا تعيّن بيان مقتضاها ويتضح ذلك بما يلي:

(١) معرفة معناها: ومعناها أنه لا معبود بحق إلا الله. وهو المعنى الذي كان النبي ﷺ يبينه لجميع الناس جهره من غير مواربة حتى فهم مقصده المشركون فضلاً عن المؤمنين فاعترض معترضهم قائلاً: ﴿أَجْعَلُ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَحِيدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥].

ولم يعترض أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية على النبي ﷺ عندما دعا أبا طالب إلى قول لا إله إلا الله إلا بقولهما: «أترغب عن ملة عبد المطلب»<sup>(٢)</sup>.

(٢) توجه القلب إلى الله وحده وتحقيقه بذلك، ونفي الشرك:

«إن تحقق القلب بمعنى لا إله إلا الله وصدقه فيها وإخلاصه بها يقتضي أن يرسخ فيه تأله الله وحده إجلالاً وهيبة وخافة ومحبة ورجاء وتعظيماً وتوكلاً ويمتلئ بذلك ويتنفى عنه تأله ما سواه من المخلوقين، ومتى كان كذلك لم يبق فيه محبة ولا إرادة ولا طلب لغير ما يريد الله ويحبه»<sup>(٣)</sup>.

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/٢٥٦).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/٥٠٦)، كتاب «التفسير»، باب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. رقم (٤٧٧٢)، ومسلم (١/٥٤)، كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت. رقم (٢٤).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/٦٢٥)، وانظر: «الإخلاص» لابن رجب (٢٣).

## (٣) عمل الجوارح بما دلت عليه:

العلم النظري الذي لا رصيد له في أرض الواقع هو في الحقيقة أمان لا حقيقة لها. وهذا النوع لا وجود له في دين الإسلام البتة؛ لأن الإسلام علم وعمل، ولهذا أجمع أهل السنة قاطبة على أن الإيمان قول وعمل لا ينفع قول بلا عمل ولا عمل بلا قول وهذا هو فهم الصحابة رضي الله عنهم فما إن يصدر أمر النبي ﷺ إلا ويسارعون فيه ويتسابقون إليه متقربين إلى الله بذلك العمل عالمين أن ذلك من مقتضيات تلك الكلمة العظيمة لا إله إلا الله فتركوا ديارهم واسترخصوا أنفسهم وأموالهم وأولادهم لأجل إعلاء لا إله إلا الله.

وهذه المقتضيات الثلاث متلازمة لا يصح أحدها بدون الآخر، قال الشيخ سليمان بن عبد الله: «من قال هذه الكلمة عارفاً لمعناها عاملاً بمقتضاها من نفي الشرك وإثبات الوحدانية لله مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته من ذلك والعمل به فهذا هو المسلم حقاً فإن عمل بها ظاهراً من غير اعتقاد فهو المنافق، وإن عمل بخلافها من الشرك فهو الكافر ولو قالها»<sup>(١)</sup>.

## نواقض شهادة أن لا إله إلا الله:

لما كانت لا إله إلا الله هي أس الدين وأعلاه ولا يثبت قدم الإسلام إلا بها كان لازماً على المسلم أن يعرف معناها وأركانها وشروطها ولوازمها ولا يقل عن ذلك أهمية معرفة ما ينقضها لئلا يقع فيما ينقضها وهو لا يشعر.

ونواقض (لا إله إلا الله) اعتقادية وقولية وعملية، لأنها تعود إلى القلب واللسان والجوارح. قال السعدي: «كل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع فصرفه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص وصرفه لغيره شرك وكفر»<sup>(٢)</sup>.

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٧٨)

(٢) «القول السديد» (٥٢).

وضابطها: «كل اعتقاد أو قول أو فعل أو شك أو ترك مما قام على اعتباره ناقضاً الدليل الواضح والبرهان الساطع من الكتاب والسنة والإجماع»<sup>(١)</sup>.

ولما كانت النواقض كثيرة يصعب حصرها رأيت أن أسير على هذا التقسيم وأذكر نماذج لكل نوع:

### أولاً: النواقض الاعتقادية:

وهو أن يعتقد الإنسان في قلبه شيئاً يناقض لا إله إلا الله ويبطل مدلولها ومن أمثلة ذلك:

(١) استحلال المحرمات (استحلال أمر معلوم من الدين بالضرورة) استحلال المحرمات ناقض من نواقض لا إله إلا الله ويدل لذلك قصة قدامة بن مظعون رضي الله عنه ومن معه حينما شربوا الخمر بعد تحريمها ظناً منهم حل الخمر لهم متأولين قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا...﴾ [المائدة: ٩٣]. «فاتفق عمر بن الخطاب هو وعلي بن أبي طالب، وسائر الصحابة على أنهم إن اعترفوا بالتحريم جلدوا، وإن أصروا على استحلالها قتلوا»<sup>(٢)</sup>.

قال القاضي عياض: «أجمع المسلمون على تكفير كل من استحل القتل أو شرب الخمر أو الزنا مما حرّم الله بعد علمه بتحريمه كأصحاب الإباحة من القرامطة وبعض غلاة المتصوفة»<sup>(٣)</sup> ونقل الإجماع على كفر مستحل المحرمات شيخ الإسلام، ثم بين العلة في كفره هي عدم إيمانه بالقرآن والرسول فقال: «فإنه ما آمن بالقرآن من استحلال محارمه، وكذلك لو استحلها من غير فعل، والاستحلال اعتقاد أن الله لم يحرمها وتارة بعدم اعتقاد

(١) «درء الفتنة عن أهل السنة» (٣٠) لبكر أبو زيد.

(٢) «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (٢/ ٤٤٧).

(٣) «الشفاء» (٢/ ١٠٧٣) وانظر: «المغني» (٨/ ١٣١).

أن الله حرمها وهذا يكون لخلل في الإيمان بالربوبية، و لخلل في الإيمان بالرسالة ويكون جحدًا محضًا غير مبني على مقدمة»<sup>(١)</sup>.

(٢) الشك: كالشك في الله وأسمائه وصفاته أو اليوم الآخر أو عذاب القبر ونعيمه أو غير ذلك من أمور الغيب.

فالشاك غير مؤمن بما تقتضيه هذه الكلمة قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥] وذلك أن النبي ﷺ اشترط لصحتها اليقين كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة وفيه: «اذْهَبْ بِنَعْلِي هَاتَيْنِ فَمَنْ لَقِيتَ وَرَاءَ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَقِينًا بِهَا قَلْبَهُ فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»<sup>(٢)</sup>. فاشترط في دخول قائلها الجنة أن يكون مستيقنًا بها قلبه غير شاك فيها، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط. ولما شك صاحب الجنة باليوم الآخر كفر: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۖ ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ۖ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٥-٣٧]، فوصفه بالكفر لشكّه في قيام الساعة.

### ٣- المسرة بانخفاض دين الرسول ﷺ وكراهية انتصاره:

الفرح بانخفاض شيء دليل على بغضه، والفرح بعلوه وانتصاره دليل على محبته، فمن كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما فرح بعز الدين وعلوه وانتصاره.

ومن كان عكس ذلك فرح بانخفاض دين الرسول محمد ﷺ وهزيمة أهله، ومن كان كذلك؛ فقد نقض لا إله إلا الله بإجماع العلماء. قال تعالى مبينًا ما في قلوب هذه الفئة الضالة من بغض دين الله وأهله ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ

(١) «الصارم المسلول» (٥٣١).

(٢) سبق تخرجه.

يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْهُمْ فَرِحُوا ﴿[التوبة: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوءُهُمْ وَإِنْ تَصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

فهؤلاء قد نقضوا لا إله إلا الله «فإن المساءة بالحسنة والفرح بالمصيبة من أعظم ما يدل على أنهم في العداوة قد بلغوا إلى الغاية»<sup>(١)</sup> «وهؤلاء كفار بلا شك»<sup>(٢)</sup>.

وقد يتساءل متسائل قائلًا هل يمكن أن يقع هذا ممن يزعم أنه مسلم فنقول له نعم وقع هذا من قوم ادعوا الإيمان بلا إله إلا الله ولكنهم نقضوها بمحبتهم نصره أعداء الله على المؤمنين كما في الآية السابقة.

وكما يفعله الروافض حين يتغلب الكفار على المسلمين قال شيخ الإسلام: «وإذا انتصر المسلمون على التتار أقاموا المآتم والحزن، وإذا انتصر التتار على المسلمين أقاموا الفرح والسرور»<sup>(٣)</sup>.

### ثانيًا: النواقض القولية:

وذلك بأن ينطق المسلم بقول ينقض لا إله إلا الله فيخرج بذلك من الإسلام إلى الكفر ومن ذلك:

(١) سب الله ورسوله والاستهزاء بالله ورسوله ﷺ:

سب الله والاستهزاء به تنقص له واستخفاف بقدره ولهذا صار ناقضًا من نواقض لا إله إلا الله. قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا نُنْزِلُ الْكِتَابَ عَلَيْكُمْ فَإِنْ عَلَّمُوا الْقُرْآنَ عَلَلَهُمْ كُفْرًا فَسَيَكُونُ الَّذِينَ فَتَوْا فِيهِمْ فَسَحَقًا يُسْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

(١) «فتح القدير» (٢/ ٣٦٩).

(٢) «المحلى» (١١/ ٢٠٦).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٣٦-٦٣٧).



فهذا دليل على أنَّ «من سبَّ الله تعالى كفر سواء كان مازحًا أو جادًا. وكذلك من استهزأ بالله تعالى أو بآياته أو برسله أو بكتبه»<sup>(١)</sup>.

بل نقل إسحاق بن راهويه إجماع العلماء فقال: «قد أجمع العلماء على أن من سبَّ الله ﷻ أو سب رسول الله ﷺ أو دفع شيئًا مما أنزله الله، أو قتل نبيًا من أنبياء الله وهو مع ذلك مُقِرٌّ بما أنزل الله أنه كافر»<sup>(٢)</sup>.

## ٢) إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة:

وضابط المعلوم من الدين بالضرورة: ما كان معلومًا عند الخاص والعام يعلمه جميع المسلمين لا يقع فيه شبهة ولا شك كالتوحيد والصلوات الخمس وما أشبه ذلك. فمن أنكر شيئًا من ذلك فقد نقض لا إله إلا الله.

قال الإمام ابن بطة: «لو أن رجلًا آمن بجميع ما جاءت به الرسل إلا شيئًا واحدًا كان برد ذلك الشيء كافرًا عند جميع العلماء»<sup>(٣)</sup>.

وقال شيخ الإسلام: «إن الإيمان بوجوب الواجبات الظاهرة المتواترة وتحريم المحرمات الظاهرة المتواترة هو من أعظم أصول الإيمان وقواعد الدين، والجاحد لها كافر بالاتفاق»<sup>(٤)</sup>.

ووجه كونه ناقضًا أنه جحدٌ وتكذيب لما اقتضته هذه الكلمة العظيمة لا إله إلا الله.

## ٣) إنكار اليوم الآخر وما فيه من البعث والجزاء والجنة والنار:

ومعنى الإيمان باليوم الآخر: هو الإقرار والتصديق الجازم بوقوعه والعمل لأجل ذلك.

(١) «المغني» (١٢/ ٢٩٨-٢٩٩).

(٢) «التمهيد» لابن عبد البر (٤/ ٢٢٦) وللاستزادة انظر: «الصارم المسلول» لشيخ الإسلام.

(٣) «الإبانة الصغرى» (٢١١).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٩٦).

قال السعدي: «الإيمان بالبعث والجزاء أصل صلاح القلوب، وأصل الرغبة في الخير والرغبة من الشر الذين هما أساس الخيرات»<sup>(١)</sup>.

ووجه كون إنكار البعث ناقضاً لـ (لا إله إلا الله) أنه كفر بحكمة الله وقدرته وآياته المنزلة على رسوله ﷺ.

ثالثاً: النواقض الفعلية:

النواقض الفعلية كثيرة منها:

(١) الشرك بالله تعالى:

لما كانت لا إله نافية لجميع المعبودات مثبتة العبادة لله وحده لا شريك له فهي عنوان التفريد والتوحيد. ولما كان جعل شريك مع الله في عبادته مناقضاً للتوحيد صار الشرك كالسجود للصنم أو دعاء صاحب القبر والنذر له ونحو ذلك أعظم نواقض لا إله إلا الله. ومن هنا صار ذنباً لا يغفر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ومحبطاً لكل عمل ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

ونتيجة الحرمان من الجنة والخلود في النار ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

(٢) الامتناع عن الانقياد لما تأمر به لا إله إلا الله وتنهى عنه:

الإيمان بالله يقتضي استسلام القلب لله ومن ثم عمل الجوارح بجميع ما أمر الله به فعلاً أو تركاً قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٣٦٠).

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

فالممتنع عن فعل ما يأمر الله به قد ناقض لا إله إلا الله «وهذا بعينه كفر إبليس فإنه سمع أمر الله فلم يكذب رسولاً، ولكن لم ينقد للأمر»<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك الامتناع فعل ما أمر الله به أو ترك ما نهى عنه. قال معقل بن عبد الله العبسي سألت نافعاً مولى ابن عمر عن قوم يقولون: «نحن نُقَرُّ بأن الصلاة فريضة ولا نصلي، وأن الخمر حرام ونحن نشربها، وأن نكاح الأمهات حرام ونحن نفعله، قال فنتر يده من يدي ثم قال من فعل هذا فهو كافر»<sup>(٢)</sup>.

### ٣) مظاهرة المشركين على المسلمين:

أجمع المسلمون على كفر من أعان المشركين على المسلمين قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

ووجه كونها ناقضاً لـ (لا إله إلا الله) أنها نصّر للشرك على التوحيد، ومن ثم إزالة التوحيد من القلوب والبقاع<sup>(٣)</sup>.

(١) «الصارم المسلول» (٥١٩).

(٢) «السنة» لعبد الله بن الإمام أحمد (٣٨٣ / ١).

(٣) انظر «نواقض الإسلام» النافض الثامن.

وَتَفْسِيرَهَا الَّذِي يَوْضَحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٨].

التفسير هو: التبيين والإيضاح، والضمير في قوله: «وتفسيرها» يعود على (لا إله إلا الله) أي معناها وحقيقتها: الولاء لله والبراءة من أعدائه وخير ما تفسر به الحقائق الشرعية كلام الله ورسوله ﷺ، ولذلك قال المؤلف: «وتفسيرها الذي يوضحها»، ثم ذكر الآية.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾: خبرٌ عن أبينا إبراهيم عليه السلام، يراد به الأمر أي اتبعوا إبراهيم عليه السلام، في البراءة من كل معبود سوى الله بل ومن كل مشرك كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

ونسبه إلى إبراهيم عليه السلام، لأنه أشرف آبائهم، وهذا من قلب الحجة على المبطل وذلك أنهم ردوا التوحيد ولم يقبلوه بحجة أنه سفّه آباءهم فرد الله عليهم بأنهم إن لم يقبلوا التوحيد، فقد سفّهوا أباهم الأول الذي هو أشرف الآباء وسفّهوا أنفسهم ورضوا لها بالدون فقال: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠].

﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾: ذكر الله التبري من الأب والقوم ولم يقل وإذ قال إبراهيم لمن دعاهم.

لأن معاداة القريب والتبري منه لأجل الله من أشق الأمور على النفس ولا يستطيعها إلا قوي الإيمان فمن كانت هذه حاله فبراءته من البعيد أولى وأحرى.

﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾: براء مصدر فلا يُجمع ولا يثنى ولا يؤنث وعبر به لأنه أبلغ من

التعبير بالفعل قال القاسمي: «أريد به معنى الوصف مبالغة»<sup>(١)</sup>.

ومعناه أنني متخل عن معبوداتكم غاية التخلي ومبغض لها غاية البغض، ومعاد لها غاية العداوة.

﴿تَعْبُدُونَ﴾: العبادة هي: ما جمعت غاية الذل مع غاية المحبة.

وعبادة الرحمن غاية حُبِّهِ مع ذل عابده هما قطبان

والمقصود ببراءته عليه الصلاة والسلام من جميع معبوداتهم التي يعبدونها من دون الله من الكواكب والأصنام وغيرها.

وقوله: ﴿بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾: نفى فهو بمعنى (لا إله).

﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾: فطرني بمعنى خلقتني وأوجدني من العدم، وذكر الفطر وهو الخلق؛ لأنه من أخص خصائص الإله، فلا يصح أن يعبد إلا من كان خالقاً.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. فاستثنى من المعبودين ربه جل وعلا الذي خلقه وأوجده من العدم فهي بمعنى (إلا الله).

قال شيخ الإسلام: «فهذه الكلمة هي كلمة الإخلاص لله وهي البراءة من كل معبود إلا من الخالق الذي فطرنا»<sup>(٢)</sup>.

والاستثناء متصل لأمرين:

(١) أن الأصل في الاستثناء هو الاتصال، فلا يقال: منقطع إلا بدليل.

(٢) أن الدليل دل على أنهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره، كما في قوله تعالى:

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام: ٨١]، فأثبت أنهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره.

(١) «محاسن التأويل» (١٤/ ٥٢٦٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥٢) وانظر: (١٠/ ٨٢ و ٢٨/ ٣٢).

فإنه: إن للتوكيد، والضمير يعود إلى الله عز وجل

وفي عود الضمير إلى الله فائدة هي: أنني لا حاجة لي في معبوداتكم.

﴿سَيِّدِينَ﴾: الهدى هو: البيان والتوفيق، أي: أنه سيبين لي الصواب ويرشدني ويدلني عليه ويوفقني لاتباع سبيل الرشد.

فالهداية قسمان:

(١) هداية الدلالة والإرشاد والبيان.

(٢) هداية التوفيق لفعل الطاعات<sup>(١)</sup>.

وهاتان الهدايتان كلتاهما حصلتا لإبراهيم عليه السلام، فإن الله دله وأرشده إلى الطريق الصحيح ووفقه له وثبته عليه.

وقد أنعم الله على أبينا إبراهيم عليه السلام بالهداية في أحواله الثلاث في الماضي والحاضر والمستقبل ولذلك قال إبراهيم عليه السلام شاكرًا فضل الله عليه بهدائه في الماضي كما ذكر الله ذلك عنه: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَكِّمُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ...﴾ [الأنعام: ٨٠]. وقد هنا للتحقيق لورود الفعل الماضي بعدها.

وأنه عليه السلام باق على هداية ربه له في حاله الحاضر فقال كما ذكر الله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨].

وفي هذه الآية صدرت الهداية بالسين التي تدل على ثبوت الهداية واستمرارها في المستقبل<sup>(٢)</sup> وفي هذا عظيم ثقة إبراهيم عليه السلام بربه وأنه لن يخذله.

(١) وهذه لا يملكها إلا الله وحده، فلا يجوز أن تطلب من غيره، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، والقاعدة تقول: «طلب الهداية القلبية من غير الله شرك».

(٢) انظر: «إعراب القرآن وبيانه» (٧/ ٨٠-٨١) محيي الدين الدرويش.

﴿وَجَعَلَهَا﴾: الضمير في جعلها يعود على كلمة التوحيد: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٧].

من هو الجاعل؟ فيه قولان:

الأول: أن الجاعل هو الله تعالى؛ لأن الله تعالى هو الذي يملك القلوب ويوفقها لاتباع سبيل المرسلين.

الثاني: أن الجاعل هو إبراهيم عليه السلام، وذلك لأن السياق يدل عليه ولأنه لم يتقدم اسم الجلالة ليعود عليه الضمير، والمعنى أي صير إبراهيم تلك الكلمة باقية في عقبه وذلك أنه تسبب في بقائها بأمرين:

(١) وصيته عليه السلام لأولاده بالتمسك بالتوحيد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ...﴾ إلى قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

(٢) دعاء إبراهيم عليه السلام ربه أن يصلح له ذريته كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وقد أجاب الله دعاءه فبقيت كلمة التوحيد في ذريته بل ستبقى إلى يوم القيامة قال

تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقال ﷺ مبيناً إجابة الله دعاء نبيه إبراهيم عليه السلام عندما سأله أبو أمامة: يا نبي الله ما

كان أول بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم...»<sup>(١)</sup>.

(١) أحمد (٢٦٢/٥)، قال الهيثمي: «ورواه أحمد وإسناده حسن، وله شواهد تقويه». «مجمع الزوائد»

ولا منافاة بين القولين، فإبراهيم عليه السلام دعا الله فقبل الله دعوته، فوفق ذريته وهدى قلوبهم للتوحيد.

﴿كَلِمَةٌ﴾: والكلمة هي لا إله إلا الله<sup>(١)</sup>.

والكلمة في اصطلاح الشرع تطلق على الجملة المفيدة ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤] وهذه الكلمة هي قول: لا إله إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (١١) ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

فالكلمة في هذه الآية هي قوله: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (١١) ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

وقوله ﷺ لعنه أبي طالب عند موته: «يا عم! قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»<sup>(٢)</sup>.

والكلمة في هذا الحديث هي قول: «لا إله إلا الله».

وقول النبي ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»<sup>(٣)</sup>.

ومن شواهد: ما رواه أحمد (١٢٧/٤) عن العرياض بن سارية، وحسن إسناده شيخ الإسلام في «الاستغاثة في الرد على البكري» (١/١٣٧)، والذهبي في «السيرة النبوية» (١٦).

ومنها: رواه ابن إسحاق في «السيرة» (٢٨) رقم (٣٣) عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ. قال ابن كثير بعد أن ذكره: «وهذا إسناد جيد قوي». «البداية والنهاية» (٣/٤١٣).

(١) قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد وعكرمة والضحاك وغيرهم. «تفسير القرآن العظيم» (١٢٣١).

(٢) البخاري مع الفتح (٧/١٩٣)، كتاب «مناقب الأنصار» / باب قصة أبي طالب. رقم (٣٨٨٤).

(٣) البخاري مع الفتح (٧/١٤٩)، كتاب «مناقب الأنصار» / باب أيام الجاهلية. رقم (٣٨٤١).



والكلمة في هذا الحديث هي: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

قال شيخ الإسلام: «الكلمة في لغة العرب هي الجملة المفيدة سواء كانت جملة اسمية أو فعلية وهي القول التام وكذلك الكلام التام عندهم هو الجملة التامة قال سيبويه: واعلم أنهم يحكون بالقول ما كان كلاماً ولا يحكون به ما كان قولاً»<sup>(١)</sup>.

﴿بَاقِيَةٌ فِي عَقِبِهِ﴾: أي دائمة مستمرة في ذريته إلى قيام الساعة فلا يزال في ذرية إبراهيم عليه السلام من يعبد الله وحده لا شريك له فلا تخلو الأرض من موحد إلى قيام الساعة قال قتادة: «لا يزال في ذريته من يعبد الله ويوحده»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن القيم: «أي جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض، وهي كلمة لا إله إلا الله وهي التي ورّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة»<sup>(٣)</sup>.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: أي جعل الكلمة باقية فيهم لعل المشركين الضالين منهم يرجعون من الشرك والكفر إلى التوحيد بسبب إرشاد المؤمنين المهتدين منهم؛ لأن الحق مادام قائماً في جملتهم فرجوع الزائغين عنه إليه مرجو مأمول<sup>(٤)</sup>.

وفي قوله: ﴿يَرْجِعُونَ﴾ «تشبيه حال الإشراف بموضع الغربة، لأن الشرك ليس من مقتضى الفطرة فالتلبس به خروج عن أصل الخلقة كخروج المسافر عن موطنه ويقتضي

(١) «الجواب الصحيح» (٣/ ٢٦٥)، وقد أطل بذكر الأمثلة هناك (٢٦٦-٢٧٠)، وانظر: «التحرير والتنوير» (١٣/ ١٩٨).

(٢) «معالم التنزيل» (٤/ ١٣٧).

(٣) «الجواب الكافي» (٢٣٣)، وفيه بقية كلام مفيد حول هذه الكلمة، فراجع إن شئت.

(٤) انظر: «أضواء البيان» (٧/ ٢٣٣).

أيضاً تشبيه حال التوحيد بِمَحَلِّ المرء وحيّه الذي يأوي إليه»<sup>(١)</sup>.

من فوائد هذه الآية:

(١) قوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴿ دليل على أنهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره وأن عبادتهم لله في هذه الحال لا تنفعهم.

(٢) أن علة إفراد الله بالعبادة هي انفراده بالخلق.

فكما أنه منفرد بالخلق فيجب أن يفرد بالعبادة، وقد أشار إليها المؤلف بقوله: «لا شريك له في عبادته كما أنه لا شريك له في ملكه».

(٣) أن من علامة بطلان عبادة غير الله أنها لا تخلق، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

(٤) تفسير لا إله إلا الله وهو «عبادة الله وحده والبراءة من الشرك وأهله».

(٥) أن التوحيد لا يحصل بعبادة الله وغيره بل لا بُدَّ من إفراد الله بالعبادة.

(٦) الجمع بين النفي «بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ»، والإثبات «إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي» دالٌّ على أن التوحيد لا يحصل إلا بالكفر بالطاغوت والإيمان بالله وحده قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

(٧) أن أكمل الناس تحقيقاً للولاء والبراء هم أكمل الناس عبادة لله، ولذلك أمرنا الله بالاعتداء بهما فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

قال شيخ الإسلام: «أمرنا الله أن نتأسى بإبراهيم والذين معه، إذ تبرؤوا من المشركين ومما يعبدون من دون الله، لأن حقيقة التوحيد ألا تحب إلا الله وتحب ما يحبه الله. فلا تحب إلا الله، ولا تبغض إلا الله. قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

والفرق ثابت بين الحب لله والحب مع الله، فأهل التوحيد والإخلاص يحبون غير الله لله والمشركون يحبون غير الله مع الله، كحب المشركين لألهتهم وحب النصراني للمسيح وحب أهل الأهواء رؤوسهم»<sup>(١)</sup>.

أما نبينا ﷺ فقد بلغ أعلى مراتب البراءة من الكفار هو وأصحابه رضي الله عنهم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ حَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وكان من مظاهر براءته ﷺ إهداؤه جملاً كان لأبي جهل عام الحديبية ليغيظ به المشركين.

بوب على ذلك ابن خزيمة في «صحيحه» فقال: «باب استحباب إهداء ما قد غنم من أموال أهل الشرك والأوثان أهل الحرب منه مغايظة لهم».

ثم ذكر قول ابن عباس رضي الله عنه: «أهدى رسول الله ﷺ عام الحديبية في هداياه جملاً لأبي جهل في رأسه برة من فضة ليغيظ المشركين بذلك»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن القيم في بعض فوائد قصة الحديبية: «ومنها استحباب مغايظة أعداء الله فإن النبي أهدى في جملة هديه جملاً لأبي جهل في أنفه برة من فضة يغيظ به المشركين.

وقد قال تعالى في صفة النبي ﷺ وأصحابه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

(١) «جامع الرسائل» المجموعة الثانية (٨٤-٨٥) تحقيق محمد رشاد سالم.

(٢) (٢٨٧/٤) رقم (٢٨٩٨)، وأحمد (٢٦١/١)، والحاكم في «المستدرک» (٦٣٩/١)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه».

وقال ﷺ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠] (١).

#### ٨- أن البراءة من الكفار سبب لكثير من النعم.

قال تعالى مبيناً بعض نعمه على إبراهيم عليه السلام لما تبرأ من أبيه وقومه: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٩-٥٠].

وهذه النعم هي: إيناس الله له وحشته من فراقهم، وإبداله عنهم بمن هو أكرم على الله منهم وهم إسحاق ويعقوب، ووهب لهم جميعاً من رحمته، ورزقهم الثناء الحسن والذكر الجميل عند الناس (٢).

فأعطي عليه السلام من النعم بخلاف ما يتوقعه المداهنون.

#### ٩- أن البراءة من الكفار سبب للعز والتمكين:

قد يظن بعض الناس أن موالاته الكفار في هذا العصر أمر حتمي، وذلك لأن التودد لهم يحقق المصالح للمسلمين. ويدفع عن المسلمين غوائلهم ومكائدهم وهذه هي بعينها دعوى المنافقين الذين قال الله عنهم: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينًا﴾ [المائدة: ٥٢].

بل إن الأمر خلاف ذلك فإن معاداة الكفار سبب للعز والتمكين كيف لا يكون

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٣٠١).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٨/ ٢٠٨).

كذلك والله بمنه وفضله وكرمه يؤيد المؤمنين به كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ كَانُوا .. وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال شيخ الإسلام: «وصلاح الدين وأهل بيته ما كانوا يوالون النصارى ولم يكونوا يستعملون منهم أحداً في شيء من أمور المسلمين أصلاً، ولهذا كانوا مؤيدين منصورين على الأعداء مع قلة المال والعدد... وليعتبر المعتبر بسيرة نور الدين وصلاح الدين ثم العادل كيف مكنهم الله وأيدهم وفتح لهم البلاد وأذل لهم الأعداء، لما قاموا من ذلك بما قاموا به، وليعتبر بسيرة من والى النصارى كيف أذله الله تعالى وكتبه»<sup>(١)</sup>.

١٠ - أن البراءة من الكفار من أسباب دخولهم في الإسلام:

شرع الله بغض الكفار وعداوتهم والبراءة منهم لحكم عظيمة ومن هذه الحكم أن البراءة من الكفار سبب في ظهور الإسلام وقبوله كما وقع في القرون المفضلة: ومن ذلك أن اليهود خافت وذلت من يوم قتل رئيسهم كعب بن الأشرف على يد محمد بن مسلمة رحمته الله.

قال ابن إسحاق: «فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بعدو الله، فليس بها يهودي إلا وهو يخاف على نفسه»<sup>(٢)</sup>.

ولما قال النبي ﷺ: «مَنْ ظَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ رِجَالِ يَهُودٍ فَاقْتُلُوهُ، وَثَبَّ حَيِّصَةَ بْنِ مَسْعُودٍ عَلَى ابْنِ سَنِينَةَ - رَجُلٍ مِنْ تِجَارِ يَهُودٍ كَانَ يَلْبَسُهُمْ وَيَبَايِعُهُمْ فَقَتَلَهُ، وَكَانَ حَوِيصَةَ - أَخُوهُ - إِذْ ذَاكَ لَمْ يَسْلَمْ وَكَانَ أَسَنُّ مِنْ حَيِّصَةَ، فَلَمَّا قَتَلَهُ جَعَلَ حَوِيصَةَ يَضْرِبُهُ وَيَقُولُ: أَيُّ عَدُوِّ اللَّهِ قَتَلْتَهُ؟ أَمَا وَاللَّهِ لَرَبِّ شَحْمٍ فِي بَطْنِكَ مِنْ مَالِهِ. فَقُلْتُ: «وَاللَّهِ لَوْ أَمَرَنِي بِقَتْلِكَ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ». قَالَ: فَوَاللَّهِ إِنْ كَانَ لِأَوَّلِ إِسْلَامِ حَوِيصَةَ. قَالَ: وَاللَّهِ لَنْ أَمُرَّكَ مُحَمَّدٌ بِقَتْلِي لِتَقْتُلَنِي

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٣٩-٦٤٣).

(٢) «سيرة ابن إسحاق» (٣٠٠)، و«تاريخ الأمم والملوك» (١/ ٥٦٣)، و«الصارم المسلول» (٢٢٠).

قال محيصة: نعم والله. قال حويصة: فوالله إن ديناً بلغ هذا إنه لعجب، فأسلم حويصة<sup>(١)</sup>.  
ورواه ابن إسحاق إلا أنه قال: «والله إن ديناً بلغ بك هذا لدين له شأن، انطلق إلى  
صاحبك حتى أسمع منه، فانطلق إلى رسول الله ﷺ فكان أول إسلام حويصة فقال  
محيصة:

يلوم ابنُ أم لو أمرت بقتله	لطبقت ذفراه بأبيض قاضب
حسام كلون الملح أخلص صقله	متى ما أصوبه فليس بكاذب
وما سرنى أني قتلْتُك طائعاً	وأن لنا ما بين بُصرى فمأرب <sup>(٢)</sup>

ومما ينبغي أن يعلم أن من أسباب نشر التوحيد هو الجهاد في سبيل الله الذي هو  
مظهر من مظاهر البراء من الكفار قال النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن  
لا إله إلا الله»<sup>(٣)</sup>.

(١) «المعجم الكبير» (٢٠ / ٣١١). رقم (٧٤١).

(٢) «سيرة ابن إسحاق» (٣٠٠)، وذكره شيخ الإسلام مستدلاً به، حيث قال: «فإن هذا يدل على أنهم - أي  
اليهود - لم يكونوا مواعدين، وإلا لما أمر بقتل من صودف منهم». «الصارم المسلول» (٩١)، وبمثله قال  
ابن القيم. «أحكام أهل الذمة» (٣ / ١٤٥١).

(٣) البخاري مع الفتح (١ / ٧٥)، كتاب «الإيمان» / باب ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا  
سَبِيلَهُمْ﴾. رقم (٢٥).

**وقوله تعالى:** ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿آل عمران: ٦٤﴾.

﴿قُلْ﴾: الخطاب للنبي ﷺ ولأُمَّته من بعده، وإنما كان الخطاب له لأنه هو القدوة لأُمَّته والأصل العموم إلا ما ورد الدليل بتخصيصه.

﴿يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ﴾: هذا الخطاب عام في أهل الكتاب من يهود ونصارى بل ومن جرى مجراهم<sup>(١)</sup>.

﴿تَعَالَوْا﴾: تعالوا: تفاعل من العلو، أي: هلموا وأقبلوا نجتمع نحن وأنتم على شيء معين بينه بقوله ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ ويفهم من قوله «تعالوا» أن المسلمين ثابتون على ما هم عليه فلا يتنازلون عن شيء من دينهم، وأنهم الأعلون وغيرهم الأدنى والأسفل، وأنهم هم أصحاب الحق فقط وأن غيرهم على الباطل، وأنه لا التقاء في عرض الطريق، لأنه لا يجتمع التوحيد والشرك ولا الإيمان والكفر في قلب العبد أبداً.

ولما طلب المشركون من النبي ﷺ أَنْ يتنازل عن شيء من دينه مقابل تنازلهم عن شيء من دينهم فقالوا: يا محمد اعبد إلهنا سنة ونعبد إلهك سنة، أمره الله بإعلان المفاصلة التامة والبراءة الكاملة وبيّن له أن الشرك والتوحيد لا يجتمعان فأنزل عليه سورة الكافرون.

إذا نحن على الحق وأنتم على الباطل فإن أثرتم السعادة على الشقاوة فأقبلوا إلينا ودعوا ما أنتم عليه من الدين الباطل وإن أبيتم إلا الشقاوة فالويل لكم من عذاب الله.

(١) «جامع البيان» (٦/ ٤٨٥) و«تفسير ابن كثير» (٢٤٠)، و«الجواب الصحيح» (١/ ٢٠٩).

﴿إِن كَلِمَةً﴾: بيّن الله الكلمة بأنها لا إله إلا الله حيث قال: ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾ ألا نعبد بمعنى «لا إله» إلا الله (إلا الله) فجمع بين النفي والإثبات.

﴿سَوَاءً﴾: أي عدل ونصف<sup>(١)</sup> بيننا وبينكم نستوي نحن وأنتم في تطبيقها وقبولها، وإنما قيل للنصف سواء؛ لأن أعدل الأمور وأفضلها وسطها<sup>(٢)</sup>.

وقال البخاري سواء: أي قصد<sup>(٣)</sup>. والمعنى واحد قال ابن حجر: «القصد: هو الوسط المعتدل»<sup>(٤)</sup>.

فهي دعوة مبنية على الإنصاف وعدم الحيف اتفقت عليها الرسالات كلها قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فمعنى كلمة سواء: أي كلمة عادلة مستقيمة مستوية.

﴿أَلَا نَعْبُدُ﴾: أي نحن وأنتم. و﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾: هذه الجملة تفسير لقوله كلمة: ﴿سَوَاءً﴾.

ففيها إفراد الله بالعبادة، وقصرها عليه، والبراءة من كل معبود سواه.

﴿وَلَا تُشْرِكْ بِهِ﴾: أي لا نصرف شيئاً من العبادة لغير الله والضمير في قوله (به) يعود إلى الله عز وجل.

﴿شَيْئًا﴾: نكره في سياق النفي فتفيد العموم.

(١) نصف: أي إنصاف من بعضنا للبعض. انظر: «جامع البيان» (٦/ ٤٨٣) و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٥).

(٢) «معالم التنزيل» (٢/ ٤٩).

(٣) البخاري مع الفتح (٨/ ٢١٤)، كتاب «التفسير» / باب: ﴿قُلْ يَتَّاهِلُ الْكَذِبُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾.

(٤) «فتح الباري» (٨/ ٢١٦).



وقوله: ﴿وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا﴾: تأكيد لنفي الشرك وبيان أن العبادة لا تصح إلا بالتخلي عن الشرك كثيره وقليله.

قال الطبري: «والكلمة العدل هي أن نوحده الله فلا نعبد غيره ونبرأ من كل معبود سواه فلا نشرك به شيئاً»<sup>(١)</sup>.

﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾: هذه الجملة مؤكِّدٌ ثالث لبيان وجوب التوحيد والتحذير من ضده.

واتخاذ الأرباب فسرهُ أهل العلم بتفسيرين، أرجحها:

لا يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله. كما هي حال أهل الكتاب الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله يطيعونهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله مع علمهم بذلك. فعن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «يا عدي اطرح عنك هذا الوثن»، وسمعتة يقرأ في سورة براءة ﴿اُتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] قلت: يا رسول الله! إنا لسنا نعبدهم فقال: «أليس يحرمون ما أحلَّ الله فتحرمونه ويحلّون ما حرّم الله فتستحلّونه». قلت: بلى قال: «فتلك عبادتهم»<sup>(٢)</sup>.

وبهذا فسر الآية حذيفة رضي الله عنه لما قيل له أكانوا يصلون لهم؟ قال: «لا ولكنهم كانوا يحلون لهم ما حرّم الله عليهم فيستحلّونه ويحرمون عليهم ما أحلَّ الله لهم فيحرمونه فصاروا بذلك أرباباً»<sup>(٣)</sup>.

(١) «جامع البيان» (٦/ ٤٨٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «السنن الكبرى» للبيهقي (١٠/ ١٩٨) رقم (٢٠٣٥١).

وفي لفظ: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم أطاعوهم في المعاصي»<sup>(١)</sup>.  
«فكل من ادعى أن له حقَّ الطاعة لذاته بزعامته أو قداسته فقد جعل لنفسه الألوهية في الأرض ولو لم يصرح بكلمة فرعون ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ وتشجيعه بالإقرار والثناء عليه وإضفاء ثوب الشرعية والقداسة على ما يصدر منه شرك بالله وكفر به»<sup>(٢)</sup>.  
﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: أي أعرضوا عما دعوتهم إليه فلم يقبلوا دين الله وأبوا أن يوحّدوا الله ويتبعوا هذا النبي الكريم وبقوا على ما هم عليه من الكفر والضلال.

وذلك أن المدعو له حالتان:

إما الاستجابة: فيصير أخاً لنا له ما لنا وعليه ما علينا.  
أو الإعراض وعدم القبول<sup>(٣)</sup>: فيحتاج المسلمون إلى بيان موقفهم منه فبينه الله بقوله:  
﴿فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.  
﴿فَقُولُوا﴾: أي تكلموا وانطقوا بألستكم.  
﴿أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، قيل: أي أشهدوهم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم<sup>(٤)</sup>.

وقيل: أي لزمتمكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا بأنا مسلمون دونكم. كما يقول

(١) «شعب الإيمان» (٧/ ٤٥) رقم (٩٣٩٤).

(٢) «صفوة الآثار والمفاهيم» (٤/ ١٥٠).

(٣) هل الذي منع أهل الكتاب من اتباع النبي ﷺ هو جهلهم بحاله؟ كلا. بل هم «يعرفونه كما يعرفون أبناءهم» ولكن الذي منعهم الكبر والحسد أو حب حظوظ الدنيا من رئاسة وغيرها كما فعل هرقل عندما جاءه خطاب النبي يدعوه إلى الإسلام فدعا بطارقه للدخول في الإسلام فتناخروا ولم يقبلوا وخشي على ملكه قال إنما سألتكم لأختبر ثباتكم على دينكم.

(٤) «تفسير ابن كثير» (٢٤٠).

الغالب للمغلوب اعترف بأني أنا الغالب ولازمه اعترافكم على أنفسكم بأنكم كفار لتوليكم عن الحق<sup>(١)</sup>.

وليس بين القولين منافاة فنحن ثابتون على إسلامنا مستمرون عليه واثقون من صحته مفتخرون به فرحون به أشد الفرح حامدون الله أن جعلنا من أهله، الذين هم خير أمة أخرجت للناس.

وأما أنتم فقد قامت عليكم الحجة فيجب عليكم أن تعترفوا بأننا نحن المسلمين وأنتم الكفار الضالون.

قال شيخ الإسلام: «فَأَمْرُهُ لَمْ أَنْ يَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ يَتَضَمَّنُ إِقَامَةَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ كَمَا كَانَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ»<sup>(٢)</sup>.

وأختم تفسير هذه الآية بكلام نفيس للشيخ عبدالرحمن الدوسري حيث قال: «وهذه الآية أساس الدين الحنيف وأصله الأصيل إذ بها تقرير وحدانية الربوبية ووحدانية الألوهية ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من قراءتها في صلاة ركعتي الفجر ويدعو بها أهل الكتاب إلى الإيمان فقد أودعها كتابه إلى هرقل ملك الروم والمقوقس ملك مصر ونص كتابه عليه الصلاة والسلام هذا كما أثبتته البخاري رحمه الله: «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أمّا بعد، فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتيك الله أجرك مرّتين، فإن تولّيت؛ فإنّ عليك إثم الأريسين».

(١) «محاسن التأويل» (٣/ ٨٦٢).

(٢) «الجواب الصحيح» (٣/ ٨٣).

﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾<sup>(١)(٢)</sup>.

وجمع الشيخ هنا دليلين على خلاف عادته لأن كل دليل يوضح ويبين أمراً غير الذي بينه الآخر، وذلك أن شهادة أن لا إله إلا الله تقتضي بغض أعداء الله وعداوتهم ومفاصلتهم مفاصلة تامة حتى ولو وجدت وشائج القربى. مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦] ثم وضع رحمته قضية يغفل عنها كثير من الناس وربما استبعدوها وهي أن المفاصلة لا تمنع من دعوتهم إلى الإسلام بل ولا تمنع دخولهم في الإسلام فذكر الدليل الثاني. قال شيخ الإسلام في معرض حديثه عن أهل الكتاب: «مثل الآصار والأغلال التي على أهل الكتاب وإذلال المسلمين لهم وأخذ الجزية منهم، فهذا قد يكون داعياً له أن ينظر في اعتقاده: هل هو حق أو باطل؟ حتى يتبين له الحق، وقد يكون مرغباً له في اعتقاد يخرج به من هذا البلاء، وكذلك قهر المسلمين عدوهم بالأسر يدعوهم للنظر في محاسن الإسلام»<sup>(٣)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٢١٤-٢١٥)، كتاب «التفسير» / باب: ﴿قُلْ يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾. رقم (٤٥٥٣).

(٢) «صفوة الآثار والمفاهيم» (٤/ ١٥٠-١٥١).

(٣) «جامع الرسائل» المجموعة الأولى (٢٣٨).

ودليل شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قدم المؤلف دليل الشهادة على المعنى لأن المرء إذا شهد وأيقن في قلبه بأنه رسول الله ﷺ قاده ذلك إلى العمل بما تقتضيه هذه الشهادة من طاعة ومتابعة وتصديق بخلاف من علم المعنى ولم يشهد ويستيقن بقلبه ذلك.

﴿لَقَدْ﴾: اللام الموطئة للقسم أي: والله لقد.

وقد: هنا للتحقيق لمجيء الفعل الماضي بعدها، ولدلالة السياق على ذلك.

﴿جَاءَكُمْ﴾: أي أرسل إليكم.

﴿رَسُولٌ﴾: الرسول هو محمد ﷺ؛ لأن الخطاب جاء لأئمة.

ونكر الرسول للتعظيم، فيكون المعنى لقد جاءكم رسول عظيم القدر، فهو أعظم الناس قدراً وأعلاهم منزلة عند الله عز وجل، وله من المناقب ما ليس لغيره فهو صاحب الشفاعة العظمى والحوض المورود وهو أول من تفتح له الجنة، وغير ذلك.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: إما أن يكون الخطاب لقريش: فيكون المعنى منكم لا من غيركم تعرفون نسبه وصفته ولغته ومدخله ومخرجه كما قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في حوارته مع النجاشي: «فكنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله تعالى لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان»<sup>(١)</sup>.

وإما أن يكون عامّاً: فيكون المعنى أي من جنسكم بشر مثلكم ولا منافاة بين

(١) أحمد (٢٩١/٥)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٣/٤) رقم (٢٢٦٠).

القولين. فهو ﷺ من قریش وهو من بني آدم.

والحكمة في كونه بشرًا ليكون أسهل للتلقي عنه وأدعى للاقتداء به وأكد للحجة على المدعوين.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾: من عزَّ يَعِزُّ إذا اشتد وثقل<sup>(١)</sup>، والمعنى شديد وشاق عليه ما يشق عليكم.

قال ابن عاشور: «إذا عدي بعلی دل على معنى الثقل والشدة على النفس.

قال بشر بن عوانة في ذكر قتله الأسد ومصارعته إياه:

فقلت له يعز عليّ أني قتلتناسبي جلدًا وقهرًا»<sup>(٢)</sup>

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾: خبر مقدم يفيد الحضر.

﴿عَنِئْمْ﴾: «العنت: هو المشقة الشديدة»<sup>(٣)</sup>.

قال الأزهري: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِئْمْ﴾ «معناه: عزيز عليه عنتكم وهو لقاء الشدة والمشقة»<sup>(٤)</sup>.

والمعنى شديد وشاق عليه ﷺ ما يلحقكم من المكروه كسوء العاقبة والوقوع في العذاب والآصار والأغلال. حتى إنه كان يتألم أشد الألم ويتحسر على عدم إيمانهم قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨].

وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

(١) انظر: «تهذيب اللغة» (١/ ٨٢-٨٤) و«لسان العرب» (٥/ ٣٧٤-٣٧٨).

(٢) «التحرير والتنوير» (١/ ٤١٤).

(٣) «تهذيب اللغة» (٢/ ٢٧٣) قاله أبو إسحاق الزجاج.

(٤) المرجع السابق (٢/ ٢٧٤).

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾: «الحرص: شدة الإرادة والشره إلى المطلوب»<sup>(١)</sup>.

قال الخليل: «حريص عليك أي حريص على نفعك»<sup>(٢)</sup>.

والمعنى شديد الرغبة في إيمانكم وهدايتكم ووصول النفع إليكم دنيا وأخرى.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾: جميعهم من عرب ومن عجم لا فرق بينهم.

﴿رءُوفٌ﴾: الرؤوف هو المبالغ في الشفقة.

﴿رَحِيمٌ﴾: الرحمة هي رِقَّة القلب وعطفه.

فالرأفة: أشد الرحمة فهي أخص منها وأرق، ولا تكاد تقع في الكراهة، أما الرحمة فقد تقع في الكراهة للمصلحة<sup>(٣)</sup>.

وقدّم ما حقّه التأخير في قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ليفيد الحصر أي حصر الرأفة والرحمة بالمؤمنين فكأنه قال: لا رأفة ولا رحمة إلا بالمؤمنين يوضح رأفته ورحمته بالمؤمنين دعاؤه لهم وبكاؤه شفقة عليهم، كما في حديث عمرو بن العاص أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل: ﴿رَبِّ إِنَّا نَعِدُّهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي، وبكى فقال الله عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك، فأتاه جبريل عليه الصّلاة والسّلام، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمّتك، ولا نسوءك»<sup>(٤)</sup>.

(١) «لسان العرب» ١ (٧/ ١١).

(٢) «العين» (٣/ ١١٦).

(٣) «تهذيب اللغة» (١٥/ ٢٣٨) و«اللسان» (٩/ ١١٢ و ٢/ ٢٣٠).

(٤) مسلم (١/ ١٩١)، كتاب «الإيمان» / باب دعاء النبي ﷺ لأُمَّته وبكائه شفقة عليهم. رقم (٢٠٢).

وكما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليّ» قلت: يا رسول الله! اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أشتهي أن أسمع من غيري». قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال لي: «كُفَّ أو أمسك، فرأيت عينيه تذرفان»<sup>(١)</sup>. وفي رواية لمسلم: «فرأيت دموعه تسيل»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن حجر: «بكى النبي رحمة لأمة لأنه علم أنه لا بد أن يشهد عليهم بعملهم. وعملهم قد لا يكون مستقيماً فقد يفضي إلى تعذيبهم»<sup>(٣)</sup>.  
أما الكافرون فلا رأفة ولا رحمة بهم بل أمره الله بالغلظة عليهم كما في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظُ عَلَيْهِمْ﴾ [التحریم: ٩].

وهذه الآية من أبلغ الأدلة على رسالة النبي ﷺ وذلك لأمر:

- ١- أن الله أكد رسالته ﷺ بالقسم.
- ٢- أن الله أكد رسالته ﷺ بقدر الدالة على التحقيق.
- ٣- أن الله ذكر صفاته ﷺ الموجبة لمحبه وطاعته والإيمان به وهي:
  - أ- الرسالة وبدأ بذكرها لأنها أشرف الصفات التي وصف بها.
  - ب- كونه منا ومن جنسنا وثنى بها لأنها صفة مؤثرة في التبليغ والفهم عنه والأنس والافتداء به.
  - ج- كونه يشق عليه ما يشق علينا.

(١) سبق تخريجه.

(٢) مسلم (١/ ٥٥١)، كتاب «صلاة المسافرين وقصرها» / باب فضل استماع القرآن. رقم (٨٠٠).

(٣) «فتح الباري» (٩/ ٩٩).



د- حرصه على هدايتنا لعبادة الله وحده.

هـ- رأفته ورحمته بنا.

فهذه الصفات المشعرة بغاية الكمال وغاية الشفقة تدل على أن بعثة هذا النبي الكريم من أعظم منن الله علينا وأجزل نعمه، وقد نبه الله على ذلك بقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ وَتَصَدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ،  
وَاجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ، وَلَا يُعْبَدُ اللَّهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ.

.....

معنى شهادة أن محمداً رسول الله: هو الإيقان التام بالقلب بأنه رسول الله حقاً إلى جميع الثقلين الإنس والجن مع النطق باللسان وعمل الجوارح بما يقتضيه من فعل طاعته والبعد عن معصيته وتصديق خبره واتباعه في عبادة ربه، ولهذا قال المؤلف في معناها طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه وزجر وأن لا يعبد الله إلا بما شرع. قال شيخ الإسلام: «والشهادة بأن محمداً رسول الله تتضمن تصديقه في كل ما أخبر وطاعته في كل ما أمر»<sup>(١)</sup>. وذلك أن «الكفر وإن اختلفت شعبه يجمعه خصلتان:

الأولى: تكذيب الرسول في خبره.

والثانية: عدم الانقياد لأمره.

كما أن الإيمان يرجع إلى أصليين:

الأول: طاعة الرسول فيما أمر.

والثاني: تصديقه بما أخبر»<sup>(٢)</sup>.

الطاعة: هي فعل الأوامر أي: فعل جميع ما أمر به النبي ﷺ. ولما كان الأمر يستوجب الانقياد. قال المؤلف: طاعته فيما أمر.

ولما كانت طاعة النبي ﷺ بهذه المثابة وردت في القرآن في ثلاثة وثلاثين موضعاً.

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣٧٤-٣٧٥)، وانظر: «النبوات» (١/ ٣٢٩).

(٢) «أحكام أهل الذمة» (٢/ ٨٣٥-٨٣٦).

«قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup> في رواية الفضل بن زياد: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعاً، ثم جعل يتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور: ٦٣]. وجعل يكررها ويقول: وما الفتنة؟ الشرك. لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبه فيهلكه، وجعل يتلو هذه الآية ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]»<sup>(٢)</sup>.

وقال الأجرى: «فرض الله على الخلق طاعته ﷺ في نيف وثلاثين موضعاً من كتابه عز وجل»<sup>(٣)</sup>.

وقد نقل الشافعي إجماع العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم على وجوب طاعة النبي ﷺ واتباع شرعه<sup>(٤)</sup>.

فطاعة الرسول ﷺ فرض على كل أحدٍ من الخاصة والعامة في كل وقت وكل مكان في سره وعلايته وفي جميع أحواله<sup>(٥)</sup> حتى وإن تعارضت مع هوى النفس أو رغبة قريب أو غالٍ فإن طاعة الرسول ﷺ مقدمة على كل شيء.

يوضحه قول أبي بكر رضي الله عنه لفاطمة رضي الله عنها عندما سألتها نصيبها مما ترك رسول الله ﷺ من خير وفدك وصدقته بالمدينة: إن النبي ﷺ قال: «لا نُورث ما تركنا صدقة» فغضبت. فصار أبو بكر بين أمرين إما أن يترك شيئاً من أمر رسول الله ﷺ ليرضي فاطمة رضي الله عنها. أو

(١) وقد صنف الإمام أحمد كتاباً سماه طاعة الرسول ﷺ. انظر: «العدة» لأبي يعلى (٢/ ٥١٩)، و«مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٢٢٣)، و«مختصر الصواعق» (٤/ ١٦٤٣).

(٢) «الصارم المسلول» (٥٦).

(٣) «الشرعية» (٤٩).

(٤) «الرسالة التبوكية» (٤٥).

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٢٦٠).

يطيع النبي ﷺ وإن غضبت فاطمة، وكلاهما صعب وشاق. فهو لا يريد أن يرد أمر رسول الله لخطورة ذلك على دينه، ولا يريد أن تغضب فاطمة رحمها الله لقرباتها من رسول الله ﷺ، ولكنه أثر طاعة النبي ﷺ ورضاه على رضى غيره ثم جعل يسترضي فاطمة ويقول لها: «لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به فإني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ»<sup>(١)</sup>.

فانظر إلى اعتذاره لفاطمة رحمها الله مبيناً لها أنه منعها مما تطلب؛ لأن النبي ﷺ منعها ذلك ولم يجعل لها حقاً فيه، وأنه لو أعطاها لترك شيئاً من دين رسول الله وأن عقوبة ذلك زيغ القلب عن الهدى ومن زاغ قلبه عن الهدى هلك. فكأنه يقول فهل ترضين لي ذلك. ولما لطاعة الرسول ﷺ من الأهمية البالغة تنوعت الأساليب في الأمر بها ومن ذلك:

١ - أَنَّ طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ

اللَّهُ﴾ [النساء: ٨٠].

الفاء هنا رابطة تدل على ارتباط الطاعتين بعضهما ببعض، وقد هنا للتحقيق، قال سهل بن عبد الله عند هذه الآية «من يطع الرسول في سنته فقد أطاع الله في فريضته»<sup>(٢)</sup>.

٢ - الأمر المباشر بطاعة الرسول ﷺ:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣] فكرر الله الطاعة مع الرسول ﷺ لبيان أن طاعة الرسول تجب استقلالاً<sup>(٣)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ١٩٧)، كتاب «الخمسة»/ باب فرض الخمس. رقم (٣٠٩٣).

(٢) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (١/ ٢٢٢).

(٣) «إعلام الموقعين» (١/ ٤٨).

## ٣- دخول المطيع جنات النعيم:

ويدل له حديث المصطفى ﷺ حيث يقول: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى». قالوا: يا رسول الله! وَمَنْ يَأْبَى؟ قال: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»<sup>(١)</sup>.

## ٤- الفوز والرحمة والاهتداء:

بين ذلك ربنا بقوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

فأخبر تعالى في هذه الآية «أَنَّ الهداية في طاعة الرسول ﷺ لا في غيرها فإنه معلق بالشرط فينتفي بانتفائه»<sup>(٢)</sup>.

الشرط هو (إن تطيعوه)، والنتيجة (الهداية).

## ٥- أن الحياة الحقة في طاعة رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا

أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

«فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهراً وباطناً فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ﷺ»<sup>(٣)</sup>.

(١) سبق تخريجه.

(٢) «الرسالة التبوكية» (٤٥-٤٦).

(٣) «الفوائد» (١٢٧-١٢٨).

## ٦- ضرب الأمثال للحث على طاعته ﷺ:

ضرب المثل من أكبر ما يحرك القلوب ويقود إلى التفكير والتذكر، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

ومن الأمثلة التي ضربها النبي ﷺ أو ضربت له ما يلي:

المثل الأول: عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمِثْلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمُ! إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعِينِي وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعَرِيَانِ، فَالنَّجَاءُ النَّجَاءُ. فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَدْلَجُوا فَاَنْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَجَاؤُوا. وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ، فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاكَهُمْ، فَذَلِكَ مِثْلُ مَنْ أَطَاعَنِي، فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمِثْلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ»<sup>(١)</sup>.

المثل الثاني: قول النبي ﷺ: «إِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُ النَّاسِ كَمِثْلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ، فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخِذٌ بِحِجْزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهَا»<sup>(٢)</sup>.

أما المثل الذي ضرب له ﷺ فهو المثل الذي ضربته الملائكة عندما جاؤوا إليه وهو نائم فعن جابر رضي الله عنه قال: «جاءت الملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم: إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا إن لصاحبكم هذا مثلاً قال بعضهم: فاضربوا له مثلاً فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مائدة وبعث داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري مع الفتح (٣١٦/١١)، كتاب «الرقاق»/ باب الانتهاء عن المعاصي. رقم (٦٤٨٣)، ومسلم

(٤/١٧٨٩)، كتاب «الفضائل»/ باب شفقة النبي ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم. رقم

(٢٢٨٤).

من المأدبة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة فقالوا: أولوها له يفقهها فقال بعضهم: إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا: الدار الجنة والداعي محمد ﷺ فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله ومن عصى محمداً فقد عصى الله ومحمد فرق بين الناس<sup>(١)</sup>.

فمن فقه هذه الأمثال سارع إلى طاعة رسول الله ﷺ لعله أن ينجو.

٧- الأمر باتباعه والتمسك بسنته: أمر الله باتباع سنته ﷺ فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فجاء الأمر بالاتباع عقب الأمر بالإيمان به مع العلم أن الاتباع داخل في الإيمان لتأكيد والتنبية على أهميته، أما الرسول ﷺ، فأمرنا باتباع سنته فقال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور»<sup>(٢)</sup>.

ونہانا عن مخالفتها فقال ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»<sup>(٣)</sup>.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البخاري مع الفتح (٩/ ١٠٤)، كتاب «النكاح» / باب الترغيب في النكاح. رقم (٥٦٣) ومسلم (٢/ ١٠٢٠)، كتاب «النكاح» / باب استحباب النكاح لمن تآقت نفسه إليه. رقم (١٤٠١).

٨- وجوب التسليم لحكمة: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقد أكد التسليم والطاعة بمؤكدات:

١- تصديرها بتضمن المقسم عليه للنفي وهو قوله «لا يؤمنون» وهذا منهج معروف في كلام العرب إذا أقسموا على شيء منفي صدروا جملة القسم بأداة نفي. مثل هذه الآية.

٢- تأكيده بنفس المقسم.

٣- تأكيده بالمقسم به وهو إقسامه بنفسه لا بشيء من مخلوقاته.

٤- تأكيده بانتفاء الحرج وهو وجود التسليم.

٥- تأكيده الفعل بالمصدر.

وما هذا التأكيد إلا لشدة الحاجة إلى هذا الأمر العظيم، وأنه مما يعتنى به، ويقرر في نفوس العباد بما هو أبلغ أنواع التقرير<sup>(١)</sup>.

٩) حسرة من لم يطع الرسول ويتبع سنته: الحسرة شديدة على القلوب ولا سيما إذا لم يمكن تدارك الأمر. قال تعالى عن المتحسرين: ﴿يَوْمَ ثَقَلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧].

فمن استشعر هذا الموقف سارع إلى طاعة رسول الله لئلا يتحسر ويندم ولات حين مندم.

(١) «الرسالة التبوكية» (٣٤).



ومن الأمثلة على طاعة النبي ﷺ:

ما رواه عبدالله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر رضي الله عنه يا رسول الله! لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي فقال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحبّ إليك من نفسك»، فقال عمر فإنه الآن والله لأنت أحب إليّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر»<sup>(١)</sup>.

ولما قال النبي ﷺ في غزوة بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» قام عمير بن الحمام وألقى التمرات التي كان يأكلها، ثم قاتلهم حتى قُتل<sup>(٢)</sup>.

ولما أمر النبي ﷺ أصحابه الذين جاهدوا معه في أحد أن يخرجوا معه للحاق بقريش خرجوا كلهم، «... وأمر النبي ﷺ أصحابه وبهم أشد القرع بطلب العدو ليسمعوا بذلك، وقال: لا ينطلقن معي إلا من شهد القتال.. فانطلقوا فقال الله عز وجل في كتابه: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢] ... فطلب رسول الله ﷺ العدو حتى بلغ حمراء الأسد، ونزل القرآن في طاعة من أطاع...»<sup>(٣)</sup>.

ذكر ابن إسحاق أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ من بني عبد الأشهل كان شهد أحداً مع رسول الله ﷺ قال: شهدت أحداً مع رسول الله ﷺ أنا وأخي لي فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي أو قال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ، والله ما لنا دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل...»<sup>(٤)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (١١/ ٥٢٣)، كتاب «الآيمان والنذور»/ باب كيف كانت يمين النبي ﷺ. رقم (٦٦٣٢).

(٢) مسلم (٣/ ١٥١٠-١٥١١)، كتاب «الإمارة»/ باب ثبوت اللجنة للشهيد. رقم (١٩٠١).

(٣) «دلائل النبوة» (٣/ ٢٧١).

(٤) «السيرة النبوية» (٣/ ٦٨٢-٦٨٣).

وهذا هو الرضا بمحمد ﷺ رسولاً قال ابن القيم: «وأما الرضا بنبيه رسولاً: فيتضمن كمال الانقياد له والتسليم المطلق إليه بحيث يكون أولى به من نفسه فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه»<sup>(١)</sup>.

وقد يحرم المخذول طاعة النبي ﷺ فيبتلى بالرد والامتناع والعصيان لشح بملكه ك (هرقل). قال هرقل: «وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه»، وفي آخر الحديث: «فأذن هرقل لعظماء الروم ودهاقنتهم في دسكرة له في حمص ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم اطلع فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم عليّ، وقال: إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم»<sup>(٢)</sup>.

وهو في الحقيقة ليس قصده اختبار إيمانهم، ولكن لما حاصوا خشي على ملكه أن يؤخذ منه، فشح بملكه فحرم هذا الخير.

أو خشية الملامة والمسبة كأبي طالب: فإنه منعه من طاعة النبي ﷺ خشية المسبة واللامة كما في قوله:

ولقد علمت بأن دين محمد	من خير أديان البرية ديناً
لولا الملامة أو حذار مسبة	لوجدتني سمحاً بذاك مبياً <sup>(٣)</sup>

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٧٢).

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ٣١-٣٢)، كتاب «بدء الوحي». رقم (٧).

(٣) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٩٤).

أو الحسد كما هي حال أبي جهل:

قال الأخنس بن شريق لأبي جهل عندما سمعوا قراءة النبي ﷺ في الليل: ما رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: ماذا سمعت تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقهُ»<sup>(١)</sup>.

قال المغيرة بن شعبة: إن أول يوم عرفت فيه النبي ﷺ أنني كنت أمشي أنا وأبو جهل في بعض أزقة مكة، وقال النبي ﷺ لأبي جهل: يا أبا الحكم هلم إلى الله عز وجل وإلى رسوله أدعوك إلى الله، قال أبو جهل: يا محمد، هل أنت متته عن سب آلهتنا، هل تريد ألا نشهد أن قد بلغت، فنحن نشهد أن قد بلغت، فوالله لو أنني أعلم أن ما تقول حقاً ما اتبعتك، فانصرف رسول الله ﷺ.

وأقبل علي فقال: «فوالله إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن بني قصي قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم، فقالوا: فينا الندوة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم، قالوا: فينا السقاية، قلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت الركب، قالوا: منا نبي، والله لا أفعل»<sup>(٢)</sup>.

أو حب الرئاسة والزعامة، كعبد الله بن أبي سلول، وأمّية بن أبي الصلت، وغيرهم.  
(وتصديقه فيما أخبر):

الصدق لغة: الصاد والذال والقاف أصل يدل على قوة في الشيء قولاً وغيره.

(١) «دلائل النبوة» (٢/٢٠٦-٢٠٧).

(٢) المرجع السابق (٢/٢٠٧).

والصدق: خلاف الكذب. سمي لقوته في نفسه، ولأن الكذب لا قوة له، هو باطل<sup>(١)</sup>.  
وفي الاصطلاح: هو اليقين التام بصحة جميع ما أخبر به النبي ﷺ في الماضي والحاضر والمستقبل.

وربط التصديق في الخبر لأن الخبر يستوجب التصديق كما أن الأمر يستوجب الانقياد.

وتصديق ما جاء به النبي ﷺ جزء من شهادة أن محمدًا رسول الله فـ «يجب على الخلق الإقرار بما جاء به النبي ﷺ جملةً وتفصيلاً عند العلم بالتفصيل، فلا يكون الرجل مؤمنًا حتى يقر بما جاء به النبي ﷺ وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فمن شهد أنه رسول الله شهد أنه صادق فيما يخبر به عن الله تعالى، فإن هذا حقيقة الشهادة بالرسالة، إذ الكاذب ليس برسول فيما يكذبه وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾<sup>(٤٥)</sup> ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ» [الحاقة: ٤٤-٤٦]»<sup>(٢)</sup>.

ففي هذه الآيات أعظم دليل على أن النبي ﷺ لم يقل إلا الحق الذي أوحاه إليه ربه تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾<sup>(٢)</sup> «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ» [النجم: ٣-٤].

فمن اعتقد في قرارة قلبه أن النبي صادق في جميع ما بلغه عن الله فهو مؤمن ومن لا فلا. أرايت أنه «لو قال الحاكم: إن هؤلاء الشهود صادقون في كل ما يشهدون به وهو لا يثبت بشهادة أحدٍ منهم حقًا لم يكن في تعديلهم فائدة»<sup>(٣)</sup>.

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٢٦٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٥٤).

(٣) «درء تعارض العقل والنقل» (٥/ ٣٣٨).

ويتعلق بتصديقه ﷺ أمران عظيمان<sup>(١)</sup>:

الأول: إثبات نبوته:

وهذا يختص به فيقال (آمنت له) قال تعالى: ﴿فَمَا أَمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾

[يونس: ٨٣].

ويكفي في إثبات نبوته ﷺ تحدي العرب الفصحاء أن يأتوا بشيء من مثل ما جاء به،

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَٰهُ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: ١٤]<sup>(٢)</sup>.

ويتعلق بإثبات نبوته أمور:

- ١- الإيمان بعموم رسالته للناس أجمع.
- ٢- الإيمان بأنه خاتم النبيين.
- ٣- الإيمان بأن رسالته ﷺ ناسخة للأديان السابقة.
- ٤- الإيمان بأنه بلغ الرسالة ولم يكتم منها شيئاً.
- ٥- الإيمان بعصمته فيما يبلغ عن ربه.
- ٦- الإيمان بما له من حقوق على أمته كالطاعة والاتباع والمحبة والتعزير والتوقير ونحو ذلك.

الثاني: تصديقه في جميع ما جاء به من عند الله:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥ / ٩١-٩٣).

(٢) الأدلة على إثبات نبوته كثيرة جداً. ألفت فيها مؤلفات كاملة كدلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، وأبي القاسم التيمي الأصبهاني، والبيهقي والفريابي وغيرهم.

فكل ما أخبر به النبي ﷺ من الغيب فهو حق لا مرية فيه سواء كان غيباً نسبياً أو مطلقاً.

والغيب النسبي: هو الذي يعلمه قوم ويجهله آخرون كما في أخبار الأمم الماضية من عقوبات المعاندين للرسول فإن الله لما ذكر قصة نوح مع قومه قال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُنْقِيتِ﴾ [هود: ٤٩].

وكما قال بعد أن ذكر قصة يوسف عليه السلام: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

أما الغيب المطلق: فهو الغيب الذي لا يعلمه إلا الله من الأمور المستقبلية وغيرها ومن ذلك:

- ١- إخباره ﷺ بأسماء الرب وصفاته كاليد والنزول والاستواء ونحوها.
- ٢- أشرار الساعة الكبرى والصغرى كخروج المسيح الدجال ونزول عيسى بن مريم والدابة وطلوع الشمس من مغربها والخسوف ونحوها.
- ٣- البرزخ وما فيه من إقعاد الميت في قبره وسؤاله عن ربه ودينه ونبيه وعن تثبيت الله للمؤمنين. وما يقال للمؤمن بعد السؤال، ومن ثم يفتح له باب إلى الجنة فيشتاق إليها ويتمنى قيام الساعة، وكيف يضل المنافق فلا يستطيع الإجابة فيضرب بِمِرْزَبَةٍ من حديد يصيح منها صيحة يسمعه من يليه إلا الثقلين ويفتح له باب إلى النار فيأتيه من حرّها وسمومها حتى تقوم الساعة.
- ٤- يوم القيامة من النفخ في الصور وبعث الخلائق ثم الموقف الرهيب الذي تشيب من هوله الولدان وتطير الصحف فأخذ باليمين وأخذ بالشمال والحساب والجزاء والميزان والصراط ثم النهاية جنة أو نار. وغير ذلك مما أخبر به النبي ﷺ.

وكان يقينُ سلفنا الصالح بصفة ما يقوله ويخبر به أعظم من رؤيتهم الشيء بأعينهم وما ذلك إلا لقوة إيمانهم بالنبى وهذا هو الإيمان الحق برسالة ﷺ.

قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

وفينا رسول الله يتلو كتابه      إذا انشق معروفٌ من الفجر ساطعُ  
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا      به موقنات أن ما قال واقعٌ<sup>(١)</sup>

ومن الأمثلة على ذلك:

عندما أسري بالنبى ﷺ وعرج به إلى السماء استغلت قريش ذلك للتشكيك في رسالة النبى ﷺ فذهبوا إلى أبي بكر فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم. إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة؛ فلذلك سمي أبو بكر الصديق<sup>(٢)</sup>.

أما المثال الثاني:

تصديق خزيمة بن ثابت للنبي ﷺ عند شرائه الفرس، وذلك «أن النبى ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي فاستتبعه النبى ﷺ ليقتضيه ثمن فرسه فأسرع رسول الله ﷺ المشي وأبطأ الأعرابي فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس ولا يشعرون أن النبى ﷺ ابتاعه فنادى الأعرابي رسول الله ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس وإلا بعته. فقام النبى ﷺ حين سمع نداء الأعرابي فقال: «أوليس قد ابتعته منك»، فقال الأعرابي: لا والله

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ٣٩)، كتاب «التهجد»/ باب فضل من تعار من الليل فصل. رقم (١١٥٥).

(٢) «المستدرک» (٣/ ٦٥) رقم (٤٤٠٧) وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد»، والبيهقي في «دلائل

النبوة» (٢/ ٣٦١).

ما بعته. فقال النبي ﷺ: «بلى قد ابتعته منك»، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً، فقال خزيمة بن ثابت: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: «بسم تشهد»، فقال: بتصديقك يا رسول الله! فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين<sup>(١)</sup>.

### أما المثال الثالث:

جَزُمُ علي بن أبي طالب عليه السلام في تعيين الخوارج الذين أخبر بهم النبي ﷺ حتى حلف مرتين أو ثلاثاً على صحة ذلك:

فعن عبيد الله بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ أَنَّ الحُرورية لما خرجت، وهو مع علي بن أبي طالب عليه السلام قالوا: لا حكم إلا لله. قال علي: كلمة حق أريد بها باطل. إن رسول الله وصف ناساً إني لأعرف صفتهم في هؤلاء «يقولون الحق بألستهم لا يجوز هذا منهم. (وأشار إلى حلقه) من أبغض خلق الله إليه منهم أسود: إحدى يديه طبي شاة أو حلمة ثدي». فلما قتلهم علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «انظروا فنظروا فلم يجدوا شيئاً. فقال: ارجعوا فوالله ما كُذِبْتُ ولا كُذِبْتُ مرتين أو ثلاثاً. ثم وجدوه في خربة فأتوا به حتى وضعوه بين يديه. قال عبيد الله: وأنا حاضر ذلك من أمرهم وقول علي فيهم»<sup>(٢)</sup>.

وإن تعجب فاعجب من سرعة تصديق عمير بن الحمام لرسول الله ﷺ في غزوة بدر وتفاعله مع خبر النبي ﷺ، كما في حديث أنس بن مالك قال: «دنا المشركون فقال رسول الله ﷺ «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري: يا

(١) أحمد (٢١٦/٥)، وأبو داود (٣١-٣٢/٤)، كتاب «الأقضية» / باب إذا علم الحاكم صدق الشاهد الواحد يجوز له أن يحكم به. رقم (٣٦٠٧) واللفظ له، والنسائي (٣٠١-٣٠٢/٧)، كتاب «البيع» / باب التسهيل في ترك الإشهاد على البيع. قال ابن كثير: «إسناده صحيح حجة». «تحفة الطالب» (٢٩٠) رقم (١٨٤)، وصححه ابن عبد الهادي في «تنقيح التحقيق» (٧٧-٧٨) رقم (٣٢٦٠).

(٢) مسلم (٧٤٩/٢)، كتاب «الزكاة» / باب التحريض على قتل الخوارج. رقم (١٠٦٦).



رسول الله! جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «نعم» قال: بخ بخ فقال رسول الله: «ما يملكك على قولك بخ بخ» قال: لا والله يا رسول الله! إلا رجاء أن أكون من أهلها قال: «فإنك من أهلها». فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه. إنها لحياة طويلة. قال فرمى بها كان معه من التمر ثم قاتل حتى قتل»<sup>(١)</sup>.

وغير ذلك كثير.

(وَاجْتَنَابَ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ):

لفظة: «اجتناب» أولى من «ترك»، وذلك لأن الاجتناب هو التباعد

جنب الشيء وتجنبه وجانبه وتجنبه واجتنبه: بُعد عنه.

ومنه سمي الجنبُ جنباً لأنه نُهيَ أن يقرب مواضع الصلاة ما لم يتطهر فتجنبها

وأجنب عنها أي: بعد.

ومنه قول علقمة بن عبدة:

فلا تحرمني نائلاً عن جنابة      فإني امرؤٌ وَسَطُ القِبابِ غريبُ

عن جنابة: أي بُعدٍ وغربة<sup>(٢)</sup>.

فالاجتناب: هو البعد عن المحرمات بأن يكون المسلم في جانب والمنهيات في جانب

آخر ولا يكون ذلك إلا بترك المشتبهات التي لم يتضح للعبد حلها أو حرمتها وذلك لأنها

برزخ بين الحلال والحرام فمن تساهل فيها تساهل في أكل الحرام.

قال ﷺ: محذراً من التساهل في المشتبهات موضحاً أن التساهل في المشتبهات هو

(١) سبق تخريجه.

(٢) «تهذيب اللغة» (١١/ ١١٧- ١٢٣) و«اللسان» (١/ ٣٧٧- ٣٧٩).

سبيل الولوج في المحرم: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحْرَمَهُ - ثم ذكر خطورة التشابهات على القلب، فقال - أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»<sup>(١)</sup>.

وحسمه النبي ﷺ أيما حسم فأمر بترك المتشابه تركاً مطلقاً فقال: «دَعْ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ»<sup>(٢)</sup>.

وأفضل من طبَّق الورع هو رسول الله ﷺ حين قال: «إِنِّي لَأَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِي فَأُجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي فَأَرْفَعُهَا لَأَكْلُهَا، ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً فَأَلْقِيهَا»<sup>(٣)</sup>.

قال ابن حجر: «والنكته هنا ما فيه من تعيين المحل الذي رأى فيه التمرة وهو فراشه ﷺ ومع ذلك لم يأكلها وذلك أبلغ في الورع»<sup>(٤)</sup>.

وكان لتربية النبي ﷺ أصحابه على الورع أبلغ الأثر في أقوالهم وأفعالهم ومن أقوالهم:

قول ابن عمر: «إِنِّي لِأَحِبُّ أَنْ أَدْعَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْحَرَامِ سِتْرَةً مِنَ الْحَلَالِ وَلَا أَحْرَمُهَا»<sup>(٥)</sup>.

(١) سبق تخريجه.

(٢) الترمذي (٦٨٦/٤)، كتاب «صفة القيامة». رقم (٢٥١٨)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٣٢٧/٨)، كتاب «الأشربة» / باب الحث على ترك الشبهات.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «فتح الباري» (٢٩٤/٤).

(٥) «الورع» لأحمد (٤٣).

وبمثله قال أبو الدرداء: «إنَّ إتمام التقوى أن يتقي الله العبدُ في مثقال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حرامًا، يكون حجابًا بينه وبين الحرام فإن الله عز وجل قد بين للعباد الذي مصيرهم إليه»<sup>(١)</sup>.

وكان الورعُ علمًا يتعلم على أيدي أهل العلم. قال الضحاك بن عثمان (ت ١٥٣ هـ): «أدركت الناس وهم يتعلمون الورع، وهم اليوم يتعلمون الكلام»<sup>(٢)</sup> بل هو أفضل العلم كما قال الحسن البصري: «أفضل العلم الورع والتوكل»<sup>(٣)</sup>. وزينته كما قال الشافعي: «زينة العلم الورع والحلم»<sup>(٤)</sup> ولذلك جعله السلف هو الميزان لتقويم الأشخاص حتى قال حبيب بن أبي ثابت رحمه الله: «لا يعجبكم كثرة صلاة امرئ ولا صيامه ولكن انظروا إلى ورعه فإن كان ورعًا مع ما رزقه الله من العبادة فهو عبد الله حقًا»<sup>(٥)</sup>. ولذلك جعله سفيان بن عيينة حقيقة الإيمان، فقال: «لا يصيب العبد حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزًا من الحلال وحتى يدع الإثم وما تشابه منه»<sup>(٦)</sup>.

بل نفى طاووس الخيرية عن فاقد الورع فقال: «مثل الإسلام كمثل شجرة فأصلها الشهادة وثمرها الورع، لا خير في شجرة لا ثمر لها، ولا خير في إنسان لا ورع له»<sup>(٧)</sup>. ولقد كانت حياة السلف حافلة بتطبيق الورع ولكن أكتفي من ذلك بمثالين اثنين:

١ - فِعْلُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه مع غلامه الذي يخرج له الخراج وكان أبو بكر يأكل

(١) المرجع السابق (٤٢).

(٢) «الورع» لابن أبي الدنيا (٥٠).

(٣) «الزهد» لأحمد (٣٢٥).

(٤) «الآداب الشرعية» (٣/ ٢٧٠).

(٥) «الورع» لابن أبي الدنيا (٦٠).

(٦) «الورع» لأحمد (١٠٥-١٠٦).

(٧) «الورع» لابن أبي الدنيا (١٠٩).

من خراجة فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أحسن الكهانة إلا أنني خدعته فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه»<sup>(١)</sup>.

٢- روى ابن أبي الدنيا أن عمر بن عبدالعزيز رحمته الله أتى بغنائم مسك فأخذ بأنفه فقالوا: يا أمير المؤمنين تأخذ بأنفك لهذا؟ قال: «إنما ينتفع من هذا بريجه فأكره أن أجد ريجه دون المسلمين»<sup>(٢)</sup>.

نهي: قال الليث «النهي ضد الأمر»<sup>(٣)</sup>، وهو طلب الكف عن الفعل ولما كانت المنهيات على مراتب بعضها أشد في التحريم من بعض. فمنها ما هو مكروه ومنها ما هو محرم ومنها ما هو أشد تحريماً عطف عليه (وزجر).

والزجر: «الزاء والجيم والراء كلمة تدل على الانتهاز»<sup>(٤)</sup>.

ومنه زجرت فلاناً فانزجر وهو كالردع للإنسان<sup>(٥)</sup> فيكون معنى الزجر هو: المنع من فعل المنكر بشدة.

قال تعالى زاجراً عن ارتكاب المنهيات: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

أي: «تصيبهم فتنة في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة، أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا من قتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك»<sup>(٦)</sup> فهذه عقوبة دنيوية.

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ١٤٩)، كتاب «مناقب الأنصار» / باب أيام الجاهلية. رقم (٣٨٤٢).

(٢) «الورع» (٧٤) / باب الورع في الشم.

(٣) «تهذيب اللغة» (٦/ ٤٣٩).

(٤) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٣٤).

(٥) «تهذيب اللغة» (١٠/ ٦٠٢).

(٦) «تفسير القرآن العظيم» (٩٧٣).

أما العقوبة الأخروية ففي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

فقد يجتمع في الزجر كلتا العقوبتين وقد تنفرد إحداهما.

ولقد ضرب سلفنا الصالح أروع الأمثلة في اجتناب ما نهى عنه النبي فبمجرد معرفتهم أن النبي ﷺ يكره شيئاً ما تركوه وابتعدوا عنه، ولو لم ينههم، فكيف إذا نهاهم، ومن ذلك:

فعل عبدالله بن عمر كما روى ذلك نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ: «لو تركنا هذا الباب للنساء» قال نافع فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات»<sup>(١)</sup>.

أما المثال الثاني: ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: «اتخذ النبي ﷺ خاتماً من ذهب، فاتخذ الناس خواتيم من ذهب فقال النبي ﷺ: «إِنِّي اتَّخَذْتُ خَاتِماً مِنْ ذَهَبٍ، فَنَبَذَهُ، وَقَالَ: إِنِّي لَنْ أَلْبَسُهُ أَبَدًا»، فنبد الناس خواتيمهم»<sup>(٢)</sup>.

(وَأَلَّا يُعْبَدَ اللَّهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ):

أي أَنْ تكون عبادتك لله وخضوعك ومحبتك له وحده وتقربك إليه بأنواع الطاعات والقربات من صلاة وصيام وصدقة وبر وجهاد وأمر بمعروف ونهي عن منكر وغيرها على وفق ما شرعه النبي ﷺ مما أوحاه إليه ربه؛ وذلك لأنها لا تقبل إلا إذا كانت موافقة لهديه ﷺ.

(١) أبو داود (٣١٧/١)، كتاب «الصلاة» / باب في اعتزال النساء في الساجد عن الرجال. رقم (٤٦٢)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٠٣-٣٠٤) رقم (١٠١٨). قال الذهبي: «متفق على صحته». «تاريخ الإسلام» (٤٥٩/٥).

(٢) البخاري مع الفتح (٢٧٤/١٣)، كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة» / باب الاقتداء بأفعال النبي ﷺ. رقم (٧٢٩٨).

قال أبو عبدالله بن بكر عندما سئل عن أصل الدين: «إثبات صدق الافتقار إلى الله ولزوم الاقتداء برسول الله ﷺ»<sup>(١)</sup> وذلك أن الدين يقوم على أصلين عظيمين «أحدهما: ألا نعبد إلا الله والثاني ألا نعبد إلا بما شرع لا نعبد بعبادة مبتدعة. وهذان الأصلان هما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله كما قال تعالى: ﴿لَبَلُّوْكُمْ أَتُكْمَرُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض: «أخلصه وأصوبه»<sup>(٢)</sup>.

«فمن طلب بعباداته الرياء والسمعة لم يحقق شهادة أن لا إله إلا الله ومن خرج عما أمره به الرسول ﷺ من الشريعة وتعبد بالبدعة لم يحقق شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ»<sup>(٣)</sup>.  
ولأجل هذا حصرها المؤلف بشرعه ﷺ فجمع بين النفي والإثبات فقال: «وَأَلَا يعبد الله إلا بما شرع».

فنفي جميع العبادات المبتدعة وأثبت العبادة الشرعية الموافقة لهدي النبي ﷺ فقط.  
وهذا موافق للقاعدة المعروفة «الأصل في العبادات المنع إلا لنص» المبنية على قول النبي ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا؛ فهو رد»<sup>(٤)</sup>.

قال شيخ الإسلام: «الأصل في العبادات التوقيف فلا يشرع منها إلا ما شرعه الله تعالى وإلا دخلنا في معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ١]»<sup>(٥)</sup>.

(١) «حلية الأولياء» (١٠/٣٥٤-٣٥٥).

(٢) «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» (٢٦٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/٦١٧-٦١٨).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) «مجموع الفتاوى» (٢٩/١٧) وانظر: (٤/١٩٦) و«اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٢٦٩).

فاشترط التوقيف دال على بدعية وبطلان العبادة التي لم يرد بها دليل.  
قال ابن القيم: «الأصل في العبادات البطلان حتى يقوم دليل على الأمر»<sup>(١)</sup>، «فمن  
تقرب إلى الله بعمل لم يجعله الله ورسوله قرابة إلى الله فعمله باطل مردود عليه»<sup>(٢)</sup>.

**ثبوت العبادة إذا يتوقف على الدليل من جهتين:**

١ - ثبوت الدليل الدال على مشروعية تلك العبادة.  
فيخرج بذلك إثبات العبادة بحديث غير صحيح، أو برأي أحد، أو بالمنامات، أو  
بالكشوفات، أو الأذواق، ونحو ذلك.

٢ - ثبوت الدليل الدال على صفة هذه العبادة وكيفيةها.  
فإذا اختل هذا الشرطان أو أحدهما صار العمل مبتدعاً.  
مثال اختلال أحد الشرطين: رجل صلى الظهر ست ركعات.  
أصل مشروعية صلاة الظهر ثابت عن النبي ﷺ ومع ذلك صار هذا العمل بدعة  
لأن هذه الكيفية بركعاتها الست لم تثبت عن النبي ﷺ.  
مثال اختلال الشرطين كليهما: بدعة المولد. صلاة الرغائب.  
وفي هذا تقرير لوجوب اتباع النبي ﷺ وحده:

بل جعل الله اتباع نبيه ﷺ هو الدليل الصحيح على إيمان العبد، وصحة محبته له،  
فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على  
الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٣٤٤).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٧٨).

النبي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله»<sup>(١)</sup>.

وأمرنا الله باتباعه والافتداء به في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله»<sup>(٢)</sup>.

وحدث ﷺ على اتباع سنته والعصّ عليها بالنواجد فقال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة؛ فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعصوا عليها بالنواجد»<sup>(٣)</sup>.

وكانت نتيجة تركيز النبي ﷺ على أهمية اتباع سنته أن تشرب أصحابه ذلك وطبقوه واقعاً عملياً وربّوا على ذلك من تحت أيديهم ومن ذلك:

قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيت»<sup>(٤)</sup>.

ومثله وصية عبدالله بن عباس رضي الله عنه لعثمان بن حاضِر الأزدي حيث يقول: «دخلت على ابن عباس فقلت: أوصني فقال: نعم عليك بتقوى الله والاستقامة، اتبع ولا تبتدع»<sup>(٥)</sup>.

وطبقوها في الشدة كما كانوا يطبقونها في الرخاء فعن إبراهيم بن هانيء قال: «اختفى عندي أحمد بن حنبل ثلاثة أيام، ثم قال: اطلب لي موضعاً حتى أتحوّل إليه، قلت: لا آمن

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢٣١-٢٣٢).

(٢) المرجع السابق (١٠٨٣).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «سنن الدارمي» (١/٦٥)، «المقدمة»/ باب في كراهية الأخذ بالرأي. رقم (٢٠٥).

(٥) «سنن الدارمي» (١/٥٢)، «المقدمة»/ باب من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع. رقم (١٣٩)،

و«الإبانة» (١/٣١٩) والبعوي في «شرح السنة» (١/٢١٤).



عليك يا أبا عبدالله، قال: إذا فعلت أفدتك، فطلبت له موضعاً، فلما خرج قال لي: اختفى رسول الله ﷺ في الغار ثلاثة أيام ثم تحول، وليس ينبغي أن نتبع رسول الله ﷺ في الرخاء ونتركه في الشدة»<sup>(١)</sup>.

بل وينكرون أشد الإنكار على من قدم رأيه على سنة رسول الله ﷺ ومن ذلك ما رواه الحميدي قال: «كنت بمصر فحدث محمد بن إدريس الشافعي بحديث عن رسول الله ﷺ فقال له رجل: يا أبا عبدالله تأخذ بهذا؟ فقال: هل رأيتني خرجت من الكنيسة أو ترى عليّ زناراً. إذا ثبت عندي عن رسول الله ﷺ حديث قلت به وقولته إياه ولم أزل عنه»<sup>(٢)</sup>.

وفي التمسك بالسنة صحة العمل وقبوله، قال سفيان الثوري: «لا يستقيم قول إلا بعمل ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة»<sup>(٣)</sup> وبمثله قال الأوزاعي<sup>(٤)</sup>، والحسن البصري<sup>(٥)</sup>، والحميدي<sup>(٦)</sup>، وغيرهم.

ولو لم يكن بالتمسك بالسنة إلا صحة العمل لكفى فكيف بالتمسك بها قد سلم الله أمره وسلم من الخطأ والزلل. كما في وصية عمر بن عبدالعزيز لرجل سألته عن القدر: «أوصيك بتقوى الله والاقتصاد في أمره واتباع سنة نبيه ﷺ وترك ما أحدث المحدثون بعدما جرت به سنته، وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة، فإنها لك بإذن الله عصمة، ثم

(١) «حلية الأولياء» (٩ / ١٨٠).

(٢) «حلية الأولياء» (٩ / ١٠٦)، و«سير أعلام النبلاء» (١٠ / ٣٤).

(٣) «حلية الأولياء» (٧ / ٣٢)، «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١ / ١٥١) رقم (٣١٤).

(٤) «الإبانة الكبرى» (٢ / ٨٠٧) رقم (١٠٩٧)، و«حلية الأولياء» (٩ / ١٨٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١١ / ٢٦٤).

(٥) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١ / ٥٧) رقم (١٨).

(٦) «أصول السنة» (٣٧-٣٨).

اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة إلا مضى قبلها ما هو دليل عليها، أو عبرة فيها، فإن السنة إنما سنّها من قد علم ما في خلافها من الخطأ والزلل والحمق والتعمق، فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وبصر نافذ كفوا، وهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى، فإن كان الهدى ما أنتم عليه، لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلت إنما حدث بعدهم. ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم، فإنهم السابقون، فقد تكلموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم من مقصر، وما فوقهم من محسر، وقد قصر قوم دونهم، فجفوا، وطمح عنهم أقوام، فغلوا، وإنهم بين ذلك لعلّى هدى مستقيم<sup>(١)</sup>.

### نواقض شهادة أن محمداً رسول:

يجمع نواقض شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ أمران:

#### الأول: الطعن في شخص النبي ﷺ:

فمن طعن في شخص النبي ﷺ كفر وخرج من الدين، ويستوي في ذلك الجاد والهازل، ويدل لذلك ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

وذلك أن رجلاً قال في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء، فقال رجل<sup>(٢)</sup> في المجلس: كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ، ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: فأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله تنكبه الحجارة وهو

(١) أبو داود (١٩/٥)، كتاب «السنة»/ باب لزوم السنة. رقم (٤٦١٢).

(٢) عوف بن مالك، كما بينته الرواية الأخرى. «جامع البيان» (١٠/١٧٢).

يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦٥) لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ (١).

وفي هذه الآية دليل على أنهم كانوا مؤمنين قبل أن يقولوا ما قالوا لأن الله أثبت لهم ذلك بقوله: ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ فلما قالوا ما قالوا قال: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ﴾ (٢).

قال محمد بن سحنون (ت ٢٥٦هـ) من أئمة المالكية: «أجمع العلماء على أن شاتم النبي ﷺ والمتنقص له كافر والوعيد جاء عليه بعذاب الله له، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر» (٣).

وذلك لأن سب النبي ﷺ يتعلق به ثلاثة حقوق هي:

١ - حق الله تعالى:

ويتضح ذلك بما يلي:

أ- أنه كفر برسوله وعاداه وبارزه بالحرب.

ب- طعن في كتابه ودينه: لأن صحتها موقوفة على صحة الرسالة.

ج- طعن في ألوهيته: لأن الطعن في الرسول طعن في المرسل وتكذيب الرسول تكذيب للمرسل وهو الله تبارك وتعالى وإنكار لكلامه وأمره وخبره وكثير من صفاته.

٢ - حق جميع المؤمنين:

ويتضح بما يلي:

أ- أن الخير الذي أصابهم في دينهم كله عن طريقه ﷺ لأنه هو المبلغ عن الله تعالى.

(١) «جامع البيان» (١٧٢/١٠)، وابن أبي حاتم (١٨٢٩/٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٧٢/٧-٢٧٤).

(٣) «الصارم المسلول» (٤).

وما أصابهم في دنياهم من خير وعز وتمكين فهو بسبب تمسكهم بهذا الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ.

ب- أن النبي ﷺ أحب إلى المؤمنين به من أنفسهم وآبائهم وأبنائهم والناس أجمعين فيكون سبه ﷺ يؤذيهم أشد مما يؤذيهم سب أنفسهم وآبائهم وأبنائهم وسب الناس أجمعين.

### ٣- حق الرسول ﷺ نفسه:

وبيانه بأمرين:

أ- أن الإنسان تؤذيه الواقعة في عرضه أكثر مما يؤذيه أخذ ماله بل وأكثر مما يؤذيه الضرب والجراح.

ب- أن هتك عرض من يجب عليه أن يظهر للناس كمال عرضه وعلو قدره لينتفعوا بذلك في الدنيا والآخرة أعظم عنده من الكفر به ومحاربتة، بل ومن قتله. لأن قتله لا يقدح عند الناس في نبوته ورسالته وعلو قدره، كما أن موته كذلك بخلاف الواقعة في عرضه فإنها قد تؤثر في نفوس بعض الناس من النفرة عنه وسوء الظن به ما يفسد عليهم إيمانهم ويوجب لهم خسارة الدنيا والآخرة<sup>(١)</sup>.

### الثاني: الطعن فيما جاء به ﷺ من عند الله تعالى:

كمن يكذب ما جاء به النبي ﷺ من ربه، أو يكذب شيئاً منه كما يفعل بعض أهل البدع الذين يردون أخباره لأنها لا توافق عقولهم الكليلة كمن يردون حديث أن موسى فقاً عين ملك الموت مع صحة الحديث.

(١) انظر: «الصارم المسلول» (٢٩٣-٢٩٤).

وكمَن يعتقد أنَّ غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، وأن حكم غيره أحسن من حكمه كالذين يفضلون القانون الوضعي على حكم الله وشرعه.

وكمَن يبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ.

وكمَن يعتقد أنه يسعه الخروج عن شريعة النبي ﷺ ويرى أن السعادة تحصل بمتابعة النبي ﷺ وبغير متابعتة. وينبني على هذا عدم تكفير المشركين بل وتصحيح مذهبهم.

ولما كانت «شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله متلازمان فهما كالإيمان والإسلام إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، فإذا ذكرت شهادة أن لا إله إلا الله وحدها دخلت فيها شهادة أن محمداً رسول الله، ولا تقبل من قائلها إلا بذلك، وكذلك إذا ذكرت شهادة أن محمداً رسول الله دخل فيها شهادة أن لا إله إلا الله ولم تقبل إلا بذلك. فإذا اجتمعا صار لكل منهما معنى»<sup>(١)</sup>، لما كانت كذلك صارت شروط كل واحدة تشمل الأخرى ونواقض هذه ناقضة لتلك ومقتضياتها كذلك فلذلك آثرت عدم التكرار كيف وقد رأيت لي سلفاً في ذلك<sup>(٢)</sup>.

(١) «الحكم بغير ما أنزل الله» للمحمود (٣٨).

(٢) انظر: «فاكهة القلوب والأفواه» لشيخنا د. عبدالله بن سليمان الغفيلي (٢٠٥-٢٥٢)، و«حقوق النبي

ﷺ على أمته» د. محمد خليفة التميمي (١/٣٧-٦٠).

**وَدَلِيلُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].**

اختار المؤلف رحمه الله هذا الدليل لأن الله جمع فيه بين التوحيد والصلاة والزكاة ليدل على أنهما مع عظمهما في الأعمال لا تقبلان ولا تنفعان إلا بالتوحيد.

﴿وَمَا أُمِرُوا﴾: أمروا من الأمر وهو واحد الأوامر ومعناه طلب الفعل على سبيل الإلزام أو الاستحباب.

أي: وما أمروا في سائر الشرائع إلا بالإخلاص لله وحده.

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا﴾: إلا استثناء مفرغ من أعم الأحوال؛ «أي: ما أمروا بأي شيء إلا بأن يعبدوا»<sup>(١)</sup>. أي: يعبدوا الله وحده.

وإذا أمر الله العبد بالعمل وجب عليه فيه سبع مراتب:

الأولى: العلم به.

الثانية: محبته.

الثالثة: العزم على فعله.

الرابعة: العمل (فعله).

الخامسة: أن يقع على المشروع خالصاً صواباً.

السادسة: الحذر من فعل ما يحبطه.

السابعة: الثبات عليه<sup>(٢)</sup>.

(١) «التحرير والتنوير» (١٦ / ٣٥٥).

(٢) «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (٢ / ٣٨-٣٩).

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. والاستثناء من النفي إثبات. فأثبت الله العبادة له وحده لا شريك له.

﴿لِيَعْبُدُوا﴾: أي إلا أن يعبدوا الله. وهي قراءة ابن مسعود.

﴿اللَّهُ﴾: مشتق من أَلَهَ يَأْلُهُ أُلُوهَةً فهو مألوه أي معبود.

﴿وَمَا أُمِرُوا﴾: نفي. ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾: إثبات فهي بمعنى لا إله إلا الله، ثم أكد التوحيد بقوله:

﴿مُخْلِصِينَ﴾: خلص: الخاء واللام والصاد أصل واحد مطرد وهو تنقية الشيء وتهذيبه<sup>(١)</sup> والتخليص: التصفية<sup>(٢)</sup>، ومنه ﴿لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].  
والإخلاص: هو تجريد النية عن شوائب الشرك.

﴿لَهُ﴾: الضمير يعود إلى الله.

﴿الَّذِينَ﴾: هو الطاعة الدائمة اللازمة وهو دين الإسلام.

فمعنى ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾: أي مفردين لله الطاعة والعبادة. فلم يشوبوا أعمالهم برياء ولا سمعة ولا شرك.

﴿حُنَفَاءَ﴾: أي مستقيمين مخلصين متبعين وذكره بعد الإخلاص للتأكيد.

وقدّم الإخلاص على الصلاة والزكاة لأمر:

١ - أن الإخلاص عمل قلب وعمل القلب هو الأصل لعمل الجوارح.

٢ - التنبيه على أهمية الإخلاص بداية واستمراراً.

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ١٦٨).

(٢) «تاج العروس» (١/ ١٤٤٠).

٣- أن الصلاة والزكاة لا تصحان ولا تقبلان إلا به.

﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: إقام الصلاة هو أداء الصلوات المكتوبات في أوقاتها بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها قدر الطاقة والاستطاعة.

وذكر الصلاة بعد التوحيد لأنه «لا عمل بعد توحيد الله أفضل من الصلاة لله، لأنه افتتحها بالتوحيد، والتعظيم لله بالتكبير، ثم الثناء على الله وهي قراءة فاتحة الكتاب، وهي حمد لله وثناء عليه وتمجيد له ودعاء، وكذلك التسبيح في الركوع والسجود، والتكبيرات عند كل خفض ورفع كل ذلك توحيد لله، وتعظيم له وختمها بالشهادة له بالتوحيد ولرسوله بالرسالة وكان ركوعها وسجودها خشوعاً له وتواضعاً، ورفع اليدين عند الافتتاح والركوع ورفع الرأس تعظيماً وإجلالاً له ووضع اليمين على الشمال بالانتصاب لله تذلاً له وإذعاناً بالعبودية»<sup>(١)</sup>.

﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾: أي يعطوها مستحقيها من الفقراء والمحتاجين محسنين بإعطائها لهم عند وجوبها دون تأخير.

وجمع الله بينهما مع التوحيد لأن الصلاة أشرف الأعمال البدنية. والزكاة أشرف الأعمال المالية، فمن فعلهما على الوجه المطلوب كان حرياً به أن يفعل غيرهما من شرائع الدين.

﴿وَذَلِكَ﴾: أي الذي أمروا به من التوحيد وإخلاص العمل لله وفعل الطاعات وعلى رأسها الصلاة والزكاة.

﴿دِينُ الْقِيَمَةِ﴾: أي دين الملة المستقيمة والهاء للمبالغة كقولك: علامة ونسابة فيكون معنى القيمة: أي التي بلغت في الاستقامة غايتها وأعلاها<sup>(٢)</sup> وأهلها من الرسل عليهم السلام وأتباعهم هم القائمون بالحق فاجتمع في ذلك أمران:

١ - استقامتها هي.

٢ - استقامة أهلها.

(١) «تعظيم قدر الصلاة» (١/٢٦٨).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير» (١٦/٣٥٦) و«أضواء البيان» (٩/٢٥٩).



**ودليل الصيام قوله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

﴿يَا أَيُّهَا﴾: تصدير الحكم بالنداء دليل على الاهتمام به لأنَّ النداء يوجب انتباه المنادى.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: آمنوا بالله ورسوله وأقروا: ناداهم الله بوصف الإيمان. وفي هذا دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان وعلى أن فواته نقص في الإيمان. قال ابن مسعود رحمه الله: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فَأَرْعَهَا سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه»<sup>(١)</sup>.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾: كتب: أي فرض وأوجب. وحذف الفاعل للعلم به. الصيام في اللغة: الإمساك. ومنه قوله تعالى: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ بدليل قوله في آخر الآية: ﴿فَلَنُ أَكْلِمَ الْيَوْمَ أَنِسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]. ومنه قول الشاعر:

خيل صيام وخيل غير صائمة      تحت العجاج وأخرى تَعْلُكُ اللَّجْمَا<sup>(٢)</sup>

خيل صيام: أي ممسكة عن الجري.

في الاصطلاح: هو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله عز وجل من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس<sup>(٣)</sup>.

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ١٩٦).

(٢) «العين» (١/ ٢٠٢).

(٣) وعرفه الطبري: «بأنه الكف عما أمر الله بالكف عنه». «جامع البيان» (٤/ ٤٠٩). وانظر: «شرح مراقبي السعود» للشنقيطي (١/ ١٢٧).

﴿كَمَا كُنِبَ﴾: الكاف تفيد التشبيه تشبيه الكتابة بالكتابة «كتب عليكم ككتابتة على الذين من قبلكم» لأن الكاف دخلت على الفعل الذي يؤول على مصدر<sup>(١)</sup> أي فرض عليكم كما فرض على الذين من قبلكم.

﴿عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: أي على جميع الأمم وفي ذلك فائدتان:

١ - أن لنا فيهم أسوة وقدوة.

٢ - ننافسهم فنجتهد في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله من كان قبلنا.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: لعل هنا للتعليل أي لتصلوا بذلك إلى رتبة التقوى. وهذه هي الحكمة من فرض الصوم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تَتَّقُونَ﴾ أي تتقون بالصوم لأن الصوم موصل إلى التقوى لما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات.

قال ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء»<sup>(٢)</sup>.

والتقوى أصلها (وَقَوَى) وهي اتخاذ وقاية من عذاب الله وذلك بفعل أوامر الله واجتناب نواهيه<sup>(٣)</sup>.

وعرف العلماء التقوى بعدة تعريفات منها:

قال علي بن أبي طالب عليه السلام: «الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل».

(١) «تفسير القرآن الكريم» للعثيمين (٢/ ٣١٦).

(٢) البخاري مع الفتح (٩/ ١٠٦)، كتاب «النكاح»/ باب قول النبي ﷺ من استطاع منكم الباءة فليتزوج. رقم (٥٠٦٥)، ومسلم (٢/ ١٠١٨)، كتاب «النكاح»/ باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه. رقم (١٤٠٠).

(٣) «تفسير القرآن الكريم» للعثيمين (١/ ٣٣٥).

وقال طلق بن حبيب: «التقوى عمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نورٍ من الله والتقوى ترك معصية الله مخافة عقاب الله على نور من الله»<sup>(١)</sup>.

وفسرها السلف تفسيرًا عمليًا؛ لأن التفسير العملي أبلغ في الفهم ومن ذلك: أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل كعب الأحمري عن التقوى؟ قال كعب: هل أخذت طريقًا ذا شوك. قال: نعم. قال: فما عملت فيه؟ قال: حذرت وشمريت. قال كعب: وذلك التقوى<sup>(٢)</sup>.

ومثله عن أبي هريرة رضي الله عنه لما سأله رجل ما التقوى؟ قال أبو هريرة: هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه. قال أبو هريرة «ذاك التقوى»<sup>(٣)</sup>.

وأعلى درجات التقوى أن يترك المسلمُ بينه وبين الحرام حرجًا؛ حذرًا من الوقوع في الحرام. قال عليه السلام: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتَّى يدع ما لا بأس به حذرًا لما به البأس»<sup>(٤)</sup>.

وبمعنى الحديث يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: «إنَّ تمام التقوى أن يتَّقِيَ الله العبدُ في مثقال ذرة حتَّى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حرامًا يكون حجابًا بينه وبين الحرام»<sup>(٥)</sup>.

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (٢٣/١١) رقم (١٠٤٠٥).

(٢) «معالم التنزيل» (١/٤٥).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/٤٧٢).

(٤) الترمذي (٤/٦٣٤)، كتاب «صفة القيامة». رقم (٢٤٥١)، وقال: «حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

(٥) «الورع» لأحمد (٤٢) رقم (١٦١).

**ودليل الحج قوله تعالى:** ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

قال ابن كثير: «هذه آية وجوب الحج عند الجمهور»<sup>(١)</sup>.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ﴾: لله خبر مقدم. وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر - أي حصر الحج لله وحده - قال الطبري: أي الحج فرض واجب لله<sup>(٢)</sup>.

وقوله ﴿عَلَى النَّاسِ﴾: دليل على وجوب الحج على الإنس والجن معاً.

﴿حِجُّ الْبَيْتِ﴾: والمقصود بالبيت هو الكعبة التي شرفها الله والألف واللام للعهد الذهني فالناس كانوا يحجونه قبل بعثة نبينا محمد ﷺ وذلك من بقايا دين إبراهيم عليه السلام.

وتخصيص الحج بالبيت (الكعبة) دليل على أن حج غيره باطل كالحج إلى المشاهد.

﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾: أي وجد ما يتمكن به من الذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج. «قال مالك: السبيل: القدرة. والناس على قدر طاقتهم وسيرهم وجلدهم»<sup>(٣)</sup>. وقيل: القدرة على الحج الزاد والراحلة وأضاف بعضهم الصحة، ولعل القول الأول أرجح.

ولما كان الحج ظاهراً بين الناس ويعتري الحاج ما يعتريه من حب الشاء والرياء والرفعة في قلوب الخلق أو حب الدنيا والحج من أجلها، نبه الله على وجوب الإخلاص فيه قبل أن يأمر به فقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾.

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢٤٩).

(٢) «جامع البيان» (١٥ / ٣).

(٣) «التحرير والتنوير» (١٦٧ / ٣).

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الوفد كثير والحاج قليل»<sup>(١)</sup>.

﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾: أي ومن كفر بتركه الحج ولم يرفع به رأسًا ولم يُجِبْ داعي الله فهو الخاسر ولهذا عقبها بقوله:

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾: «إِنَّ» لتوكيد غنى الله ﷻ. ولقد كرر الله غناه عن العباد في مواضع كثيرة من كتابه، منها قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وقوله: ﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]، فإحسان المرء لنفسه وإساءته عليها كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]. ومعنى الغني: الذي ليس بمحتاج إلى غيره، فليس الغني على الحقيقة إلا الله؛ لأنه الغني في الحقيقة عن جميع الأشياء، وكلنا إليه مفتقر محتاج<sup>(٢)</sup>. وهذا هو الغني المطلق وهو خاص بالله تعالى.

﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾: كلهم فلا حاجة به إليهم ولا إلى عبادتهم، فمعصية العاصي، وكفر الكافر لا يضر الله شيئًا، وذلك لكمال غناه.

قال الشنقيطي عند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ يدل على أن من لم يحج كافر، والله غني عنه<sup>(٣)</sup>. وعن عمر بن الخطاب أنه قال: «من أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه يهوديًا مات أو نصرانيًا»<sup>(٤)</sup>.

(١) «معالم التنزيل» (١/ ١٦٦).

(٢) «اشتقاق الأسماء» (١١٧-١١٨).

(٣) «أضواء البيان» (١/ ٢٣٦).

(٤) «مسند الفاروق» لابن كثير (١/ ٢٩٢) وقال: «إسناده صحيح».

واشتملت هذه الآية على أنواع من التأكيدات على وجوب الحج هي:

١ - قوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ فكونه إلهًا ألزمهم بهذه الطاعة وكونهم عبيدًا له وجب عليهم الانقياد.

٢ - كونه تعالى ذكر ﴿النَّاسِ﴾ ثم ﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فأجمل أولاً ثم فصل ثانياً، دليل على شدة الاهتمام.

٣ - أنه سبحانه عبّر عن الوجوب بعبارتين إحداهما لام الملك في قوله ﴿وَلِلَّهِ﴾ وثانيهما حرف (على) في قوله ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ وهي دالة على الوجوب أيضاً.

٤ - أنه سبحانه نكّر السبيل في سياق الشرط إيذاناً بأنه يجب الحج على أي سبيل تيسرت فعلق الوجوب بما يسمى سبيلاً.

٥ - أنه سبحانه قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ موضع (ومن لم يحج) وهذا تغليظ شديد في حق تارك الحج حيث هدد تارك الحج بالكفر.

٦ - تعظيمه سبحانه الشأن وتأكيد الوعيد حيث أخبر باستغنائه عنه فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ قال ابن القيم: «والله تعالى هو الغني الحميد ولا حاجة به إلى حج أحد وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقتته له، وسخطه عليه، وإعراضه بوجهه عنه ما هو من أعظم التهديد وأبلغه»<sup>(١)</sup>.

٧ - ذكره تعالى غناه ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ عمومًا، ولم يقل فإن الله غني عنه، لأنه إذا كان غنياً عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه عن كل أحد فكان أدلّ على عظم مقتته لتارك حقه الذي أوجبه إليه<sup>(٢)</sup>.

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٥).

(٢) هذه التأكيدات مستفادة من «بدائع الفوائد» لابن القيم (٢/ ٤٢-٤٥).

## المرتبة الثانية: الإيمان.

لفظ المرتبة: يدل على العلو والترقي. قال الأصمعي المرتبة: المرقبة وهي أعلى الجبل. ومعناها: المنزلة الرفيعة<sup>(١)</sup>.

وقوله المرتبة الثانية: أي المرتبة الثانية من مراتب الدين هي مرتبة الإيمان. الإيمان لغة: مصدر آمن يؤمن إيماناً فهو مؤمن وأصله من الأَمْن وهو ضد الخوف، وفُسرَ بعدة معانٍ فقليل هو التصديق، وقليل الثقة، وقليل الطمأنينة، وقليل الإقرار<sup>(٢)</sup>. وأولى هذه الأقوال في معنى الإيمان هو (الإقرار) لأنه أصدق في الدلالة على معنى الإيمان من غيره من الألفاظ التي فسر بها الإيمان.

ويتضح ذلك بما يلي:

١ - أن لفظة الإقرار هي الواردة في الشرع:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءُ اتَّيْتُكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

ومن السنة حديث جرير بن عبد الله عندما ذكر الراكب الذي جاء إلى النبي ﷺ يسأله عن الإيمان فقال: يا رسول الله! علمني ما الإيمان؟ قال: «تشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت» قال: قد

(١) «الصحاح» (١/١٣٣)، و«اللسان» (١/٤١٠).

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (١٥/٥١٣-٥١٦). و«الصحاح» (٥/٢٠٧١) و«القاموس المحيط» (١٥١٨)

و«المفردات» (٣٥) و«الصارم المسلول» (٥١٩).

أقررت...»<sup>(١)</sup>.

٢- أن لفظ الإقرار يتضمن إنشاء الالتزام بالعمل بخلاف التصديق فإنه لا يلزم منه العمل كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾ [آل عمران: ٨١]. فأقروا ملتزمين بالإيمان بالرسول وبنصره<sup>(٢)</sup>.

الإيمان اصطلاحًا: قول وعمل يزيد وينقص<sup>(٣)</sup>.

بل أجمع أهل العلم على ذلك ومن نقل الإجماع الإمام الشافعي، فقال: «وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون: إن الإيمان قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر»<sup>(٤)</sup>.

ونقله ابن عبد البر فقال: «أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية والطاعات كلها عندهم إيمان»<sup>(٥)</sup>، وكذلك البخاري<sup>(٦)</sup>، والبخاري<sup>(٧)</sup>، وغيرهم.

وتارة يزيدون التعريف بيانًا فيقولون: «قول وعمل ونية وسنة».

(١) سبق تخريجه.

(٢) وقد نصر هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية وجزم بصحته من ستة أوجه. «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٩٠-٢٩٧) و (٥٢٩-٥٣٢).

(٣) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١/ ١٧٦) وانظر: «صريح السنة» (٢٥) و«التمهيد» (٩/ ٢٣٨) وغيرهم.

(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» لللالكائي (٣/ ٩٥٦-٩٥٧).

(٥) «التمهيد» (٩/ ٢٣٨).

(٦) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ١٧٢).

(٧) «شرح السنة» (١/ ٧٨).



يفسره سهل فيقول: «لأن الإيمان إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفرٌ. وإذا كان قولاً وعملاً بلا نية فهو نفاق. وإذا كان قولاً وعملاً ونية بلا سنة فهو بدعة»<sup>(١)</sup>.

ومعنى قول السلف قول وعمل، أي: «قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح»<sup>(٢)</sup>.

ف«قول القلب هو: التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويدخل فيه الإيمان بكل ما جاء به الرسول ﷺ»<sup>(٣)</sup>.

فقول القلب إذاً هو: العقائد التي يعتقدها المسلم وينطوي عليها قلبه<sup>(٤)</sup>.

واختصره ابن القيم بكلمة واحدة فقال: قول القلب «هو الاعتقاد»<sup>(٥)</sup>.

وأدلة ذلك كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾<sup>(٣٣)</sup> لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ

عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿[الزمر: ٣٣-٣٤].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾<sup>(١٧٥)</sup>.

وأما قول اللسان: فهو النطق بالشهادتين وبما يؤمن به.

وضابطه: «هو الخبر عما في القلب»<sup>(٦)</sup>.

(١) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (٢/ ٨١٤).

(٢) «العقيدة الواسطية» (١٢٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦٧٢)، وانظر: «مدارج السالكين» (١/ ١٠٠).

(٤) انظر: «الصلاة» لابن القيم (٥٤).

(٥) «الصلاة» (٢٤).

(٦) «إغاثة اللهفان» (١/ ١١).

ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا...﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

وقوله ﷺ: «من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وأنَّ عيسى عبد الله وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأنَّ الجنة حقُّ والنار حقُّ، أدخله الله الجنة على ما كان من عمل»<sup>(١)</sup>.

ففي هذه الأدلة بيان أن النطق بالشهادتين وبما يؤمن به هو قول اللسان وما عداه فهو عمله.

وأما عمل القلب: فهو انقياده لما صدَّق به<sup>(٢)</sup>.

وضابطه: حركة القلب.

ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

فالوجل هنا حركة القلب من خشية الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقوله ﷺ: «آية الإيمان حبُّ الأنصار، وآية النفاق بغضُّ الأنصار»<sup>(٣)</sup>.

قال السعدي: «والفرق بين أقوال القلب وبين أعماله أن أقواله هي: العقائد التي يعترف بها القلب، ويعتقدها، وأما أعمال القلب فهي حركته التي يحبها الله ورسوله»<sup>(٤)</sup>.

(١) مسلم (١/ ٥٧)، كتاب «الإيمان» / باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً. رقم (٢٨).

(٢) «الإيمان» لشيخ الإسلام (١٦٢)، نقلاً عن «ظاهرة الإرجاء» (١/ ٢٢٥).

(٣) البخاري مع الفتح (١/ ٦٢)، كتاب «الإيمان» / باب علامة حب الأنصار. رقم (١٧)، ومسلم (١/ ٨٥)، كتاب «الإيمان» / باب الدليل على حب الأنصار وعلى رضى الله عنهم من الإيمان وعلاماته. رقم (٧٤).

(٤) «التنبيهات اللطيفة» (٨٥).

وأما عمل اللسان: فهو فعل جميع العبادات التي لا تؤدي إلا به:

كقراءة القرآن والذكر والتسبيح والتهليل ونحو ذلك<sup>(١)</sup>.

ويدل لذلك الحديث السابق في قول اللسان؛ حيث جعل الشهادتين وما يؤمن به قول اللسان وما عدا ذلك عمله.

وأما عمل الجوارح: فهو العبادات التي لا تؤدي إلا بها:

كالقيام والركوع والسجود والمشي إلى المساجد والطواف والسعي والوقوف بعرفة، والجهاد في سبيل الله.

ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ

لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: ٧٧-٧٨].

وينبغي أن يعلم أن هذه الأمور الخمسة سلسلة متصلة يأخذ بعضها برقاب بعض فيبدأ أولاً قول القلب ثم ينشأ عنه عمله وعن ذلك ينشأ عمل الجوارح.

ويتضح ذلك بالمثل:

١ - الإيمان بالنار:

إذا آمن العبد بوجود (النار) وصدق بها قلبه أول الأمر: نتج عن ذلك حركة القلب بخوفه منها وبسبب ذلك الخوف تحركت الجوارح بفعل الطاعات والبعد عن المعاصي لأجل النجاة من هذا الأمر المخوف وهو النار.

٢ - الإيمان بالجنة: إذا آمن العبد بوجود (الجنة) وصدق بها قلبه أول الأمر نتج عن ذلك حركة القلب بمحبتها والرجاء أن يكون من أهلها وبسبب تلك المحبة والرجاء

(١) انظر: «الإيمان» لابن منده (١/ ٣٩٢).

تحركت الجوارح بفعل الطاعات والبعد عن المعاصي والمشتبهات أملاً في الوصول إليها كما فعل عمير بن الحمام.

قال شيخ الإسلام: «وإذا قام بالقلب التصديق بالحق والمحبة له، لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة»<sup>(١)</sup>.

وقال حافظ حكيمي مؤكداً ترابطها: «ومحال أن ينتفي انقياد الجوارح بالأعمال الظاهرة مع ثبوت عمل القلب» قال النبي ﷺ: «ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»<sup>(٢)</sup>»<sup>(٣)</sup>.

يزيد بالطاعة: أي أن الإيمان يزداد بفعل الطاعات.

ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. ففي هذه الآية التصريح الواضح بزيادة الإيمان وهي كقوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩]، والخشوع من أعمال القلب فإذا زاد الخشوع زاد الإيمان. ومثله طلب إبراهيم عليه السلام رؤية إحياء الموتى لأجل اطمئنان قلبه ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَئِمُتُو مِنِّي قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطْمِئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فالطمأنينة من أعمال القلوب فإذا زادت الطمأنينة زاد الإيمان. قال سعيد بن جبير ومالك بن أنس: ﴿لِيُطْمِئِنَّ قَلْبِي﴾ ليزداد إيماني<sup>(٤)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦].

(١) «مجموع الفتاوى» (٥٤١ / ٧).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «معارج القبول» (٢٢-٢٣).

(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٨٩٦ / ٥).

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: «فلولا أن هناك موضع مزيد ما كان لأمره بالإيمان معنى»<sup>(١)</sup> وكان من دعاء عبد الله بن مسعود: «اللهم زدني إيماناً و يقيناً وفهماً»<sup>(٢)</sup>، وقوله ﷺ: «مَنْ حَجَّ فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»<sup>(٣)</sup>.

### وينقص بالمعصية:

ومما يدل على أن الإيمان ينقص أنه يَخْلُقُ في جوف العبد كما قال ﷺ: «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم»<sup>(٤)</sup>. فكونه يخلق أي: يبلى ويدخله النقص والضعف مما يقع العبد فيه من الآثام<sup>(٥)</sup>. وقال الحميدي: سمعت سفيان يقول: «الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص» فقال له أخوه إبراهيم بن عيينة: يا أبا محمد لا تقول: ينقص. فغضب وقال: اسكت يا صبي بل حتى لا يبقى منه شيء»<sup>(٦)</sup>.

ومن الأمثلة على نقص العمل بالمعصية قول النبي ﷺ: «من اقتنى كلباً إلا كلباً ضارياً لصيدٍ أو كلب ماشية؛ فإنه ينقص من أجره كل يوم قيراطان»<sup>(٧)</sup>.

(١) «الإيمان» (٦٥).

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (١٠٥ / ٩) رقم (٨٥٤٩)، و«الشرعة» (٥٨٥ / ٢) رقم (٢١٨).

(٣) البخاري مع الفتح (٣ / ٣٨٢)، «كتاب الحج» / باب فضل الحج المبرور، رقم (١٥٢١).

ومسلم في (٢ / ٩٨٣)، «كتاب الحج» / باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة. رقم (١٣٥٠).

(٤) «المستدرک» (١ / ٤٥)، وقال: «رواه مصريون ثقات»، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٤ / ٦٩) رقم

(١٤٦٦٨)، قال الهيثمي: «رواه الطبراني في «الكبير»، وإسناده حسن». «مجمع الزوائد» (١ / ٥٢) رقم

(١٥٨).

(٥) انظر: «منهاج السنة» (٥ / ٢٩٧).

(٦) «أصول السنة» (٤١).

(٧) البخاري مع الفتح (٩ / ٦٠٨)، «كتاب الذبائح والصيد» / باب من اقتنى كلباً ليس بكلب صيد أو =

بل إن الغفلة لتنقص الإيمان كما في حديث حنظلة الأسيدي قال: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال قلت: نافق حنظلة. قال: سبحان الله ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله يذكرنا بالنار والجنة حتى كأننا رأي عين فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرًا. قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ قلت: نافق حنظلة يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟» قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأننا رأي عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرًا فقال رسول الله: «والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم. ولكن يا حنظلة ساعة وساعة، ثلاث مرّات»<sup>(١)</sup>.

فانظر رحمك الله كيف يزداد إيمانهم بالذكر حتى كأنهم يرون النار والجنة ماثلتين أمام أعينهم. ثم ينشغلون في أمور دنياهم فيحسون بنقص ذلك عندهم. فرضي الله عنهم وأرضاهم ما أقوى إحساسهم بزيادته ونقصه وأحرصهم على المحافظة عليه.

وقال عمير بن حبيب بن خماشة (من أصحاب الشجرة) مبيّنًا أن الغفلة من أسباب نقص الإيمان: «الإيمان يزيد وينقص فقل فيما زيادته وما نقصانه قال: إذا ذكرنا ربنا وخشيناه فذلك زيادته وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه»<sup>(٢)</sup>.

ماشية. رقم (٥٤٨١)، ومسلم (٣/١٢٠٢)، كتاب «المساقاة»/ باب الأمر بقتل الكلاب وبيان نسخها، وبيان تحريم اقتنائها إلا لصيد أو زرع، أو ماشية. رقم (١٥٧٤).

(١) مسلم (٤/٢١٠٦)، كتاب «التوبة»/ باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات. رقم (٢٧٥٠).

(٢) «الإيمان» لابن أبي شيبة (٧) رقم (١٤).

بقي أن نتساءل: ما مدى تأثير إيماننا بزيادة الإيمان ونقصه علينا في حياتنا؟ هل نحن لما عرفنا أن الإيمان يزيد بالطاعات حرصنا عليها وأكثرنا منها ليزداد إيماننا ويقوى؟. وهل نحن لما عرفنا أن الإيمان ينقص بالمعاصي اجتنبناها كي يسلم لنا إيماننا. ينبغي أن يراجع كلُّ منّا نفسه؛ ويحرص على فعل كل ما فيه زيادة إيمانه والمحافظة عليه.

وَهُوَ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ  
الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ.

البضع: ما بين الثلاثة إلى العشرة.

قال الفراء: البضع ما بين الثلاثة إلى ما دون العشرة.

وقال شمر: البضع لا يكون أقل من ثلاث ولا أكثر من عشرة<sup>(١)</sup>.

وذكر ابن حجر: اتفاق المفسرين على أَنَّ البضع ما بين الثلاث إلى التسع<sup>(٢)</sup>.

ويؤيده ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿الْمَ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم: ١]-

٢٢ قال: غُلِبَتْ وَغُلِبَتْ قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل  
أوثان وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، فذكره لأبي  
بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله؛ فقال رسول الله ﷺ: «أما إنهم سيغلبون» قال: فذكره أبو  
بكر لهم فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا وإن ظهرتم كان لكم  
كذا وكذا فجعل أجلاً خمس سنين، فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال: «أَلَا  
جَعَلْتَهَا إِلَى دُونَ» قال: أراه قال: العشر؟ قال: قال سعيد بن جبير: البضع ما دون العشر  
ثم ظهرت الروم بعدُ فذلك قوله: ﴿الْمَ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ  
الْمُؤْمِنُونَ﴾ قال: يفرحون ﴿يَنْصُرِ اللَّهُ﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) «تهذيب اللغة» (١/ ٤٨٨).

(٢) «فتح الباري» (١/ ٥١).

(٣) أحمد (١/ ٢٧٦)، والترمذي (٣٤٣-٣٤٤)، كتاب «تفسير القرآن» / باب ومن سورة الروم. رقم  
(٣١٩٣)، وقال: «حسن صحيح غريب»، قال ابن القيم: «وإسناده على شرط الصحيح، وقد صححه  
الترمذي وغيره». «الفروسية» (١٤٥)، وقال ابن حجر: «رواه الترمذي بسند صحيح». «فتح الباري»  
(١/ ٥١).



فقوله: بضع وسبعون ما بين ثلاث وسبعين وتسع وسبعين شعبة.

والشعبة: في الأصل واحدة الشُعْبِ وهي الفرقة والطائفة من الشيء والقطعة منه<sup>(١)</sup>.

قوله بضع وسبعون: ورد في عدِّ الشعب عدة روايات:

الأولى: بضع وستون. قال ﷺ: «الإيمانُ بضعٌ وستونُ شعبة، والحياةُ شعبةٌ من الإيمان»<sup>(٢)</sup>.

الثانية: بضع وسبعون شعبة. ويدل لها قول النبي ﷺ: «الإيمانُ بضعٌ وسبعونُ أو بضع وستونُ شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياةُ شعبةٌ من الإيمان»<sup>(٣)</sup>.

الثالثة: بضع وتسعون ويدل لها قول النبي ﷺ: «الإيمانُ بضع وتسعون أو بضع وسبعون شعبة، أعظم ذلك قول: لا إله إلا الله، وأدنى ذلك كفُّ الأذى عن الطريق، والحياةُ شعبةٌ من الإيمان»<sup>(٤)</sup>.

ورجح الإمام أحمد رواية (بضع وستين) لأن سليمان لم يشك فقال: «وهذا الشك وقع من سهيل بن أبي صالح في (بضع وستين) أو في (بضع وسبعين) وسليمان بن بلال قال: (بضع وستون) لم يشك فيه وروايته أصح عند أهل العلم بالحديث»<sup>(٥)</sup>.

(١) «اللسان» (٤٩٩ / ١) و«النهاية» لابن الأثير (١١٦٧ / ٢) مادة (شعب).

(٢) البخاري مع الفتح (٥ / ١)، كتاب «الإيمان» / باب أمور الإيمان. رقم (٩) من طريق سليمان بن بلال عن عبدالله بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة.

(٣) مسلم (٦٣ / ١)، كتاب «الإيمان» / باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها. رقم (٣٥) من طريق سهيل عن عبدالله بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة.

(٤) «الإيمان» لابن منده (٢٩٧ / ١) من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن أبي صالح، عن أبي هريرة.

(٥) «الجامع لشعب الإيمان» (١٠٠ / ١).

وكذلك ابن حجر حيث قال: رواية (بضع وستين) هو المتيقن وما عداه مشكوك فيه، وردَّ على من قال بأن الزيادة زيادة ثقة بأن الذي زادها لم يستمر على الجزم بها لاسيما مع اتحاد المخرج. قال: وبهذا يتبين شُفُوفُ نظر البخاري<sup>(١)</sup>. وهو ما رجحه ابن الصلاح لأن الأقل هو المتيقن<sup>(٢)</sup>.

ومن العلماء من رجح بضعاً وسبعين شعبة وقال: إنها زيادة ثقة، وزيادة الثقة مقبولة ويفهم من صنيع المؤلف رحمته أنه يرجح هذا القول.

واختلف العلماء هل خصال الإيمان وشعبه تنحصر في بضع وسبعين أو بضع وستين على أقوال أقربها للصواب:

١- أن ذكر السبعين على وجه التكاثر للعدد لا على وجه الحصر وذلك لأن خصال الخير تزيد على ذلك زيادة كثيرة.

٢- أن خصال الإيمان كلها تنحصر في بضع وسبعين أو بضع وستين نوعاً وإن كانت أفراد كل نوع تتعدد تعدداً كثيراً<sup>(٣)</sup>.

ولعل هذا هو الراجح لأمر:

أ- أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكرها على سبيل البيان والإيضاح.

ب- أن النبي صلى الله عليه وسلم حدد أعظمها وأدناها وفي هذا دليل على أن العدد مقصود.

ج- تتابع العلماء على تعدادها فمنهم من أفرد لها كتاباً مستقلاً ومنهم من عدها في ثنايا كتابه.

(١) «فتح الباري» (١/ ٥٢).

(٢) «صيانة صحيح مسلم» (١٩٧).

(٣) «فتح الباري» لابن رجب (١/ ٣٠-٣١)، وانظر: «الإيمان» لأبي عبيد (٦١).

ومن الكتب المفردة:

- ١ - «وصف الإيمان وشعبه» لابن حبان وعدد الشعب ٧٩ شعبة.
- ٢ - «المنهاج» للحليمي وعدد الشعب ٧٧ شعبة.
- ٣ - «الجامع لشعب الإيمان» للبيهقي وعدد الشعب ٧٧ شعبة.
- ٤ - «مختصر شعب الإيمان» للقزويني وعدد الشعب ٧٧ شعبة.
- ٥ - «خصال الإيمان» لأبي حفص عمر بن شاهين، وعدد الشعب (٧٥) شعبة<sup>(١)</sup>.

ومن اعتنى بحصرها في ثانيا كتبهم:

- ١ - الإمام اللالكائي وعدد الشعب التي عدّها ٧٢ شعبة<sup>(٢)</sup>.
- ٢ - الإمام ابن بطة وعدد الشعب التي عدّها ٧٠ شعبة<sup>(٣)</sup>.
- ٣ - البخاري حيث تتبع ابن رجب تبويباته على خصال الإيمان والإسلام فبلغت فوق السبعين<sup>(٤)</sup>.

(أعلاها قول: لا إله إلا الله):

أعلاها: فسرّتها الروايات بأنها أرفعها<sup>(٥)</sup> وأعظمها<sup>(٦)</sup> وأفضلها<sup>(٧)</sup>.

(١) «الإيمان» للقاضي أبي يعلى (١٨٥).

(٢) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٥/ ٩١١-٩٤٠).

(٣) «الإبانة الكبرى» (٢/ ٦٥٠-٦٥٣) تحقيق رضا نعتسان.

(٤) «فتح الباري» (١/ ٣٠-٣١).

(٥) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٣٣) رقم (٢).

(٦) «المصنف» لابن أبي شيبه (٨/ ٥٢١-٥٢٢) رقم (٥٣٩١)، و«الإيمان» لابن منده (١/ ٢٩٧).

(٧) سبق تخرجه.

وصارت لا إله إلا الله أعلاها لأمر:

١ - أن لا إله إلا الله هي قطب رحي الإيمان وأصل الدين وإليها يرجع الأمر كله فهي الكلام الفارق بين أهل الجنة وأهل النار وهي ثمن الجنة ولا يصح إسلام إلا بها ومن كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة.

٢ - فضيلة آية الكرسي على غيرها من القرآن. فهي أفضل آي القرآن وذلك لأن فيها ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٣ - أن الكتب المنزلة مجموعة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا كُنَّا نَسْتَعِيبُ﴾ [الفاتحة: ٥] وهي معنى لا إله إلا الله.

٤ - لا إله إلا الله تقتضي الإخلاص والتوكل، والإخلاص يقتضي الشكر فهي أفضل الكلام وأعلى شعب الإيمان.

٥ - أن الحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله من معنى لا إله إلا الله؛ فتكون لا إله إلا الله أفضل منهن<sup>(١)</sup>.

(وأدناها إمطة الأذى عن الطريق):

أدناها: أي أقلها وأوضعها كما في رواية النسائي: «وأوضعها إمطة الأذى عن الطريق»<sup>(٢)</sup>.

وليس في قوله أدناها تنقيص لها ومذمة لها، بل هو وصف لها بأنها أقل من غيرها من الشعب وإلا فأجرها عظيم عند الله تعالى قد تصل بالعبد إلى أن يغفر الله له ذنوبه كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «بينما رجلٌ يمشي بطريقٍ وجد غصن

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤٢٠-٤٢١) و (٢٤/ ٢٣٥-٢٣٩)، و«التمهيد» (٦/ ٤٢-٥٩).

(٢) «سنن النسائي» (٨/ ١١٠)، كتاب «الإيمان وشرائعه» / باب ذكر شرائع الإيمان.

شوكٍ على الطريق، فأخّره، فشكر الله له فغفر له»<sup>(١)</sup>.

«ففي هذا دليل على أن الرجل لم يكن هو الملقى للغصن على الطريق فيكون واجباً عليه أن يميّطها إنما كان متطوعاً بإمالتها»<sup>(٢)</sup> ومع ذلك كسب هذا الأجر العظيم.

وحديث أبي برزة الأسلمي قال: قلت يا رسول الله! دلني على عملٍ يدخلني الجنة أو أنتفع به قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين»<sup>(٣)</sup>.

ومما يوضح أنها ليست مذمة حديث أبي هريرة الطويل في سوق الجنة وفيه: «فيزورون الله ﷻ، ويرز لهم عرشه، ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة، فتوضع لهم منابرٌ من نورٍ، ومنابرٌ من لؤلؤٍ، ومنابرٌ من ياقوتٍ، ومنابرٌ من زبرجدٍ، ومنابرٌ من ذهبٍ، ومنابرٌ من فضّةٍ، ويجلسُ أدناهم (وما فيهم دني) على كثران المسك والكافور..»<sup>(٤)</sup>.

قال المباركفوري: «(ويجلس أدناهم) أي أدونهم منزلة (وما فيهم دني) أي والحال أنه ليس في أهل الجنة دون ولا خسيس. قال الطيبي: وهو تتميم صوناً لما يتوهم من قوله أدناهم الدناءة والمراد به الأدنى في المرتبة»<sup>(٥)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (٢/ ١٣٩)، كتاب «الأذان» / باب فضل التهجير إلى الظهر. رقم (٦٥٢)، ومسلم (٣/ ١٥٢١)، كتاب «الأمانة» / باب بيان الشهداء. رقم (١٩١٤).

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٢١).

(٣) مسلم (٤/ ٢٠٢١)، كتاب «البر والصلة» / باب فضل إزالة الأذى عن الطريق. رقم (٢٦١٨)، وأحمد (٤/ ٤٢٣) واللفظ له.

(٤) ابن ماجه (٢/ ١٤٥٠ - ١٤٥١)، كتاب «الزهد» / باب صفة الجنة. رقم (٤٣٣٦)، والترمذي (٤/ ٦٨٥)، كتاب «صفة الجنة» / باب ما جاء في سوق الجنة. رقم (٢٥٤٩)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وقال شيخ الإسلام: «وقد روى هذا الحديث ابن بطة في «الإبانة» بأسانيد صحيحة». «مجموع الفتاوى» (٦/ ٤١٩).

(٥) «تحفة الأحوذى» (٧/ ٢٦٠).

إمطة الأذى عن الطريق: أي إزالة كل ما يؤذي الناس من شوك وحجر ونحوهما.  
 سواء كان الأذى حسيًا أو معنويًا، وهو أعم من كف الأذى لأن كف الأذى كف  
 لأذى الشخص نفسه، وأما إمطته فيعم كون الأذى منه أو من غيره.  
 وينبغي إمطة الأذى كله عن الطريق ولذلك ذكره النبي ﷺ بالألف واللام الدالة  
 على الاستغراق فقال: «كُلُّ سُلَامَى من الناس عليه صدقة...، ويُمِطُّ الأذى عن الطريق  
 صدقة»<sup>(١)</sup>.

(والحياء شعبة من الإيمان):

الحياء لغة: الحياء والياء والحرف المعتل أصلان... والآخر الاستحياء الذي هو ضد  
 الوقاحة<sup>(٢)</sup>، وهو الانقباض والانزواء<sup>(٣)</sup>.

وقال الجرجاني: الحياء انقباض النفس من شيء، وتركه حذرًا من اللوم<sup>(٤)</sup>.

واصطلاحًا: «الحياء خلق يبعث على فعل الحسن وترك القبيح»<sup>(٥)</sup>.

أركان الحياء ثلاثة:

١ - مُسْتَحْيٍ (وهو العبد).

٢ - حياءٍ (حال العبد).

٣ - مستحيا منه (وهو الرب).

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ١٣٢)، كتاب «الجهاد» / باب من أخذ بالركاب ونحوه. رقم (٢٩٨٩)، ومسلم

(٢/ ٦٩٩)، كتاب «الزكاة» / باب بيان اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف. رقم (١٠٠٩).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ١٢٢).

(٣) «المصباح المنير» (١٦٠) مادة (ح ي ي).

(٤) «التعريفات» (٦٦) باب الحياء.

(٥) «الآداب الشرعية والمنح المرعية» (٢/ ٢٢٧).

حقيقة الحياء: هي حفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وذكر الموت والبللى. ويدل لذلك ما روى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال ذات يوم لأصحابه: «استحيوا من الله حقَّ الحياء»، قال: قلنا: يا رسول الله إنا نستحيي والحمد لله قال: «ليس ذاك، ولكنَّ الاستحياء من الله حقَّ الحياء، أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبللى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك، فقد استحيا من الله حقَّ الحياء»<sup>(١)</sup>.

حفظ الرأس وما وعى يكون بحفظ السمع والبصر واللسان عن الأمور المحرمة. وأما حفظ البطن وما حوى فيكون بحفظه ألا يدخله طعام محرم وكذلك حفظ القلب من الخطرات الرديئة.

وأما ذكر الموت والبللى فثمرته حماية العبد من العصيان لكونه دائماً يخاف أن ينقل إلى المقابر فيسأل عن أعماله ويستحيي من لقاء ربه وسؤاله إياه. بل وتعزف نفسه حتى عن ملاذ الدنيا ومباحاتها، ولذلك قال ﷺ بعد ذكر الموت: «ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا».

#### قدر الحياء وقيمته:

خُلِقَ الحياء من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدراً وأكثرها نفعاً بل هو خاصة الإنسانية فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتها الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء.. إن للإنسان آمرين وزاجرين أمر وزاجر من جهة الحياء، فإذا أطاعه امتنع من فعل كل ما يشتهي، وله أمر وزاجر من جهة الهوى والطبيعة فمن لم يطع

(١) أحمد (٣٨٧/١)، والترمذي (٦٣٧/٤)، كتاب «صفة القيامة». رقم (٢٤٥٨)، و«المصنف» لابن أبي شعبة (٢٢٣/١٣) رقم (١٦١٦٧)، والحاكم في «المستدرک» (٣٥٩/٤)، وقال: «صحيح الإسناد»، وحسنه النووي في «المجموع» (١٠٥/٥)، والألباني في «صحيح الجامع» (٣١٨/١) رقم (٩٤٨).

آمر الحياء وزاجره أطاع أمر الهوى والشهوة ولا بد<sup>(١)</sup>.

ويدل لذلك: ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الحياء والإيمان قرنا جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر»<sup>(٢)</sup>.

أنواع الحياء:

ينقسم الحياء من حيث حصول العبد عليه إلى قسمين:

الأول: حياء غريزي (فطري):

وهو خلق يمنحه الله العبد ويحبله عليه فيكفه عن ارتكاب الرذائل ويحثه على فعل ما يجمل من الأمور الحسنة وهو من أعلى المواهب التي يهبها الله للعبد.

قال محمد بن نصر المروزي: «الحياء خير كله كما قال النبي ﷺ غير أنه أمر يدعيه الصادق والكاذب وأصله فعل من الطبيعة الكريمة غريزة يختص الله تعالى به مَنْ يشاء من خلقه ينفع العاصي والمطيع. أما المطيع فقد زال عنه كل خلق دني وأما الفاسق فلم يجمع مع فسقه تهتكاً»<sup>(٣)</sup>.

الثاني: حياء كسبي:

أي أنه حياء مكتسب من شرع الله ومن أعراف الناس.

وينقسم الحياء الكسبي إلى قسمين:

١ - حياء عرفي: أي مكتسب من أعراف الناس وعاداتهم فهو حياء من الناس.

وضابطه «أن تكف عن كل ما يخالف المروءة والأخلاق».

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢٧٧).

(٢) البخاري في «الأدب المفرد» (٤٧٨) رقم ١٣١٣٩، و«المصنف» لابن أبي شيبة (٥٢٥ / ٨) رقم

(٥٤٠٢)، وصححه الألباني في تحقيقه لـ «الأدب المفرد» (٤٧٨).

(٣) «تعظيم قدر الصلاة» (٨٥١ / ٢).



ومن أمثلة ذلك: حياء النبي ﷺ من أصحابه الذين استضافهم عند زواجه بزینب كما في حديث أنس، وفيه: «فأكلوا حتى شبعوا وخرجوا وبقي طائفة منهم، فأطالوا عليه الحديث، فجعل النبي ﷺ يستحيي منهم أن يقول لهم شيئاً، فخرج وتركهم في البيت، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ عَزَلَتْ...﴾ [الأحزاب: ٥٣]»<sup>(١)</sup>.

وقول أبي سفيان في قصته مع هرقل: «فوالله لولا الحياء من أن يأتروا عليّ كذباً لكذبت عليه»<sup>(٢)</sup>.

وكما في قصة أبي موسى عليه السلام عندما اعتدى رجل من جشم على صاحبه أبي عامر، «قال أبو موسى فقصدت له فاعتمدته فلهقته فلما رأيته وليّ عني ذاهباً فاتبعته وجعلت أقول له ألا تستحيي ألسنت عربياً؟ ألا تثبت؟ فكفّ، فالتقيت أنا وهو فاختلفنا أنا وهو ضربتين فضربته بالسيف فقتلته»<sup>(٣)</sup>.

## ٢ - حياء شرعي ديني: وهو الحياء من الله:

وضابطه: «أن تستحيي من الله أن يراك حيث نهاك وأن يفقدك حيث أمرك». ولما كان الحياء حياءً من الله وحياءاً من الناس، كان الأولى تقديم الحياء من الله على الحياء من الناس قال عبيد بن عمير: «آثر الحياء من الله تعالى على الحياء من الناس»<sup>(٤)</sup>.

(١) البخاري (٢٢/٧)، كتاب «النكاح» / باب الهدية للعروس. رقم (٥١٦٣)، ومسلم (٢/١٠٥٢)، كتاب «النكاح» / باب زواج زينب. رقم (١٤٢٨)، واللفظ له.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) مسلم (٤/١٩٤٣)، كتاب «فضائل الصحابة» / باب من فضائل أبي موسى، وأبي عامر الأشعريين. رقم (٢٤٩٨).

(٤) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/٨٥٥).

وأفضل الناس وأعظمهم في كلا الحياين هو رسول الله ﷺ كما قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه «كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه»<sup>(١)</sup>.

قال ابن حجر: «الحياء المكتسب هو الذي جعله الشارع من الإيمان وهو المكلف به دون الغريزي، غير أن من كان فيه غريزة منه فإنها تعينه على المكتسب وقد ينطبع بالمكتسب حتى يصير غريزياً، وكان النبي ﷺ قد جُمع له النوعان فكان الغريزي أشد حياءً من العذراء في خدرها وكان في الحياء المكتسب في الذروة العليا رضي الله عنه»<sup>(٢)</sup>.

والحياء الشرعي من حيث حكمه قسمان:

أ- فرض.

ب- فضيلة ونافلة

قال النبي ﷺ: «استحيوا من الله حقَّ الحياء...»<sup>(٣)</sup>، فحق الحياء أن يكون بفرضه ونفله.

ومن أمثلة الحياء من الله:

(١) ما رواه أبو حصين قال: أتيت سعيد بن جبير بمكة فقلت: «إن هذا الرجل قدم يعني -خالد بن عبد الله- ولا آمنه عليك فأطعني واخرج فقال: والله لقد فررت حتى استحييت من الله»<sup>(٤)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (٥١٣/١٠)، كتاب «الأدب»/ باب من لم يواجه الناس بالعتاب. رقم (٦١٠٢)، ومسلم (١٨٠٩/٤)، كتاب «الفضائل»/ باب كثرة حيائه رضي الله عنه. رقم (٢٣٢٠).

(٢) «فتح الباري» (٥٢٣-٥٢٢/١٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «حلية الأولياء» (٢٧٥-٢٧٤/٤).

(٢) قال عبدالله بن أبي الهذيل: «أدر كنا أقوامًا وإن أحدهم يستحي من الله تعالى في سواد الليل». قال سفيان يعني التكشف<sup>(١)</sup>.

(٣) ابنة الرجل الصالح التي قال الله عنها: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ [القصص: ٢٥].

قال عمر: «ليست بسلفع -سليطة اللسان جريئة- من النساء لا خراجة ولا جة، ومعها ثوبها على وجهها»<sup>(٢)</sup>.

(٤) حياء البكر عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ «عن الجارية ينكحها أهلها أتستأمر أم لا؟ فقال لها رسول الله: «نعم تستأمر» فقالت: فقلت له: فإنها تستحيي، فقال رسول الله ﷺ: «فذلك إذن إذا هي سكت»<sup>(٣)</sup>.

(٥) أم سلمة لما قال النبي ﷺ عن الثوب: «من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»، قالت: فكيف يصنع النساء بذيولهن؟ قال: «يرخينه شبرًا»، قالت: إذا تنكشف أقدامهن، قال: فيرخينه ذراعًا لا يزدن عليه»<sup>(٤)</sup>، فمن شدة حيائها خشيت أن يظهر قدمها فيراه الناس.

(١) المرجع السابق (٤/ ٣٥٩).

(٢) «المصنف» لابن أبي شيبة (١١/ ٥٣٠-٥٣١) رقم (١١٨٩١)، وصحح إسناده ابن كثير في «التفسير» (١٠٢٣).

(٣) البخاري مع الفتح (١٢/ ٣١٩)، كتاب «الإكراه»/ باب نكاح المكره. رقم (٦٩٤٦)، ومسلم (٢/ ١٠٣٧)، كتاب «النكاح»/ باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق، والبكر بالسكوت. رقم (١٤٢٠) واللفظ له.

(٤) الترمذي (٤/ ٢٢٣)، كتاب «اللباس»/ باب ما جاء في جر ذيول النساء. رقم (١٧٣١)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٨/ ٢٠٩)، كتاب «الزينة»/ باب ذيول النساء.

وأختم بالمرأة التي كانت تُصرع وتتكشف فتشكو حالها للنبي ﷺ طالبة منه أن يدعو لها فلما رغبها في الصبر وثمرته اختارت الصبر على الشفاء رغبة في الجنة. ولكنها تذكرت أمراً وهو التكشف فاستحيت أن تتكشف مع أنه خارج عن إرادتها فقالت للنبي ﷺ: إني اتكشف، فادع الله لي أن لا أتكشف. فدعا لها<sup>(١)</sup>.

وينقسم الحياء بحسب متعلقاته إلى عشرة أقسام:

**الأول:** حياء الجناية: كحياء آدم عليه السلام لما فرّ حياءً من الله في الجنة. «فناداه الرحمن يا آدم. مني تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب، ولكن استحياءً»<sup>(٢)</sup>.

**الثاني:** حياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يسبحون الله الليل والنهار لا يفترون فإذا كان يوم القيامة قالوا سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

**الثالث:** حياء الإجلال: وهو حياء المعرفة. وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياءه منه.

**الرابع:** حياء الكرم: كقصة النبي ﷺ عندما أולם لزينب.

(١) البخاري مع الفتح (١٠ / ١١٤)، كتاب «المرضى» / باب فضل من يصرع من الريح. رقم (٥٦٥٢)، ومسلم (٤ / ١٩٩٤)، كتاب «البر والصلة» / باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك. رقم (٢٥٧٦).

(٢) ابن أبي حاتم في «التفسير» (١ / ٨٨) رقم (٣٨٨)، قال ابن حجر في «فتح الباري» (٦ / ٣٦٧)، «وروي ابن أبي حاتم بإسناد حسن عن أبي بن كعب مرفوعاً...» ثم ذكره.

والحاكم في «المستدرک» (٢ / ٢٨٨)، وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

والطبري في «جامع البيان» (٨ / ١٤٢)، وقال ابن كثير: «وقد رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عن الحسن عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ مرفوعاً، والموقوف أصح إسناداً». «التفسير» (٥٢٢). وروي مرفوعاً في «الزهد» لابن المبارك في زيادات نعيم بن حماد (٤٥)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢ / ٨٤٢-٨٤٣).

الخامس: حياء الحشمة: كحياء علي بن أبي طالب عليه السلام عندما استحيا أن يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن المذي لمكان ابنته منه.

السادس: حياء الاستحقار واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه عز وجل حين يسأله حوائجه احتقاراً لشأن نفسه واستصغاراً لها، وقد يكون لهذا النوع سببان الأول: استحقار السائل نفسه واستعظام ذنوبه وخطاياها. الثاني: استعظام مسئوله وهو الله جل وعلا.

السابع: حياء المحبة: وهو حياء المحب من محبوبه.

الثامن: حياء العبودية: وهو حياء ممتزج من محبة وخوف ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده وأن قدره أعلى وأجلّ منها فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة.

التاسع: حياء الشرف والعزة: كحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل وعطاء وإحسان فإنه يستحيي مع بذله حياء شرف نفس وعزة وهذا له سببان أحدهما هذا والثاني استحياء من الآخذ.

العاشر: حياء المرء من نفسه: فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة لرضاها لنفسها بالنقص وقناعتها بالدون فيجد نفسه مستحيياً من نفسه حتى كأن له نفسين يستحيي بأحدهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون من الحياء؛ فإن العبد إذا استحيا من نفسه فهو بأن يستحي من غيره أجدر<sup>(١)</sup>.

أسباب الحياء من الله:

للحياء من الله أسباب منها:

١ - تذكر اطلاع الله على قلبه وجوارحه وقربه منه: وذلك أن العبد إذا استشعر اطلاع الله على ما في قلبه من النيات والإرادات وجوارحه من الأعمال وغلب ذلك على قلبه «ثبت تعظيم الله في قلبه فأورثه الحياء من الله»<sup>(٢)</sup>.

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٧٢-٢٧٤) باختصار.

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٢٦).

قال ابن القيم: «يتولد الحياء من علم العبد بنظر الحق إليه»<sup>(١)</sup>.

كما أن المسلم إذا استشعر قرب الله منه أورثه ذلك الحياء منه كما قال أحدهم لوهيب المكي: يا وهيب: «استحي من الله لقربه منك»<sup>(٢)</sup>.

## ٢- ذكر الوقوف بين يدي الله وسؤاله عن أعماله:

يجمع الله الأولين والآخرين في مقام واحد فيحاسبهم ويسألهم عما عملوا في حياتهم شيئاً كانوا أو شباناً، قال ﷺ مبيناً هذا الموقف العصيب: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه».

وفي رواية: «لا تزول قدم ابن آدم من عند ربه حتى يسأل عن خمس، عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم»<sup>(٣)</sup>. وهذا هو الذي حدا بأبي الدرداء أن يكثر التفكير في السؤال يوم القيامة فيقول ﷺ «إنما أخشى من ربي أن يدعوني على رؤوس الخلائق فيقول: يا عويمر فأقول: لبيك ربي فيقول: ما عملت فيما علمت»<sup>(٤)</sup>. وقال الحسن البصري رحمه الله لما جاء رجل إليه فسأله فقال: العبد إذا تاب من الذنب أيغفر له. قال: نعم. قال: فيمحوه الله عنه؟ قال: لا والله حتى يوقفه عليه ويسأله عنه، ثم بكى الحسن. فقال: لو لم يبك العبد إلا للحياء من الله تعالى لكان ينبغي له أن يبكي»<sup>(٥)</sup>.

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٧٥).

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٣٥).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٣١١) و«تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٤١) وغيرهم.

(٥) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٤٢).

وقال المروزي بعد ذكره لهذه الروايات: «فالمستحيي من سؤال الله تعالى غداً يعد الجواب والتطهر من كل ما يكره الله لا يفارقه الحياء مع الطهارة؛ إذ قد علم أنها ترك من الذنوب وتاب منه لن ينجو من الله أو يسأله عنه»<sup>(١)</sup>.

### ٣- استشعار دوام نعم الله علينا مع تضييعنا للشكر:

من أعظم أسباب الحياء: إسداء النعم، قال محمد بن نصر المروزي: «وأما ما يهيج من الحياء عند ذكر دوام النعم وكثرة الإحسان وتضييع الشكر، وذلك موجود في الفطر أن من دام إحسانه إليك وكثرت أياديهِ عندك، وقلّت مكافأتك له، غضضت طرفك إذا رأيت حياءً منه فكيف بمن خلقك ولم تك شيئاً، ولم يزل محسناً إليك منذ خلقك» إلى أن قال: «فإذا ذكر المستحيي دوام النعم وتضييع الشكر، وكثرة الإساءة مع فقره إلى الله تعالى، وإحسان الله تعالى إليه، هاج منه الحياء والحصر من ربه عز وجل حتى كاد أن يذوب حياءً منه»<sup>(٢)</sup>.

### ثمرات الحياء:

للحياء فوائد وثمار كثيرة أجملها فيما يلي:

#### ١- أن الحياء متمحض للخير:

بهذا وصفه النبي ﷺ فقال: «الحياء خيرٌ كله»، أو قال: «الحياء كله خيرٌ»<sup>(٣)</sup>.

ولكونه خيراً كله فإنه لا يأتي إلا بالخير من فعل الطاعات والبعد عن الخطيئات، قال

ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير»<sup>(٤)</sup>.

(١) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٤٢).

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٤٤-٨٤٥).

(٣) مسلم (١/ ٦٤)، كتاب «الإيمان» / باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان. رقم (٣٧).

(٤) البخاري مع الفتح (١٠/ ٥٢١)، كتاب «الأدب» / باب الحياء. رقم (٦١١٧)، ومسلم (١/ ٦٤)، =

وتأمل هذا الحديث حيث جمع فيه النبي ﷺ بين النفي والإثبات وفي هذا أكبر دلالة على حصر الخير بالحياء، ومما ورد عن السلف في ذلك قول عمر رضي الله عنه: «من استحيا استخفى، ومن استخفى اتقى، ومن اتقى وقى»<sup>(١)</sup>.

## ٢- الخوف من الله:

الحياء من الله يوجب للعبد الخوف منه قال سفيان ثقة: «لا يخاف العبد حتى يستحيي».

## ٣- ترك الذنوب والبعد عنها:

وذلك أن العبد المستحيي يستحيي من الله أن يراه على معاصيه ولهذا لما مر النبي ﷺ على رجل يعاتب أخاه في الحياء نهاه وقال له: «دعه؛ فإنَّ الحياءَ من الإيمان»<sup>(٢)</sup>.

قال أبو عبيد: «معناه أن المستحيي ينقطع بحيائه عن المعاصي»<sup>(٣)</sup>.

وقال ابن قتيبة: عندما ذكر قول النبي ﷺ: «الحياء شعبة من الإيمان»: «إن المستحيي ينقطع بالحياء عن المعاصي، كما ينقطع بالإيمان عنها، وكأنه شعبة منه»<sup>(٤)</sup>.

وهذا أمر متفق عليه بين جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من لدن نوح إلى محمد ﷺ توارثه الناس قرناً بعد قرن كما في قول النبي ﷺ: «إِنَّ مَّا أَدْرَكَ النَّاسَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ

---

كتاب «الإيمان» / باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان. رقم (٣٧).

(١) «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا (٤٠) رقم (٩٤).

(٢) البخاري مع الفتح (١/٧٤)، كتاب «الإيمان» / باب الحياء من الإيمان. رقم (٢٤)، ومسلم (١/٦٣)، كتاب «الإيمان» / باب بيان عدد شعب الإيمان، وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان. رقم (٣٦).

(٣) «فتح الباري» (١٠/٥٢٢).

(٤) «تأويل مختلف الحديث» (٦٣٦).



الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»<sup>(١)</sup>.

وهذا الحديث ليس بمعنى الأمر أن يصنع ما شاء ولكنه على معنى الذم والنهي عنه قال ابن رجب وأهل هذه المقالة لهم طريقتان:

١ - أنه أمر بمعنى التهديد والوعيد.

والمعنى إذا لم يكن لك حياء فاعمل ما شئت فإن الله يجازيك عليه كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٥].

٢ - أنه أمر ومعناه الخبر:

والمعنى أن من لم يستحي صنع ما شاء، فإن المانع من فعل القبائح هو الحياء فمن لم يكن له حياء انهمك في كل فحشاء ومنكر على حد قوله ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»<sup>(٢)</sup>. «فإن لفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر وأن من كذب عليه تبوأ مقعده من النار»<sup>(٣)</sup>، وجمع بينهما ابن القيم فقال عنه: «إنه أمر تهديد ومعناه الخبر أي من لم يستح صنع ما يشاء»<sup>(٤)</sup>.

قال الجراح بن عبد الله الحكمي مبيناً السبب الذي من أجله ترك الذنوب: «تركت الذنوب حياءً أربعين سنة ثم أدركني الورع»<sup>(٥)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (٦/٥٢٣)، كتاب «الأدب» / باب إذا لم تستحي فاصنع ما شئت. رقم (٦١٢٠).

(٢) البخاري (١/٢٠٢)، كتاب «العلم» / باب إثم من كذب على النبي ﷺ. رقم (١١٠)، ومسلم (١/١٠)،

كتاب «المقدمة» / باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ. رقم (٣).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/٥٩٢-٥٩٥).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/٢٧٠).

(٥) «جامع العلوم والحكم» (٢/٥٩٧).

وقال أحدهم:

ورُبَّ قبيحة ما حال بيني وبين ركوبها إلا الحياءُ  
فكان هذا الدواء لها ولكن إذا ذهب الحياء فلا دواء<sup>(١)</sup>

وقال القحطاني:

وإذا خلوت بريبة في ظلمة والنفس داعية إلى الطغيان  
فاستحي من نظر الإله وقل لها إن الذي خلق الظلام يراني<sup>(٢)</sup>  
ومن نزع الحياء من قلبه أو قلَّ لم يبال بارتكاب المعصية فصار بغيضاً عند الله وعند  
الناس.

قال عمر رضي الله عنه مبيناً خطورة قلة الحياء: «من قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه  
مات قلبه»<sup>(٣)</sup>.

وقريب من ذلك قول سلمان رضي الله عنه: «إن الله إذا أراد بعبد شراً أو هلكة نزع منه الحياء  
فلم تلقه إلا مقيتاً ممقئاً»<sup>(٤)</sup>.

٤ - تزيين كل شيء وتجميله:

الحياء يزين كل شيء يكون فيه لقوله ﷺ: «ولا كان الحياء في شيء إلا زانه»<sup>(٥)</sup>.  
ومعنى زانه أي زينته. قال الطيبي: «قوله: في شيء مبالغة أي: لو قدر أن يكون الحياء  
في جماد لزانه فكيف بالإنسان»<sup>(٦)</sup>.

(١) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» (٣٨) و«العقد الفريد» (١/ ٢٢٧).

(٢) «نونية القحطاني» (٢٥).

(٣) «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا (٢٠).

(٤) «حلية الأولياء» (١/ ٢٠٤).

(٥) أحمد (٣/ ١٦٥)، والترمذي (٤/ ٣٤٩)، كتاب «البر والصلة»/ باب ما جاء في الفحش والتفحش. رقم

(١٩٧٤)، وقال: «حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرزاق، وفي الباب عن عائشة»،

وابن ماجه (٢/ ١٤٠٠)، كتاب «الزهد»/ باب الحياء. رقم (٤١٨٥)، وقال ابن عبد البر: «وفي الحياء

أحاديث مرفوعة حسان»، وذكر هذا الحديث منها. «التمهيد» (٩/ ٢٥٦-٢٥٧).

(٦) «تحفة الأحوذى» (٦/ ٩٣).

## وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ : أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ .

الإيمان بالله: هو اعتقاد أن الله رب كل شيء ومليكه والمدبر له. خالق كل شيء، وأن له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وأن ذلك يقتضي أن يعبد وحده لا شريك له.

فالإيمان بالله من وجوه ثلاثة:

١ - ربوبيته.

٢ - ألوهيته.

٣ - أسمائه وصفاته

قال الإمام أبو عبدالله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري (ت ٣٨٧هـ):

أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء:

١ - أن يعتقد العبد أنيته<sup>(١)</sup> ليكون بذلك مبيناً لمذهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعاً<sup>(٢)</sup>. «توحيد الربوبية».

٢ - أن يعتقد وحدانيته ليكون مبيناً بذلك مذاهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره. «توحيد الألوهية».

٣ - أن يعتقد موصوفاً بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفاً بها من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه<sup>(٣)</sup>. «توحيد الأسماء والصفات».

(١) أي: ربوبيته.

(٢) أي: خالقاً.

(٣) «الإبانة الكبرى» قسم الرد على الجهمية تحقيق د. يوسف الوابل (١٧٢/٢ - ١٧٣).

وقال الإمام محمد الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٢ هـ): «وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيد - جلا وعلا - في ربوبيته.

الثاني: توحيد - جل وعلا - في عبادته.

الثالث: توحيد - جل وعلا - في أسمائه وصفاته<sup>(١)</sup>.

وبعد هذا العرض السريع لأنواع التوحيد أنتقل إلى شرحها باختصار فأقول أولاً: توحيد الربوبية:

ويتضح بالنقاط التالية:

١ - معنى الرب:

ورد الرب بعدة معان هي:

أ - المالك. ومنه قوله ﷺ في ضالة الإبل: «فذرهما حتى يلقاها ربّها»<sup>(٢)</sup>.

ب - السيد المطاع. ومنه قوله ﷺ في أشراط الساعة: «أن تلد الأمة ربّها»<sup>(٣)</sup>.

ج - المصلح للشيء المدبر له: قال الراغب: «الرب في الأصل التربية وهو إنشاء

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٤١٠-٤١٤).

هذان نموذجان أحدهما في القرن الرابع والآخر في القرن الرابع عشر من بين علماء كثر قالوا بهذا التقسيم، وأكدوا صحته.

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ١٨٦)، كتاب «العلم» / باب الغضب في الموعظة والتعليم وإذا رأى ما يكره. رقم (٩١)، ومسلم (٣/ ١٣٤٦)، كتاب «اللقطة». رقم (١٧٢٢).

(٣) البخاري مع الفتح (١/ ١١٤)، كتاب «الإيمان» / باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان. رقم (٥٠)، ومسلم (١/ ٣٩)، كتاب «الإيمان» / باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان. رقم (٩).

الشيء حالاً فحالاً إلى التمام»<sup>(١)</sup>.

«وقد يتصرف معنى الرب في وجوه غير ذلك غير أنها تعود إلى بعض هذه الوجوه الثلاثة»<sup>(٢)</sup>.

### ضابط إطلاق كلمة الرب:

تطلق كلمة رب على الله تعالى فقط في حالتين:

١ - إذا وردت معرفة بالألف واللام؛ لأن الألف واللام تقتضي العموم. عموم الربوبية واستغراقها لله تعالى.

٢ - إذا وردت غير معرفة وغير مضافة كقوله تعالى: ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥] أما إذا أضيفت فتطلق على الله تعالى وعلى غيره ويتضح ذلك من خلال السياق. ففي قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] أطلقت على الله تعالى.

أما في قوله تعالى: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] فإنها أطلقت على غير الله.

### تعريف توحيد الربوبية:

هو إفراد الله بأفعاله: كالخلق والرزق والإحياء والإماتة وتدبير الأمور فتعتقد في قرارة قلبك أنه لا خالق إلا الله ولا رازق إلا هو ولا محيي ولا مميت إلا هو ونحو ذلك من أفعاله سبحانه.

وقيل: إفراد الله بالخلق والملك والتدبير.

والأدلة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]. وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ

(١) «المفردات» (٣٣٦) وانظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/١) وانظر «بدائع الفوائد» (٤/١٣٢).

(٢) «جامع البيان» (١/٦٢).

وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ» [هود: ١٢٣]، وكلا التعريفين يعودان إلى معنى واحد.

وقد جُبلت على الإيمان به فطرُ العقلاء قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] ولم يجحد ربوبية الله تعالى إلا مكابر قال تعالى مبيناً قول موسى لفرعون لما أنكر ربوبية الله: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

### أدلة توحيد الربوبية:

أدلة ربوبية الله تعالى أكثر من أن تحصر لكن يمكن أن نجملها في أربعة أنواع:  
الأول: الشرع: الأدلة الشرعية على ربوبية الله كثيرة جداً منها قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

الثاني: الفطرة: وتتضح دلالة الفطرة على ربوبية الله بما يلي:

١ - لجوء الإنسان إلى الله تعالى حال الكرب والشدة سواء كان مؤمناً أو كافراً قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنِّهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

فلجوء هذا العبد إلى الله نابع من شعوره بربوبية الله وأنه القادر على كشف الضر عنه.

٢ - لو لم يكن الإقرار بالله تعالى وربوبيته أمراً فطرياً لكانت بداءة دعوة الرسل أقوامهم إليه أولاً. لأن الأمر بتوحيد الله في العبادة فرع عن الإيمان بربوبيته فلما بدؤوهم بتوحيد العبادة دل ذلك على أن الإيمان بربوبية الله أمر فطري عند الخلق<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٣/ ١٢٩ - ١٣٠).

٣- لو لم يكن الإقرار بالله وبربوبيته أمراً فطرياً لقال معارضو الرسل للرسل عندما دعوهم إلى الله تعالى من هو هذا الرب؟ فنحن لا نعرفه فكيف تأمرنا بعبادته، ونحن لا نعرفه.

ولما لم يحدث ذلك منهم دلّ على أن معرفتهم بالله تعالى مستقرة في فطرتهم<sup>(١)</sup>.  
قال شيخ الإسلام: وأما الرب فهو معروف بالفطرة ثم استدل بقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]<sup>(٢)</sup>.

وهذا الاستفهام استفهام إنكار بمعنى النفي، فالمعنى ليس في الله شك وأنتم أيها المخاطبون تعلمون هذا وتستيقنونه، وهذا يبين أنهم مفطورون على الإقرار بربوبيته<sup>(٣)</sup>.  
الثالث: العقل:

وأما دلالة العقل على ربوبية الله تعالى فلا أدل عليها من كون الخلق لا بُدَّ أن لهم خالقاً خلقهم كما يدل لذلك حديث جبير بن مطعم قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾<sup>(٤)</sup> أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ<sup>(٥)</sup> أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧] كاد قلبي أن يطير». زاد في رواية: «وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي»<sup>(٦)</sup>.

(١) انظر المرجع السابق (٨ / ٤٤٠).

(٢) «رسالة في الكلام على الفطرة» ضمن مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية (٢ / ٣٣٧) وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٦ / ٣٣٩).

(٣) «درء تعارض العقل والنقل» (٨ / ٤٤١) بتصرف.

(٤) سبق تخريجه.

## فالاختimalات ثلاثة:

- ١ - أن يكونوا وجدوا من دون موجد أو جد لهم، وهذا مستحيل؛ لأن المعدوم لا بُدَّ له من موجد ولهذا أنكره عليهم بقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ فانتفى هذا الاحتمال.
- ٢ - أن يكونوا هم خلقوا أنفسهم وأوجدوها وهذا مستحيل؛ لأنهم كانوا عدماً، والعدم لا يوجد شيئاً فانتفى هذا الاحتمال.

فلما انتفى هذان الاحتمالان تعين الثالث وهو أن الله خلقهم.

قال الخطابي: «كأنه انزعج عند سماع هذه الآية لفهمه معناها ومعرفته بما تضمنته ففهم الحجة فاستدركها بلطيف طبعه»<sup>(١)</sup>.

## الرابع: الحس والواقع:

ويتضح ذلك من أوجه متنوعة هي:

- ١ - دليل الخلق: كونه الخالق لكل شيء دليل على ربوبيته الكاملة قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنِّي تُوَفِّكُونُ﴾ [غافر: ٦٢].
- «وهذا عام محفوظ لا يخرج عنه شيء من العالم أعيانه وأفعاله وحركاته وسكناته»<sup>(٢)</sup>.
- ٢ - دليل الملك والتدبير: أي أن ملكه المطلق الكامل من كل وجه، الشامل لكل شيء دليل على ربوبيته وكماله، ولذلك تمدح الله به فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، وتبارك: أي تعالى وتعظيم وتقديس سبحانه.

وأثبت تدبيره، فقال تعالى: ﴿الْمَرْتَرُوا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠]. ونفى تدبير أحد معه فقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَبَ كُلُّ

(١) «فتح الباري» (٨/ ٩٠٣).

(٢) «شفاء العليل» (٩٦).



إِلَهُ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿المؤمنون: ٩١﴾.

وقد وضح شيخ الإسلام دلالة هذه الآية على توحيد الربوبية ببرهانين هما:

البرهان الأول: ﴿إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾.

فإذا وجد إله آخر فلا بد أن يكون مستقلاً في الفعل. وعلى هذا سيكون متميزاً عن مفعول الآخر. فهذا يذهب بمخلوقاته وهذا بمخلوقاته وهذا غير واقع.

البرهان الثاني: ﴿وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾.

أي: أنه لا بد أن يكون أحدهما عالٍ على الآخر بقدرته فيكون هو المستقل بالفعل ويكون الآخر مقهوراً، والمقهور لا يمكن أن يستقل بالفعل<sup>(١)</sup>.

٣- دليل العناية: أي أن الاعتناء المقصود بهذه المخلوقات دليل على ربوبية موجدتها.

قال تعالى: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝ ١٦ ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا...﴾ إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا الْفَأَافَ﴾ [النبا: ٦-١٦].

٤- دلالة الإتقان والتقدير: هذا الإتقان العجيب لهذه المخلوقات أكبر دليل على

ربوبية الله تعالى. قال تعالى: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾ [الملك: ٣].

التفاوت: الاختلاف في الأوصاف<sup>(٢)</sup>.

وقال تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] وكونه بتقدير لا يزيد ولا ينقص ولا

يتقدم ولا يتأخر عن ما قدر له دليل ربوبية الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨].

(١) انظر: «منهاج السنة» (٣/ ٣١٥-٣٢٩).

(٢) «المفردات» (٣٨٦).

٥ - دلالة الخلق على الخالق: كل من رأى مخلوقاً تبادر إلى ذهنه أن يسأل مَنْ خلقه؟

قال شيخ الإسلام: «كل مخلوق فهو دليل وآية على الخالق نفسه»<sup>(١)</sup>.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

مقتضيات الإقرار بالربوبية:

١ - أن لا يعتقد العبد تدبيراً ولا تصرفاً ولا ملكاً ولا منعاً ولا إعطاءً ولا إحياءً ولا إماتة ونحو ذلك إلا لله تعالى.

٢ - إثبات رب مباين للناس بالذات كما باينهم بالصفات.

٣ - أن يكون الإقرار بالربوبية طريقاً للعبد إلى الإقرار بالألوهية ولا بُدَّ وذلك أن القلب يتعلق بتوحيد الربوبية أولاً ثم يرتقي إلى توحيد الألوهية.

ولذلك نجد أن الله سبحانه في آي كثيرة يقرر المشركين بالربوبية ويحتج عليهم بها ثم يدعوهم إلى إقرارهم بعبادته وحده<sup>(٢)</sup>.

قال الشيخ الشنقيطي: «ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته - جل وعلا - على توحيدِهِ في عبادته، ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده، ووبخهم

(١) «مجموع الفتاوى» (٤٨/١).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٤١٣/١) و«بدائع الفوائد» (١٣٢/٤).

منكرًا عليهم شركهم به غيره مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده».

ثم ذكر على هذا التقرير ثلاثة عشر مثالاً<sup>(١)</sup>.

وقد وردت دلالة توحيد الربوبية على توحيد الألوهية من وجهين:

**الوجه الأول العموم:** أي عموم ربوبيته سبحانه كما في قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

**وجه الاستدلال:** أن الله ذكر العبادة بالفاء التي تدل على ارتباط الجملة الثانية بالأولى وبنائها عليها فدل على أن عموم ربوبيته مستوجب لعموم إلهيته ووجوب عبادته.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

**الوجه الثاني: الخصوص:** أي اختصاصه سبحانه بالملك والأمر والخلق والتدبير ومن أمثلة الملك:

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٨٤ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، فلما اعترفوا بأن المالك هو الله وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ثم قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ٨٦ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ فلما أقروا وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ﴾ ثم قال: ﴿قُلْ مَنْ يَدِيرُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٨٨ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، فلما أقروا وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٤١٢-٤١٤).

## ومن أمثلة الخلق:

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِقَوْلِنَا اللَّهُ﴾، فلما صح اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١] ولا شك أن الخلق من أعظم العلامات الفارقة بين من يستحق العبادة ومن لا يستحق<sup>(١)</sup> قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]، ولذلك جعل النبي ﷺ اتخاذ نداء الله لم يخلق هو أعظم الذنوب في جوابه، لما سئل: «أي الذنب أعظم قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ»<sup>(٢)</sup>. ومن أمثلة التدبير «تصريف الأمور».

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ فلما أقروا بربوبيته ومنها تدبير الأمور وبخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره بقوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِوْنَ﴾ [يونس: ٣١]<sup>(٣)</sup>.

قال السعدي: «﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ في العالم العلوي والسفلي وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية فإنك إذا سألتهم عن ذلك ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ لأنهم يعترفون بجميع ذلك وأن الله لا شريك له في شيء من المذكورات فقل لهم إلزامًا بالحجة ﴿أَفَلَا نُنْقِوْنَ﴾ الله فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له وتخلصون ما تعبدون من دونه من الأنداد والأوثان»<sup>(٤)</sup>.

(١) بل إن الشيخ الشنقيطي ذهب إلى أنها هي العلامة الفارقة فقال: «علم من استقرأ القرآن أن العلامة الفارقة بين من يستحق العبادة ومن لا يستحقها هو كونه خالقًا لغيره، فمن كان خالقًا لغيره فهو المعبود بحق، ومن كان لا يقدر على خلق شيء فهو مخلوق محتاج، لا يصح أن يعبد بحال». «أضواء البيان» (٣٦٦/٧).

(٢) سبق تحريجه.

(٣) هذه الأمثلة مستفادة من «أضواء البيان» (٣/ ٤١١-٤١٣).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٦٣).

ثانياً: توحيد الألوهية:

ويتضح من خلال الآتي:

معنى الألوهية:

الألوهية مأخوذة من كلمة إله فهي مصدر ألّه يألّه إلهة أي عبد عبادة. فإله بمعنى مألوه أي معبود. قال ابن عباس: الله «ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين»<sup>(١)</sup>.

فالألوهية: صفة الله تعالى تعني استحقاقه جل وعلا للعبادة لما له من الكمال المطلق في أسمائه وصفاته وأفعاله<sup>(٢)</sup>.

تعريف توحيد الألوهية:

هو: «إفراد الله بالتعبّد له بجميع أنواع العبادات المشروعة ونفي عبادة ما سواه». أو: «إفراد الله بأفعال العباد».

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾

[النحل: ٣٦].

ضابط توحيد الألوهية:

حدده الشيخ الشنقيطي بقوله: «وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى «لا إله إلا الله»، ثم شرح الضابط فقال: وهي مترتبة من نفي وإثبات فمعنى النفي منها: خلّع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت. ومعنى الإثبات منها: إفراد الله جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله»<sup>(٣)</sup>.

(١) «جامع البيان» (١/ ٥٤).

(٢) انظر: «معجم مقاييس اللغة» (١/ ١٢٧) و«تفسير أسماء الله الحسنى» (٢٦) و«جامع البيان» (١/ ٥٤).

(٣) «أضواء البيان» (٣/ ٤١٠).

## أدلة توحيد الألوهية:

ثبت توحيد الألوهية بالشرع والفطرة والعقل.

أولاً: الشرع: أما الشرع فأكثر آيات القرآن الكريم في هذا النوع من التوحيد، بل جميع الكتب المنزلة على الرسل كلها تنطق بذلك وتأمربه وتحث عليه وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم ﴿أَجْعَلِ لِلْأَلِهَةِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وجاءت أدلة الشرع على صور كثيرة متعددة منها:

١ - حصر الدين كله فيه؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

٢ - أن جميع الرسل بعثوا فيه. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٣ - التحذير من عبادة غير الله بوصف فاعل ذلك بالكفر قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ وَمِنْ إِلَهِ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

٤ - بيان أن إمكانية الاجتماع والالتقاء والاتفاق لا تكون إلا به قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ٦٤].

٥ - الأمر المباشر به قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

٦ - أن توحيد الألوهية خالص حق الله تعالى. كما في حديث معاذ وفيه: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»<sup>(١)</sup>.

٧- إبطال عبادة غير الله، لعدم وجود شيء من خصائص الإله فيها فهي مخلوقة لا تخلق، ضعيفة لا تدفع الضر عن نفسها ولا عابديها ولا تجلب النفع لنفسها ولا إياهم ولا تملك الحياة ولا الموت.

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣] ومن كانت هذه حالها فكيف تعبد ويصلي لها ويسجد.

### ثانيًا: الفطرة:

خلق الله العبد مفطورًا على الإيمان به وإفراده بالعبادة كما بين ذلك النبي ﷺ بقوله: «ما من مولودٍ إلا يولدُ على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها» ثم قرأ أبو هريرة ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]<sup>(١)</sup>.

قال شيخ الإسلام: «والفطرة تستلزم معرفة الله ومحبه وتخصيصه بأنه أحب الأشياء إلى العبد - وهو التوحيد - وهذا هو معنى قول «لا إله إلا الله» كما جاء مفسرًا «كُلُّ مولودٍ يولدُ على هذه الملة»، وروي: «على ملة الإسلام».

ويوضح ذلك ويؤكد حديث عياض بن حمار أن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى: «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ...»<sup>(٢)</sup>.

فأخبر أنه خلقهم حنفاء وذلك يتضمن معرفة الرب ومحبه وتوحيده فهذه الثلاثة تضمنتها الحنيفية وهي معنى قول: «لا إله إلا الله»<sup>(٣)</sup>.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٦ / ٣٤٤ - ٣٤٥).

ولما أمر الله نبيه أن يقيم الدين بين له أنه هو الفطرة فقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ الَّذِي يُقِيمُ﴾ [الروم: ٣٠].

قال معاذ لعمر رضي الله عنه لما سأله ما قوام هذه الأمة قال: «ثلاث وهن المنجيات الإخلاص وهو الفطرة ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾...»<sup>(١)</sup>.

وقال مجاهد وعكرمة فطرت الله: الإسلام<sup>(٢)</sup>.

قال ابن عبد البر: «وهو المعروف عند عامة السلف»<sup>(٣)</sup>.

وقال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ، وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ...﴾

[هود: ١٧].

«يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو ثم استدل بما سبق من الآية والحديثين»<sup>(٤)</sup>.

ويدلك على قوة دليل الفطرة حتى مع وجود المؤثرات ما قاله عمرو بن عبسة رضي الله عنه حاكياً ما كان يختلج في قرارة نفسه تجاه المشركين «كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان»<sup>(٥)</sup>. فدلته فطرته على بطلان عبادة غير الله مع أنه لم يسمع رسولاً، ولم يقرأ كتاباً.

(١) «جامع البيان» (٢١ / ٤٠).

(٢) المرجع السابق (٢١ / ٤٠، ٤١).

(٣) «التمهيد» (١٨ / ٩٢).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٢ / ٤٧١).

(٥) مسلم (١ / ٥٦٩)، كتاب «صلاة المسافرين وقصرها» / باب إسلام عمرو بن عبسة. رقم (٨٣٢).



## ثالثاً: العقل:

اتفق العقلاء على أن المحسن صانع المعروف يجب أن يشكر على جوده ومعروفه وإحسانه، ومن المعلوم أن أعظم محسن على الخلق هو الله ﷻ. وذلك أن جميع النعم منه سبحانه قال تعالى مبيناً كثرتها وعدم القدرة على حصرها ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [النحل: ١٨].

فشعورنا بأن النعم كلها منه تفضلاً وإحساناً ما ظهر منها وما بطن يقودنا إلى الاعتراف بها، ومن ثم عبادته وإفراده بالعبادة وحده لا شريك له.

يوضح النبي ﷺ هذا بضرب المثل فيقول: «إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا ﷺ بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن... أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك مثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بـورقٍ أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده، فأيكم سره أن يكون عبده كذلك، وأن الله عز وجل خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً»<sup>(١)</sup>.

قال شيخ الإسلام مبيناً حسن التوحيد بالعقل عند قوله تعالى عن الخليل: ﴿مَآذَا تَعْبُدُونَ﴾<sup>(٨٥)</sup> أَيْفَكَاءَ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ<sup>(٨٦)</sup> ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾<sup>(٩٥)</sup> وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ<sup>(٩٦)</sup> [الصافات: ٨٥-٩٦].

«فهذا كله يبين قبح ما كانوا عليه قبل النهي وقبل إنكاره عليهم ولهذا استفهم استفهام منكر فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾<sup>(٩٥)</sup> وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ... فلو لا أن حسن التوحيد وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وقبح الشرك ثابت في نفس الأمر معلوم

(١) أحمد (٤/ ١٣٠)، والترمذي (٥/ ١٤٨)، كتاب «الأمثال»/ باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة. رقم (٢٨٦٣، ٢٨٦٤)، وقال: «حديث حسن صحيح غريب». قال ابن كثير: «هذا حديث حسن». «تفسير القرآن العظيم» (٤٠).

بالعقل لم يخاطبهم بهذا؛ إذ كانوا لم يفعلوا شيئاً يذمون عليه، بل كان فعلهم كأكلهم وشربهم»<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ففي هذه الآية «نبه تعالى على الدليل العقلي على امتناع إلهين فقال: ﴿إِذَا﴾ أي لو كان معه آلهة كما يقولون ﴿لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ أي لا نفرد كل واحد من الإلهين بمخلوقاته واستقل بها ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبتها ﴿وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فالغالب يكون هو الإله وإلا فمع التمانع لا يمكن وجود العالم ولا يتصور أن ينتظم هذا الانتظام المدهش للعقول... ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ قد نطقت بلسان حالها وأفهمت ببديع أشكالها أن المدبر لها واحد كامل الأسماء والصفات قد افتقرت إليه جميع المخلوقات في ربوبيته لها وفي إلهيته لها، فكما لا وجود لها ولا دوام إلا بربوبيته كذلك لا صلاح ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطاعة»<sup>(٢)</sup>.

### منزلة توحيد الألوهية:

توحيد الألوهية هو أساس الملة وروحها ولبها، فإذا وُجد وجد الدين، وإذا فُقد فقد الدين. قال شيخ الإسلام مبيناً منزلة توحيد الألوهية: «وتوحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته واستعانتة في القرآن كثير جداً، بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبي ﷺ: «أَمَرْتُ أَنْ أُقَاتَلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»<sup>(٣)</sup>،

(١) «مجموع الفتاوى» (١١ / ٦٨١-٦٨٢).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٥٥٨).

(٣) البخاري مع الفتح (١ / ٧٥)، كتاب «الإيمان» / باب: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾. رقم (٢٥)، ومسلم (١ / ٥٣)، كتاب «الإيمان» / باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله. رقم (٣٦).

وقال: «إني لأعلم كلمة لا يقوها رجل عند الموت إلا وجد روحه لها روحاً حين تخرج من جسده، وكانت له نوراً يوم القيامة»<sup>(١)</sup>، وقال: «من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة»<sup>(٢)</sup>، فهو قلب الدين والإيمان، وسائر الأعمال كالجوارح له»<sup>(٣)</sup>. ولذا صار هو الفارق بين الموحدين والمشركون.

### الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية:

فرّق السلف بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية. ومن أقوالهم:

١ - قال ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] يعني النصاري، يقول: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، «ولئن سألتهم من يرزقكم من السماء والأرض ليقولن الله»، وهم مع ذلك يشركون به ويعبدون غيره ويسجدون للأنداد دونه»<sup>(٤)</sup>.

٢ - قال عكرمة: «﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] ولئن سألتهم من خلقهم وخلق السماوات والأرض ليقولن الله، فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره». وصنيع البخاري يدل على التفريق بينهما، فإنه بوب باباً فقال: باب قول الله تعالى:

(١) أحمد (٢٨ / ١)، وصححه ابن القيم في «الجواب الكافي» (٢٣٤)، وقال ابن كثير: «وهذا إسناد حسن». «مسند الفاروق» (٢٢٥ / ١)، وهذه الكلمة هي لا إله إلا الله، كما بين ذلك عمر في آخر الحديث. وفي رواية عند أحمد أيضاً (١ / ١٦١): «إني لأعلم كلمة لا يقوها عبد عند موته إلا أشرق لها لونه، ونفس الله عنه كربته...»، قال البوصيري: «هذا إسناد رجاله ثقات». «إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة» (١ / ٥٧-٥٨) رقم (١٣) تحقيق د. سليمان العريني، وصححه السيوطي في «شرح الصدور» (٤٦)، وقال الألباني: «إسناده صحيح». «أحكام الجنائز» (٤٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١ / ٧٠).

(٤) «جامع البيان» (١٣ / ٧٨).

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] وذكر تحته: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، وحديث: «أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، ثم ذكر قول عكرمة السابق<sup>(١)</sup>.

٣- قال مجاهد عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] قال: «إيمانهم قولهم: الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره»<sup>(٢)</sup>.

٤- قال قتادة عن هذه الآية نفسها «في إيمانهم هذا أنك لست تلقى أحداً منهم إلا أنبأك أن الله ربه وهو الذي خلقه ورزقه، وهو مشرك في عبادته». وبمثل هذا قال ابن زيد، وعطاء، وعامر، وابن جرير<sup>(٣)</sup>.

والفروق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية كثيرة، من أهمها:

#### ١ - اختلاف الاشتقاق:

فاشتقاق الربوبية من الرب والرب مأخوذ من التربية والملك كما سبق. أما اشتقاق الألوهية فهو من الإله والإله مأخوذ من التأله وهو التعبد.

٢- أن توحيد الربوبية طريقٌ للألوهية ولذلك استدل الله بربوبيته على إلهيته في أي كثيرة ولو كانا شيئاً واحداً لما كان أحدهما طريقاً للآخر.

٣- أن توحيد الربوبية أقرب به المشركون أما توحيد الألوهية ف وقعت فيه الخصومات الطويلة بين الرسل وأممهم ولو كانا شيئاً واحداً لما وقعت تلك الخصومات ﴿أَجْعَلِ لِلَّهِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ [ص: ٥-٦].

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٩٠-٤٩١) وانظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٤/ ٥٣٣-٥٣٨).

(٢) «جامع البيان» (١٣/ ٧٧-٧٨).

(٣) المرجع السابق، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٠٨).

٤ - أن متعلق الربوبية الأمور الكونية كالخلق والرزق والإحياء والإماتة ونحو ذلك أما متعلق الألوهية فهي الأمور الشرعية مما أمر الله به ونهى عنه في كتابه أو على لسان رسوله.

٥ - أن توحيد الربوبية هو توحيد الله بأفعاله هو، أما توحيد الألوهية فهو توحيد الله بأفعال العباد. فهل يمكن أن تكون أفعال الله هي أفعال عباده.

٦ - انعقاد الإجماع على أن من آمن بالربوبية ولم يأت بالألوهية أنه كافر لم يدخل في دين الله<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: توحيد الأسماء والصفات: أي أسماء الله وصفاته.

معنى الأسماء والصفات:

الاسم لغة: هو ما دل على معنى. «وأسماء الأشياء هي الألفاظ الدالة عليها»<sup>(٢)</sup>.

وفي الاصطلاح: كل اسم دل على ذات الله متضمناً صفة كمال قائمة به. كالقادر دل على ذات الله ودل على ما قام به من القدرة.

الصفة لغة: هي الأمانة اللازمة للشيء<sup>(٣)</sup>.

وفي الاصطلاح: هي صفات الكمال القائمة بذات الله، كالعلم والحكمة، والرحمة، والكلام، ونحو ذلك.

تعريف توحيد الأسماء والصفات:

هو إفراد الرب سبحانه بأسمائه الحسنی وصفاته العلی الواردة في الكتاب والسنة مع الإيمان بمعانيها وأحكامها<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر: «حقيقة التوحيد بين السلف والمتكلمين» (١٠٨-١١١) و«الماتريدية» لشمس الدين الأفغاني (٣/١٨٨) و«المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية» للبريكاني (٩٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦/١٩٥).

(٣) «معجم مقاييس اللغة» (٥/٤٤٨).

(٤) انظر: «القول السديد» (١٠).

## طريقة السلف في وصف الله تعالى:

وطريقة سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل. إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] (١).

قال الإمام أحمد: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا نتجاوز القرآن والحديث» (٢).

وقال ابن عبد البر: «لا يصفه - أي: الله - ذوو العقول إلا بخبر، ولا خبر في صفات الله إلا ما وصف نفسه به في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، فلا نتعدى ذلك إلى تشبيهه، أو قياس، أو تمثيل، أو تنظير، فإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾» (٣).

## أدلة توحيد الأسماء والصفات:

ثبت توحيد الأسماء والصفات بالشرع والعقل والفطرة والحس.

أولاً: الشرع: أكثر آيات القرآن الكريم في بيان أسماء الله وصفاته وأفعاله ولا يمكن حصرها إلا بمشقة وكلفة ومن ذلك:

١ - ما ختم الله به كثيراً من الآيات في الأحكام وغيرها كقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]. «وقد وردت أسماء الله في خواتم الآيات خمسمائة وتسع عشرة مرة» (٤).

٢ - أن الله ذكر أسماء وصفاته متمدحاً بها، فقال: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ

(١) «منهاج السنة» (٢/ ٥٢٣).

(٢) «الفتوى الحموية» (٢٧١).

(٣) «التمهيد» (٧/ ١٤٥).

(٤) «ختم الآيات بأسماء الله الحسنى» لعلي العبيد (٣٩).

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿[الحشر: ٢٢-٢٤]﴾ وغير ذلك من الآيات.

ثانياً: الفطرة: استقر في فطر الناس أن الرب جل جلاله له الكمال المطلق من جميع الوجوه بدون سابق تعليم وتفهم وبيان. فيعتقدون أن له الصفات الكاملة قال شيخ الإسلام: ومن القضايا البديهية المستقرة في الفطر أن الذي يعلم أكمل من الذي لا يعلم، كما أن الذي يقدر أكمل من الذي لا يقدر، ولهذا يذكر سبحانه هذه القضية بخطاب استفهام الإنكار الذي يبين أنها مستقرة في الفطر وأن النافي لها قال قولاً منكراً في الفطرة كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

وكون العالم أكمل من الذي لا يعلم، وكون عدم العلم نقصاً هو من أبين القضايا البديهية المستقرة في فطر بني آدم<sup>(١)</sup>.

ولذلك لما سأل النبي ﷺ الجارية التي لم تتعلم أين الله؟ كان جوابها بفطرتها أن الله في السماء<sup>(٢)</sup>.

قال ابن عبد البر مبيناً فطرية الصفات ممثلاً بصفة العلو: «ومن الحجة أيضاً في أنه ﷺ على العرش فوق السموات السبع أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم إذا كرههم أمر أو نزلت بهم شدة رفعوا وجوههم إلى السماء يستغيثون ربهم تبارك وتعالى، وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته؛ لأنه اضطرار لم يؤنبهم

(١) «درء التعارض» (١٥٣/١٠-١٥٦) باختصار، وقد استطرد في ذكر الأدلة على ذلك، فراجع إن شئت.

(٢) مسلم (١/٣٨١-٣٨٢)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة»/ باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما

كان من إباحته. رقم (٥٣٧).

عليه أحد ولا أنكره عليهم مسلم»<sup>(١)</sup>، ومناظرة الهمداني مع الجويني من أوضح وأصرح ما يدل على أن الفطرة تدل على أسماء الله وصفاته، وذلك أن أبا جعفر الهمداني حضر مجلس أبي المعالي الجويني وهو يتكلم في نفي صفة العلو، ويقول: «كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان، فقال أبو جعفر الهمداني: دعنا من ذكر العرش -يعني: لأن ذلك إنما جاء في السمع-، أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط: يا الله إلا وجد من قلبه ضرورة تطلب العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا؟ قال: فلطم أبو المعالي على رأسه، وقال: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني، ونزل»<sup>(٢)</sup>.

### ثالثاً: دليل الحس:

يرفع الناس أكفهم ضارعين إلى الله بالدعاء طالبين منه قضاء حاجاتهم فإذا به جل وعلا يجيبهم ويعطيهم سؤالهم، وفي هذا أوضح دليل على سمعه لسؤالهم وعلمه بمطلوبهم وقدرته على إجابتهم ورحمته بهم.

كما أجاب دعاء النبي ﷺ عندما طلب الأعرابي منه أن يدعو الله أن يغيثهم كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: «أصاب الناس سنة في عهد النبي ﷺ، فبينما النبي ﷺ يخطب في يوم الجمعة، قام أعرابي فقال: يا رسول الله، هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا فرفع يديه -وما نرى في السماء قزعة-، فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ﷺ، فمطرنا يومنا ذلك، ومن الغد، وبعد الغد، والذي يليه حتى الجمعة الأخرى، وقام ذلك الأعرابي، أو قال: غيره، فقال: يا رسول الله تهدم البناء وغرق المال، فادع الله لنا، فرفع يديه فقال: «اللهم

(١) «التمهيد» (٧/ ١٣٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٤).



حوالينا ولا علينا»، فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت وصارت المدينة مثل الجوبة، وسال الوادي قناة شهراً، ولم يجيء أحد من ناحية إلا حدث بالجود<sup>(١)</sup>.  
إنزال المطر وإيقافه عنهم أكبر دليل على سمعه سؤلهم، وعلمه بمطلوبهم، وقدرته التامة على إعطائهم ما سألوه.

وكما في خبر النبي ﷺ عندما خرج مهموماً فلم يستفق إلا بقرن الثعالب بسبب إعراض المشركين عن دعوته وفيه: «إذا أنا بسحابة قد أظلّنتني، فنظرت فإذا فيها جبريلُ فناداني فقال: إن الله ﷻ قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم..»<sup>(٢)</sup>.

ففي هذا الحديث سماعه سبحانه لأقوالهم وعلمه بإعراضهم وقدرته على عقوبتهم حيث أرسل ملك الجبال إلى النبي ﷺ ليأمره بما أراد.

وهكذا في قصة المجادلة - امرأة حية خافضة صوتها يخفى بعضه على من بجوارها، فيسمعه الرب من فوق سبع سموات، سمع صوتها وأوحى إلى نبيه ﷺ متكلماً في أمرها - قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، فأنزل تعالى على النبي ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]»<sup>(٣)</sup>.

وفي لفظ: «قالت عائشة: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ.. فما برحت حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾»<sup>(٤)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (٢/ ٤١٣)، كتاب «الجمعة» باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة. رقم (٩٣٣).  
(٢) مسلم (٣/ ١٤٢٠)، كتاب «الجهاد والسير»/ باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين. رقم (١٧٩٥).

(٣) البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٧٢)، كتاب «التوحيد»/ باب: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

(٤) ابن ماجه (١/ ٦٦٦)، كتاب «الطلاق»/ باب الظهار. رقم (٢٠٦٣).

## رابعًا: العقل:

العقل السليم يدرك تمام الإدراك أن الرب لا بُدَّ أن يكون له الكمال المطلق من جميع الوجوه وذلك لأن الكمال الموجود في المخلوق من الله ﷻ فواهبه أولى بالكمال، قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧] ومعنى المثل الأعلى: أي الوصف الأكمل والأعلى والأفضل<sup>(١)</sup>.

بين هذا ربنا أكمل بيان وأوضحه في رده على عاد لما انخدعوا بقوتهم، واغتروا بها، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مَقَاوِدَ﴾ فأجابهم بأن الذي أعطاهم قوتهم التي افتخروا بها أقوى منهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

## أسس الإيمان بأسماء الله وصفاته:

١ - الإيمان بما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله، ولا يصفه بعد الله أعلم من رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠] وقال ﷺ: «إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا»<sup>(٢)</sup>.

٢ - تنزيه الله أن يشابهه أحد من خلقه في أسمائه وصفاته، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

## ٣ - قطع الطمع عن إدراك الكيفية.

لأن الله أخبرنا بالصفة ولم يخبرنا بالكيفية.

وذلك لأن العلم بالشيء يكون بأحد ثلاثة أمور:

أ - رؤية الشيء. ونحن لم نره ولا يمكن أن نراه في الدنيا.

(١) انظر: «الصواعق المرسلة» (١/ ١٠٣٠ - ١٠٣٦).

(٢) سبق تخريجه.

ب- رؤية نظيره. والله ليس كمثله شيء، فليس له نظير.

ج- الخبر الصادق عنه. والخبر الصادق جاءنا عن الله وعن رسوله بالصفة ولم يأتينا بالكيفية.

إحصاء أسماء الله:

جعل النبي ﷺ إحصاء أسماء الله هو الموصل إلى جنات النعيم فقال: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»<sup>(١)</sup>.

ولإحصائها مراتب هي:

١ - إحصاء ألفاظها وعددها.

٢ - فهم معانيها.

٣ - دعاؤه وعبادته بها قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وأعلى منازل الإحصاء التعبّد «وهذا هو قطب السعادة ومدار النجاح والفلاح»<sup>(٢)</sup> «فمن تعلق بصفة من صفاته أخذته بيده حتى تدخله عليه ومن سار إليه بأسمائه الحسنی وصل إليه»<sup>(٣)</sup>.

قال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

فرتب الله الأمر بالدعاء في هذه الآية بالفاء على ما سبقه من الوصف بالحياة وانتفاء الألوهية عن غير الله تعالى.

(١) سبق تخريجه.

(٢) «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٤).

(٣) «عدة الصابرين» (٢٨٦).

وقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

بدأ الله الآيات بذكر الألوهية ثم ثنى بذكر أسمائه الحسنى ثم أعاد الألوهية مرة أخرى فأخبر أنه هو المعبود وذلك لكمال عظمتة في أسمائه وصفاته وأفعاله.

قال شيخ الإسلام بعد ذكره بعض الآيات التي ذكرت صفات الكمال لله: «والله سبحانه لم يذكر هذه النصوص لمجرد تقدير صفات الكمال له. بل ذكرها لبيان أنه هو المستحق للعبادة دون ما سواه»<sup>(١)</sup>.

#### ترابط أقسام التوحيد الثلاثة:

من المعلوم أنَّ توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية وأنَّ العبودية الحققة لا تكون إلا بمعرفة الأسماء والصفات. فإنه لا يمكن أن يذل العبد إلا لمن يعرف سطوته وجبروته ولا يرجو إلا من يعرف حلمه وكرمه وغناه ورحمته.

ولهذا ذكر الله أقسام التوحيد في آي كثيرة من كتابه وجمعها في قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

قال السعدي: «فجعل تفرد الله ﷻ بالربوبية واختصاصه بالأسماء الحسنى برهاناً قاطعاً على استحقاقه للعبودية وحده وإبطال عبادة من سواه»<sup>(٢)</sup>.

وفي بيان ترابطها يقول حافظ حكيمي: «فإن توحيد الإثبات هو أعظم حجة على

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/٨٣).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/١٧٩).

توحيد الطلب والقصد الذي هو توحيد الإلهية، وبه احتج الله تعالى في كتابه في غير موضع على وجوب إفراده تعالى بالإلهية لتلازم التوحيدين، فإنه لا يكون إلهًا مستحقًا للعبادة إلا من كان خالقًا رازقًا مالكا متصرفًا مدبرًا لجميع الأمور حيًا قيومًا سميعًا بصيرًا عليًا حكيمًا موصوفًا بكل كمال منزها عن كل نقص غنيًا عما سواه مفتقرًا إليه كل ما عداه، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات وفي الأرض فمن كانت هذه صفاته فإنه لا يستحق العبادة إلا هو ولا تجوز لغيره ومن كان منفردًا بالخلق وجب إفراده بالعبادة»<sup>(١)</sup>.

### ثمرات الإيمان بالله تعالى:

١ - صدق الاعتماد على الله. لعلمه بأنه هو الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء وأنه القادر على كل شيء وأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. ومن ذلك توكل إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار والنبى ﷺ وأصحابه حين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

٢ - محبة الله ﷻ. لعلمه بأن ما هو فيه من نعم فمنه سبحانه وأنه مع ذلك كريم يعفو ويصفح عن زلات عباده ويشكر للمطيعين منهم طاعاتهم وعبادتهم.

٣ - تحقيق التوحيد. لعلمه بأن المستحق للعبادة هو الله وحده وأما غيره فهم عبيد مربوبون لا حظ لهم في الربوبية ولا حق لهم في الألوهية.

٤ - الحرص على فعل الطاعات والبعد عن الخطيئات تعظيماً لله وشعوراً بعلمه به وإطلاعه على خفاياه قال تعالى: ﴿الرَّكَتَبُ أَحْكَمْتُ أَيْنَهُ ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١] قال الشنقيطي: «فالخبير هو العالم بخفايا الأشياء وحقائقها، وهذا الوصف من أكبر الدواعي لإعظام الله ومراقبته وطاعته في أمره ونهيه»<sup>(٢)</sup>.

(١) «معارج القبول» (١/ ٢٨٦) بشيء من الاختصار.

(٢) «معارج الصعود» (٣٩).

قال أبو العباس بن سريج (ت ٣٠٦ هـ) لما سئل متى يهش الراعي غنمه بعصا الرعاية عن مراتع الهلكة؟ قال: «إذا علم أن عليه رقيباً»<sup>(١)</sup>.

وقال سهل بن عبدالله: «لا يبلغ العبد حقيقة الخوف حتى يخاف مواقع علم الله فيه ويحزن على ذلك»<sup>(٢)</sup>.

#### ٥ - الشجاعة في قول كلمة الحق:

وَسِرُّ ذَلِكَ اعتقاده بأن الله يراه وأنه معه ينصره ويؤيده. ولهذا لما اعتذر موسى ﷺ عن دعوة فرعون بخوفه من طغيانه وجبروته قواه الله برؤيته له وسماحه لكلامه فقال: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] فما كان من موسى إلا أن ذهب لفرعون ودعاه ولم يبال به بل إنه لما تعنت فرعون أغلظ له القول فقال كما ذكر الله عنه: ﴿وَلِئَلَّا تُظَنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وعن الأسود قال: «أسلم الزبير بن العوام وهو ابن ثمانين، وهاجر وهو ابن ثمانين عشرة سنة، وكان عم الزبير يعلق الزبير في حصير، ويدخن عليه بالنار، وهو يقول: ارجع إلى الكفر، فيقول الزبير: لا أكفر أبداً»<sup>(٣)</sup>.

وقال ابن أبي دؤاد: «ما رأيت أحداً أشد قلباً من هذا - يعني الإمام أحمد ابن حنبل - جعلنا نكلمه وجعل الخليفة يكلمه يسميه مرة ويكنيه مرة، وهو يقول يا أمير المؤمنين: أوجدني شيئاً من كتاب الله، أو سنة رسوله حتى أجيبك إليه»<sup>(٤)</sup>.

(١) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٠٥) رقم (١٥٦).

(٢) المرجع السابق (١/ ٢١٥) رقم (١٧٢).

(٣) «حلية الأولياء» (١/ ٨٩).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢٩٥).

## ٦ - الخوف من الله:

إذا تذكر المسلم صفات الله التي منها الغضب والانتقام ممن عصاه وشدة عقوبته وقوته وجبروته خاف منه. يوضح ذلك حديث الشفاعة الطويل وفيه اعتذار آدم وأربعة من أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام فكان مما اتفقوا جميعاً على قوله: «إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله»<sup>(١)</sup>.

قال ابن القيم: «وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة انقمعت النفس الأمارة وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات، وانقبضت أعنة رعوناتها، فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر»<sup>(٢)</sup>.

## ٧ - الطمع والرجاء:

عندما يخلو العبد بنفسه فيحاسبها محاسبة صريحة فيستشعر ذنوبه ومعاصيه يوقن بالهلاك. لكنه إذا تذكر أن العفو أحب إلى الله من العقوبة، وأن رحمة الله سبقت غضبه وأنها وسعت كل شيء وأنه حلیم على عباده رؤوف بهم مع كثرة معاصيهم وذنوبهم فلا يعاجلهم بالعقوبة.

انفتح له باب الرجاء فتوسل إلى الله باسمه العَفُوَّ وطمع في رحمة أرحم الراحمين ولهذا فتح النبي ﷺ الرجاء لأُمَّنا عائشة رضي الله عنها حينما سألته إن وافقت ليلة القدر ما أقول فيها؟ فقال: «قولي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تَحُبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي»<sup>(٣)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٣٩٥-٣٩٦)، كتاب «التفسير» / باب: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾. رقم (٤٧١٢)، ومسلم (١/ ١٨٤-١٨٦)، كتاب «الإيمان» / باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. رقم (١٩٤).

(٢) «الفوائد» (٩٢).

(٣) أحمد (٦/ ١٨٣٠)، والترمذي (٥/ ٥٣٤)، كتاب «الدعوات». رقم (٣٥١٣)، وقال: «حديث حسن =

٨- الصبر على أقدار الله من جوع ومرض وفقر وغيرها:

وذلك لأن الله قدرها لحكم عظيمة منها:

أ- أن المنع أصلح لعبده قال سفيان الثوري: «منعه عطاءً وذلك أنه لم يمنع عن بخل ولا عدم وإنما نظر في خير عبده المؤمن فمنعه اختياراً وحسن نظر»<sup>(١)</sup>.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

«فهو سبحانه أعلم بمحال التخصيص فمن رده المنع إليه انقلب عطاءً، ومن شغله عطاؤه عنه انقلب منعاً»<sup>(٢)</sup>.

ب- أن المرض والجوع والشدة يريد الله بها خيراً للمسلم. قال ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ»<sup>(٣)</sup>.

وتكفيراً لسيئاته قال ﷺ: «مَا يَصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»<sup>(٤)</sup>.

ورفعةً لدرجاته قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتِهِ فَصَبِرَ عَوَّضْتُ مِنْهَا الْجَنَّةَ» يريد عينيه<sup>(٥)</sup>.

صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٥)، كتاب «الدعاء» / باب الدعاء بالعفو والعافية. رقم (٣٨٥٠)، وقال ابن القيم: «حديث صحيح». «إعلام الموقعين» (٤/ ٢٩٨).

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٥).

(٢) «مختصر زاد المعاد» (١٢٦).

(٣) البخاري مع الفتح (١٠/ ١٠٣)، كتاب «المرضى» / باب ما جاء في كفارة المرض. رقم (٥٦٤٠).

(٤) البخاري مع الفتح (١٠/ ١٠٣)، كتاب «المرضى» / باب ما جاء في كفارة المرض. رقم (٥٦٤١)، (٥٦٤٢).

(٥) البخاري مع الفتح (١٠/ ١١٦)، كتاب «المرضى» / باب فضل من ذهب بصره. رقم (٥٦٥٣).



وجمعها النبي ﷺ في الحديث الذي روته عائشة رضي الله عنها. قال الأسود دخل شباب من قريش على عائشة وهي بمنى وهم يضحكون، فقالت: ما يضحكم قالوا: فلان خرَّ على طنب فسطاط فكادت عنقه أو عينه أن تذهب، فقالت: لا تضحكوا فإني سمعت رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يُشاك شوكةً فما فوقها إلا كُتب له بها درجة، ومحيت عنه بها خطيئة»<sup>(١)</sup>.

ولقد كان سلفنا الصالح يعرفون قدرَ نعمة المرض كما يعرفون قدر نعمة الصحة ومن ذلك قول أبي هريرة رضي الله عنه: «ما من مرض يصيبني أحبُّ إليَّ من الحمى؛ لأنها تدخل في كل عضو مني، وإن الله عزَّ وجلَّ يعطي كل عضو قسطه من الأجر»<sup>(٢)</sup>.  
ومرض أبو الدرداء رضي الله عنه ففرح بذلك فقال: «ما يسرني بوصب وصبته حمر النعم وسوادها»<sup>(٣)</sup>.

ويمر بأبي الدرداء رجل فيعجب من جلده فيسأله سؤالين عجيبين هما: أحمت قط؟ فيجيبه الرجل: لا. ثم يسأله سؤالاً آخر: أصدعت قط؟ فيجيبه الرجل: لا. فيقول أبو الدرداء قولاً عجيباً يبين سر اختياره لهذين السؤالين: «بؤساً لهذا يموت بخطيئته»<sup>(٤)</sup>.

(١) مسلم (٤/ ١٩٩١)، كتاب «البر والصلة» / باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك. رقم (٢٥٧٢).

(٢) «الأدب المفرد» (١٧٢) رقم (٥٠٣)، وصحح إسناده ابن حجر في «فتح الباري» (١٠/ ١١٠).

(٣) «الزهد» لهناد (١/ ٢٤٥)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (٣/ ٢٣٢).

(٤) «الزهد» لهناد (١/ ٢٤٦) و«الزهد» لأحمد (١٧٢).

## وملائكته.

الملائكة لغة: جمع ملك وأصله مَأْلَك مشتق من الأَلُوك أو الأَلُوكَة وهي الرسالة قال الليث والخليل: الأَلُوك الرسالة وهي المَأْلَكَة<sup>(١)</sup>.

وقال ابن فارس: «أَلَك: الهمزة واللام والكاف أصل واحد وهو تحمل الرسالة»<sup>(٢)</sup>.

ومنه قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولِي أَلْبَانٍ مِّثْنَى وَثَلَاثَ وَرُبْعَ﴾ [فاطر: ١] وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ [هود: ٧٧].

قال ابن القيم: «ولفظ الملك يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره، فليس له من الأمر شيء بل الأمر كله لله الواحد القهار»<sup>(٣)</sup>، قال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

أما التاء في لفظة الملائكة فهي للمبالغة والتعظيم كعلامة ونسابة<sup>(٤)</sup>.

وفي الاصطلاح: أجسام خلقت من نور قادرة على التشكل، منحهم الله الانقياد التام لأمره والقدرة على تنفيذه من غير ملل ولا تعب.

منزلة الإيمان بالملائكة وحكمه:

للإيمان بالملائكة منزلة رفيعة فهو الركن الثاني من أركان الإيمان فجميع الأدلة التي ذكرت أركان الإيمان ذكرت الإيمان بالملائكة بعد الإيمان بالله تعالى مباشرة.

(١) «تهذيب اللغة» (١٠/ ٢٧٣ و ٣٧٠) و«العين» (٥/ ٤٠٩) و«الصحاح» (١/ ٢٠).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (١/ ١٣٧).

(٣) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٢٧).

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٢٦٣) و«فتح الباري» (٦/ ٣٠٦).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وكما ورد في إجابة النبي ﷺ لجبريل عليه السلام عندما سأله عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره»<sup>(١)</sup>.

ومما يدل على ركنية الإيمان بالملائكة أن الله جعل الإيمان به مستلزماً للإيمان بهم وأن البر لا ينال إلا بذلك فقال: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وحكم بكفر من أنكر وجودهم فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

قال السعدي: «اعلم أن الكفر بشيء من هذه المذكورات كالكفر بجميعها لتلازمها وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض»<sup>(٢)</sup>.

ومما يدلُّ به على أن من أنكر واحداً فقد كفر: حديث عبدالله بن عمر عندما جاءه الرجلان من البصرة أو الكوفة يسألانه عن القدر والشاهد قوله: «والذي يحلف به عبدالله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر»<sup>(٣)</sup>، وفي هذا دليل على أن من أنكر أي ركن من أركان الإيمان فقد كفر.

قال البهوتي: «من جحد الملائكة أو أحداً ممن ثبت أنه ملك كفر لتكذيبه القرآن»<sup>(٤)</sup>.

(١) سبق تخريجه.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٢٠٩).

(٣) مسلم (٣٦/١)، كتاب «الإيمان» / باب الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله ﷻ، وبيان الدليل على التبرئ ممن لا يؤمن بالقدر، وإغلاظ القول في حقه. رقم (١).

(٤) «كشاف القناع» (١٦٨/٦).

بل حكم الله بكفر من أبغض أو عادى واحداً منهم ولو آمن بوجودهم كما قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ، عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

وذلك والله أعلم؛ لأن الكفر بالملائكة إبطال للدين، وذلك لأن الذي ينزل بالكتب على الرسل هو جبريل عليه السلام، فالكفر به كفر بما ينزل به من الوحي والقرآن. الإيمان بالملائكة يتضمن عدة أمور هي:

١ - وجودهم: وقد دل على وجود الملائكة الشرع والحس والإجماع. فأما أدلة الشرع فكثيرة جداً منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلَاسِلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩].

وقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ٤-٥].

وغير ذلك من الأدلة التي سبقت والتي ستأتي إن شاء الله.

وأما الحس: فمن ذلك ما رواه ابن عباس في خبر غزوة بدر قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع. فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة»، فقتلوا يومئذ سبعين وأسرُوا سبعين<sup>(١)</sup>.

(١) مسلم (٣/ ١٣٨٤ - ١٣٨٥)، كتاب «الجهاد والسير»/ باب الإمداد بالملائكة من غزوة بدر. رقم (١٧٦٣).

ومن ذلك أيضًا لما جاء رجل بالعباس يوم بدر أسيرًا قال العباس: يا رسول الله! إن هذا والله ما أسرنى لقد أسرنى رجل أجلى من أحسن الناس وجهًا على فرس أبلق ما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله فقال: «اسكت؛ فقد آيدك الله تعالى بملك كريم»<sup>(١)</sup>.

أما الإجماع: فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن المسلمين من أعظم الناس معرفة بوجود الملائكة كما دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع»<sup>(٢)</sup>.

## ٢- مادةٌ خلقهم:

مادة خلق الملائكة هي النور، ويدل له حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نورٍ، وخلق الجان من مارجٍ من نارٍ، وخلق آدم مما وصف لكم»<sup>(٣)</sup>.

## ٣- صفاتهم الخلقية والخلقية:

ومما ورد في صفاتهم ما يلي:

أ- شداد الأبدان، غلاظ القلوب على الكافرين. قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنْفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

قال ابن كثير: «أي طباعهم غليظة قد نزع من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله تركيهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج»<sup>(٤)</sup>.

(١) أحمد (١/ ١١٧)، وقال أحمد شاكر في تحقيقه «للمسند» (٢/ ١٩٢): «إسناده صحيح».

(٢) «الجواب الصحيح» (٥/ ٢٤-٢٥).

(٣) مسلم (٤/ ٢٢٩٤)، كتاب «الزهد والرقائق»/ باب في أحاديث متفرقة. رقم (٢٩٩٦).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (١٤٠٠).

ب- شدة قوتهم: وصفهم الله بشدة قوتهم فقال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥] وقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢٠] قال ابن كثير: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ أي شديد الخلق شديد البطش والفعل<sup>(١)</sup>.

ويدل لقوتهم العظيمة حديث عائشة رضي الله عنها عندما سألت النبي ﷺ هل أتى عليه يوم أشد من يوم أحد فقال ﷺ: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يُجِبنِي إلى ما أردتُ فانطلقتُ، وأنا مهمومٌ على وجهي فلم أستفق إلا بقرنِ الثعالبِ فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلّنتني فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ فناداني فقال: إنَّ اللهَ قد سمع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمرهُ بما شئتَ فيهم. فناداني ملكُ الجبال فسلمَ عليَّ ثم قال: يا محمَّد! فقال: ذلك فيما شئت. إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين». فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»<sup>(٢)</sup>.

### ج- ضخامة خلقهم:

ومما يدل على ضخامة خلقهم حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم»<sup>(٣)</sup>.

(١) المرجع السابق (١٤٥٧).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٣١٢-٣١٣)، كتاب «بدء الخلق» / باب إذا قال أحدكم: «آمين»، والملائكة في السماء، فوافقت أحدهما الأخرى؛ غفر له ما تقدم من ذنبه. رقم (٣٢٣١)، ومسلم (٣/ ١٤٢٠)، كتاب «الجهاد والسير» / باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين. رقم (١٧٩٥).

(٣) أحمد (١/ ٣٩٥).

التهاويل: هي الأشياء المختلفة الألوان وأصلها مما يهول الإنسان ويحيره.

وعنه عليه السلام أنه قال: «ورأيت جبريل على سدرة المنتهى، وله ستائة جناح، قال: سألت عاصمًا عن الأجنحة، فأبى أن يخبرني قال: فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب»<sup>(١)</sup>.

وحديث عائشة رضي الله عنها عندما سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]، فقال: «إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين. رأيته منهبطًا من السماء، سادًا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض»<sup>(٢)</sup>.

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش: إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»<sup>(٣)</sup>.

د- لهم أجنحة: للملائكة أجنحة حقيقة خلقها الله لهم ومما يدل لذلك:

قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثُلُثَ وُجْهِ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١]. فمنهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة أجنحة ومنهم من له أربعة ومنهم من له أكثر من ذلك.

(١) أحمد (٤٠٧/١)، وقال ابن كثير: «وهذه أسانيد جيدة قوية انفرد بها أحمد». «البداية والنهاية» (١٠٠/١).

(٢) مسلم (١٥٩/١)، كتاب «الإيمان» / باب ومعنى قوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾. رقم (١٧٧).

(٣) أبو داود (٩٦/٥)، كتاب «السنة» / باب في الجهمية. رقم (٤٧٢٧)، وقال الذهبي: «إسناده صحيح».

«العلو» (٧٤٥/١)، وقال ابن كثير: «إسناده جيد». «تفسير القرآن العظيم» (١٤١٤)، وقال ابن

حجر: «وإسناده على شرط الصحيح». «فتح الباري» (٦٦٥/٨).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطَّرِيقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا هَلِّمُوا إِلَى حَاجَتِكُمْ» قال: «فِيَحْفُوفُهُمْ بِأَجْنَحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»<sup>(١)</sup>.

هـ- لهم عقول بها يفهمون وهم أيضًا يتكلمون ويسمعون ويجيبون.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].  
فالملائكة سمعوا خطاب الله وعقلوه وفهموه وتكلموا وناقشوا في هذا الخلق الجديد وبينوا خطورة ما فهموه من واقع هؤلاء المخلوقين الجدد.

و- لهم قلوب تفرع وتخاف:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].  
ففي هذه الآية: «إثبات أن الملائكة يتكلمون ويفهمون ويعقلون لأنهم يسألون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ ويجيبون ﴿قَالُوا الْحَقُّ﴾»<sup>(٢)</sup>.

وفيهما أيضًا أن لهم قلوبًا يصيبها الخوف والوجل.

ز- جماهم:

وصف الله الملائكة بالجمال فقال: ﴿ذُورِمَرَّةٌ فَاسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٦].

قال ابن عباس: «ذو منظر حسن»<sup>(٣)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (٢٠٨/١١)، كتاب «الدعوات» / باب فضل ذكر الله ﷻ. رقم (٦٤٠٨)، ومسلم

(٢/٤) (٢٠٦٩-٢٠٧٠)، كتاب «الذكر» / باب فضل مجالس الذكر. رقم (٢٦٨٩).

(٢) «القول المفيد شرح كتاب التوحيد» (١/٣٢١).

(٣) «جامع البيان» (٢٧/٤٢).



ووصف الملائكة بالجمال مستقر عند عموم الناس كما أَنَّ وَصَفَ الشياطين بالقبح مستقر في قلوب الناس وفطرهم، ولهذا لما رأت النسوة يوسف عليه السلام: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

#### ٤ - أعمالهم:

تنقسم أعمالهم من حيث العموم والخصوص إلى قسمين:

أ - عمل عام: وهو العبادة: عبادة الملائكة لله شملت العبادة القلبية والبدنية ففي قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] عبادة القلب وهي: الخوف من الله. وفي قوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ عبادة الجوارح.

وقد اتسمت عبادتهم بسمتين جعلتاها من أعجب العجب:

١ - الطاعة المطلقة التي لا يخالطها معصية قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

٢ - الاستمرار الدائم بدون تعب ولا نوم ولا ملل.

قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

وقال تعالى مبيناً عدم الملل والسآمة: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْئَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

ب - العمل الخاص: وهو أن الله جعل لبعضهم أعمالاً خاصة لا يشركه فيها أحد من الملائكة الآخرين:

كإسرافيل: عمله النفخ في الصور.

وجبريل: عمله النزول بالوحي على رسل الله.

ومالك: عمله خازن النار.

وملك الموت: عمله قبض الأرواح.

٥ - عدم الأكل والشرب:

الملائكة لا تأكل ولا تشرب. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۚ﴾ (٦١) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ [هود: ٦٩-٧٠]. «وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه» (١). بل «اتفق العلماء على أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون» (٢).

٦ - قدرتهم على التشكل:

أعطى الله الملائكة القدرة على التشكل بصور متنوعة ومن ذلك:

الرسل الذين جاؤوا إلى لوط عليه السلام بصورة شباب مرد حسان قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۖ﴾ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ [هود: ٧٧-٧٨] ضاق بهم ذرعًا لأنه خشي عليهم من قومه لظنه أنهم من بني آدم.

وجبريل عليه السلام عندما جاء إلى مريم لم تعرفه فاستعازت بالله من شره. قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۚ﴾ (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۚ﴾ (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۚ﴾ [مريم: ١٧-١٩].

بشراً سويًّا: «أي على صورة إنسان تام كامل» (٣).

وحديث الأقرع والأعمى والأبرص الذين أتى الملك إلى كل واحد منهم في صورته

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٦٨٠).

(٢) «الحبائك في أخبار الملائك» للسيوطي (٢٦٤).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٨٤٧).

وهيئة التي كان عليها فأتى الأقرع في صورته والأعمى في صورته والأبرص في صورته<sup>(١)</sup>.

### ٧- الإيمان بهم إجمالاً وتفصيلاً:

والمقصود بالإجمال: هو الإيمان بجميع الملائكة الذين خلقهم الله تعالى سواء عرفناهم أو لم نعرفهم.

فنؤمن بأن الله خلق ملائكة كثيرين لا يعلم عددهم إلا هو ﷻ، ومما يدل على ذلك قوله ﷺ: «البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم»<sup>(٢)</sup>.

وقوله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»<sup>(٣)</sup>.

وحديث أطيظ السماء من ثقل الملائكة قال ﷺ: «أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجد لله»<sup>(٤)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٥٠٠-٥٠١)، كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل. رقم (٣٤٦٤)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٥-٢٢٧٦)، كتاب «الزهد والرقائق». رقم (٢٩٦٤).  
(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٣٠٢-٣٠٣)، كتاب «بدء الخلق»/ باب ذكر الملائكة. رقم (٣٢٠٧)، ومسلم (١/ ١٤٥-١٤٧)، كتاب «الإيمان»/ باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات. رقم (١٦٢).

(٣) مسلم (٤/ ٢١٨٤)، كتاب «الجنة وصفة نعيمها وأهلها»/ باب في شدة حر جهنم وبعد قعرها، وما تأخذه من المعذنين. رقم (٢٨٤٢).

(٤) الترمذي (٤/ ٥٥٦)، كتاب «الزهد»/ باب في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً». رقم (٢٣١٢)، وقال: «هذا حديث حسن غريب، وفي الباب عن أبي هريرة وعائشة وابن عباس وأنس»، وأحمد (٥/ ١٧٣)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٢)، كتاب «الزهد»/ باب الحزن والبكاء. رقم (٤١٩٠)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٤٠٧-٤٠٨).

أما التفصيل: فهو الإيمان بما علمنا منهم اسماً وصفة وعملاً.

فمثلاً جبريل: علمنا اسمه، وعلمنا من صفته أن له ستمئة جناح وعمله أنه هو الموكل بالوحي قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

مالك: علمنا اسمه، وعلمنا عمله، وهو خزانة النار قال تعالى: ﴿وَنَادَا يُمَلِّكُ لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ﴾ [الزخرف: ٧٧].

ميكائيل: علمنا اسمه، وعلمنا عمله وهو أنه موكل بالقطر والنبات، فعن ابن عباس «أن النبي ﷺ سأل جبريل عليه السلام على أي شيء ميكائيل قال: على النبات والقطر»<sup>(١)</sup>. قال ابن كثير: «وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات»<sup>(٢)</sup>، وبمثله قال ابن القيم<sup>(٣)</sup>. إسماعيل: علمنا اسمه من حديث النبي ﷺ في استفتاحه لصلاة الليل حيث يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسماعيل فاطر السموات والأرض...»<sup>(٤)</sup>.

وعلمنا عمله وهو النفخ في الصور كما في قول النبي ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته يستمع متى يؤمر فينفخ»، قال أصحاب محمد ﷺ: كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا»<sup>(٥)</sup>، وفي رواية فكأن

(١) «العرش» لابن أبي شيبة (٨٥-٨٧) رقم (٧٥)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١١/٣٧٩) رقم (١٢٠٦١)، وابن أبي الشيخ في «العظمة» (٢/٧٠٠-٧٠١) رقم (٢٩١)، و«شعب الإيمان» (١/٤٣١-٤٤٣) رقم (١٥٥).

(٢) «البداية والنهاية» (١/١٠٥).

(٣) «إغاثة اللفهان» (٢/١٢٩).

(٤) مسلم (١/٥٣٤)، كتاب «صلاة المسافرين وقصرها» / باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه. رقم (٧٧٠).

(٥) أحمد (١/٣٢٦).

ذلك ثقل على أصحاب رسول الله <sup>(١)</sup>.

قال القرطبي: «الأمم مجمعة على أن الذي ينفخ في الصور إسرافيل عليه السلام» <sup>(٢)</sup>.

منكر ونكير: علمنا اسمهما وعلمنا عملهما وهو سؤال الميت في قبره عن ربه ودينه ونبيه ويدل لذلك قول النبي ﷺ: «إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ - أَوْ قَالَ - أَحَدُكُمْ آتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ وَلِلْآخَرِ النَّكِيرُ، فيقولان: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ...» <sup>(٣)</sup>.

ومنهم من علمنا أعمالهم دون أسمائهم ومن ذلك (ملك الموت) فملك الموت عمله قبض الأرواح، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتُوبُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

ومن ذلك الكرام الكاتبين الموكلين بحفظ أعمال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۖ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وهما اللذان وصفها الله بأنها رقيب وعتيد في قوله تعالى: ﴿إِذْ نَلَقَى الْمُتَلَفِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۚ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨] ونحو ذلك.

### ثمرات الإيمان بالملائكة:

الأولى: تحقيق الإيمان والفوز والفلاح: الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الستة.

فمن آمن بهم حصل له الفوز والفلاح قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۚ﴾ [ق: ١٧-١٨] ذلك المكتوب لاريب فيه هدى

(١) الترمذي (٤/ ٦٢٠)، كتاب «صفة القيامة» / باب ما جاء في شأن الصور. رقم (٢٤٣١)، وقال: «هذا حديث حسن»، وقال ابن كثير: «حديث جيد». «تفسير القرآن العظيم» (٢٧٩).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٢٠).

(٣) الترمذي (٣/ ٣٨٣)، كتاب «الجنائز» / باب ما جاء في عذاب القبر. رقم (١٠٧١)، وقال: «حديث حسن غريب»، وقال ابن كثير: «وقد استفاد في الأحاديث ذكرهما في سؤال القبر». «البداية والنهاية»

لِالْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴿١﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥].

قال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾: «يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث فهذا غيب كله»<sup>(١)</sup>. فجعل الله المؤمنين بالملائكة أهل الفوز والفلاح.

الثانية: تعظيم الله ﷻ: وصفت الملائكة بأنهم غلاظ شداد يفعلون ما يؤمرون، ومن شدة قوتهم يقلب أحدهم قرى اللوطية كلها في لحظة واحدة، ويجر بعضهم جهنم مع ضخامتها.

عظام الخلقة، جناح أحدهم يسد الأفق كله، فأين بقية الأجنحة. ما بين عاتق آخر وشحمة أذنيه مسيرة خفق الطير سبعة سنة.

ثم هؤلاء الملائكة مع عظمتهم إذا تكلم الله صعقوا كلهم، فإذا آمنت بعظمة الملائكة وضخامتهم وضعفهم عند كلام الله ذلك ذلك على عظمة الخالق سبحانه.

الثالثة: شكر الله جلّ وعلا: قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] وقال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِمَّنْ أَمَرِ اللَّهُ﴾ [الرعد: ١١].

يقول علي بن أبي طالب عليه السلام: «لكل عبد حفظة يحفظونه لا يخر عليه حائط أو يتردى في بئر أو تصيبه دابة أو يأكله سبع حتى إذا جاء القدر الذي قُدِّرَ له خلَّت عنه الحفظة فأصابه ما شاء الله أن يصيبه»<sup>(٢)</sup>.

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢٩).

(٢) «الدر المنثور» (٤/ ٦١٥).

ويقول ابن عباس رضي الله عنه: «ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء قدر الله خلوا عنه»<sup>(١)</sup>.

ويقول مجاهد رضي الله عنه: «ما من عبد إلا له ملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والحوام فما منها من شيء يأتيه يريده إلا قال له الملك وراءك إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه»<sup>(٢)</sup>. فعندما تتذكر أن الله هيا هؤلاء الملائكة يحفظونك تشكر الله الذي هيا لك حراسا يحفظونك، وأنت لا تشعر.

الرابعة: الحذر مما يغضب الله: المعاصي سبب غضب الرب، وإذا غضب عاقب، وقد يأمر الله الملائكة بعقوبة من شاء ممن عصاه، ومن ذلك عقوبة قوم لوط عليه السلام.

قال السهيلي: «لما أشرقت الشمس نزل بهم العذاب قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ﴾<sup>(٨٢)</sup> مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» [هود: ٨٢-٨٣] قالوا: اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن وكن سبع مدن بمن فيهن من الأمم يقال: إنهم كانوا أربعمائة ألف نسمة وقيل: أربعة آلاف ألف نسمة، وما معهم من الحيوانات وما يتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن والمعاملات فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها.

قال مجاهد: «فكان أول ما سقط منها شرفاتها» ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ والسجيل فارسي معرب وهو الشديد الصلب القوي ﴿مَّنْضُودٍ﴾؛ أي يتبع بعضها بعضا في نزولها من السماء ﴿مُسَوِّمَةً﴾ أي معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه»<sup>(٣)</sup>.

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٧١٥).

(٢) المرجع السابق (٧١٥).

(٣) «البداية والنهاية» (١/ ٤١٩-٤٢١).

والشاهد قوله: «أن جبريل قد اقتلعهن بطرف جناحه».

إذا استشعر الإنسان قوة الملائكة خشي من غضب الله ﷻ لأن الله قد يأمرهم وهو على كل شيء قدير.

ومما يدل على أن الإنسان إذا آمن بالملائكة ابتعد عن المعاصي:

قول النبي ﷺ: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة»<sup>(١)</sup>.

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أخبرتني ميمونة أن رسول الله ﷺ أصبح يوماً واجماً فقالت ميمونة: يا رسول الله! لقد استنكرت هيئتك منذ اليوم قال رسول الله ﷺ: «إن جبريل كان وعدني أن يلقاني الليلة فلم يلقيني. أم والله ما أخلفني»، قالت: فضل رسول الله ﷺ يومه ذلك على ذلك. ثم وقع في نفسه جرو كلب تحت فسطاط لنا قال: فأمر به فأخرج ثم أخذ بيده ماءً فنضح مكانه فلما أمسى لقيه جبريل، فقال له: «قد كنت وعدتني أن تلقاني البارحة قال: أجل ولكننا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة»، فأصبح رسول الله ﷺ يومئذ فأمر بقتل الكلاب حتى إنه يأمر بقتل كلب الحائط الصغير ويترك كلب الحائط الكبير»<sup>(٢)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (٦/٣٥٩)، كتاب «بدء الخلق»/ باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه، فإن في إحدى جناحيه داء وفي الأخرى شفاء. رقم (٣٣٢٢)، ومسلم (٣/١٦٦٥)، كتاب «اللباس والزينة»/ باب تحريم تصوير صورة الحيوان، وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتحنة بالفراش ونحوه، وأن الملائكة عليهم السلام لا يدخلون بيتاً فيه صورة ولا كلب. رقم (٢١٠٦).

(٢) مسلم (٣/١٦٦٤-١٦٦٥)، كتاب «اللباس والزينة»/ باب تحريم تصوير صورة الحيوان، وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتحنة بالفراش ونحوه، وأن الملائكة عليهم السلام لا يدخلون بيتاً فيه صورة ولا كلب. رقم (٢١٠٥).



الخامسة: محبتهم:

محبة عباد الله أجرها عظيم بشر بها النبي ﷺ بقوله: «المرء مع من أحب»<sup>(١)</sup>، ومن ذلك محبتك للملائكة، ومما يوجد في قلبك محبتهم أمور هي:

١ - طاعتهم لرهبهم سبحانه طاعة مطلقة لا يتخللها عصيان ولا تقصير فإذا استشعرت أنهم ﴿لَا يَسْقُونَهُ، بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]. أحببتهم لله.

٢ - دعائهم لنا بالمغفرة والوقاية من العذاب كل يوم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

٣ - أنهم خير محض والخير كله جعل على أيديهم<sup>(٢)</sup>.

٤ - تبشيرهم للمؤمنين عند الموت في أصعب اللحظات وأحلك الأوقات عند فراق هذه الدنيا والإقبال على الآخرة وقد أصاب الإنسان من الخوف ما الله به عليم لا يدري ماذا يستقبله ولا يدري إلى أين يصير.

في هذه الحالة العصبية إذا بالملائكة يطمئنونهم على مستقبلهم ويبشرونهم بجنت النعيم فيا لها من بشارة ويا لها من فرحة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

(١) البخاري مع الفتح (١٠/٥٥٧)، كتاب «الأدب» / باب علامة الحب في الله. رقم (٦١٦٨، ٦١٦٩)، ومسلم

(٤/٢٠٣٤)، كتاب «البر والصلة» / باب المرء مع من أحب. رقم (٢٦٤١).

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/٤٢٦).

٥- نصرتهم للمؤمنين على أعدائهم كنصرة ملك الجبال للنبي ﷺ حين آذاه قومه فجاءه فقال له: «إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطَبِّقَ عَلَيْهِمُ الْأُخْشَبَيْنِ» ونصرتهم للمؤمنين في بدر وحنين.

السادسة: المحافظة على العبادات والطاعات وذلك لما يلي:

١- أن الملك يحرك بواعث الخير في نفس المؤمن فينشط على الطاعة فيحافظ على العبادات والطاعات المشروعة.

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لِمَةَ بَابِنِ آدَمَ، وَلِلْمَلِكِ لِمَةً، فَأَمَّا لِمَةُ الشَّيْطَانِ فإِيعَادُ الْبَشَرِّ وَتَكْذِيبُ الْحَقِّ، وَأَمَّا لِمَةُ الْمَلِكِ، فإِيعَادُ الْخَيْرِ وَتَصْدِيقُ الْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ الْآخَرَى؛ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾»<sup>(١)</sup> [البقرة: ٢٦٨].

ويوضحه حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا آوَى الرَّجُلُ إِلَى فِرَاشِهِ: ابْتَدَرَهُ مَلِكٌ وَشَيْطَانٌ، فَيَقُولُ الْمَلِكُ: اخْتِمْ بِخَيْرٍ، وَيَقُولُ الشَّيْطَانُ: اخْتِمْ بِشَرٍّ. فَإِنْ ذَكَرَ اللَّهَ، ثُمَّ نَامَ بَاتَ الْمَلِكُ يَكُلُوهُ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ، ابْتَدَرَهُ مَلِكٌ وَشَيْطَانٌ، فَيَقُولُ الْمَلِكُ: افْتَحْ بِخَيْرٍ، وَقَالَ الشَّيْطَانُ: افْتَحْ بِشَرٍّ، فَإِنْ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ عَلَيَّ نَفْسِي وَلَمْ يَمْتَحِنِي فِي مَنَامِهَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَلَوْ أَنَّ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِنْ وَقَعَ مِنْ سَرِيرِهِ فَمَاتَ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»<sup>(٢)</sup>.

(١) الترمذي (٢١٩/٥-٢٢٠)، كتاب «تفسير القرآن» / باب: «ومن سورة البقرة». رقم (٢٩٨٨)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، والنسائي في «الكبرى» (٣٧/١٠) رقم (١٠٩٨٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٧٨/٣) رقم (٩٩٧)، وصحح أبو زرعة وقفه على عبد الله بن مسعود. «علل الحديث» لابن أبي حاتم (٢٤٤/٢) رقم (٢٢٢٤).

(٢) «مسند أبي يعلى» (٣٢٦/٣)، والنسائي في «الكبرى» (٩/٣١٥). رقم (١٠٦٢٣)، قال المنذري: «رواه أبو يعلى بإسناد صحيح». «الترغيب والترهيب» (١/٤١٥-٤١٦).

ويشهد لهما قول رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجنِّ وقرينه من الملائكة»<sup>(١)</sup>.

قال ابن القيم: «إذا أَلَمَّ به الملك حدث من لَمَتِه الانفساح والانشراح والنور والرحمة والإخلاص والإنابة ومحبة الله، وإيثاره على ما سواه، وقصر الأمل، والتجافي عن دار البلاء والامتحان والغرور»<sup>(٢)</sup>.

## ٢ - كتابتهم أعمالنا:

مما يعين العبد على فعل الطاعات استشعاره كتابتها قال تعالى: ﴿وإنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كُنِينَ﴾<sup>(١١)</sup> يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ [الأنفطار: ١٠-١٢].

وهم الذين يتعاقبون بالليل والنهار كما قال رسول الله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرجُ الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون»<sup>(٣)</sup>.

ولما عمشت عينا سعيد بن المسيب رحمه الله من كثرة البكاء قيل له ألا تخرج إلى العقيق فتمر الرياح على الأشجار والأزهار فإذا مرت عليها ثم مرت على عينيك شفيتا أجابهم بقوله: «من لي بشهود العتمة والصبح» يقصد الملائكة.

(١) مسلم (٤/٢١٦٨)، كتاب «صفات المنافقين وأحكامهم» / باب تحريش الشيطان وبث سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قريناً. رقم (٢٨١٤).

(٢) «التبيان في أيمان القرآن» (٦٣١).

(٣) البخاري مع الفتح (٣٣/٢)، كتاب «مواقيت الصلاة» / باب فضل صلاة العصر. رقم (٥٥٥)، مسلم

(١/٤٣٩)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة» / باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليها.

رقم (٦٣٢).

فإذا استشعر المسلم شهود الملائكة وتعاقبهم وكتابتهم نشط في العمل الصالح.

٣- الاقتداء بهم في فعل الطاعات:

يوضحه قول المصطفى ﷺ لأصحابه: «أَلَا تَصِفُّونُ كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا».

قالوا: وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يَتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُولَى، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»<sup>(١)</sup>.

(١) مسلم (١/٣٢٢)، كتاب «الصلاة»/ باب الأمر بالسكوت في الصلاة. رقم (٤٣٠).

## وكتبه.

الكتب لغة: مادة كتب: تدور حول الجمع والضم.

قال ابن فارس: «الكاف والتاء والباء أصل صحيح واحد، يدل على جمع شيء إلى شيء ومن ذلك الكتاب والكتابة»<sup>(١)</sup>.

وقال شمر: كل ما ذكر أبو زيد في الكتب قريب بعضه من بعض وإنما هو جمعك بين الشيئين. وكتبت الكتاب كَتَبًا وَكِتَابًا فالكتاب: اسم لما كتب مجموعاً<sup>(٢)</sup>.

والإيمان بالكتب اصطلاحاً: هو الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى أنزل كتباً على رسله الذين أرسلهم، وأنها كلامه تكلم بها حقيقة بين بها عقيدة التوحيد وما ارتضى لعباده من الدين.

## أدلة الإيمان بالكتب:

دل على الإيمان بالكتب الشرع والعقل والحس.

## ١ - الشرع:

تكاثر الأدلة من الشرع على الإيمان بالكتب، ومن ذلك قوله تعالى آمراً نبيه ﷺ أن يصرح بإيمانه بها لكونه قدوة يقتدى به: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى: ١٥].

والكتاب «اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن»<sup>(٣)</sup>.

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٥ / ١٥٨).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٠ / ١٥٠ - ١٥٢).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (١٣٥).

وجاء الأمر عامًّا لجميع المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكُنَّ الَّذِي نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالِكُنَّ الَّذِي نَزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]، وغير ذلك من الآيات.

## ٢- العقل:

وذلك أنه لا بُدَّ للسائر إلى الله من كتاب يهديه ويرشده في سيره. إذ إنه لا يمكن وصول الإنسان إلى ما يريده إلا بمعرفة الطريق الموصل إليه. ولذلك أنزل الله كتبه على رسله عليهم الصلاة والسلام لتكون نورًا ونبراسًا يهتدون بها في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم.

وهذه الحقيقة أكدها الله في كتابه حيث ذكرها مسبقة بقدر التي ورد بعدها فعل ماض ليدل على تحقيق هذا الأمر وتأكيده فقال سبحانه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

## ٣- الحس والواقع:

الواقع يدل أكبر دلالة على هذه الكتب التي أنزلها الله تبارك وتعالى فيها هو القرآن بين أيدينا يحفظه الأطفال في الكتّابِ ويقرؤه الأئمة في المحارب ويتشر في المساجد والأسواق والبيوت. وكل الناس تعرف أنه القرآن كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وأنشاهم لا يختلفون في ذلك.

وأما التوراة والإنجيل فكذلك الناس يتداولون ذكرها بينهم وإن كان هذان الكتابان قد مستهما يد التحريف والتبديل ولكن الواقع يدل على أن لهما أصلًا قد أنزله الله تبارك وتعالى.

(۱) انظر: «مجموع الفتاوى» (۱۲ / ۸-۹).

وأكد خلودهم فيها فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

الإيمان بالكتب يتضمن عدة أمور هي:

أولاً: الإيمان بأنها كلام الله أنزله على رسوله:

قال تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى: ١٥].

وأثنى الله على الراسخين في العلم الذين آمنوا بما أنزل الله وأثبتوا كونها كلها من عند الله فقال: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] وقال عن القرآن: ﴿فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وغير ذلك من الأدلة.

ثانياً: الإيمان بما اتفقت عليه وما اختلفت فيه:

المتفق عليه بين الكتب التي أنزلها الله تبارك وتعالى هو التوحيد فمعتقد الأنبياء كلهم واحد وهو إفراد الله بالعبادة. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

أما ما اختلفت فيه فهو الشرائع وذلك أن الله لكمال حكمته، شرع لكل قوم ما يناسبهم: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] أي سبيلاً وسنة.

وجمع النبي ﷺ بين المتفق عليه والمختلف فيه في موضع واحد ليكون أوعى للفهم فقال: «الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد»<sup>(١)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٧٨)، كتاب «أحاديث الأنبياء» / باب قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ

أَنْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾. رقم (٣٤٤٣).



ومعنى العلات: أي الضرائر. وأولاد العلات: الإخوة من الأب وأمهاتهم شتى ومعنى الحديث: «أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع»<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: الإيمان بالكتب إجمالاً:

ومعنى ذلك هو الإيمان بجميع كتب الله تعالى التي أنزلها على رسله عليهم الصلاة والسلام سواء عرفناها أو لم نعرفها.

وذلك أننا لا نعلم عدد الكتب ولكن نعلم أنه ما من رسول إلا معه كتاب كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾<sup>(٢)</sup> [الحديد: ٢٥].

ومن الأدلة على وجوب الإيمان بالكتب إجمالاً:

أن الله أمر نبيه محمدًا ﷺ بذلك في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى: ١٥].

قال البغوي: «أي آمنت بكتب الله كلها»<sup>(٣)</sup>.

وأمر الله بذلك عموم المؤمنين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦].

قال السعدي: «أمر هنا بالإيمان به وبرسوله وبالقرآن وبالكتب المتقدمة فهذا كله من الإيمان الواجب الذي لا يكون العبد مؤمناً إلا به، إجمالاً فيما لم يصل إليه تفصيله وتفصيلاً فيما علم من ذلك بالتفصيل»<sup>(٤)</sup>.

رابعاً: الإيمان بالكتب تفصيلاً.

(١) «فتح الباري» (٦/ ٤٨٩).

(٢) انظر: «تفسير القرآن الكريم» (٢/ ٢٨٦).

(٣) «معالم التنزيل» (٤/ ١٢٣).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٢٠٩).

الإيمان بالكتب تفصيلاً هو الإيمان بما عرفنا اسمه منها وعلى أي رسول أنزل:

١ - الصحف: الصحف أنزلت على كل من إبراهيم وموسى عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى [الأعلى: ١٨-١٩].

وكما في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَاهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

٢ - الزبور: وهو الكتاب الذي أنزل على داود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

٣ - التوراة: وهو الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ [البقرة: ٨٧]، والكتاب الذي أنزل الله على موسى هو التوراة بإجماع أهل العلم<sup>(١)</sup>.

٤ - الإنجيل: وهو الكتاب الذي أنزل على عيسى عليه الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿وَفَقَّيْنَا عَلَىٰ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ مِصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ٤٦].

ومما ينبغي أن يعلم أن هذه الكتب كلها مسستها يد التحريف، وذلك لأن الله استحفظها أهلها فضيعوها، وخانوا الأمانة فحرفوا كثيراً منها وأخفوا منها ما أخفوا.

قال تعالى: ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْكِتَابِ وَقَدْ كَانَفَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦].

(١) «أضواء البيان» (١/ ١٤٨-١٤٩).

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾: إما بتغيير اللفظ أو المعنى أو هما جميعاً<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى مبيناً شدة تحريف أهل الكتاب لكتابهم: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ أَلْكِتَابٍ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

ومما يدل على تحريف الكتب المتقدمة: تعدد نسخ التوراة وتناقضها، وتعدد الأناجيل وتناقضها<sup>(٢)</sup>.

وأما إخفاؤهم كثيراً مما في كتبهم فيدل عليه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَتَاهَلُونَ أَلْكِتَابٍ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ أَلْكِتَابٍ﴾ [المائدة: ١٥]<sup>(٣)</sup>.

فما صدق القرآن مما في هذه الكتب صدقناه، وما كذبه كذبناه؛ لأننا علمنا يقيناً أنه ليس مما أنزله الله وما لم يرد في القرآن تصديقه ولا تكذيبه فنحن لا نصدقه ولا نكذبه<sup>(٤)</sup>.

٥- القرآن الكريم: وهذا الكتاب أنزله الله على نبينا محمد ﷺ.

والإيمان بالقرآن غير الإيمان بسائر الكتب «إيمانك بغيره من الكتب إقرارك به بالقلب واللسان، وإيمانك بالفرقان إقرارك به واتباعك ما فيه»<sup>(٥)</sup>.

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (١٨١)، وانظر: «جهود ابن تيمية وابن القيم في دحض مفتريات اليهود» (٢٨٣-٣١٧)، و«موقف ابن تيمية من النصرانية» (١٨٠-١٨١).

(٢) انظر: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، و«التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة»، و«جهود ابن تيمية وابن القيم في دحض مفتريات اليهود» (٣١٩-٣٢٦)، و«موقف ابن تيمية من النصرانية» (١٨٧-٢٠٧).

(٣) وقد بين الشنقيطي بعضاً مما كانوا يخفون. انظر: «أضواء البيان» (٥٧-٥٨).

(٤) لمعرفة الأمثلة على ذلك. انظر: «الإيمان» لنعيم الياسين (٦٨-٦٩).

(٥) «تعظيم قدر الصلاة» (١/٣٩٣).

فالإيمان بالقرآن يتضمن أموراً هي:

أ- أنه كلام الله تعالى أنزله على رسوله محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وقال عن إنزاله له: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢].

ب- الاعتراف بأنه معجز. قال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

بل تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨].

ج- اعتقاد أن جميع القرآن الذي توفي عنه النبي ﷺ هو الموجود في المصحف وأنه لم يحرف، ولم يزد فيه ولم ينقص منه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكُنْزٌ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۚ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

وذلك أن الله تبارك وتعالى تولى حفظه بنفسه قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

د- وجوب الإيمان بجميع ما فيه وأن من أنكر حرفاً من القرآن فقد كفر وهذا هو الذي عليه السلف قاطبة قال ابن مسعود رضي الله عنه: «من كفر بحرف منه فقد كفر به أجمع»<sup>(١)</sup>.

قال ابن عبد البر: «وأجمع العلماء على أن ما في مصحف عثمان وهو الذي بأيدي المسلمين اليوم في أقطار الأرض حيث كانوا هو القرآن المحفوظ الذي لا يجوز لأحد أن يتجاوزه ويبين لك هذا: أن من دفع شيئاً مما في مصحف عثمان كفر»<sup>(٢)</sup>.

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي (٢/ ٢٣٢).

(٢) «التمهيد» (٤/ ٢٧٨-٢٧٩).

هـ- وجوب النصيحة له:

وذلك بمحبته والتمسك به واتباعه ظاهراً وباطناً والقيام بحقه من الحفظ والتدبر والذب عنه والدعوة إليه قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

قال محمد بن نصر: «وأما النصيحة لكتاب الله: فشدّة حبه وتعظيم قدره إذ هو كلام الخالق، وشدّة الرغبة في فهمه، ثم شدّة العناية في تدبره والوقوف عند تلاوته لطلب معاني ما أحب مولاه أن يفهمه عنه ويقوم له به بعد ما يفهمه، وكذلك الناصح من القلب يتفهم وصية من ينصحه وإن ورد عليه كتاب منه عُنِيَ بفهمه ليقوم عليه بما كتب به فيه إليه، فذلك الناصح لكتاب الله يُعْنَى بفهمه ليقوم لله بما أمر به كما يحب ويرضى، ثم ينشر ما فهم من العباد ويديم دراسته بالمحبة له والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه»<sup>(١)</sup>.

و- شموله لبيان كل شيء:

قال تعالى مبيناً شمول القرآن الكريم لبيان كل شيء ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ز- هيمنته على الكتب السابقة:

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

والمهيمن هو الشاهد والحاكم على مَنْ كان قبله، وفي هذا دليل على أن مرتبة القرآن أعلى من جميع الكتب المنزلة<sup>(٢)</sup>.

(١) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/٦٩٣).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٧/٤٣).

قال ابن كثير: «جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاد فيه من الكمالات ما ليس في غيره فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها»<sup>(١)</sup>.

وهيئته عليها من وجود متعددة:

- ١ - شهادته بصدقها وبكذب ما حرف منها.
- ٢ - حاكم بإقرار ما أقره الله ونسخ ما نسخه.
- ٣ - إقراره ما أخبر به عن الله واليوم الآخر وزاد ذلك بياناً وتفصيلاً وبين الأدلة والبراهين على ذلك.

فهو شاهد بالخبريات حاكم في الأمريات<sup>(٢)</sup>.

- ٤ - تصديق أخباره: يجب تصديق ما أخبر الله به من أمور سابقة قد وقعت أو أمور غائبة مستقبله ستقع؛ قال تعالى: ﴿وَكَمَّمْتُ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي صدقاً في أخباره عدلاً في أحكامه.

ثمرات الإيمان بالكتب:

للإيمان بالكتب ثمار عظيمة منها:

- ١ - معرفة فضل الله وجوده ورحمته بعباده وعنايته بهم فلم يترك الخلق هملاً بدون إرشاد وتعليم فأنزل لكل قوم كتاباً يهديهم به.
- ٢ - العلم بحكمة الله تعالى في شرعه حيث شرع لكل قوم ما يناسب أحوالهم ويلائمها قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤٣١).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٧/٤٣-٤٤).

٣- الفرح العظيم بهذه الكتب الموجب لشكر الله على هذه النعمة قال تعالى: ﴿قُلْ

بِفَضْلِ اللَّهِ وَرِحمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

٤- سلوك الطريق المستقيم: هذه الكتب أنزلها الله لهداية الخلق إلى الطريق المستقيم الموصل إلى جنات النعيم وبدونها لا يمكن معرفة ذلك.

قال تعالى مبيناً أن القرآن كتاب هداية إلى أصوب الطرق: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

ومعنى ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾: «أي أعدل وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره»<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى عن التوراة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال سبحانه عن الإنجيل: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦].

٥- دخول جنات النعيم: لما كان الاهتداء بالكتب سبباً لسلوك الطريق المستقيم وسلوك الطريق المستقيم سبب لدخول جنات النعيم. كان دخول الجنة من ثمرات الإيمان بالكتب، ولهذا بشر الله المهتدين بالقرآن بالأجر العظيم قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤٥٤).

## ورسله.

الرسول لغة: مشتق من رَسَلَ وهو أصل يدل على الانبعاث<sup>(١)</sup>.  
قال الأزهري: الرسول معناه في اللغة الذي يتابع أخبار الذي بعثه. أخذ من قولهم  
جاءت الإبل رَسَلًا أي متتابعة.

والرسول اسم من أرسلت وكذا الرسالة وسمي الرسول رسولاً لأنه ذو رسالة<sup>(٢)</sup>.  
وفي الاصطلاح: هو الاعتقاد الجازم بأنَّ لله رسلاً من البشر أوحى إليهم بشره  
وأرسلهم إلى الناس لإرشادهم إلى ما فيه نجاتهم وسعادتهم.  
أدلة الإيمان بالرسول:

دلت الأدلة من الشرع والعقل والحس على وجوب الإيمان بالرسول.  
أولاً: الشرع:

تكاثرت الأدلة من الشرع على الإيمان بالرسول.  
ومن ذلك قوله تعالى آمراً بالإيمان بالرسول مبيناً عظيم أجر المؤمنين بهم فقال  
سبحانه: ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وامتن علينا بإرسالهم فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل  
عمران: ١٦٤].

ووضح الحكمة من إرسالهم فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ  
اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٣٩٢).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٢/ ٣٩١-٣٩٤).



وأخبر عن تعاقب الرسل وتتابعهم عبر القرون فقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُلُهُمْ كَذَبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

وأن عامة المكذبين للرسل المعاندين هم عليه القوم المترفون فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

وبين عقوبة من لم يؤمن بالرسل في الدنيا فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ إلى قول الله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٤].

وندامة المكذبين لهم يوم القيامة فقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧].

### ثانياً: العقل:

لما كان الناس يخرجون من بطون أمهاتهم لا يعلمون الطريق الموصل إلى رضا الرب جل وعلا ولا كيفية التقرب إليه. فلا بُدَّ لهم إذاً ممن يدهم طريق الوصول إليه وكيفية عبادته والتقرب إليه. ويبين ثمرة تلك العبادة وما لهم عنده من النعيم المقيم. وهذا لا يمكن إلا عن طريق رسل يرسلهم الله إلى عباده ليعلموهم دينه الذي ارتضاه لهم.

قال ابن القيم: «والرسل من أولهم إلى خاتمهم صلوات الله عليهم أجمعين أرسلوا بالدعوة إلى الله، وبيان الطريق الموصل إليه، وبيان حال المدعوين بعد وصولهم إليه، فهذه القواعد الثلاث ضرورة في كل ملة على لسان كل رسول»<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: الحس:

أرى الله العباد رُسُلَهُ في هذه الدنيا، بل إنه خلقهم بشرًا منهم ليسهل اختلاطهم بهم

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٣٨٢).

واستفادتهم منهم والاقتداء بهم والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

١ - نوح عليه الصلاة والسلام يشاهده قومه يدعوهم إلى الله ويشاهدونه وهو يصنع السفينة، ثم يسخرون منه، ولا يؤمن به منهم إلا القليل، ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَّ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]. ويشاهدونه وهو يركب السفينة هو والمؤمنون معه فينجيهم الله من الغرق، ويحاور ابنه داعياً إياه للركوب كي ينجو، ولكن الابن الشقي امتنع ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرَكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [٤٢] قَالَ سَاوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢-٤٣].

٢ - إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعو قومه إلى التوحيد فلما لم يستجيبوا فكر كيف يقتلع حب الأصنام من قلوبهم فاهتدى إلى كسرها فيأتيه قومه ليخرج يوم العيد فيعتذر بالمرض فلما تأكد أن مكان الأصنام خلو من كل أحد وأن الناس مشغولون بعيدهم خرج إلى الأصنام وبيده الفأس فكسرها وأبقى أكبرها ليقول لهم: كبيرهم هو الذي كسرها غيره على مقامه لعل قلوبهم أن تنفتح للحق.

فلما رجعوا يا لهول المفاجأة وجدوا أن آلهتهم مكسرة. فلأول وهلة ذهب ظنهم وحسهم إلى إبراهيم عليه السلام وحده فقط. لأنه كان دائماً يذكرهم ببطلانها ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [٥٩] قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٥٩-٦٠] فبدأ التحقيق مع إبراهيم عليه السلام في القضية: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾، فأجابهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾، فتحركت الفطرة الإيمانية ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ﴾، ثم انتكسوا مرة أخرى. فقرروا إحراقه عليه الصلاة والسلام فجمعوا له الحطب الكثير ثم أضرموا النار فلما اشتد لهيبها ألقوه فيها ولكن الله القادر على كل شيء

جعلها بردًا وسلامًا عليه ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠].

٣- موسى عليه السلام، تلده أمه في سنة القتل عند فرعون فتخفيه خشية أن يقتل ثم يقدر الله أن تفقده ولا تجده إلا في بيت الطاغية فرعون، فيحميه الله منه، فتعرض زوجته عليه أن لا يقتله لعله أن يكون ولدًا لهما فيتربى في بيت فرعون عزيزًا لا يذله أحد بخلاف حياة بني إسرائيل في مصر، ويخرج ذات يوم فيستنجد به إسرائيل على قبطي فيقتل القبطي ثم يخرج إلى مدين فيتزوج هناك ويعود بزوجه بعد عشر سنوات رسولًا نبياً يدعو أكبر طاغية في الأرض يومئذ، فيجمع الطاغية السحرة ويجتمع الناس يوم العيد، فألقى السحرة ما عندهم فسحروا الناس وأرهبوهم، وفي هذا المجتمع الكبير من الناس يلقي موسى عليه السلام عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فيبطل سحرهم فيؤمن به السحرة ويتحملون القتل في سبيل الله، وينتهي الموقف بنصر الله لموسى على أعدائه.

٤- أختتم بذكر أفضل الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ حيث يشاهده الناس أمينًا لا يكذب حتى أحبوه وارتضوه أن يكون حكمًا بينهم مع صغر سنه عليه الصلاة والسلام، ثم ينزل عليه الوحي فيدعوهم إلى التوحيد فينابذونه العداء فيقابل عداءهم بالحلم ورباطة الجأش والقوة في الحق والصدق به.

ولما لم يجد مساعًا للدعوة إذا به يترك البلدة التي نشأ فيها وأحبها ويهاجر إلى طيبة الطيبة ويكون دولة عظيمة هدّت عروش الكافرين من الفرس والروم، ويخرج إلى بدر يريد العير فيقدر الله معركة فاصلة هي معركة بدر فيقودها النبي ﷺ ويلح على الله بالدعاء فينصره الله فيأسر من الكفار سبعين ويقتل مثلهم.

وهكذا كان يقود الغزوة تلو الغزوة حتى دانت له جزيرة العرب ويشاهده الناس وهو الزوج الحاني اللطيف في التعامل مع زوجاته، ويشاهدونه وهو يصلي به ويعظمهم ويذكرهم.

وفي آخر المطاف شاهدوه وهو في النزع كما تقول عائشة رضي الله عنها: «مات بين حاقتي وذاقتي»<sup>(١)</sup>.

وبعد ذلك كله فالمسلمون كلهم طوال التاريخ مجمعون على أنه مدفون ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها، فصلوات ربي وسلامه عليه وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين. فهذه كلها شواهد من الحس والمشاهدة على وجود الرسل عليهم الصلاة والسلام. ميزاتهم وصفاتهم:

من المعلوم أن الرسل هم خير الخلق وأن لهم ميزات يتميزون بها عن غيرهم ومن ذلك:

١ - الاصطفاء: أي أن الله اختار من خلقه من يصلح لرسالته قال تعالى ذاكراً اصطفاه لهم على سبيل العموم: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

في هذه الآية بيان لحالة الرسل وما تميزوا به من الفضائل «وأن الله يختار ويجتبي من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً يكونون أزكى ذلك النوع وأجمعه لصفات المجد وأحقه بالاصطفاء، فالرسل لا يكونون إلا من صفوة الخلق على الإطلاق»<sup>(٢)</sup>.

ولما اعترض المشركون على اصطفاء الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثِيِّينَ عَظِيمٍ﴾ ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢]. وخاطب بعضهم ماناً عليه باصطفائه إياه فقال: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ١٣٨)، كتاب «المغازي»/ باب مرض النبي ﷺ ووفاته. رقم (٤٤٣٨).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٥٤٦).

وسر اصطفاء الرب رسله لحمل رسالته علمه سبحانه أنهم يصلحون لحملها قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

قال ابن القيم: «فالله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وميراً فهو أعلم بمن يصلح لتحمل رسالته فيؤديها إلى عباده بالأمانة والنصيحة وتعظيم المرسل والقيام بحقه والصبر على أوامره والشكر لنعمه والتقرب إليه ومن لا يصلح لذلك»<sup>(١)</sup>.

٢- البلاغ وعصمتهم فيه: جعل الله وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام إبلاغ دينه للناس وحثهم على الدخول فيه قال سبحانه: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]. ومدحهم الله وأثنى عليهم به فقال: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

ولهذا كان الرسل عليهم السلام يحرصون على البلاغ أشد الحرص. فإذا لم يقبل قومهم وجاءهم العذاب حملوهم مسئولية أنفسهم.

ومن ذلك ما قاله صالح عليه الصلاة والسلام لقومه عندما حل بهم الهلاك: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ [الأعراف: ٧٩]. ومثله شعيب عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

أما نبينا ﷺ فقد خطب في أعظم مشهد شهده ﷺ في حجة الوداع ثم قال لأصحابه عليه السلام: «وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللَّهُمَّ اشهد، اللهم اشهد» ثلاث مرات<sup>(٢)</sup>.

(١) «طريق الهجرتين» (٩٧) وانظر: «فتح الباري» لابن حجر (٦/٣٦١).

(٢) مسلم (٢/٨٨٦-٨٩٢)، كتاب «الحج» / باب حجة النبي ﷺ. رقم (١٢١٨).

والبلاغ لهدفين عظيمين هما:

١ - إصلاح النفوس قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

٢ - إقامة الحجة قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وهم في البلاغ معصومون من الكذب على الله؛ وذلك أنهم أهل صدق في حياتهم كلها أولها وآخرها فلا يكذبون على الناس فكيف يتركون الكذب على الناس ثم يكذبون على الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥].

قال ابن حجر في شرح قول النبي ﷺ يوم حنين: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»<sup>(١)</sup>، أما قوله: «لا كذب ففيه إشارة إلى أن صفة النبوة يستحيل معها الكذب»<sup>(٢)</sup>.  
وذلك بإجماع أهل العلم، فإن أهل السنة «متفقون على أن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله تعالى وهذا هو مقصود الرسالة»<sup>(٣)</sup>.

### ٣ - العصمة من الكبائر:

جميع الأنبياء معصومون من الوقوع في كبائر الذنوب بإجماع أهل العلم. قال شيخ

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٢٧-٢٨)، كتاب «المغازي» / باب قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾. رقم (٤٣١٥، ٤٣١٦).

(٢) «فتح الباري» (٨/ ٣١).

(٣) «منهاج السنة» (١/ ٤٧٠-٤٧١)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٨٩).

الإسلام: «القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام... بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول»<sup>(١)</sup>.

٤ - البشرية: فجميع الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام بشر من بني آدم كلهم من ذرية نوح وإبراهيم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦].

ولما اعترض المشركون على الرسل بحجة أنهم بشر والبشر لا يصلحون للرسالة لم ينكر الرسل أنهم بشر بل أثبتوها كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾<sup>(١٠)</sup> قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١٠-١١].

أي صحيح أنا بشر مثلكم ولكن الله من علينا بوحيه ورسالته.

بل وأمر الله أفضل الرسل أن يعترف بأنه بشر لكن فضله الله عليهم بالوحي والرسالة فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

فاعترف به النبي ﷺ قائلاً: «يا أُمَّ سَلِيمَ أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ شَرَطِي عَلَى رَبِّي أَنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّي فَقُلْتُ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَىٰ كَمَا يَرْضَىٰ الْبَشَرُ، وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ، فَأَيُّهَا أَحَدُ دَعَوَاتِ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِي بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ أَنْ يَجْعَلَهَا لَهُ طَهُورًا وَزَكَاةً وَقُرْبَةً يَقْرَبُهَا مِنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٢)</sup>.

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣١٩).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٩٠-٢٠١٠)، كتاب «البر والصلة» / باب من لعن النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه، وليس هو أهلاً لذلك: كان له زكاة وأجرًا ورحمة. رقم (٢٦٠٣).

ويعرض لهم ما يعرض للبشر فيأكلون ويشربون وينامون ويمرضون ويموتون ويحيون ويتزوجون ويرزقون بالذرية ويبتلون فيسجنون، وربما يقتلون، ومن الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ (٧٩) ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشفِيَنِي﴾ (٨٠) ﴿وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩-٨١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

أما السجن كسجن يوسف عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].  
أما القتل فبينه الله بقوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

وقوله تعالى عن موت الرسل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

أما البلاء والابتلاء، فيدل له جواب رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص عندما سأله: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة: اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»<sup>(١)</sup>.

(١) أحمد (١/ ١٧٣-١٧٤)، والترمذي (٤/ ٦٠١-٦٠٢)، كتاب «الزهد» / باب ما جاء في الصبر على البلاء. رقم (٢٣٩٨)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح، وفي الباب عن أبي هريرة، وأخت حذيفة بن اليمان»، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٤)، كتاب «الفتن» / باب الصبر على البلاء. رقم (٤٠٢٣).



## الحكمة في كون الرسل بشرًا:

تتجلى الحكمة في كون الرسل بشرًا بما يلي:

أ- أن الداعي إذا كان من جنس المدعوين كان أقدر على توجيههم وكانوا أقرب إلى قبول دعوته والاعتداء به.

ولهذا لما امتنع المشركون عن قبول دعوة الرسل بحجة كونهم بشرًا مثلهم وأن الله لو أرسل لهم ملائكة لآمنوا أجابهم الله بأنهم لو كانوا ملائكة لنزل إليهم ملائكة من جنسهم، فقال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٥].

ب- أنه أعظم في الابتلاء والاختبار كما في الحديث القدسي: أن الله تعالى قال لنبيه محمد ﷺ: «إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيكَ، وَأَبْتَلِي بِكَ»<sup>(١)</sup>.

أي «لأمتحنك بما يظهر منك من قيامك بما أمرتك به من تبليغ الرسالة وغير ذلك من الجهاد في الله حق جهاده والصبر في الله تعالى وغير ذلك، وابتلي بك من أرسلتك إليهم فمنهم من يظهر إيمانه ويخلص في طاعته ومن يتخلف ويتأبد بالعداوة والكفر ومن ينافق»<sup>(٢)</sup>.

ج- أن في هذا إكرام لمن سبقت لهم من الله الحسنى.

## ٥- أنهم كلهم رجال:

ويدل لكونهم كلهم رجال قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ

﴾ [الأنبياء: ٧].

(١) مسلم (٤/ ٢١٩٧)، كتاب «صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها»/ باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا

أهل الجنة وأهل النار. رقم (٢٨٦٥).

(٢) «شرح النووي» لمسلم (١٧/ ١٩٨).

وذلك لحكم عظيمة منها:

- أ- أن جنس الرجال أفضل من جنس النساء والرسول يبعثون من أفضل الناس.  
 ب- أن الرسالة تقتضي قوامه الرسول على من يتابعه وهذه لا تتأتى في النساء من حيث ضعفهن ومن حيث استنكاف كثير من الرجال عن ذلك.  
 ج- أن الرسالة لها تبعات لا تستطيعها المرأة من مقابلة الرجال وإعداد الجيوش والجهاد ومواجهة المكذبين ومخاصمتهم.

د- أن المرأة يطرأ عليها ما يعطلها عن كثير من وظائفها ومهامها<sup>(١)</sup>.

٦- أنهم تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم:

يدل له حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله! تنام قبل أن توتر؟ قال: «تنام عيني ولا ينام قلبي»<sup>(٢)</sup>.

وحديث أنس حيث قال: «والنبي نائمة عيناه ولا ينام قلبه. وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم»<sup>(٣)</sup>.

٧- التخيير عند الموت:

كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يخبرون عند الموت بخلاف غيرهم كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبي يمرض إلا خيّر بين الدنيا والآخرة»، وكان في شكواه الذي قبض فيه أخذته بحة شديدة فسمعتة يقول: «مع الذين

(١) انظر: «الرسول والرسالات» (٨٥).

(٢) البخاري مع الفتح (٥٧٩/٦)، كتاب «المناقب» / باب كان النبي ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه. رقم (٣٥٦٩).

(٣) البخاري مع الفتح (٥٧٩/٦)، كتاب «المناقب» / باب كان النبي ﷺ تنام عيناه، ولا ينام قلبه. رقم (٣٥٧٠).

أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين»، فعلمت أنه خير<sup>(١)</sup>.

#### ٨- الدفن حيث يموت:

بينه النبي ﷺ بقوله: «لن يقبر نبيٌّ إلا حيث يموت»<sup>(٢)</sup>.

وآخرهم نبينا محمد ﷺ دفن حيث مات في بيت عائشة رضي الله عنها.

قال ابن كثير: «قد علم بالتواتر أنه ﷺ دفن في حجرة عائشة التي كانت تختص بها شرقي مسجده من الزاوية الغربية القبليّة من الحجرة»<sup>(٣)</sup>.

#### ٩- تحريم أجسادهم على الأرض:

وذلك: «أن الله عز وجل حرّم على الأرض أجساد الأنبياء»<sup>(٤)</sup>.

منزلة الإيمان بالرسول وحكمه:

للإيمان بالرسول منزلة عظيمة في الإسلام تتضح فيما يلي:

١- أن الإيمان بالرسول عليهم الصلاة والسلام أحد أركان الإيمان العظام التي يجب على المرء المسلم أن يعتقدوها في قرارة قلبه مع القيام بمقتضى ذلك الاعتقاد. ولقد قرنه الله

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٢٥٥)، كتاب «التفسير» / باب: «فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ». رقم (٤٥٨٦).

(٢) أحمد (٧/ ١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥/ ٤٦).

(٣) «البداية والنهاية» (٨/ ١٥٣)، وانظر: «الاستذكار» (٨/ ٢٨٧-٢٨٨).

(٤) أبو داود (١/ ٦٣٥)، كتاب «الصلاة» / باب فضل صلاة الجمعة وليلة الجمعة. رقم (١٠٤٧)، والنسائي

(٣/ ٩١-٩٢)، كتاب «الجمعة» / باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، وابن ماجه (١/ ٣٤٥)،

كتاب «إقامة الصلاة والسنة فيها» / باب في فضل الجمعة. رقم (١٠٨٥)، وصححه ابن خزيمة وغيره.

«فتح الباري» (٦/ ٤٨٨)، قال النووي: «رواه أبو داود بإسناد صحيح». «رياض الصالحين» (٤٤٩-٤٥٠

رقم (١٤٠٧)، وقال الألباني: «إسناده صحيح، وقد صححه جماعة». «مشكاة المصابيح»

(١/ ٤٢٩-٤٣٠).

تعالى بالإيمان به في أي من كتابه ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْآلِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وأوجب الإيمان بهم جميعاً من لدن نوح إلى محمد صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، فقال: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ ثم عمم الإيمان بهم جميعاً من دون تفريق بينهم فقال: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

ووعد المؤمنين بجميع الرسل من غير تفريق بينهم بالأجر العظيم مع المغفرة والرحمة فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ءُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٢]. وحكم بالكفر الأكبر على من فرق بينهم فأمن ببعضهم وكفر ببعض فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ؕ ءُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

فدلت هذه الآية على أن كفرهم أكبر من أربعة أوجه:

- أ- ضمير الفصل (هم)، وضمير الفصل يفيد الاختصاص.
- ب- ذكر الكفر: معرّفًا بالألف واللام، وفي هذا دلالة واضحة على أنه الكفر الأكبر.
- ج- تأكيده بقوله ﴿حَقًّا﴾ أي أن كفرهم كائن لا محالة.
- هـ- توعدهم بالعذاب المهين: والتوعد بالعذاب المهين لا يكون إلا في حق الكفار الخارجين عن الملة والدين.

ومما ينبغي أن يؤكد عليه أن من كفر بواحد من الرسل وكذبه فقد كفر بهم كلهم وكذبهم جميعاً فمن آمن بموسى عليه السلام وكفر بعيسى فهو كافر، ومن آمن بموسى وعيسى ولم يؤمن بمحمد ﷺ فهو كافر ويدل له وصف الله قوم نوح بأنهم مكذبون لجميع الرسل مع أنهم لم يروا إلا نوحاً عليه السلام، بقوله: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥].

ويعلل ابن كثير سبب الكفر فيقول: «الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض فمن رد نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً؛ إنما هو عن غرض وهوى وعصبية»<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا أجمع أهل العلم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «المسلمون متفقون على كفر من أقر نبوة بعضهم دون بعض»<sup>(٢)</sup>.

## ٢ - شدة الحاجة إليهم:

الحاجة إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام والضرورة إليهم فوق كل حاجة وضرورة لأنه لا سبيل إلى معرفة الحق الموصل للسعادة الدنيوية والأخروية إلا عن طريقهم بمعرفة ما جاؤوا به من الهدى والنور. قال شيخ الإسلام: «الدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة، ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات، ثم استدل بقوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾<sup>(٣)</sup> [الشورى: ٥٢].

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣٧٣).

(٢) «منهاج السنة» (٦/٤٣٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٩/٩٣-٩٤).

فسمى الله ما جاءت به الرسل ﷺ ﴿رُوحًا﴾ «لتوقف الحياة الحقيقية عليه فلا روح إلا فيما جاؤا به، ونورًا لتوقف الهداية عليه، فلا نور إلا في الاستضاءة به»<sup>(١)</sup>.

وتتضح شدة الحاجة إلى الرسل بأمرين:

أ- عدم استغناء الإنسان عن دين الله طرفة عين:

فالناس بحاجة إلى معرفة ما جاءت به الرسل بعدد أنفاسهم وحركاتهم، ومن أحسن من صوّر هذه الحاجة إلى الرسل ابن القيم حيث قال: «الضرورة إليهم -أي الرسل- أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأيّ ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير، وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك وصار كالحوت إذا فارق الماء، ووضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال بل أعظم»<sup>(٢)</sup>.

ب- المقارنة بين الحاجة إلى ما جاء به الرسل وبين غيره:

بون شاسع وفرق بعيد بين الحاجة إلى ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام وبين الحاجة إلى غيرهم، بل لا مقارنة بينهم، ولكن على سبيل التقريب والإيضاح فقط.

من المعلوم حاجة الناس إلى الطب ومع ذلك فكثير منهم يعيشون بلا أطباء بل إن أهل البادية والريف أصح أبدانًا وأقوى طبيعة ممن هم في المدن التي يوجد فيها الأطباء، فالناس يعيشون بدون طبيب لكنهم لا يمكن أن يعيشوا ويسعدوا بدون ما جاءت به الرسل.

وأما الطعام والشراب والتنفس فغاية ما يقدر في عدمها هو موت البدن، وأما ما يقدر عند عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة وهلاك الأبد وشتان بين هذا وهلاك

(١) «الصواعق المرسلة» (١/ ١٥٢) بشيء من التصرف.

(٢) «زاد المعاد» (١/ ٦٩).

البدن بالموث<sup>(١)</sup> وذلك أن موث القلب نتيجته شقاء الأبد، وأما موث البدن فهو انتقال من دار إلى دار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، وقال: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. فمن مات على الإيمان سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً. ومن مات على الكفر شقى شقاوة لا سعادة معها.

### كيفية الإيمان بالرسول:

الإيمان بالرسول يتضمن عدة أمور هي:

#### ١ - الإيمان بهم إجمالاً:

وهو الإيمان بجميع من أرسله الله، وأنهم صادقون مصدقون، وأنهم بلغوا جميع ما أنزل إليهم سواء عرفناهم أم لم نعرفهم لأن الله لم يخبرنا بأسماء جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

قال الإمام محمد بن نصر بعد أن ذكر الإيمان المفصل: «وتؤمن بأن الله سواهم رسلاً وأنبياء لا يعلم أسماءهم إلا الذي أرسلهم»<sup>(٢)</sup>.

#### ٢ - الإيمان بهم تفصيلاً:

وهو الإيمان بجميع ما وصلنا عنهم ومن ذلك:

أ - من عرفنا اسمه وكتابه وقومه:

- إبراهيم عليه السلام كتابه (الصحف) كما قال تعالى: ﴿صُحُفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: ١٩]

وقومه هم صابئة حران.

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٢/٢).

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (١/٣٩٣).

- موسى عليه السلام - كتابه التوراة - أرسله الله إلى فرعون وقومه وبني إسرائيل.

- داود عليه السلام - كتابه الزبور - أرسله الله إلى بني إسرائيل.

- عيسى عليه السلام - كتابه الإنجيل - أرسله الله إلى بني إسرائيل.

- محمد ﷺ - كتابه القرآن - أرسله الله إلى الناس كافة.

ب- من عرفنا اسمه وقومه ولم نعرف كتابه ومن ذلك:

- هود عليه السلام، أرسله الله إلى قومه عاد.

- صالح عليه السلام، أرسله الله إلى ثمود.

- شعيب أرسله الله إلى أهل مدين.

ب- من عرفنا اسمه فقط:

كنوح وإدريس وإسماعيل وإلياس وغيرهم عليهم الصلاة والسلام.

وجمع أحدهم من ذكر في القرآن في بيتين هما:

في تلك حجتنا <sup>(١)</sup> منهم ثمانية	من بعد عشر ويبقى سبعة وهم
إدريس هود شعيب صالح وكذا	ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

بقي واحد قد ورد ذكره في القرآن، ولكن الناظم لم يذكره وهو الخضر عليه السلام، ومما يدل على أنه رسول يوحى إليه ما ذكره الله عنه من قتل الغلام وخرقه السفينة وإصلاحه الجدار ثم قال بعد ذلك ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الكهف: ٨٢] ففي هذه الآية أوضح دليل على رسالته؛ لأن الذي لا يفعل عن أمره في مثل هذه الحال يفعل عن أمر الله رب العالمين.

وقول الخضر لموسى عليه السلام: «إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت



على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه»<sup>(١)</sup>.

٣- الإيمان بأن رسالاتهم حق من عند الله تعالى - وذلك لأن من آمن بصدق الرسول آمن بصحة ما أخبر به وصدقه في كل ما يقول.

٤- الإيمان بتفاضلهم:

فضل الله الرسل عليهم الصلاة والسلام على غيرهم من الناس. وجعل بعضهم أفضل من بعض فقال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥].

وأفضلهم أولو العزم من الرسل وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام<sup>(٢)</sup> قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٨].

قال أبو حاتم: «أَجْمَلَ النَّبِيِّينَ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، فأفردهم تفضيلاً لهم على سائر الأنبياء»<sup>(٣)</sup>.

محمد إبراهيم موسى كليمه  
فعيسى فنوح هم أولو العزم فاعلم  
وأفضلهم الخليلان إبراهيم ومحمد ﷺ: لقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً  
كما اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً»<sup>(٤)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٣١-٤٣٣)، كتاب «أحاديث الأنبياء» / باب حديث الخضر مع موسى ﷺ.  
رقم (٣٤٠١)، ومسلم (٤/ ١٨٤٧-١٨٥٠)، كتاب «الفضائل» / باب من فضائل الخضر عليه السلام. رقم (٢٣٨٠).

(٢) «معالم التنزيل» (٦/ ٣٢٠)، «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٦١-١٦٢).

(٣) كتاب «النخل» (٤٠)، نقلاً عن «مباحث المفاضلة في العقيدة» (١٣٥)، وانظر: «طريق الهجرتين» (٢٤٩-٢٥٠).

(٤) مسلم (١/ ٣٧٧) كتاب «المساجد ومواضع الصلاة» / باب النهي عن بناء المساجد على القبور، واتخاذ =

والخلة مرتبة عالية لم يبلغها أحد قبل إبراهيم عليه السلام، ولا بعده إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.  
ومعنى الخلة في اللغة: هي الصداقة والمحبة التي تخللت القلب فصارت خلاله أي في باطنه<sup>(١)</sup> ومنه قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

ومنه قول بشار:

قَدْ تَخَلَّلَتْ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي      وَبِهِ سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلًا<sup>(٢)</sup>

وفي الاصطلاح: هي كمال المحبة ونهايتها التي لا يبقى معها سعة لغير المحبوب<sup>(٣)</sup>.  
وعرفها شيخ الإسلام فقال: «الخلة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب»<sup>(٤)</sup>.  
فالخلة أخص من مطلق المحبة وذلك أن المحبة يجوز فيها الاشتراك، وأما الخلة فلا تقبل الشركة والمزاحمة لتخللها المحب. ففيها كمال التوحيد وكمال الحب.

يوضح ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أثبت محبته لأصحابه كما في قوله لمعاذ: «والله إني لأحبُّك»<sup>(٥)</sup>، ولما سأله عمرو بن العاص أي الناس أحب إليك. قال: «عائشة» فقلت: ومن الرجال؟ قال: «أبوها». قلت: ثم من؟ قال: «عمر بن الخطاب، فعد رجالاً»<sup>(٦)</sup>. وقال

الصور فيها، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد. رقم (٥٣٢).

(١) «لسان العرب» (١١/٢١٧).

(٢) «ديوان بشار بن برد» (٥٧٨).

(٣) انظر: «الجواب الكافي» (١٣٤).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/٦٧).

(٥) سبق تخرجه.

(٦) البخاري مع الفتح (١٨/٧)، كتاب «فضائل الصحابة» / باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لو كنت متخذاً خليلاً».

رقم (٣٦٦٢)، ومسلم (٤/١٨٥٦)، كتاب «فضائل الصحابة» / باب من فضائل أبي بكر الصديق

رحمته الله. رقم (٢٣٨٤).

ﷺ: «آية الإيمان حبُّ الأنصار»<sup>(١)</sup>.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ ومعها صبي لها، فكلّمها رسول الله ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده، إنكم أحب الناس إليّ». مرتين»<sup>(٢)</sup>.

ولما كانت الخلّة لا تقبل المشاركة والمزاحمة نفى النبي ﷺ خلّة أحد غير الله فقال: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمّتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»<sup>(٣)</sup>.

وذلك لأن «الخلّة تستلزم كمال المحبة واستيعاب القلب»<sup>(٤)</sup>.

وأفضلهم على الإطلاق نبينا محمد ﷺ ويدل لذلك ما يلي:

(أ) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ

﴾ [الأحزاب: ٧].

وجه الدلالة: أن تقديمه في الذكر على أولى العزم عليهم الصلاة والسلام مع أنه آخرهم ميلاً ورسالة، يدل على أفضليته عليهم<sup>(٥)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (١١٣/٧)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب حب الأنصار من الإيمان. رقم (٣٧٨٤)، ومسلم (٨٥/١)، كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنه من الإيمان. رقم (٧٤).

(٢) البخاري مع الفتح (١١٤/٧)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب قول النبي ﷺ للأنصار: «أنتم أحب الناس إليّ» رقم (٣٧٨٦).

(٣) مسلم (٣٧٧/١)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة»/ باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد. رقم (٥٣٢).

(٤) «منهاج السنة النبوية» (٣٥٢/٥). وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٦٧-٦٩).

(٥) ولا يرد علينا تقديم نوح عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي

(ب) قوله ﷺ: «أنا سيد الناس يوم القيامة»، وفي لفظ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة»<sup>(١)</sup>، وقوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»<sup>(٢)</sup>، يدل على أنه ﷺ أفضلهم لأن من لازم السيادة الأفضلية.

(ج) قوله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: ومن أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك»<sup>(٣)</sup>. فكونه ﷺ أول من تفتح له الجنة دليل على أفضليته على جميع الناس.

قال الإمام أحمد: «إن بعض النبيين أفضل من بعض ومحمد ﷺ أفضلهم»<sup>(٤)</sup>.

وقد أجمع المسلمون على ذلك ومن نقل الإجماع على أفضليته الإمام ابن بطة حيث قال بعد ذكره للمقدمة: «وعلى إثر ذلك شرح السنة من إجماع الأئمة، واتفاق الأمة، وتطابق أهل الملة - إلى أن قال عن نبينا محمد ﷺ -: هو أشرف الأنبياء مقامًا وأعلاهم مكانًا وأقربهم إلى الله عز وجل وأحبهم إليه»<sup>(٥)</sup>.

#### ٥ - الإيمان بوجوب طاعتهم واتباعهم:

أمر الله بطاعة رسوله فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يُطَاعُ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] والأمر يقتضي الوجوب فيجب على كل قوم رسول اتبعه وطاعته فيما يأمر به وينهى عنه،

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا [الشورى: ١٣]؛ لأن المقصود هنا ذكر الشريعة التي بعثوا بها، ومعلوم أن شريعة نوح عليه السلام هي الأولى.

(١) سبق تخريجه.

(٢) أحمد (٢١/٣)، والترمذي (٥٨٧/٥)، كتاب «المناقب» / باب فضل النبي ﷺ. رقم (٣٦١٥)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وقال ابن كثير: «ثبت بالتواتر». «البداية والنهاية» (٢/١٤٢).

(٣) مسلم (١/١٨٨)، كتاب «الإيمان» / باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. رقم (١٩٧).

(٤) «طبقات الحنابلة» (٢/٣٠٦).

(٥) «الشرح والإبانة» (٢٥٠) وانظر: «مجموع الفتاوى» (١/١٤٥).

وبهذا أمر الرسل أقوامهم كما ذكر الله عن نوح وهود وصالح وشعيب ولوط أن كلاً منهم قال لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٠٨) [الشعراء: ١٠٨، ١٢٦، ١٤٤، ١٦٣، ١٧٩] وقد أجمع أهل العلم على وجوب طاعتهم كما نقل ذلك شيخ الإسلام فقال: «وقد اتفق المسلمون على أنه ليس من المخلوقين أحد أمره حتم على الإطلاق إلا الرسل» (١).

وبعد بعثة النبي محمد ﷺ ونسخه لكل الأديان وجب على جميع الناس طاعته واتباعه والعمل بشريعته فقط قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال تعالى أمراً بطاعته: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ إِلَّا رُسُلًا فَخُذُوا مِنْ مَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَأَتَيْنَاهُ﴾ [الحشر: ٧].  
ومحذراً مغبة معصيته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

### ثمرات الإيمان بالرسول:

ثمرات الإيمان بالرسول عليهم الصلاة والسلام كثيرة، منها:

#### ١ - العلم برحمة الله وعنايته بعباده:

حيث أرسل إليهم رسله ليهدوهم إلى الطريق الصحيح ويبينوا لهم كيف يعبدون ربهم وإلههم. ولو تركوا لعاشوا ضلالاً حيارى ولهذا قال الله تعالى ممتناً بهذه النعمة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

#### ٢ - شكر الله تبارك وتعالى:

وهب الله عباده النعم فضلاً منه وتكرماً فما بنا من نعمة إلا منه قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُفُّ مِنْ نِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَنِّكَ﴾ [النحل: ٥٣] ومن كثرتها لا يستطيع العبد عدّها ولا إحصاءها ﴿وَلَا تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾ [النحل: ١٨].

(١) «بغية المرتاد» (٤٩٥).

وأعظم هذه النعم هي نعمة الإسلام والاهتداء إليه، ولذلك جاء الأمر بالفرح بها وحدها فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

ومن المعلوم أن الشرائع لا يمكن أن نعرفها إلا بواسطة الرسل عليهم الصلاة والسلام: «فلولا الرسل لما عبد الله وحده لا شريك له، ولما علم الناس أكثر ما يستحقه سبحانه من الأسماء الحسنی والصفات العلی ولا كانت له شريعة في الأرض»<sup>(١)</sup>.

وهذا يستوجب منا شكر الله على هذه النعمة العظيمة قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

والشكر يكون بطاعته سبحانه بفعل أو امره واجتناب نواهيه وأعلى وأعظم أو امره هو إفراده بالعبادة.

### ٣- محبة الرسل عليهم الصلاة والسلام:

محبة الرسل عليهم الصلاة والسلام من أجَل أعمال القلوب وأفضل شعب الإيمان. ولا توجد حلاوة الإيمان إلا بها قال ﷺ: «ثلاث من كنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما..»<sup>(٢)</sup>.

كيف لا نحبهم والله اختارهم واصطفاهم ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] فهم خير الناس إيماناً وعملاً ونصحاً وشفقة على أمهم، فصلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين.

(١) «الصارم المسلول» (٢٤٩).

(٢) سبق تخریجه.

## ٤ - حياة الذكر بعد الموت:

الرسول عليهم الصلاة والسلام تحملوا التهم والسب والشتيم من أقوامهم لأجل الله، فبقي ذكرهم الحسن مع الناس بينما قطع الله ذكر مبغضهم.

وكذلك محبو الرسول الذين آمنوا بهم وأحيوا سننهم يبقى ذكرهم مع الناس كما قال أبو بكر بن عياش: «أهل السنة يموتون ويحيى ذكرهم، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم. لأن أهل السنة أحيوا ما جاء به الرسول ﷺ فكان لهم نصيب من قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] وأهل البدعة شنؤوا ما جاء به الرسول ﷺ، فكان لهم نصيب من قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]»<sup>(١)</sup>.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/٥٢٨).

## واليوم الآخر.

اليوم الآخر لغة: (آخر) الهمزة والخاء والراء أصل واحد صحيح وهو خلاف التقدم<sup>(١)</sup>.

قال الليث: «الآخر والآخره نقيض المتقدم والمتقدمة»<sup>(٢)</sup>.

قال الراغب: «آخر يقابل به الأول»<sup>(٣)</sup> فالآخره تقابل الدنيا.

وسمي اليوم الآخر: لأنه آخر الأزمنة المحدودة<sup>(٤)</sup> أو لأنه لا يوم بعده<sup>(٥)</sup>.

اصطلاحًا: هو ما يقع بعد الموت من أحوال البرزخ والقيامة ومآل الناس بعد ذلك<sup>(٦)</sup>.

## كيفية الإيمان باليوم الآخر:

الإقرار الجازم بجميع مراحلہ وتفصيله التي ورد بها الخبر إقرارًا موجبًا للعمل لذلك اليوم.

ومراحل اليوم الآخر تبدأ بالبرزخ، والبرزخ هو الحاجز بين الشيئين فهو حاجز بين الدنيا وبين القيامة والبعث وما بعدها. قال تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، ثم بعد البرزخ البعث قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

(١) «معجم مقاييس اللغة» (١/ ٧٠).

(٢) «تهذيب اللغة» (٧/ ٥٥٦).

(٣) «المفردات» (٢٣).

(٤) «فتح الباري» (١/ ١١٨).

(٥) «رسائل في العقيدة» للعثيمين (٢٩).

(٦) ويلحق بذلك أشراط الساعة لارتباطها بها ودلالاتها عليها.



تُبْعَثُونَ» [المؤمنون: ١٦] ثم بعد البعث الحشر وتطير الصحف والحساب والميزان ثم المرور على الصراط فمكردس في النار وناج مسلم قد تجاوز النار إلى الجنة، وهي نهاية المطاف لأهل السعادة.

المراحل التي يمر بها الناس:

يمر الناس بمراحل جزء منها في الدنيا وجزء منها في الآخرة:

فأما ما كان منها في الدنيا فهي:

١ - العدم: قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

٢ - وجوده في بطن أمه: قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ [الزمر: ٦].

٣ - خروجه من بطن أمه إلى هذه الحياة: قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [النحل: ٧٨].

أما ما كان منها في الآخرة فهي:

١ - لبث الناس ومكثهم في البرزخ، قال تعالى ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

ويقرر هذه الحقيقة نبينا محمد ﷺ فيقول: «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ»<sup>(١)</sup>.

٢ - يوم القيامة وما فيه من البعث والأهوال: قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

تُبْعَثُونَ» [المؤمنون: ١٦].

(١) الترمذي (٥٥٣/٤)، كتاب «الزهد». رقم (٢٣٠٨)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وابن

ماجه (١٤٢٦/٢)، كتاب «الزهد» / باب ذكر القبر والبلى. رقم (٤٢٦٧)، وحسن إسناده الألباني في

«مشكاة المصابيح» (٤٨/١).

٣- الاستقرار إما في الجنة أو النار: قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

وقال عن أهل النار: ﴿وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وهذه هي آخر المراحل.

**أدلة الإيمان باليوم الآخر:**

تضافرت أدلة اليوم الآخر شرعاً وعقلاً وحساً حتى صارت لا تحصى إلا بكلفة ومشقة وإليك شيء منها:

**أولاً: أدلة الشرع:**

كل ما ورد في القرآن والسنة في ذكر البرزخ والنفخ في الصور وأهوال يوم القيامة وما يحدث فيه، والجنة والنار فهو دليل على اليوم الآخر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْإِلَى مَدِينٍ أَحَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

«قال بعضهم معناه واخشوا اليوم الآخر»<sup>(١)</sup>.

وجعل الله الإيمان باليوم الآخر من البر فقال: ﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ومن السنة قول النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليقل خيراً أو ليصمت»<sup>(٢)</sup>.

(١) «تفسير ابن كثير» (١٠٤٢).

(٢) البخاري مع الفتح (١٠ / ٤٤٥)، كتاب «الأدب» / باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره. =

## ٢- العقل:

دل العقل على اليوم الآخر من وجهين:

**الوجه الأول:** أن الناظر إلى واقع الحياة البشرية يرى ظلمة جبابرة طغاة قد ملكوا القصور والأموال وتربعوا على العروش وساموا عباد الله الخسف والذل والهوان فهتكوا أعراضهم وسلبوا أموالهم وأزهقوا أرواحهم، بل وفتنهم عن دينهم بأشد ألوان التنكيل والتعذيب.

وفي الوقت نفسه لا يستطيع أولئك الضعفة المظلومون أخذ حقهم ممن ظلمهم ولا الاقتصاص منهم.

فهل يعقل أن يموت هؤلاء وأولئك وتكون هي النهاية لا يقتص للمظلوم من ظلمه. لا بُدَّ إذاً من يوم يقتص فيه الرب من الظالم للمظلوم وهو اليوم الآخر.

وقد بين الله ذلك وأوضحه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنُّوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

لما أحرق المشركون المؤمنين بنار الدنيا كان جزاؤهم إحراق أجسادهم بالنار يوم القيامة انتقاماً من الله لعباده المؤمنين وقصاصاً ممن ظلموهم.

وبينه رسوله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري حين قال: «إذا خلص المؤمنون من النار، حُبِسُوا بقنطرة بين الجنة والنار، فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا نَقُوا وَهَدَّبُوا أذن لهم بدخول الجنة»<sup>(١)</sup>.

رقم (٦٠١٨)، ومسلم (١/٦٨)، كتاب «الإيمان»/ باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم

الصمت إلا عن الخير، وكون ذلك كله من الإيمان. رقم (٤٧).

(١) البخاري مع الفتح (٥/٩٦)، كتاب «المظالم»/ باب قصاص المظالم. رقم (٢٤٤٠).

بل إن القصاص من الظالمين لا يقتصر على الإنس والجن فقط بل يمتد إلى كل ظالم حتى وإن كان مما لا يعقل كالبهائم والدواب. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»<sup>(١)</sup>.

ولما رأى النبي ﷺ شاتين تنتطحان وعنده أبو ذر، قال له: «يا أبا ذر! هل تدري فيم تنتطحان؟» قال: لا، قال: «لكن الله يدري وسيقضي بينهما»<sup>(٢)</sup>.

فإذا كانت البهائم التي لا تعقل يقتص من بعضها لبعض فكيف بمن ركب فيه العقل الذي هو مناط التكليف.

### الوجه الثاني:

الناس في هذه المعمورة فريقان فريق استكبر على ربه وأبى أن يعبد ويطيعه، وأطلق لنفسه العنان ترتكب ما تشتهي من ظلم وعصيان، لا يجره زاجر ولا يردعه رادع. وفريق آخر استقام على دين الله ﷻ فالتزم أوامره ففعل ما أمر به وانتهى عما نهى عنه راضية بذلك نفسه كل همه إرضاء ربه قد أعرض عن لذات الدنيا ومتاعها.

ويموت هؤلاء وأولئك فهل يمكن أن يكون الموت هو نهايتهم فيستوي المحسن والعاصي والمؤمن والكافر والطائع والعاصي والصالح والفاجر.

كلا بل لا بُدَّ من يوم يكرم الله فيه الطائعين ويعاقب فيه العاصين، وهذا هو مقتضى الحكمة ولهذا استنكر الله التسوية بينهم بقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

(١) مسلم (٤/ ١٩٩٧)، كتاب «البر والصلة» / باب تحريم الظلم. رقم (٢٥٨٢).

(٢) أحمد (٥/ ١٦٢)، قال ابن كثير: «هذا إسناد جيد حسن». «البداية والنهاية» (١٣/ ٢٠).

وقوله تعالى: ﴿أَفَجَعَلُ الْمُتْسِلِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿[الفلم: ٣٥-٣٦].

### ثالثاً الحس:

عندما يشتد الحرّ ويحس به الناس يهرعون مسرعين لتخفيف وقعه على نفوسهم وأجسادهم بجميع وسائل التبريد، وكذلك عندما يشتد البرد ويحس الناس بشدة برده القارس يبحثون عن وسائل التدفئة لعلها تخفف عنهم ما يجدون.

وفي هذا أكبر دلالة على اليوم الآخر فكلما اشتد الحر تذكر الناس النار ولهيبها وكلما اشتد البرد تذكروا النار وزمهيرها، وذلك أن النار اشتكت إلى ربها فأذن لها بنفسين هما شدة الحر وشدة البرد كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب! أكل بعضي بعضاً فأذن لي أتَنَفَّس، فأذن لها بنفسين، نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فما وجدتم من بردٍ أو زمهيرٍ فمن نفسٍ جهنم، وما وجدتم من حرٍّ أو حرورٍ فمن نفس جهنم»، وفي رواية: «فأذن لها في كُلِّ عامٍ بنفسين»<sup>(١)</sup>.

منزلة الإيمان باليوم الآخر وحكمه:

تتجلى منزلة الإيمان باليوم الآخر بأمور هي:

١ - كونه ركناً من أركان الإيمان وأصل من أصوله لا يصح الإيمان بدونه:

قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي حديث جبريل المشهور وفيه قوله ﷺ لجبريل عندما سأله عن الإيمان: «أن تؤمن

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٣٣٠)، كتاب «بدء الخلق»/ باب صفة النار وأنها مخلوقة. رقم (٣٢٦٠)،

ومسلم (١/ ٤٣١-٤٣٢)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة»/ باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة

الحر. رقم (٦١٧) واللفظ له.

بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره»<sup>(١)</sup>. وغير ذلك من الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة.

فالتوحيد والإيمان بالآخرة متلازمان كما أن الشرك وعدم الإيمان بالآخرة متلازمان ويدل له قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٦-٧].

٢- أن من كذب به فقد كفر وخرج من ملة الإسلام<sup>(٢)</sup>:

ومما يدل على كفره حبوط عمله قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِعَاثِنَا وَلَقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧].  
حبطت أعمالهم: «لأنها على غير أساس، وقد فقدت شرطها وهو الإيمان بآيات الله والتصديق بجزائه»<sup>(٣)</sup>.

وشدة ضلاله: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

فلا ضلال أبعد من ضلال من ترك طريق الهدى المستقيم وسلك الطريق الموصلة إلى العذاب الأليم قال السعدي: «واعلم أن الكفر بشيء من هذه المذكورات كالكفر بجميعها لتلازمها وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض»<sup>(٤)</sup>.

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «الشرح والإبانة» لابن بطة (٢٠١).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٠٣).

(٤) المرجع السابق (٢٠٩).

بل وصرح الله بكفر من لم يؤمن باليوم الآخر، فقال: ﴿وإن تعجب فاعجب قولهم أءذا كنا تراباً أءنا لفي خلقٍ جديدٍ أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [الرعد: ٥].

### ٣- كثرة ربط الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله:

عظم الله الإيمان باليوم الآخر ورفع منزلته فقرن الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به في ستة وعشرين موضعاً من كتابه ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿يَقُومُوا عِبَادُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

وأكثر النبي ﷺ من ربطهما معاً، ومن ذلك:

قول النبي ﷺ في الحديث الطويل الذي رواه عبدالله بن عمرو بن العاص وفيه: «فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر»<sup>(١)</sup>.

وكما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر»<sup>(٢)</sup>.

(١) مسلم (٣/ ١٤٧٢-١٤٧٣)، كتاب «الإمارة» / باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول. رقم (١٨٤٤).

(٢) مسلم (١/ ٨٦)، كتاب «الإيمان» / باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنه من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق. رقم (٧٦).

وقول النبي ﷺ: «لا يحلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يومٍ وليلةٍ إلَّا مع ذي محرم»<sup>(١)</sup>.

وسر الجمع بينهما: «أن الكفر باليوم الآخر سبب لكل البلايا وأنواع الكفر والجحود، لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين:

أ- جلب النفع.

ب- دفع الضرر.

والذي لا يصدق بيوم القيامة لا يرغب في خير في ذلك اليوم ولا يخاف من شر في ذلك اليوم، فلا ينزجر عن شيء ولا يرعوي عن شيء، ولذا كان التكذيب بالبعث من أشنع أنواع الكفر بالله»<sup>(٢)</sup>.

٤ - كثرة أسمائه:

أكثر الله من ذكر أسماء اليوم الآخر في القرآن على صفات متنوعة وبأسماء كثيرة متعددة بلغت تسعة وتسعين اسمًا<sup>(٣)</sup>. وكثرة أسمائه «دليل على تعظيمه فإن العرب تسمي الشيء بأسماء كثيرة وتجعل له ألقابًا عديدة تعظيمًا لشأنه وإكبارًا لأمره»<sup>(٤)</sup>.

قال القرطبي: «كل ما عظم شأنه تعددت صفاته وكثرت أسماؤه: ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه وتأكد نفعه لديهم وموقعه جمعوا له خمسمائة اسم. وله نظائر،

(١) البخاري مع الفتح (٢/ ٥٦٦)، كتاب «تقصير الصلاة»/ باب من كم يقصر الصلاة، وسمى النبي ﷺ يومًا وليلة سفرًا. رقم (١٠٨٨)، ومسلم (٢/ ٩٧٧)، كتاب «الحج»/ باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره. رقم (١٣٣٩).

(٢) «العذب النمير» للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (٥/ ٣٣١).

(٣) «العاقبة» (١٥٤-١٥٥).

(٤) المرجع السابق (١٥٦).



فالقيامه لما عظم أمرها وكثرت أهوالها، سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة ووصفها بأوصاف كثيرة»<sup>(١)</sup>.

ومن أسمائه: يوم الحسرة، يوم التناد، يوم التلاق، يوم الخلود، الصاخة، الواقعة، الحاقة، الطامة، القارعة، الغاشية، الراجفة، الأزفة<sup>(٢)</sup> وغير ذلك.

#### ٥ - كثرة وروده في القرآن والسنة:

لقد أكثر الله من ذكره حتى إنك «قل أن تمر على صفحة من القرآن إلا وتجد فيها حديثاً عن اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب»<sup>(٣)</sup>.

وحكمة الإكثار من ذكره هي الاستشعار الدائم لذلك اليوم فيكون العباد هاربين من النار مشتاقين إلى الجنة طالبين لها.

#### ٦ - ثناء الله على المؤمنين باليوم الآخر:

مدح الله المؤمنين باليوم الآخر الخائفين من أهواله وكرباته فقال: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُ تَجَرَّةً وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧].

كما أثنى عليهم في قوله تعالى: ﴿يُوقُونَ بِالذِّرِّ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

وخصهم بالهدى والفلاح فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ

﴿١﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤-٥].

#### ٧ - الأمر بقتال من لم يؤمن به:

من لم يؤمن باليوم الآخر فقد استحق أن يقاتل ويدلّ قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا

(١) «التذكرة» (١/ ٣٢٩).

(٢) انظر: «عقيدة المسلمين» لشيخنا صالح البليهي (١/ ٣٢٦).

(٣) «أشراط الساعة» للوابل (٢٧)، وانظر: «الإيمان» لنعيم الياسين (٧٤).

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿[التوبة: ٢٩].

### ثمرات الإيمان باليوم الآخر:

أكثر الله من ذكر اليوم الآخر في كتابه وربط الإيمان به بالإيمان به ﷻ. وما ذاك إلا لعظيم ثمراته ومنها:

#### ١ - الخوف:

ذكر اليوم الآخر وما فيه من الزلازل والأهوال العظام يهيج في قلب العبد الخوف منه وهذا هو ما يقرره ربنا في كتابه فيقول: ﴿لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ﴾ [الزمر: ١٦].

ولم يكتف سبحانه بالإخبار، بل أمر عباده بالخوف من ذلك اليوم أمراً مباشراً فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣].

وأنذرهم إياه فقال: ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]، وقال: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤].

وهدهم به إن لم يؤمنوا فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧].  
وبين حال الناس فيه وما يصيبهم من الهلع والخوف قد شخصت أبصارهم وازرورت ألوانهم وشابوا وهم ولدان، فروا من أقاربهم وأحبائهم فراراً واضطربت تصرفاتهم حتى تصرفوا تصرف السكارى.

لذلك خافته الرسل على أقوامهم فحذرتهم إياه وخوفتهم مغبته. قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

ومن ثم تأكد الخوف منه في قلوب المؤمنين المتقين فحذروه وخافوا منه وخوفوا منه الناس. قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ (٣٢) يَوْمَ تُولُون مُدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِّنْ عَاصِمٍ [غافر: ٣٢].

وقال محمد بن أبي عميرة (وكان له صحبة) محذراً ومخوفاً ذلك اليوم: «لو أن عبداً خرَّ على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هراً في طاعة الله لحقَّره ذلك اليوم ولو دَّ أنه زيد كيما يزداد من الأجر والثواب»<sup>(١)</sup>.

ويخبر الحسن البصري عن شدة خوف الصحابة من اليوم الآخر فيقول: «لقد مضى بين يديكم أقوام لو أن أحدهم أنفق عدد هذا الحصى لخشي ألا ينجو من عظم ذلك اليوم»<sup>(٢)</sup>.

وأما سفيان الثوري فحاله عجب فإنه إذا أخذ في ذكر الآخرة يبول الدم<sup>(٣)</sup>. وأحوال السلف وأقوالهم كثيرة جداً، ولكني أختتم بكلام لابن القيم حيث يقول: «وبالجملة فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها وذكر المعصية والتوعد عليها وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج في قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو»<sup>(٤)</sup>.

## ٢- الحرص على فعل الطاعات:

من آمن باليوم الآخر وخاف عقاب الله في ذلك اليوم العصيب فلا بد أن يقدم عملاً صالحاً يكون سبباً لمغفرة الله وعفوه، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

(١) «الزهد» لابن المبارك (١٢).

(٢) المرجع السابق (٥١).

(٣) «الجامع لشعب الإيمان» (٣/ ١٩٤) رقم (٩٢٢).

(٤) «طريق الهجرتين» (٢٨٣).

يستشعر تطاير الصحف فأخذ صحيفته باليمين فرحاً جذلاً بما فيها من عمل صالح، ومن شدة الفرح أبرزها للناس لينظروها ويقرؤوا ما فيها ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابَهُ﴾ (١٩) ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ مآله الجنة ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٢١) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٢].

وأخذ صحيفته بالشمال قد بلغت به الحسرة كل مبلغ، وغرق في الحزني والندامة حتى اسود وجهه من الخجل والخوف والألم فأخفى تلك الصحيفة عن الأنظار وتمنى أنه لم يبعث ولم ير تلك الصحيفة ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابَهُ﴾ (٢٥) ﴿وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيَّةٍ﴾ (٢٦) ﴿يَلَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٧].

ويأكل الخوف من الساعة كبد الصحابي الجليل، فيأتي إلى النبي ﷺ يسأله عن وقت وقوعها فيصرفه النبي ﷺ إلى ما هو أهم من معرفة وقت قيامها وهو الاستعداد لها. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه «أن رجلاً من أهل البادية أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، متى الساعة قائمة؟» قال: «ويلك، وما أعددت لها؟»، قال: «ما أعددت لها إلا أني أحب الله ورسوله قال: «إنك مع من أحببت»، فقلنا: ونحن كذلك قال: «نعم» ففرحنا يومئذ فرحاً شديداً» وفي رواية مسلم، قال أنس: «فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشد من قول النبي ﷺ: «فإنك مع من أحببت». «فأنا أحب الله ورسوله، وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم»<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - البعد عن المعاصي:

يستشعر المسلم مغبة الذنوب والمعاصي في يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين وسؤال الله العبد عنها فيخشى ألا يستطيع الجواب فيختم على فيه وتنطق الجوارح بما

(١) سبق تخرجه.

عملت وعند ذلك لا تسأل عن حسرته قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٦٥].

قال الإمام محمد بن نصر المروزي مبيناً أثر هذا الموقف على العبد: «المستحيي من سؤال الله تعالى غداً يعد الجواب والتطهر من كل ما يكره الله ثم لا يفارقه الحياء مع الطهارة. إذ قد علم أنها ترك من الذنوب وتاب منه لن ينجو من الله أو يسأله عنه. كما روي عن الحسن رحمته الله أن رجلاً سأله فقال: العبد إذا تاب من الذنب أيغفر له؟ قال: نعم، قال: فيمحوه الله عنه؟ قال: لا والله حتى يوقفه عليه ويسأله عنه، ثم بكى الحسن فال: لو لم يبك إلا للحياء من الله تعالى لكان ينبغي له أن يبكي»<sup>(١)</sup>.

#### ٥ - الصبر على المصائب:

الدنيا دار الأكدار والبلايا والمصائب والنكبات ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] فيسر العبد حيناً ويتنقص عيشه حيناً آخر، ولكنه يصبر على ما يصيبه أملاً في سروره بلقاء ربه قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥].

و«لما كان الألم لا مخلص منه البتة، عزى الله سبحانه من اختار الألم المنقطع بقوله ﴿فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ﴾». فضرِب لهذا الألم المنقطع أجلاً وهو يوم لقائه فيلتذ العبد أعظم لذة بما تحمل من الألم لأجله وأكد هذا العزاء برجاء اللقاء ليحمل العبد اشتياقه إلى ربه على تحمل الألم العاجل»<sup>(٢)</sup>.

فما أصابه هنا جزاؤه هناك، قال ﷺ إن الله يقول: «إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوّضته منهما الجنة». «يريد عينيه»<sup>(٣)</sup>.

(١) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٤٢).

(٢) «مختصر زاد المعاد» (١٦٥).

(٣) البخاري مع الفتح (١٠/ ١١٦)، كتاب «المرض» / باب فضل من ذهب بصره. رقم (٥٦٥٣).

## ٦ - تسلية المظلوم:

كم من مظلوم في هذه الدنيا لا يستطيع دفع الظلم عن نفسه فلا يسليه ولا يعزيه إلا إيمانه باليوم الآخر إذ به يقتصر للمظلوم من ظالمه قال تعالى مسلماً نبينا محمد ﷺ ومعزياً إياه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

قال الشيخ محمد عبد الوهاب: «إن العلم بإتيانها فيه تعزية للمظلوم»<sup>(١)</sup>.

وقال ميمون بن مهران عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]: هي وعيد للظالم، وتعزية للمظلوم<sup>(٢)</sup>.

وكما في حديث جابر قال: لما رجعت إلى رسول الله ﷺ مهاجرة البحر قال رسول الله ﷺ: «ألا تحدثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟»، قال فتية منهم: بلى يا رسول الله! بينما نحن جلوس مرت بنا عجوز من عجائز رهايينهم تحمل على رأسها قلة من ماء فمرت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفها ثم دفعها فخرت على ركبتيها فانكسرت قلتها فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسي وجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غداً. قال يقول رسول الله ﷺ: «صدقت. صدقت كيف يُقدِّس الله أمة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم»<sup>(٣)</sup>.

(١) «مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب / القسم الرابع - التفسير» (١٩٥).

(٢) «جامع البيان» (٢٣٦/١٣).

(٣) ابن ماجه (١٣٢٩/٢)، كتاب «الفتن» / باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. رقم (٤٠١٠)، وابن

حبان في «صحيحه» (١١/٤٤٣-٤٤٤) رقم (٥٠٥٨)، وقال الذهبي عن طريق ابن حبان: «إسناده

صالح». «العلو» (١/٦٦٠).

في هذا المشهد سلّت تلك العجوز نفسها بيوم القيامة حين توعدته وهددته به.

#### ٧- الزهد في الدنيا:

زَيْنٌ للناس حب الشهوات في هذه الدنيا، فقدموها، وجعلوا ينظرون إليها ويلهثون وراءها فأثقلتهم عن الانطلاق في الطاعات والجهاد في سبيل الله ولا يرفعهم عن ثقله الأرض والحرص على المتاع الزائل إلا الإيمان بالآخرة ولذلك جعله الله هو العلاج الناجع لهذه الظاهرة فقال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَالٌ كَثِيرٌ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنِفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقِلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ءَأَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

فإذا استشعر العبد نسبة الدنيا إلى الآخرة وأنها لا تعد شيئاً وعلم أن الآخرة هي دار القرار والاستمرار زهد في الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى ويزول.

#### ٨- التوبة:

لا مخلص للعبد من الذنوب إلا بالتوبة إلى علام الغيوب إذ بها تكفر السيئات فإذا لقي الله فإذا به قد غُفِرَتْ سيئاته فرح بذلك أيما فرح وسعد بذلك أيما سعادة ولذلك ربط الله الأمر بالتوبة باليوم الآخر فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ

ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ [التحریم: ٨].

قال ابن حجر: «وفائدة الإخبار بذلك - أي اليوم الآخر - أن ينتبه السامع فيأخذ في الأسباب التي تخلصه من تلك الأهوال ويبادر إلى التوبة من التبعات»<sup>(١)</sup>.

(١) «فتح الباري» (١١ / ٣٩٥).

## وبالقدر خيره وشره.

### تعريف القدر:

القدر لغة: القاف والdal والراء أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته<sup>(١)</sup>  
تقول: قدرت الشيء بتخفيف الدال وفتحها وبالسكون والفتح قدرًا وقدرًا إذا أحطت  
بمقداره<sup>(٢)</sup>.

قال الراغب: القدر والتقدير تبين كمية الشيء، يقال قدرته وقدرته ومنه قوله تعالى:  
﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]<sup>(٣)</sup>.

ويطلق القدر على الحكم والقضاء<sup>(٤)</sup> ومن ذلك حديث الاستخارة وفيه: «فاقدريه لي  
ويسره لي»<sup>(٥)</sup>.

اصطلاحًا: تقدير الله للكائنات قبل حدوثها<sup>(٦)</sup>.

فيكون القدر بمعنى الكتابة.

أما تعريف القضاء لغة:

«القاف والضاد والحرف المعتل أصل صحيح يدل على إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه  
لجهته»<sup>(٧)</sup>.

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٥ / ٦٢).

(٢) انظر: «الصحاح» (٢ / ٧٨٦).

(٣) «المفردات» (٣٩٦).

(٤) «لسان العرب» (٥ / ٧٤) وانظر: «القاموس المحيط» (٣ / ٥٩١).

(٥) البخاري مع الفتح (١٣ / ٣٧٥)، كتاب «التوحيد» / باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾. رقم  
(٧٣٩٠).

(٦) «مجموعة الرسائل النجدية» (٣ / ٢٥٢).

(٧) «معجم مقاييس اللغة» (٥ / ٩٩).



واصطلاحًا: هو إيجاد المقدر<sup>(١)</sup>.

وقيل: هو ما قضى الله به ﷻ في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير<sup>(٢)</sup>.

القضاء والقدر عند الاجتماع والافتراق:

«إذا اجتمع القضاء والقدر افترقا وإذا افترقا اجتمعا».

أي أنهما إذا ذكرا معًا صار لكل منهما معنى يخصه فيكون القدر بمعنى التقدير وهو الكتابة وأما القضاء فهو بمعنى الخلق<sup>(٣)</sup>.

أما إذا ذكر كل منهما لوحده شمل معنى الآخر كالإسلام والإيمان. قال البغوي: «الإيمان بالقدر فرض لازم وهو أن يعتقد أن الله تعالى خالق أعمال العباد خيرها وشرها كتبها عليهم في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم»<sup>(٤)</sup>.

أدلة الإيمان بالقدر:

تكاثر الأدلة وتظافرت على إثبات القدر شرعًا وعقلًا وحسًا ومنها:

أولاً: أدلة الشرع:

أدلة الشرع على الإيمان بالكتاب والسنة كثيرة جدًا ومن ذلك:

١ - قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

٢ - قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

«أي وكان أمره الذي يقدره كائنًا لا محالة وواقعًا لا محيد عنه ولا معدل فما شاء كان

(١) «الدرر السنية» (٣/ ٢١٣).

(٢) «شرح الواسطية» للعثيمين (٢/ ١٨٨).

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٤/ ٧٨) و«جامع الرسائل» (٢/ ٣٥٥).

(٤) «شرح السنة» (١/ ١٤٢).

وما لم يشأ لم يكن»<sup>(١)</sup>.

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (٤٨) ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٨-٤٩]<sup>(٢)</sup>.

٤- وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث طويل وفيه: «أن جبريل عليه السلام سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»<sup>(٣)</sup>.

٥- عن عمران بن حصين قال: إن رجلين من مزينة أتيا إلى رسول الله ﷺ، فقالا: يا رسول الله! أرايت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبينهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: «لا بل شيء قضى عليهم، ومضى فيهم وتصديق ذلك في كتاب الله ﷻ» ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧-٨]<sup>(٤)</sup>.

### ثانيًا: العقل:

يقطع العقل السليم أن خالق الإنسان وموجده من العدم هو الله ﷻ ولهذا ناقش الله المشركين مناقشة عقلية قوية، هزت مشاعرهم، وارتجفت لها أفئدتهم، ألزمهم فيها بالإقرار بأنه سبحانه هو الذي خلقهم.

فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١٠٩٤).

(٢) مسلم (٤/٢٠٤٦)، كتاب «القدر» / باب كل شيء بقدر. رقم (٢٦٥٦).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) مسلم (٤/٢٠٤١-٢٠٤٢)، كتاب «القدر» / باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته. رقم (٢٦٥٠).

فالات احتمالات ثلاثة، هي:

١ - أنهم جاؤوا صدفة فَخُلِقُوا وَوُجِدُوا من دون موجد وهذا محال؛ لأن كل حادث لا بد له من محدث.

٢ - أنهم خَلَقُوا وَأَوْجَدُوا أنفسهم وهذا محال لأن المعدوم ليس بشيء فكيف يوجد شيئاً.

٣ - فتعين أن لهم خالقاً موجدًا وهو الله تعالى. وما دام أن الله هو الذي خلقهم فكذلك هو خالق أفعالهم، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَقَدْ عَلِمَ مَا سَيَعْمَلُونَ وَمِمَّ يَتَكُونُونَ وَمَا لَاتِهِمُ الَّتِي إِلَيْهَا يَنْتَهَوْنَ وَكِتَبَهَا وَأَرَادَهَا.

وكما أن العقل يدل على أن الله خالق الإنسان فهو دال أيضًا على أنه سبحانه خالق الكون كله بسماواته المرفوعة بغير عمد نراها وبأرضه المنبسطة الفسيحة وما فيها وما بينهما من مخلوقات كثيرة، وما في الكون من نظام بديع ونسق متآلف فكل يسبح في فلكه. يسير كما قدر له وفي هذا أكبر دليل على أن الكون لم يوجد صدفة لأن الموجود صدفة ليس له نظام في أصل وجوده فكيف يكون منتظمًا حال بقائه واستمراره فإذا تقرر عقلاً أن الله هو الخالق لزم ألا يقع شيء في ملكه إلا علمه وأرادته وكتبه.

ثالثًا: الحس:

يفكر الإنسان بعمل أمر ما ثم ما يلبث إلا أن يغير رأيه أو يصرفه صارف عنه.

سئل سفيان الثوري بم عرف ربك: «بفسخ العزم ونقض الهمة»<sup>(١)</sup>.

بل ربما يعزم الإنسان على شيء يريد حصوله فيأخذ بأسبابه ثم لا يستطيع إدراكه فيعلم أنه لم يقدر له ومن ثم فلن يستطيع الحصول عليه فيرضى ويسلم.

(١) «حلية الأولياء» (٧/ ٥٢).

وربما تنزل به المصيبة فيفعل كل الأسباب لدفعها وحماية نفسه منها فلا تنفع جميع الأسباب فيعلم أن هذا قدر الله الذي يجب عليه حياله الصبر والتسليم.

وأمثلة الحس كثيرة جدًا بل لا تنحصر، فكل الكون وما يقع فيه من أمثلة الحس دليل على قدر الله. ومن ذلك:

١ - آدم عليه السلام خلقه الله بيده وأسكنه جنته وأذن له في ثمر الجنة كله إلا شجرة واحدة ولأن القدر نافذ أكل من الشجرة، فغضب الله عليه وأنزله إلى الأرض، ولذلك لما احتج آدم وموسى حج آدم موسى فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى فقال موسى: يا آدم! أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده، أتلومني على أمرٍ قدّره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة»، فقال النبي ﷺ: «فحج آدم موسى، فحج آدم موسى»<sup>(١)</sup>.

٢ - فرعون يرى الرؤيا فتفسر له بأن نهاية ملكه على يد أحد أبناء بني إسرائيل فيتخذ الحيلة والحذر بقتل جميع من يولد من الذكور: ﴿قَالَ سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

فيولد موسى عليه السلام فتخفيه أمه في اليم ومع ذلك يجده آل فرعون فيلتقطونه ويذهبون به إلى فرعون، فيهم بقلته فلا يستطيع، والله الحكمة البالغة، وذلك لأن فرعون رجل عقيم لا يولد له فدخلت عليه زوجته من نقطة ضعفه قالت: ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩] فأعطاه إياه. فكانت نهاية فرعون على يديه فلم ينفعه حذره من قدر الله.

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٤١)، كتاب «أحاديث الأنبياء» / باب وفاة موسى وذكره بعد. رقم (٤٣٠٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٢-٢٠٤٣)، كتاب «القدر» / باب حجاج آدم وموسى عليه السلام. رقم (٢٦٥٢)، واللفظ له.

٣- خرج النبي ﷺ من المدينة ومعه بعض أصحابه يريد عيراً لقريش فيهرب أبو سفيان بالعر من طريق الساحل فتخرج قريش بقضها وقضيضها فخراً ورياء الناس، وصداً عن سبيل الله تريد بدرًا حتى يسمع بها الناس فلا يزالون يهابونها أبد الدهر.

وإذا الرب جل وعلا قد قدر معركة عظيمة فيها عز الإسلام والمسلمين وذل الكفر والكافرين لم يتواعد الجيشان في هذا الوطن ولم يخططا لمعركة فاصلة ولكن الله هو الذي قضى ذلك وأنفذ أمره ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

منزلة الإيمان بالقدر وحكمه:

للإيمان بالقدر شأن عظيم ومنزلة عالية، ومما يجلي علو منزلته ما يلي:

١- أن الإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان الستة العظام التي يركز عليها دين الإسلام فرض الله على المؤمنين الإيمان به خيره وشره في أي كثيرة من كتابه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

قال ابن كثير: «استدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها»<sup>(١)</sup>.

ومما يدل على فرضيته ربطه ﷺ بأركان الإيمان وجعله واحداً منها في جوابه لجبريل حينما سأله عن الإيمان قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره».

وزاد الأمر بياناً حينما نفى الإيمان عمن لم يؤمن بالقدر، فقال ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني محمد رسول الله، بعثني بالحق ويؤمن

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١٣٢١).

بالموت وبالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر»<sup>(١)</sup>.

وأجمع العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم على الإيمان بالقدر<sup>(٢)</sup>.

فمن كذّب به كفر، وخلع ربقة الإسلام من عنقه ولم يبق له في الإسلام نصيب.

قال عبادة بن الصامت في وصيته لابنه قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله ﷻ بالنار»<sup>(٣)</sup>.

وعن ابن الديلمى قال: وقع في نفسي شيء من القدر خشيت أن يفسد علي ديني وأمرني فأتيت أبي بن كعب فقلت: أبا المنذر! إنه قد وقع في نفسي شيء من هذا القدر فخشيت على ديني وأمرني فحدثني من ذلك بشيء لعل الله أن ينفعني به فقال: «لو أن الله عذّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو كان لك مثل جبل أحد ذهباً أو مثل جبل تنفقه في سبيل الله ما قبل منك حتى تؤمن بالقدر فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وإنك إن مت على غير هذا دخلت النار». ثم قال: «ولا عليك أن تأتي أخي عبدالله بن مسعود فتسأله قال: فأتيت عبدالله ابن مسعود فسألته فذكر مثلما قال أبي وقال لي: ولا عليك أن تأتي حذيفة فأتيت حذيفة فسألته فقال مثلما قالوا، وقال: أتت زيد بن ثابت فأسأله فأتيت زيد بن ثابت فسألته فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أن الله عذّب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو كان لك مثل أحد ذهباً أو مثل جبل أحد ذهباً تنفقه في سبيل الله ما

(١) الترمذي (٤/ ٤٥٢)، كتاب «القدر»/ باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره. رقم (٢١٤٥)،

وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١/ ٥٣٧) رقم (١٠٤).

(٢) «الإبانة الكبرى»/ قسم القدر/ (٢/ ١٣٠-١٣١)، و«اعتقاد أئمة الحديث» للإسماعيلي (٣٧-٣٨).

(٣) «القدر» لابن وهب (١٢١) رقم (٢٦).

قبله منك حتى تؤمن بالقدر كله فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأنك إن متَّ على غير هذا دخلت النار»<sup>(١)</sup>. فالشاهد من هذا الحديث «أنك إن متَّ على غير هذا دخلت النار». فدل على أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر.

وفي حديث آخر عن يحيى بن يعمر أنه لقي عبدالله بن عمر فقال: «يا أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم، وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنفُ قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبدالله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر»<sup>(٢)</sup>.

ومن الآثار عن السلف ما يلي:

قال ابن مسعود رحمته الله: «والله لا يطعمُ رجل طَعَمَ الإيمان حتى يؤمن بالقدر»<sup>(٣)</sup>.  
ويقول ابن عباس رحمته الله: «القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله ولم يؤمن بالقدر كان كفره بالقدر نقصاً للتوحيد، ومن وحد الله وآمن بالقدر كانت عروة لا انفصام لها»<sup>(٤)</sup>.  
وقال الحسن البصري رحمته الله: «من كذب بالقدر فقد كذب بالحق مرتين، إن الله عزَّ قدر خلقاً وقدر أجلاً وقدر بلاءً وقدر مصيبةً وقدر معافاةً، وقدر معصية وقدر طاعة، فمن

(١) أحمد (١٨٩/٥)، وأبو داود (٧٥/٥)، كتاب «السنة» / باب في القدر. رقم (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٣٠-٢٩/١)، المقدمة / باب في القدر. رقم (٧٧)، وقال ابن القيم: «حديث صحيح». «شفاء العليل» (٣٤٣/١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٦٦٧/٤) رقم (١٢١٨).

(٤) «الإبانة» لابن بطه - قسم القدر (١٦٠/٢) رقم (١٦٢٤)، وانظر: «السنة» لعبدالله بن أحمد (٤٢٢/٢).

كذب بشيء من القدر، فقد كذب بالقرآن»<sup>(١)</sup>.

وكان سيّار وأبو هاشم الرماني يقولان: «التكذيب بالقدر شرك»<sup>(٢)</sup>. ووجهه أن من كذب بالقدر فقد كذب أن يكون الله خالقاً فأثبت خالقاً غير الله. ويقول مسعر بن كدام: «التكذيب بالقدر أبو جاد الزندقة»<sup>(٣)</sup>.

## ٢ - ارتباط الإيمان بالقدر بأسماء الله وصفاته:

أساس الإيمان هو الإيمان بأسماء الله وصفاته، فمن أحصاها دخل الجنة ومما ورد في صفات الله العلم، والإرادة والقدرة والخلق وهذه الصفات الأربع هي الركيزة التي يقوم عليها ساق الإيمان بالقدر.

قال الشيخ عبدالعزيز الرشيد: «القضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته»<sup>(٤)</sup>. وانطلاقاً من هذا فسّر عمر بن الخطاب القدر فقال: «القدر قدرة الله»<sup>(٥)</sup>، وتبعه الإمام أحمد فقال: «القدر قدرة الله على العباد»<sup>(٦)</sup> وبمثلهم قال زيد بن أسلم: «القدر قدرة الله فمن كذب بالقدر فقد جحد قدرة الله تعالى»<sup>(٧)</sup>.

ومعنى قولهم: (القدر قدرة الله) أن تقدير الربّ تبارك وتعالى لكل ما هو كائن قبل خلقه السموات والأرض بخمسين ألف سنة، ثم خلقه وإيجاده للكائنات وفق ذلك

(١) «الإبانة» لابن بطة قسم القدر (٢/ ١٨٩) رقم (١٦٩٥).

(٢) «الشرعية» للأجري (٢/ ٩١٠-٩١١).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٦٨).

(٤) «القول الأسنى» (١٢٥) وانظر إن شئت شرحاً وافياً لارتباط القدر بالصفات «الدرر البهية» للسعدي (٣١-٣٢).

(٥) «الإبانة» لابن بطة - قسم القدر (٢/ ١٣١) رقم (١٥٦١).

(٦) «مسائل الإمام أحمد» برواية ابن هانئ (٢/ ١٥٥).

(٧) «الشرعية» (٢/ ٨٩٥-٨٩٦) رقم (٤٨٢).



التقدير يدل على علمه المحيط بكل شيء وكتابته له ومشيئته وإرادته لخلقه وإيجاده الذي وقع كما قدر فمن أثبت ذلك كله فقد أثبت قدرة الله على الخلق والإيجاد مع علمه بذلك، ومن أنكر ذلك فقد أنكر قدرة الله تعالى.

قال ابن القيم: «إنكار القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أفعال العباد وكتابتها وتقديرها»<sup>(١)</sup>.

أما ابن تيمية فإنه ذهب إلى أبعد من ذلك حيث جعل إثبات القدرة دالاً على تمام الملك ونفي القدرة نفي للملك فقال: «من لم يثبت له - أي لله - القدرة حقيقة لم يثبت له ملكاً»<sup>(٢)</sup>.

فالإيمان بالقدر يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات لا ينفك عنه بحال، ومن أحسن من وضع الارتباط بينهما ابن عباس رضي الله عنه بقوله: «القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب بالقدر كان تكذيبه للقدر نقضاً للتوحيد»<sup>(٣)</sup>.

ولهذا السبب - والله أعلم - لم يذكر ركن الإيمان بالقدر في كتاب الله تعالى مع بقية أركان الإيمان كما ورد في السنة لأن الإيمان بالقدر هو إيمان بربوبيته وأسمائه وصفاته ومراتب القدر الأربع هي صفات الله تعالى»<sup>(٤)</sup>.

وذهب إلى هذا الشيخ البراك فقال: «والإيمان بالقدر يندرج في الإيمان بالله وله أدلة مفصلة في القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]»<sup>(٥)</sup>.

(١) «شفاء العليل» (١/ ١٣٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٠).

(٣) «الشريعة» (٢/ ٨٧٦-٨٧٧) رقم (٤٥٧)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي (٤/ ٦٢٣) رقم (١١١٢).

(٤) «القضاء والقدر» للمحمود (٨٤).

(٥) «شرح العقيدة الواسطية» (١٤)، وانظر: «شرح العقيدة التدمرية» (٣٣).

## ٣- كثرة الأدلة الدالة عليه:

تكاثرت الأدلة الدالة على إثبات القدر تكاثراً عظيماً من كتاب الله حتى بلغت (ستاً وثمانين وثمانمائة آية)<sup>(١)</sup> أما من كلام النبي ﷺ فكثير حتى إنه لا يكاد يحصى إلا بكلفة ومشقة.

ورد بعضها فيما سبق وسيأتي ذكر بعضها مستقبلاً ولكن أذكر دليلين اثنين للتنبيه على ذلك:

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

ومن السنة: حديث عمر بن الخطاب الطويل وفيه أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ أخبرني عن الإيمان قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره»<sup>(٢)</sup>.

## ٤- تعلق القدر بكل الموجودات:

هذا الكون كله ناطقه وصامته حيه وجماده ساكنه ومتحركه أوله وآخره بدايته ونهايته كل ذلك قد كتب وقدر كما في حديث عبادة بن الصامت: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله تبارك وتعالى القلم، ثم قال: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»<sup>(٣)</sup>.

(١) «عقيدة المسلمين» (٢/ ٢٧٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أحمد (٥/ ٣١٧)، وابن أبي شيبه في «المصنف» (٤/ ١١٤) رقم (١٧٧٧١).

قال علي بن المديني: «إسناده حسن». «بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام» لابن القطان (٣/ ٦١٠)، و«النكت على الأطراف» (٤/ ٢٦١)، وقال البوصيري: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات». «إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة» (٢/ ٧٣٦-٧٣٩) رقم (٣٠٧) تحقيق د. سليمان العريني.

وفي لفظ: «إن أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»<sup>(١)</sup>.

وكان ذلك قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة. كما قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشهُ على الماء»<sup>(٢)</sup>.

قال شيخ الإسلام: «وأحاديث تقديره سبحانه وكتابته لما يريد أن يخلقه كثيرة جداً»<sup>(٣)</sup>.

فكل ما في الكون جميعه قدره الله وقضاه وشاءه وخلقه لا يخرج من ذلك شيء، قال رسول الله ﷺ: «كلُّ شيءٍ بقدرٍ حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز»<sup>(٤)</sup>.

ومن ذلك أفعال العباد قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦] بل والمصائب من جوع ومرض وتشريد وغير ذلك قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وهذا هو اعتقاد الصحابة رضي الله عنهم.

قال طاووس بن كيسان: «أدركت ثلاثمائة من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: «كل شيء بقدر»<sup>(٥)</sup>، وتبعهم على ذلك السلف من التابعين والأئمة من بعدهم.

(١) أبو داود (٧٦/٥)، كتاب «السنة» / باب في القدر. رقم (٤٧٠٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٤/٢) رقم (٢٠١٤).

(٢) مسلم (٢٠٤٤/٤)، كتاب «القدر» / باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام. رقم (٢٦٥٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٣٧/١٦).

(٤) مسلم (٢٠٤٥/٤)، كتاب «القدر» / باب كل شيء بقدر. رقم (٢٦٥٥).

(٥) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» لللالكائي (٤/٦٦١) رقم (١٢٠٠).

مراتب القدر:

مراتب القدر أربع هي العلم والكتابة والمشية والخلق. جمعها أحدهم فقال:  
علمُ كتابةٌ مولانا مشيئته وخلقه وهو إيجاد وتكوين

المرتبة الأولى: العلم:

أي علم الله الشامل لكل شيء أزلاً وأبداً أحاط بكل شيء علماً ووسعه قال تعالى:  
﴿لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].  
قال قوام السنة الأصبهاني: «قال أهل السنة... علمه بكل مكان، قد أحاط بكل شيء علماً»<sup>(١)</sup>.

يعلم السر وما هو أخفى من السر، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] و(السر) هو ما حدث به نفسك و(أخفى) ما لم تحدث به نفسك.

يعلم ما كان وما سيكون قبل أن يكون فلذلك أجاب الملائكة عندما ناقشوا في خلق آدم بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] أي: أنه سيكون في أبنائه الرسل والصالحون والمجاهدون، فعلم سبحانه ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم وعلم أرزاقهم وآجالهم وما آلتهم إلى جنة أو نار. فعن علي عليه السلام قال: «كان رسول الله ذات يوم جالساً وفي يده عود ينكت به فرفع رأسه فقال: «ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار...»<sup>(٢)</sup>.

(١) «الحجة في بيان المحجة» (٢/ ٤٣١-٤٣٢).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٧٠٩)، كتاب «التفسير» / باب: ﴿فَسَيَّرَهُ لِلْإِسْرَى﴾. رقم (٤٩٤٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٠)، كتاب «القدر» / باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته. رقم (٢٦٤٧) واللفظ له.

وقال ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا خَلَقَهُمْ لَهَا، وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ»<sup>(١)</sup>.

وعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون، فقال تعالى عن المشركين: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] فأخبر أن المشركين يطلبون الرجعة عندما يعاينون النار ولن يرجعوا إلى هذه الدنيا ثم بين أنهم لو ردوا إلى الدنيا وعادوا إليها فلن يؤمنوا وسيبقون على كفرهم.

ويشهد له حديث أبي بن كعب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ كَافِرًا وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَ أَبُويهِ طُغْيَانًا وَكُفْرًا»<sup>(٢)</sup>، لم يسبق علمه جهل ولا يلحقه نسيان قال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

#### المرتبة الثانية: الكتابة:

أي كتابة الرب جل وعلا مقادير كل شيء في اللوح المحفوظ من بداية الخلق حتى يستقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، لا يشذ عن ذلك شيء.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

والإمام المبين هو اللوح المحفوظ أحصى فيه ربنا كل شيء فكتبه فيه.

وقوله ﷺ في حديث عبادة بن الصامت: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(٣)</sup>.

(١) مسلم (٤/ ٢٠٥٠)، كتاب «القدر» / باب معنى: «كل مولود يولد على الفطرة». رقم (٢٦٦٢).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٥٠) كتاب «القدر» / باب معنى «كل مولود يولد على الفطرة» (٢٦٦١).

(٣) سبق تخرجه.

وقت الكتابة: حدّد النبي ﷺ وقت الكتابة في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص بقوله: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلّق السّموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرضه على الماء»<sup>(١)</sup>.

### أنواع الكتابة:

الكتابة نوعان:

الأولى: الكتابة العامة الشاملة: وهي تقدير الرب جل وعلا لجميع الأشياء وكتابته لها في اللوح المحفوظ، ويدل لها الأدلة السابقة.

### الثانية: الكتابة المفصلة وهي أنواع:

١ - الكتابة العُمريّة: وهي كتابة كل ما يجري على العبد من بداية حياته إلى نهايتها، وكتابة شقاوته وسعادته.

كل ذلك قد كتبه الله تعالى كما روى ذلك عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ وفيه: «ثمّ يبعث الله إليه ملكًا بأربع كلمات، فيكتب عمله وأجله ورزقه، وشقيّ أم سعيد، ثمّ ينفخ فيه الروح، فإنّ الرّجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة، وإنّ الرّجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار»<sup>(٢)</sup>.

٢ - الكتابة السنوية: أي كتابة ما يجري على العبد في تلك السنة كلها وذلك بأن

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري مع الفتح (٣٦٣/٦)، كتاب «أحاديث الأنبياء» / باب خلق آدم وذريته. رقم (٣٣٣٢)، ومسلم (٢٠٣٦/٤)، كتاب «القدر» / باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته. رقم (٢٦٤٣).

يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة ما يجري في السنة كلها بداية من ليلة القدر. قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]. أي يكتب فيها كل ما يحدث للناس من أعمالهم وأجلهم وأرزاقهم ومعاشهم ومصائبهم وعزهم وذلمهم وموتهم وحياتهم إلى آخر السنة. قال ابن عباس عند قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]: «يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر، حتى يكتب الحاج يحج فلان، ويحج فلان»<sup>(١)</sup>.

### ٣- الكتابة اليومية:

ودليلها قول الحق تبارك وتعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. وفسر النبي ﷺ الشأن في هذه الآية فقال: «يغفر ذنبًا، ويُفَرِّج كَرْبًا، ويرفع أقوامًا، ويضع آخرين»<sup>(٢)</sup>، وبنحوه عن أبي الدرداء مرفوعًا<sup>(٣)</sup> وموقوفًا، قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يغفر ذنبًا، ويكشف كَرْبًا، ويرفع قومًا، ويضع آخرين»<sup>(٤)</sup>. وبمثله قال عبيد بن عمير، ومجاهد، وقتادة، وابن جرير<sup>(٥)</sup>.

### المرتبة الثالثة: المشيئة:

أي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن سواء كان ذلك مما يتعلق بفعله أو مما يتعلق بفعل المخلوقين، سواء كان مخالفًا للواقع أو موافقًا له<sup>(٦)</sup>.

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٣٢٨٧) رقم (١٨٥٢٧).

(٢) «جامع البيان» (٢٧/ ١٣٥)، و«الآحاد والمثاني» لابن أبي عاصم (٤/ ٢٩٥) رقم (٢٣١٦).

(٣) ابن ماجه (١/ ٧٣)، «المقدمة»/ باب فيما أنكرت الجهمية. رقم (٢٠٢)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٠).

(٤) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٢٠)، كتاب «التفسير»/ تفسير سورة الرحمن.

(٥) «جامع البيان» (٢٧/ ١٣٤-١٣٥).

(٦) انظر: «الدرر السنية» (١/ ٢٢٦-٢٢٧).

أما أن مشيئته شاملة لكل شيء من مخلوقاته فيدل له قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

وقوله تعالى مبيناً أن كل ما في الكون حادث بمشيئته: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [المائدة: ١٧].

دلت هذه الأدلة على نفوذ مشيئته في جميع المخلوقات وانفراده سبحانه باختيار وتخصيص من يشاء من الأشخاص والأزمان والأماكن والأوامر.

أما خلاف الواقع فيدل له قوله تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا فَظَلَمْتَ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥]، وقوله: ﴿لَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٠].

وأنه لو شاء لهدى الخلق كلهم فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥].

وأما أنه ما لم يشأ لم يكن فدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فبين الله سبحانه أن اقتتالهم كان بمشيئته وأنه لو لم يشأ الاقتتال لم يقع.

أما ما يتعلق بفعله سبحانه فيدل له قوله تعالى عن نوح عليه السلام أنه أخبر قومه لما طلبوا منه إنزال العقوبة بهم أن ذلك بمشيئة الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣].

أما ما يتعلق بفعل المخلوقين فيدل له قول موسى عليه السلام للخضر فيما أخبر الله عنه: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩].



ومن السنة قوله ﷺ: «اشفعوا تُجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء»<sup>(١)</sup>.

### تقييد القدرة بالمشيئة:

لا يصح تقييد القدرة بالمشيئة كقول بعضهم: (إن الله على ما يشاء قدير)، لوجوه:

١ - أن الله إذا وصف نفسه بالقدرة لم يقيد ذلك وإنما جعل القدرة عامة كقوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]، وغيرها من الآيات.

فالقدرة صفة أبدية أزلية كاملة شاملة لما شاء وما لم يشأ فهي تتعلق بالموجودات والمعدومات.

٢ - أن النبي ﷺ والمؤمنون معه وصفوا الله بالقدرة العامة الشاملة ولم يقيدوها بالمشيئة قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحریم: ٨]. وخير الهدي هديهم.

٣ - أن تقييد القدرة بالمشيئة نفی وإنكار لشمول قدرة الله تعالى، لأنه يدل على أن القدرة لا تتعلق إلا بما تعلقت به المشيئة فقط.

٤ - أن في تقييد القدرة بالمشيئة مشابهة لأهل البدع<sup>(٢)</sup>.

ولا يرد علينا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩] لأن المقيد هنا بالمشيئة هو الجمع لا القدرة، والجمع فعل لا يقع إلا بالمشيئة؛ ولذلك قيد هنا، فمعنى

(١) البخاري مع الفتح (٢٩٩/٣)، كتاب «الزكاة»/ باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها. رقم (١٤٣٢)، ومسلم (٢٠٢٦/٤)، كتاب «البر والصلة»: باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام. رقم (٢٦٢٧).

(٢) انظر: «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (١/٤٠٥)، و«فتاوى محمد بن إبراهيم» (١/٢٠٧) و«الجواب المختار» للعثيمين (٣٩).

الآية أن الله تعالى قادر على جمعهم متى شاء وليس بعاجز كما يدعيه من ينكره.  
ولا يرد علينا أيضًا قوله ﷺ عن الله إنه قال لآخر من يدخل الجنة: «ولكنني على ما أشاء قادر»<sup>(١)</sup>.

وذلك لأن القدرة في هذا الحديث ذكرت لتقرير أمر واقع، والأمر الواقع لا يكون إلا بعد المشيئة وليس المراد بها ذكر الصفة المطلقة التي وصف الله تعالى بها نفسه أزلاً وأبداً ولذلك عبر عنها باسم الفاعل «قادر»<sup>(٢)</sup>.

#### المرتبة الرابعة: الخلق:

وهو الإيمان بأن الله تعالى خالق كل شيء في السموات والأرض وما بينهما خالق كل عامل وعمله وخالق كل متحرك وحركته وما من ذرة في السموات ولا في الأرض إلا والله ﷻ خالقها وخالق حركتها وسكونها.

فالله سبحانه خالق أعيان المخلوقات وصفاتها وأحوالها وما يصدر عنها من أقوال وأعمال وآثار.

فأعيان المخلوقات كالإنسان والأرض والجبال والأنهار، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْثُوسٍ بِهِ، فَقَسَمْتُ﴾ [ق: ١٦]، وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [السجدة: ٤].

وأما صفاتها كأن يكون الإنسان حليماً لا يغضب أو شجاعاً لا يخاف أو هلوياً جزوعاً قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾<sup>(١٩)</sup> إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً [المعارج: ١٩-٢١].

وأما أقوالها: فهو ما ينطق به لسانها ككلام الآدمي.

وأما أفعالها: كالأكل والشرب والكتابة والصناعة والذهاب والمجيء ونحوها،

(١) مسلم (١/ ١٧٤-١٧٥)، كتاب «الإيمان» / باب آخر أهل النار خروجاً. رقم (١٨٧).

(٢) «الجواب المختار» للعثيمين (٤٠).

والآيات على عموم خلقه كثيرة منها.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [غافر: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

وأما أنه خالق كل عامل وعمله فدليله قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا

تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦]. أي أن الله خلقكم وعملكم.

يوضحه قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصُنْعَتُهُ»<sup>(١)</sup>، قال البخاري: «فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة»<sup>(٢)</sup>.

يوضح حذيفة رضي الله عنه هذا الحديث بالمثال فيقول: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ كُلَّ صَانِعٍ وَصُنْعَتُهُ، إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ صَانِعِ الْخَزْمِ وَصُنْعَتُهُ»<sup>(٣)</sup>.

ويدل على أن أقوال العباد وأفعالهم مخلوقة لله ما رواه البراء بن عازب رضي الله عنه قال رأيت النبي ﷺ يوم الخندق ينقل معنا التراب وهو يقول:

وَاللَّهُ لَوْ لَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا      وَلَا صُمْنَا وَلَا صَلَّيْنَا  
فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا      وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَا قَيْنَا

(١) «خلق أفعال العباد» (٣٩-٤٠) رقم (١١٧)، و«كتاب التوحيد» لابن منده (١/٢٦٧) رقم (١١٥)، و«السنة» لابن أبي عاصم (١/١٥٨) رقم (٣٥٧)، قال ابن حجر: «حديث صحيح». «فتح الباري» (١٣/٤٩٨).

(٢) «خلق أفعال العباد» (٤٠).

(٣) المرجع السابق (٤٠) رقم (١١٨)، والخزم بفتح الخاء والزاي هو شجر يتخذ من لحائه الحبال والمراد بصانع الخزم هو صانع ما يتخذ من الخزم من حبال ونحوه. انظر: «النهاية» (٢/٣٠).

وَالْمُشْرِكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا<sup>(١)</sup>

ففي قوله: لولا الله ما اهتدينا ولا صمنا ولا صلينا دليل على أن أفعال العباد وأقوالهم وأحوالهم مخلوقة لله تعالى.

ونستخلص مما مر صفة الإيمان بالقدر وكيفيته وهي: اليقين التام بأن الله علم كل شيء قبل وجوده وكيف سيكون بعد وجوده وكتبه في اللوح المحفوظ وأنه لا يخرج عن مشيئته وإرادته شيء فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن خالق كل شيء سبحانه خلق العباد وأفعالهم خيرها وشرها خلق الكافر وكفره والمؤمن وإيمانه ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِّمُكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

### المصائب والمعائب:

احتج المشركون بالقدر على معائبهم وذنوبهم، كما في قوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فلم يقبل الله منهم ذلك الاحتجاج وإنما رده الله عليهم أعظم الرد بقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]. وذلك لأن الاحتجاج بالقدر على المعائب (الذنوب والمعاصي) معارضة للشرع وإبطال له بالقدر.

وعندما احتج آدم عليه السلام بالقدر على المصيبة غلب موسى بالحجة فسكت، قال النبي ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»<sup>(٢)</sup>، وذلك لأن الاحتجاج بالقدر على المصائب رضاً بقضاء الله وقدره ولذلك فالقاعدة في هذا الباب هي: «الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على المعائب».

(١) البخاري مع الفتح (١١/٥١٥-٥١٦)، كتاب «القدر»/ باب: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾. رقم

(٦٦٢٠)، ومسلم (٣/١٤٣٠)، كتاب «الجهاد والسير»/ باب غزوة الأحزاب. رقم (١٨٠٣).

(٢) سبق تخرجه.

صح احتجاج العبد بالأقدار      إن في مصيبة أتت بلا اختيار  
ومن عصى بطوعه فلا يحتج      لكونه كمشرك به يلج

ثمرات الإيمان بالقدر:

للإيمان بالقدر ثمرات كثيرة، منها:

١ - التوكل على الله:

وذلك بأن يعتمد المسلم بقلبه على ربه ﷻ؛ لعلمه أن ما قدره الله وقضاه كائن لا محالة مهما حاول الناس منعه كما في وصية النبي ﷺ لابن عباس حيث قال له: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف»<sup>(١)</sup>.

ولهذا ربط الله بين التوكل والقدر فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا [الطلاق: ٣]، فبدأها بالتوكل وختمها بالقدر ليبين أن صحة التوكل على الله لا تتم إلا بالإيمان بالقدر.

٢ - العفو والمسامحة عمّن قصر في حقه:

سبب العفو والمسامحة أن المسلم يعلم علم اليقين أن الأمر الذي طلبه وأراده لو كان مقدراً له لتيسر له، ولم يمنعه مانع، ولم يقصر فيه مقصر، يوضحه حديث أنس رضي الله عنه فيقول: «خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما بعثني في حاجة لم تتهياً إلا قال: «لو قضي لكان، أو لو قدر لكان»<sup>(٢)</sup>، وفي رواية قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما أمرني بأمر فتوانيت عنه، أو ضيعته فلامني، فإن لامني أحد من أهل بيته إلا قال: «دعوه؛ فلو قدر أو

(١) سبق تخريجه.

(٢) «صحيح ابن حبان» (١٤٥ / ١٦) رقم (٧١٧٩)، و«شعب الإيمان» (٢٢٧ / ١٤) رقم (٧٧١٤).

قال: لو قُضِيَ أن يكون كان»<sup>(١)</sup>.

٣- هون المصائب والصبر عليها:

وقَعَ المصائب على النفس شديد والجزع عندها كثير. فمن شاقَّ لجيبه، وحالِق لشعره، وضاربٍ خدّه، ونادٍ حظه، ولا يخفف شدة وقعها إلا الإيمان بقدر الله عزَّ وجلَّ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

قال عبد الله بن مسعود: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]: هو الذي إذا أصابته مصيبة رضي بها، وعرف أنها من الله»<sup>(٢)</sup>.

وقال علقمة رحمه الله مفسراً هذه الآية: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»<sup>(٣)</sup> وفي ذلك تهوين لوقعها على النفس وتسهيل له.

وإلى ذلك أرشد النبي ﷺ فقال: «وإن أصابك شيءٌ، فلا تقل: لو أنّي فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل»<sup>(٤)</sup>.

٤- الحماية من العجب مع الاعتراف بالمنعم وإضافة النعم إليه:

يعتقد المؤمن أن ما أصابه من النعم إنما هو محض فضل الله ومنته وتقديره، قال النبي ﷺ مبيناً فضل الله ومنته عليه: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «لا، ولا أنا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ»<sup>(٥)</sup>.

(١) أحمد (٢٣١ / ٣)، «السنة» لابن أبي عاصم (١٥٧ / ١)، وصححه ابن تيمية في «درء التعارض»

(٨ / ٤٢٠)، وقال الألباني: «صحيح على شرط مسلم». «ظلال الجنة» (١٥٧ / ١).

(٢) البخاري مع الفتح (٨ / ٦٥٢)، كتاب «التفسير» / سورة التغابن.

(٣) «جامع البيان» (٢ / ١١٥).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) البخاري مع الفتح (١٠ / ١٢٧)، كتاب «المرضى» / باب تمنى المريض الموت. رقم (٥٦٧٣)، ومسلم =

كما أن أهل الجنة أرجعوه إلى فضل الله وتقديره، كما ذكر الله ذلك عنهم ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وبه اعترف صحابة رسول الله ﷺ فكانوا يرددون:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا ضلنا ولا صلينا

وهذا الاعتراف يجعله يرى أنه ليس له فضل، فلا يعجب بعمله.

#### ٥ - السرور وهناءة العيش:

من آمن بالقدر أحس بالطمأنينة والراحة في جميع أحواله إن كان في سراء شكر وإن كان في ضراء صبر، قال ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»<sup>(١)</sup>.

قال إبراهيم بن إسحاق مبيناً أن هناءة الإنسان وسروره بالإيمان بالقدر: «أجمع عقلاء كل ملة أنه من لم يجر مع القدر لم يتهنأ بعيشه»<sup>(٢)</sup>.

وقال الشوكاني: «ومن فوائد رسوخ الإيمان بهذه الخصلة - الإيمان بالقدر - أنه يعلم أنه ما وصل إليه من الخير على أي صفة كان وببد من اتفق فهو منه عز وجل، فيحصل له بذلك من الحبور والسرور ما لا يقادر قدره، لما له سبحانه من العظمة التي تضيق أذهان العباد عن تصورها، وتقصر عقولهم عن إدراك أدنى منازلها... وما أحسن ما قاله إبراهيم الحربي رحمه الله: «من لم يؤمن بالقدر لم يتهنأ بعيشه». وهذا صحيح فما تعاظمت القلوب بالمصائب، وضافت بها الأنفس وخرجت بها الصدور إلا من ضعف الإيمان بالقدر»<sup>(٣)</sup>.

(٤/ ٢١٧١)، كتاب «صفات المنافقين وأحكامهم» / باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، بل برحمة الله

تعالى. رقم (٢٨١٦).

(١) مسلم (٤/ ٢٢٩٥)، كتاب «الزهد والرقائق» / باب المؤمن أمره كله خير. رقم (٢٩٩٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٣٦٧).

(٣) «قطر الولي» (٣٩٦).

## ٦- الاجتهاد في الطاعة:

وجه النبي ﷺ المؤمنين بالقدر إلى العمل الصالح وأن الجنة لا تدرك إلا بالعمل فما كان منهم إلا أن اجتهدوا في كل ما يقربهم إلى ربهم قال عمر رضي الله عنه: «يا رسول الله أنعمل في شيء نأتنفه أم في أمر قد فرغ منه؟ قال: «بَلْ فِي أَمْرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ» فقال: ففيم العمل؟ قال: «يا عمر، كلا لا يدرك إلا بعملٍ»، قال: فالآن نجتهد يا رسول الله»<sup>(١)</sup>.

## ٧- فعل الأسباب:

يظن بعض من لا فقه عنده أن الإيمان بالقدر يقود العبد إلى تعطيل الأسباب وما درى أن العكس هو الصحيح. فعندما سأل خزيمة النبي ﷺ أرايت رقى نسترقئها، ودواء نتداوى به، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله»<sup>(٢)</sup>.

ولقد فهم عمر رضي الله عنه هذا فهماً جيداً، فعندما خرج إلى الشام وأراد دخوله فإذا هو قد أصيب بالطاعون فجمع المهاجرين فاختلفوا، ثم أخرجهم، ثم دعا الأنصار فاختلفوا، فرأى عمر الرجوع وعدم الدخول إلى مكان الوباء، فقال له أبو عبيدة رضي الله عنه: «يا أمير المؤمنين! أفراراً من قدر الله» فقال عمر رضي الله عنه: «نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله» ثم مثل له عمر فقال: «أرايت إن كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان أحدهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله»<sup>(٣)</sup>.

(١) «السنة» لابن أبي عاصم (٧٢/١) رقم (١٦٥)، «جامع معمر بن راشد» المطبوع مع «المصنف» لعبد الرزاق (١١١/١١)، و«القدر» لابن وهب (١١٠-١٠٩) رقم (٢٠)، و«القدر» للفريابي (٢٣)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (٧٣/١).

(٢) أحمد (٤٢١/٣)، والترمذي (٤/٣٩٩-٤٠٠)، كتاب «الطب»/ باب ما جاء في الرقى والأدوية. رقم (٢٠٦٥)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (١١٣٧/٢)، كتاب «الطب»/ باب ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء». رقم (٣٤٣٧).

(٣) البخاري مع الفتح (١٦٣/٥)، كتاب «الطب»/ باب ما يذكر في الطاعون. رقم (٥٣٩٧).



## ٨- الخوف من سوء الخاتمة:

لما كانت الخاتمة مغيبة، والذنوب كثيرة، وقدر الله لا يرده راد، خاف الصالحون من هول المطلاع، وخافوا من تغير القلب عند الموت، فتسوء الخاتمة، قال ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلٍ أَهْلُ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلٍ أَهْلُ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا»<sup>(١)</sup>، وكان أكثر دعاء النبي ﷺ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»<sup>(٢)</sup>.

وأكثر حلفه ﷺ: «لَا وَمُقَلِّبَ الْقُلُوبِ»<sup>(٣)</sup>.

## ٩- الشجاعة والإقدام:

من آمن بالقدر إيماناً خالط بشاشة قلبه، صار شجاعاً لا يبالي بالموت، لاعتقاده أنه لا يصيبه إلا ما قدر الله.

قال علي عليه السلام:

أَيُّ يَوْمِي مِنَ الْمَوْتِ أَفْرُ      يَوْمَ لَا قُدْرَ أَوْ يَوْمَ قُدْرُ  
يَوْمَ لَا قُدْرَ لَا أَرْهَبُهُ      وَإِذَا قُدْرَ لَا يَنْجُو الْحَزْرُ<sup>(٤)</sup>

وكان معاوية عليه السلام يتمثل بهذين البيتين:

كَأَنَّ الْجَبَانَ يَرَى أَنَّه      سَيَقْتُلُ قَبْلَ انْقِضَاءِ الْأَجَلِ  
وَقَدْ تُدْرِكُ الْحَادِثَاتُ الْجَبَانَ      وَيَسْلَمُ مِنْهَا الشُّجَاعُ الْبَطْلُ<sup>(٥)</sup>

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البخاري مع الفتح (١٣ / ٣٧٧)، كتاب «التوحيد» / باب مقلب القلوب، وقول الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَدَّتْهُمْ وَأَبْصَرْتَهُمْ﴾.

(٤) ديوان علي عليه السلام (٧٩-٨٠).

(٥) «بهجة المجالس» لابن عبد البر (٢ / ٤٨٠).

(خيرِه وشرِه حلوه ومره):

كيف نعلم خيرِه وشرِه؟

يجيب عن هذا السؤال عبادة بن الصامت رضي الله عنه «لما دخل عليه ابنه وهو مريض يُرى فيه الموت فقال: يا أبه أوصني واجتهد قال: إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تؤمن بالقدر خيرِه وشرِه قلت: وكيف لي أن أعلم خيرِه وشرِه؟ قال: تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك»<sup>(١)</sup>.

وبمثله أجاب سلمان رضي الله عنه إلا أنه زاد فقال: «ولا تقول: لو فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا ولو لم أفعل كذا وكذا لم يكن كذا وكذا»<sup>(٢)</sup>.

قال الإمام أحمد: «الخير والشر مقدران»<sup>(٣)</sup>.

الخير: هو ما يلائم طبيعة الإنسان الذي يولد له اللذة والسرور.

أما الشر: فهو بضد ذلك وهو ما يخالف طبيعة الإنسان مما يولد له الألم والأحزان.

والفرق بين كون القدر خيرًا وشرًا وكونه حلواً ومرًا.

أن «الحلاوة والمرارة تعود إلى مباشرة الأسباب في العاجل، والخير والشر يرجع إلى حسن العاقبة وسوءها فهو حلو ومرٌّ في مبدئه وأوله وخير وشر في منتهاه وعاقبته»<sup>(٤)</sup>.

إضافة الخير والشر:

الخير يضاف إلى الله بكل حال في العموم والافراد كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام

أنه قال: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] فأضاف الشفاء إلى ربه.

(١) «الشرعية» (٢/ ٧٧٦-٧٦٧) رقم (٣٤٦).

(٢) «الشرعية» (٢/ ٨٥٥) رقم (٤٣٣).

(٣) «السنة» للخلال (٣/ ٥٤٥) رقم (٩٠٧).

(٤) «شفاء العليل» (٢/ ٧٣٤).

أما الشر فلا يضاف إلى الله منفردًا لما يلي:

١ - لأن قضاء الله كله خير لأنه صفة من صفاته.

فقضاؤه صفةٌ به قامت وما المقضي إلا صنعة الإنسان<sup>(١)</sup>

٢ - أن النبي ﷺ نفى إسناد الشر إلى الله تعالى في قوله: «والشر ليس إليك»<sup>(٢)</sup>.

٣ - أن الله لا يخلق شرًا محضًا بل يكون شرًا من وجه دون وجه كالمرض فهو شر بالنسبة لإيلامه المريض، وهو خير من جهة كونه يذهب بخطاياهم ويكفرها، ومن جهة كونه سببًا عظيمًا لتذكر المؤمن.

(١) «النونية» مع شرح هراس (٢/ ٧٥).

(٢) مسلم (١/ ٥٣٤-٥٣٥)، كتاب «صلاة المسافرين وقصرها» / باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه. رقم

(٧٧١).



قال سفيان الثوري عند قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ أنواع البر كلها<sup>(١)</sup>.

قال ابن كثير: «وصدق ﷺ، فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله»<sup>(٢)</sup>.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾: إذا قرن الإيمان بالباء صار تصديقاً متضمناً للطمأنينة والثبات والقرار وإذا عدي باللام ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦] فمعناه أنها تضمنت معنى الاستسلام والانقياد<sup>(٣)</sup>.

﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: هو يوم القيامة.

﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾: هم جميع ملائكة الله الذين خلقهم.

﴿وَالْكِتَابِ﴾: المراد به الجنس فيشمل جميع الكتب التي أنزلها الله.

﴿وَالنَّبِيِّنَ﴾: جميع الأنبياء والرسل.

فلما انتهى من البر في الاعتقادات انتقل إلى البر في الأعمال فقال:

﴿وَعَاتَى الْمَالِ﴾: أي أعطى المال وهو كل ما يملك مما هو مباح.

﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾: أي حال كونه محباً له لحاجته إليه أو لتعلق نفسه به وفي قوله «على حبه»

بيان لقوة تأثير الإيمان على النفوس إذ هو السر في إعطائهم المال فأعطائهم لأجل الله فقط فأنفقوه لله مع قوة المانع وهو تعلق نفوسهم به.

﴿ذَوَى الْقُرْبَى﴾: أي قرابة معطي المال وبدأ بذوي القربى؛ لأن حقهم أكد من

غيرهم ولأن العاطفة تتوجه إليهم قبل غيرهم من المسلمين.

(١) المرجع السابق (٢٨٨/١) رقم (١٥٤٤).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١٣٥).

(٣) «تفسير القرآن الكريم» للعثيمين (٢/٢٧٥).

﴿وَالْيَتَامَى﴾: ثنى باليتامى لاستحقاقهم العطف من جميع المسلمين لوفاة والديهم.

﴿وَالْمَسْكِينِ﴾: المسكين هو من ليس عنده مال يكفيه وسمي بذلك؛ لأنه أسكنته الحاجة، وقيل: لأن نفوسهم سكنت للرضى بالقليل عن مدّ كفّ الذلّة.

والمسكين هو الفقير عند الافتراق، أما عند الاجتماع فإن الفقير أكثر احتياجاً من المسكين ولهذا بدأ الله به في قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ...﴾ [التوبة: ٦٠].

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾: هو المسافر المنقطع وأضافه إلى السبيل لملازمته للطريق فصار كأنه أبوه وأمه. فهو في حالة ذل يحتاج معها إلى عطف ومساعدة.

﴿وَالسَّائِلِينَ﴾: هم الذين يطلبون المساعدة نظراً لحاجتهم وفقيرهم.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾: أي في إعتاق الرقاب وفكاكها من رق العبودية.

﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾: أي أداها على أحسن الوجوه وأكملها وأقومها قد كملت شروطها وأركانها وواجباتها وسننها قدر الطاقة والاستطاعة.

﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾: أي أعطى الزكاة المفروضة لمستحقيها.

ثم انتقل إلى البر في الأخلاق والمعاملات مبتدئاً بأصلها<sup>(١)</sup> وهو الوفاء بالعهد فقال:

﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾: «إذا: هنا ظرفية محضة أي: الموفون بعهدهم وقت العهد أي في الحال التي يعاهدون فيها فإذا عاهدوا وفوا»<sup>(٢)</sup>.

والعهد: هو ما يلتزم به المرء لغيره.

﴿وَالصَّابِرِينَ﴾: أي الذين يتحملون ما يصيبهم من لأواء وضراء.

(١) انظر: «صفوة الآثار والمفاهيم» (٣/ ٢٢).

(٢) «تفسير القرآن الكريم» للعثيمين (١/ ٢٧٩).

ونصب الصابرين مدحاً لهم دون غيرهم. نصبت بفعل محذوف تقديره: أخص الصابرين، لأن تغير الأسلوب أدعى للانتباه.

قال الدوسري: «فهو - أي الصابرين - وإن كان معطوفاً على ما قبله في المعنى الحكمي إلا أنه مغاير له في الإعراب، والمخالفة في الإعراب لصفات المدح تفنن لغوي لأن تغير المؤلف يدل على زيادة ترغيب في استماع المذكور»<sup>(١)</sup>.

﴿فِي الْبَأْسَاءِ﴾: شدة الفقر ومع ذلك فلا يحملهم فقرهم على الطمع في أموال الناس بغير حق لأن إيمانهم يمنعهم من ذلك.

﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: ما يضر الإنسان من مرض ونحوه فَلِقُوَّةُ إيمانهم لا يتسخطون قضاء الله وقدره، بل يصبرون على ما يصيبهم طالين الأجر من الله تعالى.

﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾: أي حين شدة الحرب وقوة اضطرامه.

وخص الله هذه الأمور الثلاثة مع أن الصبر مطلوب دائماً لأمرين:

١ - لأن من صبر عليها كان على غيرها أشد صبراً لما في احتمالها من المشقة العظيمة على النفس والاضطراب الشديد في القلب<sup>(٢)</sup>.

٢ - لأنها شملت أنواع الصبر الثلاثة ففي قوله ﴿فِي الْبَأْسَاءِ﴾ صبر عن المعصية ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ صبر على أقدار الله ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ صبر على طاعة الله<sup>(٣)</sup>.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾: قال أبو العالية: تكلموا بالإيمان وحققوه بالعمل وهذا غاية الثناء والمدح قال ﷺ: «عليكم بالصدق؛ فإنَّ الصَّدَقَ يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى

(١) «صفوة الآثار والمفاهيم» (٣/ ٢٥).

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر: «نور الاقتباس» (٥٩).

الجنة»<sup>(١)</sup>. وفيه إشعارٌ أنَّ مَنْ لم يفعل مثل فعلهم ليس صادقاً في دعواه الإيمان.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾: أي القائمون بالتقوى، والتقوى هي اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه. وذكرهم الله بالجملة الاسمية ليدل على أنها صفة ملازمة لهم؛ لأن الجملة الاسمية تدل على الثبوت والاستمرار.

فائدة تكرير الإشارة: لزيادة التنويه بشأنهم وتوسيط الضمير للإشارة على انحصار التقوى فيهم.

قال الواحدي: «هذه الواوات في الأوصاف في هذه الآية للجمع فمن شرائط البر وتمام شرط البار أن تجتمع فيه هذه الأوصاف»<sup>(٢)</sup>.

فاستحقوا كرمًا من الله وجودًا وإحسانًا الجزاء الأوفى في الآخرة فصاروا إلى ما هو خير من هذه الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

(١) البخاري مع الفتح (٥٠٧ / ١٠)، كتاب «الأدب» / باب قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾. رقم (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٠١٢ / ٤)، كتاب «البر والصلة» / باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله. رقم (٢٦٠٧).

(٢) «محاسن التأويل» (٣ / ٣٩٤).



**ودليل القدر: قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].**

سبب نزول قوله: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ ﴿٤٨﴾ **﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾** [القمر: ٤٨-٤٩] <sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّا﴾: للتعظيم وسر التعظيم هنا أَنَّ الله قدر المقادير ثم خلقها كما قدرها مكاناً وزماناً وكيفية لم تتخلف ولم تتغير وفي هذا دليل على كمال علمه وعظيم قدرته ولهذا قال بعد هذه الآية: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] <sup>(٢)</sup>.

﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾: لفظ «شيء» أعمّ العمومات فتفيد عموم خلقه سبحانه للعوالم السفلية والعلوية لا مشارك له في ذلك كله.

﴿خَلَقْنَاهُ﴾: أي أوجدناه من العدم.

﴿بِقَدَرٍ﴾: أي بمقدار قدرناه وقضيناه <sup>(٣)</sup>.

قال البغوي: «أي: ما خلقناه فمقدر ومكتوب في اللوح المحفوظ» <sup>(٤)</sup>.

قال ابن كثير: «يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقها، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابتها لها قبل برئها» <sup>(٥)</sup>.

(١) مسلم (٢٠٤٦/٤)، كتاب «القدر» / باب كل شيء بقدر. رقم (٢٦٥٦).

(٢) «أضواء البيان» (٢١٣/٨).

(٣) «جامع البيان» (١١٠/٢٧).

(٤) «معالم التنزيل» (٢٦٥/٤).

(٥) «تفسير القرآن العظيم» (١٣٢١).

قال عبدالله بن عباس رضي الله عنه: «كل شيء بقدر حتى وضعك يدك على خدك»<sup>(١)</sup>.  
وهذه الآية من أبلغ أدلة القدر حيث اشتملت على جميع مراتبه الأربع فلا يمكن كتابته وتقديره: إلا بعد العلم به ولا يتصور أن يخلقه إلا بعد أن يشاءه.

---

(١) «خلق أفعال العباد» (٤١) رقم (١٢٤)، و«القدر» للفريابي (٧٣) رقم (٢٠٦)، و«الشرعة» (٨٦٨ / ٢) رقم (٤٤٥)، و«الإبانة» - قسم القدر (١٦٥ / ٢) رقم (١٦٣٩).

**المرتبة الثالثة: الإحسان - ركن واحد - وهو: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.**

.....

الإحسان لغة: مأخوذ من الحسن قال ابن فارس: «الحاء والسين والنون أصل واحد فالْحُسْنُ ضدُّ الْقُبْحِ وليس في الباب إلا هذا»<sup>(١)</sup>.

والإحسان ضد الإساءة<sup>(٢)</sup>.

ويأتي بمعنى الإتقان: إذا عدى بنفسه كقولك أحسنت كذا وفي كذا إذا حسنته وكملته<sup>(٣)</sup>.

وفي الاصطلاح: إتقان العمل والإتيان به على أكمل وجه وأحسنه.

منزلة الإحسان:

مرتبة الإحسان هي أعلى مراتب الدين فمن بلغها فقد حوى مراتب الدين كلها، ومن هنا صار كل محسن مؤمناً مسلماً ولا عكس فهو أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أصحابه<sup>(٤)</sup>. وذلك لأن مراتب الدين ثلاث هي:

الإسلام: وهذا لكل من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ثم الإيمان وهو أعلى من الإسلام ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

ثم الإحسان وهو أعلى مما كان قبله لقوله ﷺ: «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٥٨).

(٢) «تهذيب اللغة» (٤/ ١٨٣-١٨٤).

(٣) انظر: «المفهم» (١/ ١٤٣).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٠ و ٣٥٧).

حيث كنت»<sup>(١)</sup>.

وهذه المراتب الثلاث إذا اجتمعت صار الإسلام يقصد به الأعمال الظاهرة، أما الإيمان فيقصد به الأعمال الباطنة، أما الإحسان فهو تحسين الأعمال الباطنة والظاهرة. فيكون بذلك مستصحباً جميع الأعمال في جميع الأوقات. قال شيخ الإسلام: «وقد مدح الله الإحسان، ورغب في استصحابه لجميع الأعمال القلبية والبدنية والمالية في غير موضع من كتابه»<sup>(٢)</sup>.

ولما كانت منزلة الإحسان بهذا العلو والرفعة من الدين صارت هي «لب الإيمان وروحه وكماله، وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل فجميعها منطوية فيها»<sup>(٣)</sup>.

ولعلو مرتبته وشموله للدين قرّر الشنقيطي أننا خلقنا لأجله ثم استدل بعدة آيات منها قول الحق تبارك وتعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]. ولم يقل أكثر عملاً. وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ ثم بين الحكمة في خلق الأرض وزينتها فقال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، ولم يقل: أكثر عملاً<sup>(٤)</sup>.

### درجات الإحسان:

للإحسان من حيث البداءة والاستمرار درجتان هي:

١ - الإحسان في القصد: بأن يكون قصده ونيته خالصة لله سبحانه متبعاً فيها رسوله

(١) الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٣٦ / ٨) رقم (٨٧٩٦)، و«حلية الأولياء» (١٢٤ / ٦)، قال شيخ الإسلام: «حديث حسن». «العقيدة الواسطية» (١٥).

(٢) «شرح حديث جبريل» (٥٨٣).

(٣) «مدارج السالكين» (٤٥٩ / ٢).

(٤) «العذب النمير» (٦٦ / ٣).

ﷺ عازماً على المضي في ذلك، وذلك لأنَّ أوَّل المراقبة هو علم القلب بقرب الله تعالى منه قال الحسن: «رحم الله عبداً وقف عندهم، فإنَّ أحداً لا يعمل حتى يهَمَّ، فإنَّ كان الله عزَّ وجلَّ مضى، وإنَّ كان لغير الله أمسك»<sup>(١)</sup>.

٢- الإحسان في الأحوال: وذلك أنَّ العبد قد تستقيم حاله على حالة حسنة من طاعة الله ومراقبته واستشعار رؤيته فعلية أن يحافظ على تلك الحال لئلا تتحول من الأعلى إلى الأدنى. ومما يعينه على ذلك الإكثار من ذكر الله وإخفاء ذلك عن الناس وعدم تحديثهم بها؛ لأنَّ إظهار ذلك من حظوظ النفس.

### أنواع الإحسان:

ينقسم الإحسان إلى قسمين:

أحدهما: الإحسان مع الله:

أي الإحسان في عبادته وطاعته والتقرب إليه «كأنه يراه إجلالاً ومهابة وحياءً ومحبة وخشية»<sup>(٢)</sup>.

وهذا النوع من الإحسان «يجمع كمال الإخلاص لله، ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله تعالى»<sup>(٣)</sup>.

وأبلغ من عرفه رسول الله ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك»<sup>(٤)</sup>.

الإحسان مع الله هو أعظم أنواع الإحسان ولذلك ذكره الله قبل أن يذكر النوع

(١) «الجامع لشعب الإيمان» (١٢/٥٣٩-٥٤٠) رقم (٦٨٩٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/١٥).

(٣) «شرح حديث جبريل» (٥٧٨).

(٤) سبق تخرجه.

الآخر فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾  
[النساء: ١٢٥].

فذكر إحسان الدين أولاً وهو الإحسان المسئول عنه في حديث جبريل، ثم ذكر  
الإحسان ثانياً<sup>(١)</sup> أي الإحسان مع الخلق.

مقامات الإحسان مع الله ومراتبه:

حدد النبي ﷺ مقامات الإحسان ومراتبه بمقامين عظيمين أعلاهما مقام المشاهدة:  
وهذا المقام عبّر عنه بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه».

وهي أن يغلب على العبد مشاهدة الحق تبارك وتعالى بقلبه حتى كأنه يراه بعينه.  
وشرح هذا المقام ابن رجب فقال: «أن يتنور القلب بالإيمان وتنفذ البصيرة في  
العرفان حتى يصير الغيب كالعيان»<sup>(٢)</sup>.

ونظمه حافظ حكمي فقال:

وَتَالِثٌ مَّرْتَبَةٌ الْإِحْسَانِ      وَتِلْكَ أَعْلَاهَا لَدَى الرَّحْمَنِ  
وَهِيَ رُسُوخُ الْقَلْبِ فِي الْعِرْفَانِ      حَتَّى يَكُونَ الْغَيْبُ كَالْعَيَانِ<sup>(٣)</sup>

ومن أدلة هذا المقام قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]. حيث  
فسر طائفة من العلماء المثل الأعلى بمقام المشاهدة. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَوْفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]. والمراد مثل نور الله في قلب المؤمن كذا قاله أبي بن  
كعب وغيره من السلف<sup>(٤)</sup>.

(١) «شرح حديث جبريل» (٥٧٩).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٠٨).

(٣) «سلم الوصول المطبوع مع معارج القبول» (٢/ ٣٩٩).

(٤) «استنشاق نسيم الأنس» (٩٦)، وانظر: «فتح الباري» لابن رجب (١/ ١٩٤).

وكان ﷺ يوصي أصحابه بالإحسان، ويبدأ بمقام المشاهدة، وربما اقتصر عليه؛ لأنه أعلى المقامات ومن ذلك وصيته لأبي ذر رضي الله عنه التي ذكرها أبو ذر، فقال: أوصاني خليلي ﷺ «أن أخشى الله كأني أراه، فإن لم أكن أراه فإنه يراني»<sup>(١)</sup>.

وكذلك وصيته لزيد بن أرقم عندما قال له: «اعبد الله كأنك تراه، فإنك إن لم تكن تراه فإنه يراك»<sup>(٢)</sup>.

ووصيته أيضًا لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما حيث اقتصر على مقام المشاهدة كما يرويها ابن عمر فيقول: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال: «اعبد الله كأنك تراه»<sup>(٣)</sup>.

ولما طلب منه معاذ أن يوصيه قال رضي الله عنه: «اعبد الله كأنك تراه واعد نفسك مع الموتى»<sup>(٤)</sup>.

ومما يدل على أن مقام المشاهدة هو أعلى مقامات الإحسان أن النبي ﷺ بدأ به، ثم بين أن من لم يستطع وصول هذا المقام أن ينتقل إلى المقام الذي دونه فرغب بالأعلى ثم أذن بالانتقال إلى ما هو دونه وما فيها دني فقال: «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك».

ويصور ابن القيم مقام المشاهدة أبداع تصوير فيقول: «كأنه يرى ربه سبحانه فوق سماواته على عرشه، مطلعًا على عبادته ناظرًا إليهم، يسمع كلامهم. ويرى ظواهرهم وبواطنهم. وكأنه يسمعه وهو يتكلم بالوحي. ويكلم به عبده جبريل، ويأمره وينهاه بما

(١) «الأربعين» لأبي نعيم (٣٩) رقم (١٢)، و«جامع العلوم والحكم» (١٢٩/١).

(٢) «حلية الأولياء» (٨/٢٠٢-٢٠٣).

(٣) أحمد (٩/١٥-١٦) رقم (٦١٥٦)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/٣٨٩) رقم (١١٨٠٣).

(٤) «الزهد» لهناد (٢/٥٣١) رقم (١٠٩٢)، و«الصمت» لابن أبي الدنيا (٥٦) رقم (٢٢)، قال المنذري:

«إسناده جيد». «الترغيب والترهيب» (٣/٥٢٢).

يريد، ويدبر أمر المملكة. وأملاكه صاعدة إليه بالأمر، نازلة من عنده به.

وكانه يشاهده، وهو يرضى ويغضب، ويحب ويبغض، ويعطي ويمنع، ويضحك ويفرح، ويشني على أوليائه بين ملائكته، ويذم أعداءه.

وكانه يشاهده ويشاهد يديه الكريمتين، وقد قبضت إحداهما السموات السبع، والأخرى الأرضين السبع. وقد طوى السموات السبع بيمينه، كما يطوى السُّجْلُ على أسطر الكتاب.

وكانه يشاهده، وقد جاء لفصل القضاء بين عبادِه. فأشرقت الأرض بنوره. ونادى - وهو مستوٍ على عرشه - بصوت يسمعه من بُعد كما يسمعه من قرب «وعزّي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم»<sup>(١)</sup>.

وكانه يسمع ندائه لآدم «يآدم، قم. فابعث بعث النار»<sup>(٢)</sup> بأذنه الآن، وكذلك نداؤه أهل الموقف: «مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ» [القصص: ٦٥]. و«مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ» [الشعراء: ٩٢].

وبالجملة فيشاهد بقلبه ربًّا عرف به الرسل كما عرفت به الكتب، ودينًا دعت إليه الرسل وحقائق أخبرت بها الرسل، فقام شاهد ذلك بقلبه... فهذا إيمانه يجري مجرى العيان»<sup>(٣)</sup>.

ولتأثير تلك التربية على الصحابة عليهم السلام عاشوا مقام المشاهدة عمليًا في واقع حياتهم، وصار هو هجيراهم في مواعظهم، ومن ذلك:

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٢/ ٩٥) رقم (١٤٢١).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٤٤١)، كتاب «التفسير» / باب: «وَرَى النَّاسَ سُكَرَى». رقم (٤٧٤١)، ومسلم (١/ ٢٠١-٢٠٢)، كتاب «الإيمان» / باب قوله: «يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين». رقم (٢٢٢).

(٣) «مدارج السالكين» (٣/ ١٥٣-١٥٤).



ما قالته أم أبان بنت عتبة بن ربيعة عندما خطبها عمر بن الخطاب رضي الله عنه جواباً لمن سألها لماذا امتنعت من الزواج به؟ قالت: «قد أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه كأنه ينظر إلى ربه بعينه»<sup>(١)</sup>.

وأما عبدالله بن عمر رضي الله فيمتنع من تكليم عروة بن الزبير لسبب واحد، يحدثنا عنه عروة بن الزبير فيقول: خطبت إلى عبدالله بن عمر ابنته، ونحن في الطواف، فسكت ولم يجبني بكلمة، فقلت: لو رضي لأجابني، والله لا أراجعها فيها بكلمة أبداً، فقدّر الله له: أن صدر إلى المدينة قبلي، ثم قدمت فدخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيت ابن عمر «فرحّب بي وقال متى قدمت؟ فقلت: هذا حين قدومي. فقال: أكنت ذكرت لي سودة بنت عبدالله ونحن نتخايل الله بين أعيننا؟ وكنت قادراً على أن تلقاني في غير ذلك الموطن فقلت: أمراً قدّر. قال: فما رأيك اليوم؟ قلت: أحرص ما كنت عليه قط، فدعا ابنه: سالماً وعبيد الله فزوجني»<sup>(٢)</sup>.

والشاهد هو قوله معاتباً لعروة بن الزبير: «أكنت ذكرت لي سودة بنت عبدالله ونحن نتخايل الله بين أعيننا».

ومن مواعظهم: قال أبو الدرداء رضي الله عنه حاثاً عموم المسلمين على استحضرار مقام المشاهدة: «اعبدوا الله كأنكم ترونه وعدوا أنفسكم في الموتى»<sup>(٣)</sup>. ولما وصى ذلك الغازي في سبيل الله، وصّاه به فقال له: «اتق الله كأنك تراه حتى تلقاه»<sup>(٤)</sup>.

(١) «تاريخ دمشق» (٩٧/٢٥).

(٢) «حلية الأولياء» (٣٠٩/١) و«أخبار مكة» للفاكهي (٣٥٠/١) رقم (٣٢٠).

(٣) «الزهد» لوكيع (٢٣٤-٢٣٥) رقم (١٣)، و«الزهد» لأحمد (١٦٨)، و«المصنف» لابن أبي شعبة (٣٠٥/١٣) رقم (١٦٤٢٨).

(٤) «الزهد» لأحمد (١٧٦).

وقال زيد بن أرقم لأحدهم: «اعبد الله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه؛ فإنه يراك»<sup>(١)</sup>.

### الثاني: مقام المراقبة:

بينه النبي ﷺ بقوله: «فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك».

وهو أن يستحضر العبد في قلبه مشاهدة الله إياه وإطلاعه عليه وقربه منه في جميع أحواله. قال شيخ الإسلام: «ومراقبة الله هي السر المطلوب في جميع أحوال العبد»<sup>(٢)</sup>.  
وعرف ابن القيم المراقبة فقال: «هي دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق ﷻ على ظاهره وباطنه»<sup>(٣)</sup>.

وعرفها بعضهم فقال: «مراعاة القلب لملاحظة الحق مع كل خطرة وخطوة»<sup>(٤)</sup>.  
وهي مرتبطة باسم الله العليم والرقيب والحفيظ والسميع والبصير. فمن استشعر أن الله رقيبٌ عليه ناظر إليه سامع لقوله عالم بسرهِ وعلايته مطلع على عمله كل وقت بل كل لحظة وطرفة عين، أثمر له ذلك مراقبته لربه.

قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

قال عبدالله بن فاتك لما سئل عن المراقبة: «إن كنت فاعلاً فانظر نظر الله إليك، وإن كنت قائلاً فانظر سمع الله لك، وإن كنت ساكتاً فانظر علم الله فيك، قال الله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَصَمُّ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]»<sup>(٥)</sup>. ومثله عن حاتم الأصم<sup>(٦)</sup>.

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (٥٥ / ١٤) رقم (١٧٥٤٦).

(٢) «شرح حديث جبريل» (٥٨١).

(٣) «مدارج السالكين» (٦٥ / ٢).

(٤) المرجع السابق (٦٦ / ٢).

(٥) «حلية الأولياء» (٣٥٨ / ١٠).

(٦) «سير أعلام النبلاء» (٤٨٥ / ١١).

وما أجمل موعظة أبي حفص رحمه الله لأبي عثمان النيسابوري كي لا ينخدع باجتماع الناس عليه أثناء موعظته إياهم إذ قال له: «إذا جلست للناس فكن واعظاً لقلبك ونفسك ولا يغرنك اجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله يراقب باطنك»<sup>(١)</sup>.

وكان الشافعي وأحمد كثيرًا ما يتمثلان بهذه الأبيات:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل	خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة	ولا أن ما تخفي عليه يغيب
غفلنا لعمر و الله حتى تابعت	علينا ذنوب بعدهن ذنوب
فيا ليت أن الله يغفر ما مضى	وياذن لي في توبة فأتوب <sup>(٢)</sup>

ومن أعظم ما يورث المراقبة ذكر الله تعالى قال ابن القيم: «الذكر يورث المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان فيعبد الله كأنه يراه»<sup>(٣)</sup>.

وعلامة المراقبة الحقة هي: «إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله وتصغير ما صغر الله»<sup>(٤)</sup>.

ويحدثنا عبد الله بن مسلم كيف يعظم أبوه يسار ما عظم الله فيقول قال أبي: «إني أكره أن يراني الله رحمه الله أصلي له قاعدًا من غير مرض»<sup>(٥)</sup>.

ولقد كانت هذه العلامة ظاهرة جلية على سلفنا الصالح في وصاياهم فلقد وصي سلمان رضي الله عنه وهو في مرض موته سعدًا فقال له: «يا سعد! اذكر الله عند همك إذا هممت

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٦٦).

(٢) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٠٨) و«حلية الأولياء» (٩/ ٢٢٠)، و«الجامع لشعب الإيمان» (٩/ ٤١٧).

(٣) «الوابل الصيب» (٩٥).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٦٥).

(٥) «الزهد» لأحمد (٣٠٨).

وعند يديك إذا قسمت وعند حكمك إذا حكمت»<sup>(١)</sup>.

ونظر محمد بن يوسف إلى رجل يبيع المتاع بمكة، فقال له: «انظر ألا يراك الله وأنت تخادع الناس في حرمه فيمقتك»<sup>(٢)</sup>.

أما عمر بن عبدالعزيز رحمه الله فيبرئ ساحته من التهمة معللاً أن السر في ذلك هو مراقبة الله عز وجل، كما قال أبو النضر: «دست إلى عمر بن عبدالعزيز بعض أهله أن قل له إن فيك كبراً وأنت تتكبر. فقل ذلك له. فقال عمر: لبئس ما ظننت أن كنت تراني أتوقى الدينار والدرهم مراقبة لله وأنطلق إلى أعظم الذنوب فأرتكبه؟ الكبرياء إنما هو رداء الرحمن أفانازعه إياه»<sup>(٣)</sup>.

ولم تكن مراقبة الله خاصة بعلماء القوم وعبادهم بل حتى عبيدهم ورعاء شائهم. يحدثنا عن ذلك نافع فيقول: خرج ابن عمر في بعض نواحي المدينة ومعه أصحاب له ووضعوا سفرة لهم، فمر بهم راعي غنم، قال: فسلم. فقال ابن عمر: هلم يا راعي، هلم فأصب من هذه السفرة، فقال له: إني صائم، فقال ابن عمر: أتصوم في مثل هذا اليوم الحار شديد شموسه، وأنت في هذه الجبال ترعى هذه الغنم؟ فقال له: إني والله أبادر أيامي الخالية، فقال له ابن عمر وهو يريد يختبر ورعه، فهل لك أن تبيعنا شاة من غنمك هذه، فنعطيك ثمنها، ونعطيك من لحمها، فقال: إنها ليست لي، إنها غنم سيدي، فقال له ابن عمر، فما عسى سيدك فاعلاً إذا فقدوها، فقلت: أكلها الذئب، فولى الراعي عنه وهو رافع إصبعه إلى السماء وهو يقول: فأين الله، قال: فجعل ابن عمر يردد قول الراعي، وهو يقول: قال الراعي: فأين الله.

(١) المرجع السابق.

(٢) «حلية الأولياء» (٨ / ٢٣٤).

(٣) «سيرة عمر بن عبدالعزيز» لابن الجوزي (١٤٨).

قال: فلما قدم المدينة بعث إلى مولاه، فاشترى منه الغنم والراعي، فأعتق الراعي ووهب له الغنم<sup>(١)</sup>.

بل حتى الصغار كان السلف يربونهم على مراقبة الله مع صغر سنهم لما في ذلك من الأثر الكبير على استقامتهم ومن ذلك ما قصه لنا سهل بن عبدالله التستري قال: كنت وأنا صغير أقوم بالليل فأنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار فقال لي يومًا: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟

فقال: قل في نفسك: الله معي، الله ناظري الله شاهدي، فقلت ذلك.

فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما عَلَّمْتُكَ ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفَعُكَ في الدنيا والآخرة فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة في قلبي ونفسي، ثم قال لي خالي يومًا: يا سهل من كان الله معه وناظرًا إليه وشاهده. أيعصيه؟ إياك أن تعصي الله تعالى<sup>(٢)</sup>.

وإذا انعدمت مراقبة الله انقلبت حال العبد إلى تعظيم المخلوق وترك الذنب والمعصية، لأجل رؤيته له وربما خوفًا منه، بينما تجده عندما يستخفي عن أنظار الناس يستهين بنظر الخالق إليه فلا يبالي ما ارتكب من المعاصي والذنوب.

قال وهيب بن الورد واعظًا أحد إخوانه «اتق أن يكون الله أهون الناظرين إليك»<sup>(٣)</sup>.

ونظم هذه العبارة أحدهم فقال:

كُنْ حَيًّا إِذَا خَلَوْتَ بِذَنْبٍ	ليس يخفى على الرقيب الشهيد
أَتَهَاوَنْتَ بِالْإِلَهِ تَخْفِيًّا	وتواريت عن عيون العبيد

(١) «الجامع لشعب الإيمان» (٩/ ٤٩٠-٤٩١) رقم (٤٩٠٨).

(٢) انظر: «أنباء نجباء الأبناء» لابن ظفر المكي (١٤٤).

(٣) «حلية الأولياء» (٨/ ١٤٢).

أَقْرَأْتُ الْقُرْآنَ أَمْ لَسْتُ تَدْرِي      أَنْ مَوْلَاكَ دُونَ حَبْلِ الْوَرِيدِ<sup>(١)</sup>

ثانيًا: الإحسان مع الخلق:

والإحسان إلى الخلق هو بذل الخير لهم والرفق بهم، وهو عام في المعاملة مع كل خلق الله تعالى، قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ»<sup>(٢)</sup>، قال الراغب: «فالإحسان فوق العدل، وذاك أَنَّ العدل هو أَنْ يعطي ما عليه، ويأخذ ما له، والإحسان أَنْ يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما له»<sup>(٣)</sup>.

ومن ذلك:

#### ١ - الإحسان إلى الوالدين:

أحق الخلق بالإحسان هم الوالدان وهذا هو الذي حدا بالنبي ﷺ أَنْ يقدمه على الهجرة والجهاد معه حين جاءه رجل يريد الهجرة والجهاد فقال له: «فتبتغي الأجر من الله؟». قال: نعم، قال: «فارجع إلى والديك، فأحسن صُحْبَتَهُمَا»<sup>(٤)</sup>.

#### ٢ - الإحسان إلى الزوجات:

أرشد النبي إلى الإحسان إلى الزوجات فقال: «أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ»<sup>(٥)</sup>.

(١) «طهارة القلوب» (٢٩٥).

(٢) مسلم (٣/١٥٤٨)، كتاب «الصيد والذبائح» / باب الأمر بإحسان الذبح والقتل. رقم (١٩٥٥).

(٣) «المفردات» (١٢٦).

(٤) مسلم (٤/١٩٧٥)، كتاب «البر والصلة» / باب بر الوالدين وأنها أحق به. رقم (٢٥٤٩).

(٥) الترمذي (٣/٤٦٧)، كتاب «الرضاع» / باب ما جاء في حق المرأة على زوجها. رقم (١١٦٣)، وقال:

«حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (١/٥٩٤)، كتاب «النكاح» / باب حق المرأة على زوجها. رقم

(١٨٥١).

## ٣- الإحسان إلى البهائم:

لم يقتصر الإحسان في الإسلام على البشر بل شمل البهائم، فأمر النبي ﷺ بالإحسان إليها فقال: «في كل كبد رطبة أجر»<sup>(١)</sup>. بل تعدى الإحسان إليها حتى عند ذبحها قال ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»<sup>(٢)</sup>.

والإحسان مع الله والخلق يجمعه ثلاثة أمور:

(١) طاعة الله في أخذ ما حلّ وترك ما حرّم.

(٢) التورع عن الشبهات ما استطاع.

(٣) نية نفع الخلق في كل يوم فيما يسّر الله من مصالحهم على يديه<sup>(٣)</sup>.

## ثمرات الإحسان:

للإحسان ثمرات جليلة أبرزها ما يلي:

## ١- النظر إلى وجه الله تعالى:

النظر إلى وجه الله أعظم ثمرات الإحسان بل هو أعظم نعيم أهل الجنة قال تعالى

ممتناً عليهم به: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

والزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى في الآخرة كما فسرهما بذلك النبي ﷺ<sup>(٤)</sup> قال ابن

رجب: «وهذا مناسب لجعله جزاء لأهل الإحسان، لأن الإحسان هو أن يعبد المؤمن ربه

(١) البخاري مع الفتح (٥/ ٤٠-٤١)، كتاب «المساقاة»/ باب فضل سقي الماء. رقم (٢٣٦٣)، ومسلم

(٤/ ١٧٦١)، كتاب «السلام»/ باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها. رقم (٢٢٤٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «شرح حديث جبريل» (٦٠٩).

(٤) مسلم (١/ ١٦٣)، كتاب «الإيمان»/ باب إثبات رؤية المؤمنين ربه ﷻ. رقم (١٨١).

في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة، كأنه يراه بقلبه، وينظر إليه في حال عبادته، فكان جزاء ذلك النظر إلى وجه الله عياناً في الآخرة»<sup>(١)</sup>.

## ٢- قرب رحمة الله من المحسنين:

قال تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].  
فمن تقرب إلى الله بالإحسان تقرب الله إليه بالرحمة وأحسن إليه بالمغفرة وأدخله الجنة قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. وذلك أن الجزاء من جنس العمل.

## فدلت هذه الآية ثلاث دلالات:

- أ- دلت بمنطوقها على قرب الرحمة من أهل الإحسان.
- ب- دلت بإيائها وتعليلها على أن هذا القرب مستحق بالإحسان.
- ج- دلت بمفهومها على بعده من غير المحسنين<sup>(٢)</sup>.

قال الشافعي:

صبراً جميلاً ما أقرب الفرجا من راقب الله في الأمور نجا<sup>(٣)</sup>

## ٣- محبة الله للمحسنين:

محبة الله للإنسان مرتبةً عليا. ترنو إليها نفوس أصحاب الهمم العالية وهي ثمرة لإحسان العبد فيما بينه وبين الله، قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]. فأمر الله بالإحسان وبين ثمرته وهي محبته للمحسن، ويا لها من ثمرة اشترأت لها أعناق

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٢٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٧).

(٣) «ديوان الشافعي» (٤٥) و«مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ٣٦٢).



الصحابة رضي الله عنهم عندما قال لهم النبي ﷺ: «لأعطينَ هذه الرّاية غدًا رجلاً يفتح الله على يديه، يحبُّ الله ورسوله، ويحبُّه الله ورسوله». فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها<sup>(١)</sup>. حرصًا على أن ينالوا هذه المرتبة العظيمة؛ وهي محبة الله إياهم فـ «ليس الشأن أن تُحبَّ ولكن الشأن أن تُحبَّ»<sup>(٢)</sup>.

#### ٤ - الإخلاص:

إذا عمل العبد على استِشعار رقابة الله تعالى عليه ورؤية الرب تبارك وتعالى إياه وقربه سبحانه منه ومعرفته بخلجات قلبه أوجب له ذلك الإخلاص في عبادته «لأنَّ استحضاره ذلك في عمله يمنعُه من الالتفاتِ إلى غيرِ الله وإرادته بالعمل»<sup>(٣)</sup>.

#### ٥ (الحياء من الله تعالى:

استشعار العبد معيَّة الله له في أيِّ مكان كان وفي أيِّ لحظة كانت ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]. يوجب له ذلك شدة الحياء منه فلا يعمل إلا ما يرضيه، ولذلك حث النبي على مداومة استحضار معيَّة الله والحياء منه، فقال عندما سُئل عن كشف العورة خاليًا: «اللهُ أحقُّ أن يُستَحْيَا منه»<sup>(٤)</sup>.

#### ٦ - حفظ الله ومعيته:

من أحسن العمل صار الله معه فحفظه ووقاه الشرور، ومن أبرز ما يوضح ذلك قول

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ١٤٤)، كتاب «الجهاد»/ باب في غزوة خيبر. رقم (٤٢١٠)، ومسلم

(٤/ ١٨٧٢)، كتاب «فضائل الصحابة»/ باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه. رقم (٢٤٠٦).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٢٣٢).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٣٢).

(٤) البخاري مع الفتح (١/ ٣٨٥)، كتاب «الغسل»/ باب من اغتسل عريانًا وحده في الخلوة ومن تستر

فالتستر أفضل.

المصطفى ﷺ لأبي بكر وهما في الغار: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»<sup>(١)</sup>. قال تعالى: ﴿ثَانِفَ أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وليس هذا خاصًا بالنبي ﷺ وأبي بكر بل هو عام لكل محسن ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

قال سليم بن أخضر: أردت السفر إلى مكة فأتيت ابن عون لأودعه فقال: يا سليم اتق الله، وعليك بالإحسان، فإن المحسن معان ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾<sup>(٢)</sup> [النحل: ١٢٨].

#### ٧- خشية الله وتعظيمه:

وذلك أن العبد إذا استشعر قرب الرب منه واستشعر أسماؤه وصفاته كأنه يراه ولّد ذلك عنده خشية الله وتعظيمه وإجلاله وهيبته، وهو الذي أرشد إليه النبي ﷺ بقوله: «أن تحشى الله كأنك تراه»<sup>(٣)</sup>.

#### ٨- صلاح العبادة:

وذلك أن «مشهد الإحسان أصل أعمال القلوب كلها فإنه يوجب الحياء والإجلال والتعظيم والخشية والمحبة والإنابة والتوكل والخضوع لله سبحانه والذل له ويقطع الوسوس وحديث النفس ويجمع القلب والهم على الله.

فحظ العبد من القرب من الله على قدر حظه من مقام الإحسان وبحسبه تتفاوت

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٣٢٥)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿ثَانِفَ أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. رقم (٤٦٦٣)، ومسلم (٤/ ١٨٥٤)، كتاب «فضائل الصحابة»/ باب من فضائل أبي بكر الصديق. رقم (٢٣٨١).

(٢) «تاريخ دمشق» (٣١/ ٢٦٢).

(٣) سبق تخرجه.

الصَّلَاة حَتَّى يَكُونَ بَيْنَ صَلَاةِ الرَّجُلَيْنِ مِنَ الْفَضْلِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَقِيَامَهُمَا وَرُكُوعَهُمَا وَسُجُودَهُمَا وَاحِدًا<sup>(١)</sup>.

قال حسين بن غنّام: «وَحَقِيقَةُ الْإِحْسَانِ: أَنْ يَعْبُدَ الْمُؤْمِنُ رَبَّهُ فِي الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِ الْحُضُورِ وَالْمُرَاقَبَةِ كَأَنَّهُ يَرَاهُ بِقَلْبِهِ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ فِي حَالِ عِبَادَتِهِ، فَإِذَا عَبْدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ أَوْجِبَتْ لَهُ النَّصْحُ فِي الْعِبَادَةِ، وَبَذَلَ الْجُهْدُ فِي تَحْسِينِهَا وَإِتْمَامِهَا وَإِكْمَالِهَا»<sup>(٢)</sup>.

#### ٩ - اجتناب الذنوب والإقلاع عنها:

أَعْظَمُ مَا يَمْرُضُ الْقَلْبَ وَقَدْ يَقْتُلُهُ ارْتِكَابُ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي سِوَاءَ كَانَتْ قَلْبِيَّةً أَوْ بَدَنِيَّةً. وَالْعَبْدُ مَعْرُضٌ لَهَا بِحُكْمِ طَبِيعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ وَتَزْيِينِ الشَّيْطَانِ لَهَا عِنْدَهُ.

فِيحَاوُلُ فَعْلَهَا مُسْتَخْفِيًّا عَنِ الْخَلْقِ وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِسْتِخْفَاءَ عَنِ نَظَرِ اللَّهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ سَبَبَ عَدَمِ قُدْرَتِهِمْ عَلَى الْإِسْتِخْفَاءِ مِنَ اللَّهِ هُوَ مَعِيَّتُهُ لَهُمْ وَرِقَابَتُهُ عَلَيْهِمْ وَإِحَاطَةُ عِلْمِهِ بِهِمْ فَقَالَ: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]. فَاتَّضَحَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ لَا يَحْمِي الْعَبْدَ مِنْ ارْتِكَابِ الذُّنُوبِ إِلَّا شَعُورُهُ الْوَقَادَ بِرِقَابَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَخَطَرَةٍ وَنَظَرَةٍ.

أَثْقَلَتْ كَاهِلَ أَحَدِهِمُ النَّظَرَاتُ إِلَى النِّسَاءِ وَلَمْ يَسْتَطِعْ التَّخْلُصُ مِنْهَا فَشَكَا حَالَهُ عَلَى أَحَدِ الصَّالِحِينَ قَائِلًا: بِمِ اسْتَعِينَ عَلَى غَضِّ الْبَصَرِ؛ فَأَجَابَهُ بِقَوْلِهِ: «بِعِلْمِكَ أَنَّ نَظَرَ اللَّهِ إِلَيْكَ أَسْبَقَ مِنْ نَظْرِكَ إِلَى مَا تَنْظُرُ إِلَيْهِ»<sup>(٣)</sup>.

وَلَمَّا قَدَّمَ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ سَرِيجٍ قَاضِيًا عَلَى بِلَادِ فَارَسَ سَأَلَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ النُّجْرَانِيُّ قَالَ:

(١) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (٣٨-٣٩).

(٢) «العقد الثمين» (٥٤).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/٤٧٩).

«متى يهش الراعي غنمه بعصا الرعاية عن مراتع الهلكة؟ فكان جوابه: إذا علم أن عليه رقيباً»<sup>(١)</sup>.

ومن الخطورة بمكان أن يُزَيَّنَ العبدُ ظاهره بالصالحات وقد شان باطنه بالخطيئات.

قال بلال بن سعد: «لا تكن وليَّ الله في العلانية وعدوّه في السر»<sup>(٢)</sup>.

ويُهَوِّنُ الشيطانُ الخطرات والوساوس بحجة أنه قد عفي عن أمة محمد ﷺ ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم، فإذا ركن إليها نقله إلى الهم والعزم ثم العمل وهناك تقع الكارثة، ولذلك كان السلف يعالجون الأمر في مبدئه، قال أحدهم: «من راقب الله في خواطره عصمه في حركات جوارحه»<sup>(٣)</sup>.

ويقول أبو حفص النيسابوري: «حرس قلبى عشرين سنة ثم حرسني عشرين سنة»<sup>(٤)</sup>.

(١) «الجامع لشعب الإيمان» (٣/ ١٤٢) رقم (٨٥٤).

(٢) «الزهد» لأحمد (٣١٢)، و«حلية الأولياء» (٥/ ٢٢٨)، و«الجامع لشعب الإيمان» (١٢/ ٢٧٤) رقم (٦٥٤٨).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٦٥).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٥١١).

**والدليل قوله تعالى:** ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد. توكيد معية الله للمحسنين الذين علت رتبته حتى وصلوا مرتبة الإحسان.

﴿اللَّهُ﴾: ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين.

﴿مَعَ﴾: إثبات صفة المعية لله سبحانه معية تليق بجلاله وعظمته وهي قسمان:

١ - معية عامة: تشمل جميع المخلوقات بالعلم والإحاطة والاطلاع، وضابطها: «أن ترد مطلقة غير مقيدة».

قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

٢ - معية خاصة: خاصة بالمؤمنين بالحفظ والنصر والتأييد والتوفيق، وضابطها: «أن ترد مقيدة بوصف أو شخص».

ومثال المقيدة بشخص كقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

مثال المقيدة بوصف كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وتجتمع هاتان المعيتان في المؤمن وتفرقان في الكافر فهو سبحانه عالم بكل خلقه مؤمنهم وكافرهم مطلع عليهم محيط بهم كلهم لا تخفى عليه منهم خافية، ولكن نصره وتأييده وحفظه خاص بالمؤمنين دون الكافرين.

مَعِيَّةُ اللَّهِ عَمَّتْ كُلَّ مَوْجُودٍ      إِنَّ أُطْلِقْتَ يَا عُظَمَ مَعْبُودِي  
أَوْ قِيَّدَتْ بِشَخْصٍ عَبْدٍ صَالِحٍ      أَوْ وَصَفِهِ تَخَصَّصَتْ بِمُؤْمِنٍ مُنَافِحٍ

﴿اتَّقُوا﴾: التقوى إذا جاءت لوحدها فهي فعل المأمور واجتناب المحذور، وحقيقتها أن يجعل الإنسان بينه وبين المخوف واقياً يقيه.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ﴾: ضمير الفصل يفيد الاختصاص أي: اختصاص المحسنين بكون الله معهم. وهم: مبتدأ. ومحسنون: خبرها.

﴿مُحْسِنُونَ﴾: الإحسان هو غاية ما يستطيعه العبد في تحسين العمل فهو درجة فوق التقوى (هذا إذا ورد لوحده).

أما إذا وردت التقوى مع الإحسان في موضع واحد صارت التقوى لاجتناب المحذور والإحسان لفعل المأمور. قال الحسن: «اتقوا الله فيما حَرَّمَ عَلَيْهِمْ. وأحسنوا فيما افترض عَلَيْهِمْ»<sup>(١)</sup>. أي أنهم اتقوا المحارم فاجتنبوها لأجل الله، وأحسنوا فيما افترض الله عليهم فلزموا طاعته.

ومما يدل على هذا جواب النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة حيث قال: «تقوى الله وحسن الخلق»<sup>(٢)</sup>.

قال شيخ الإسلام: «يدخل في تقوى الله حِفْظُ الْفَرْجِ وَغَضُّ الْبَصَرِ، ويدخل في حسن الخلق الإحسان إلى الخلق»<sup>(٣)</sup>.

(١) «تفسير عبد الرزاق» (٣١٣/١) رقم (١٥٢٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢٣٠٧/٧) رقم (١٢٦٩١).

(٢) الترمذي (٣٦٣/٤)، كتاب «البر والصلة»/ باب ما جاء في حسن الخلق. رقم (٢٠٠٤)، وقال:

«حديث صحيح غريب»، وابن ماجه (٥٩٦/٢)، كتاب «الزهد»/ باب ذكر الذنوب. رقم (١٨٥٧)،

و«الأدب المفرد» (١٠٦) رقم (٢٩٤).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣٨٨/١٥).

**وقوله:** ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٢١٧) الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [الشعراء: ٢١٧- ٢٢٠].

بعد أن أمر الله نبيه بدعوة قومه إلى التوحيد بقوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] أرشده إلى ما يعينه على ذلك وهو الاعتماد عليه وحده؛ لأنه العزيز الذي يغلب ولا يغلب فلا تغلب قوته قوة ومع عزته فهو رحيم بك فلم يكلفك ما لا تطيق وهو رحيم بعباده يوفقهم للاستقامة على أمره وشرعه فقال:

﴿وَتَوَكَّلْ﴾: أي اعتمد على ربك وفوض أمرك إليه.

﴿عَلَى الْعَزِيزِ﴾: العز في اللغة القوة والشدة والغلبة والامتناع رجل عزيز أي منيع لا يغلب ولا يقهر<sup>(١)</sup>.

قال ابن كثير: «العزيز الذي قد عز كل شيء فقهره وغلب الأشياء فلا ينال جنبه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه<sup>(٢)</sup>».

ونظمها ابن القيم فقال:

أَنَّى يُرَامَ جَنَابُ ذِي السُّلْطَانِ	وهو العزيزُ فلنْ يُرَامَ جَنَابُهُ
يَغْلِبُهُ شَيْءٌ هَذِهِ صِفَتَانِ	وهو العزيزُ القاهرُ الغَلَابُ لَمْ
فَالْعَزُّ حِينَئِذٍ ثَلَاثُ مَعَانٍ <sup>(٣)</sup>	وهو العزيزُ بِقُوَّةٍ هِيَ وَصْفُهُ

(١) انظر: «اللسان» (٤/ ٢٩٢٥).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١٣٦٩).

(٣) «الكافية الشافية» (٢/ ٢١٨).

فصارت معاني العزيز ثلاثة هي:

١- المنيع الذي لا يرام جنبه (عزة الامتناع)

٢- القاهر الذي لا يغلب (عزة الغلبة)

٣- القوي الشديد (عزة القوة)

﴿الرَّحِيمِ﴾: مشتق من الرحمة<sup>(١)</sup> وهو ذو الرحمة الواصلة، فالرحيم دال على تعلقها بالمرحوم.

وفائدة جمعه سبحانه بين العزيز والرحيم لبيان أنه يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته.

﴿الَّذِي يَرْنُكَ﴾: في قوله يراك إثبات رؤية الله لعباده تعالى كما يليق بجلاله وعظمته فيرى كل شيء لا تخفى عليه خافية، بصره نافذ في جميع خلقه. وهذا هو مقام المراقبة.

﴿حِينَ تَقُومُ﴾: الحين هو الوقت من الزمان<sup>(٢)</sup> أي وقت قيامك من نومك للتهجد لوحدك في ظلمة الليل لا يعلم بك أحد ولا يراك أحد فإن الله يراك ويرى عبادتك وطاعتك، وذكر القيام لشرفه بما يتلى فيه، وهو القرآن؛ لأنه كلام الله.

﴿وَتَقَلُّبُكَ﴾: عطف على مفعول يراك أي ويرى تقلبك في حال الصلاة ما بين قيام وركوع وسجود وقعود؛ وذلك لأن المصلي لا يثبت على حال واحدة بل يراوح بين تلك الهيئات.

﴿فِي السَّاجِدِينَ﴾: أي في المصلين، وعبر عن المصلين بالساجدين لأن العبد أقرب ما

(١) «المحيط في اللغة» (٣/ ٩٥).

(٢) «تهذيب اللغة» (٥/ ٢٥٥).



يكون من ربه وهو ساجد<sup>(١)</sup> وهي أفضل هيئات المصلي. فيراك حين تقوم للصلاة لوحداك ويراك إذا صليت مع المصلين جماعة.

﴿إِنَّهُ هُوَ﴾: أي وحده سبحانه.

﴿هُوَ﴾: ضمير الفصل يفيد الاختصاص، اختصاصه بالرؤية التامة والسمع والعلم التامّين.

﴿السَّمِيعُ﴾: أي السميع لجميع أقوالكم. قال الطبري: السميع لتلاوتك يا محمد وذكرك في صلاتك ما تتلو وما تذكر، العليم بما تعمل فيها ويعمل فيها مَنْ يتقلب فيها معك مؤتمًّا بك، فرتل فيها القرآن وأقم حدودها فإنك بمرأى من ربك ومسمع<sup>(٢)</sup>.  
والسميع من صيغ المبالغة فهو «السميع لما ينطق به خلقه من قول»<sup>(٣)</sup>.  
قال ابن القيم:

وهو السَّمِيعُ يرى ويسْمَعُ كُلَّ ما	في الكونِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إعلَانِ
ولكُلِّ صوتٍ منه سمعٌ حاضِرٌ	فالسِّرُّ والإِعلَانُ مستويانِ
والسَّمْعُ منه واسعُ الأصوات لا	يخفى عليه بعيدُها والدَّاني <sup>(٤)</sup>

ومناسبة ذكره ﷻ السمع مع الرؤية أن استشعار العبد سماع الله لقوله يوجب له مراقبة الله تعالى في جميع أقواله فلا يتكلم بالفحش والخنأ ولا يقول إلا ما يرضي الله واستشعار الرؤية يوجب له مراقبة الله في أعماله فلا يعمل إلا ما يرضي الله.

﴿الْعَلِيمُ﴾: المحيط علمه بكل شيء ظاهر أو خفي، ماض أو حاضر أو مستقبل، واقع

(١) مسلم (١/ ٣٥٠)، كتاب «الصلاة»/ باب ما يقال في الركوع والسجود. رقم (٤٨٢).

(٢) «جامع البيان» (١٩/ ١٢٤).

(٣) «جامع البيان» (٢٥/ ١٣).

(٤) «الكافية الشافية» (٢/ ٢١٥).

أَوْ لَمْ يَقَعْ ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وجمع الله بين اسميه السميع والعليم؛ لأن الصلاة فيها لفظ يُسمع ونية بالقلب تعلم، فأخبر الله أنه سامع للأقوال عالم بالنيات وهذا من أعظم موجبات مراقبة الله تعالى والإحسان في عبادته.

ومن فوائد هذه الآية:

- ١- أَنَّ عِلَّةَ الْأَمْرِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ هُوَ عِزَّتُهُ وَقَهْرُهُ وَجَبْرُوتُهُ، فَهُوَ غَالِبٌ لَا يُغْلَبُ وَمَنْ ثَمَّ يَنْصُرُهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ.
- ٢- أَنَّ الَّذِي يَسْتَشْعِرُ مِرَاقِبَةَ اللَّهِ لَهُ فِي صَلَاتِهِ يَحْسِنُهَا عَمَلًا رُكُوعًا وَسُجُودًا وَقِيَامًا وَيَحْسِنُهَا نِيَّةً فَلَا يَلْتَفِتُ بَقَلْبِهِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى.
- ٣- أَنَّ الَّذِي يَسْتَشْعِرُ رُؤْيَا اللَّهِ وَهُوَ فِي صَلَاتِهِ تَهْوَنُ عَلَيْهِ مَشَقَّتُهَا فَيَجِدُ فِي قَلْبِهِ اللَّذَّةَ الْعَظِيمَةَ حِينَ يُؤَدِّيهَا وَلِهَذَا قَالَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ﷺ: «وَجَعَلْتُ قِرَّةً عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»<sup>(١)</sup>.

(١) أحمد (٣/ ٢٨٥)، والنسائي (٧/ ٦١)، كتاب «عشرة النساء» / باب حب النساء، وقال الذهبي: «إسناده قوي». «ميزان الاعتدال» (٢/ ١٧٧)، وصححه ابن القيم في «إغاثة اللفهان» (٢/ ١٤٠)، وابن حجر في «فتح الباري» (٣/ ١٥).

**وقوله:** ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

.....

﴿وَمَا تَكُونُ﴾: ما نافية تفيد تخلص المضارع للحال «فقصد أولاً استحضر الحال العظيم من شأن النبي ﷺ ومن قراءته القرآن»<sup>(١)</sup>.

والخطاب للنبي ﷺ ولعله شامل له ولجميع أمته.

وفي خطابه سبحانه للنبي ﷺ ذكر ما فيه تفخيم وتعظيم فقال:

﴿فِي شَأْنٍ﴾: في للظرفية فتفيد شدة التلبس بالشيء، والشأن هو الأمر العظيم أو العمل المهم. قال الأزهري الشأن: الخطب<sup>(٢)</sup> ولعل الشأن هنا هو الشأن الذي يهتم النبي كثيراً وهو دعوة الناس إلى التوحيد.

﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾: الواو واو العطف حيث عطف تلاوة القرآن على الشأن وخص تلاوة القرآن لأنه من أعظم شؤونه ﷺ أي وما تقرأ من القرآن الذي أوحاه الله إليك.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾: لا نافية تفيد تخلص المضارع للاستقبال للدلالة على استمرار ذلك في الأزمنة كلها<sup>(٣)</sup> والعمل عام في كل فعل يفعل فيكون ولا تعملون أي عمل كان. وهذا تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم وأعلاهم شأنًا وقدراً. فلما عمم ذكر

(١) «التحرير والتنوير» (٧/ ٩٣).

(٢) «تهذيب اللغة» (١١/ ٤١٥).

(٣) «التحرير والتنوير» (٧/ ٩٤).

كل عمل يتناول الجليل والحقير، الصغير والكبير، الخير والشر.

﴿إِلَّا﴾: استثناء مفرغ من أعم الأحوال التي اقتضاها الشأن وعموم العمل.

﴿كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾: ذكر الله ذاته بصيغة الجمع للتعظيم وذكر الله (كنا) بصيغة الماضي مع أن الأفعال التي قبلها كلها في صيغة المضارع (تكون - تتلو - تعملون) للتنبيه على أن ما حصل ويحصل وسيحصل سواءً في علم الله تعالى ورؤيته وإطلاعه<sup>(١)</sup>.

﴿شُهُودًا﴾: الشاهد هو: الحاضر، وجاء بصيغة الجمع تبعاً لضمير الجمع المستعمل للتعظيم كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: إذ ظرف أي: حين تفيضون فيه. ومعنى تفيضون أي تفعلون كما قاله ابن عباس<sup>(٢)</sup>، وقيل: تندفعون فيه أي تشرعون في العمل بقوة واهتمام.

والهاء في (فيه) عائدة على العمل<sup>(٣)</sup> أي حين تعملون أي عمل.

والمعنى: أي ما تعملون من شيء في أي حال من الأحوال إلا حال كنّا مطلعين عليكم ناظرين لعملكم عالين به باطنًا وظاهرًا وعبر بالشهادة؛ لأنها لا تكون إلا عن علم محقق ورؤية تامة.

#### فائدة:

وهذه الآية تدعو المسلم إلى مراقبة الله على الدوام سواء عند أداء العمل الصالح كي يخلصه الله ويجهتد في موافقة السنة. أو عندما تهتم نفسه بالعمل السيء فيخشى رؤية الله له فيعود سريعاً إلى تركه والبعد عنه طاعة لله تبارك وتعالى.

(١) «التحرير والتنوير» (٧/ ٩٤).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٩٦٢) رقم (١٠٤٤٨).

(٣) «معالم التنزيل» (٢/ ٣٥٩).

والدليل من السنة: حديث جبريل المشهور عن عمر رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال: صدقت. قال: ففجبنا له يسأله، ويصدقّه.

نسب الحديث إلى جبريل عليه السلام لأنه إجابة أسئلة وجهها جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ:  
واستدلال المؤلف به حسنٌ لأمرين:

١ - شموله لأمر الدين كلها مع جمعه لها في موضع واحد، ولا يخفى ما في الجمع من استيعابها كلها ومعرفة الفروق بينها.

٢ - تعظيم العلماء لهذا الحديث، ومن ذلك قول القرطبي: «يصلح هذا الحديث أن يقال فيه: إنه (أم السنة) لما تضمنه من جمل علم السنة كما سميت الفاتحة أم الكتاب لما تضمنته من جمل معاني القرآن»<sup>(١)</sup>.

(بينما) (بين): ظرف زمان متضمن معنى الشرط وما زائدة كفتها عن العمل<sup>(٢)</sup>  
زيدت للتوكيد<sup>(٣)</sup>.

نحن: تأتي للجمع فتفيد أن هناك جمعاً من الصحابة حضروا هذا الموقف.

(١) «المفهم» (١/١٥٢) وانظر: «شرح الأربعين» لابن دقيق العيد (١١).

(٢) «حصول المأمول» (١٤٣).

(٣) «شرح الأربعين» للعثيمين (٢٠).

عند النبي: عند ظرف مكان أي أنهم يجتمعون جلوسًا في المسجد بجوار النبي ﷺ يتعلمون منه إما مباشرة أو يسمعون إجابته على أسئلة السائلين فينماهم كذلك على عادتهم (إذ) هنا الفجائية تضاف إلى الجملتين الاسمية والفعلية ولكن (إذ) تكون لما مضى بخلاف إذا: فإنها تضاف إلى المستقبل ولا تضاف إلا إلى الفعلية<sup>(١)</sup>.

طلع رجل: أي ظهر رجل، وهو جبريل عليه السلام، جاء إليهم بصورة آدمي. شديد بياض الثياب: وهذا يدل على أن بياض ثيابه أشد ما يكون من البياض. شديد سواد الشعر: والمقصود بالشعر هنا شعر اللحية<sup>(٢)</sup> والرأس<sup>(٣)</sup>. لا يرى عليه أثر السفر: أثر السفر هو: رثاثة الثياب وشعث الرؤوس وغبرة الأقدام<sup>(٤)</sup>.

فإذا لم يكن عليه أثر السفر فحاله حال مقيم كما ورد في بعض الروايات «وثيابه ثياب مقيم»<sup>(٥)</sup> وفي بعضها: «أحسن الناس وجهًا وأطيب الناس ريحًا وأنقى الناس ثوبًا»<sup>(٦)</sup>. وفي لفظ: «كأن ثيابه لم يمسها دنس»<sup>(٧)</sup>.

فمنظره لا يدل على أنه قادم من سفر حتى يقال: إنه غريب لا يعرف. وليس من أهل المدينة حتى يعرفوه، فتحيروا في أمره. ولهذا قال: ولا يعرفه منا أحد بل إن النبي ﷺ لم

(١) انظر: «المفهم» (١/ ١٣٧).

(٢) «صحيح ابن حبان» (١/ ٢٠٥) رقم (٢٥).

(٣) ابن ماجه (١/ ٢٤)، «المقدمة» / باب في الإيمان. رقم (٦٣).

(٤) انظر: «صحيح مسلم» (٢/ ٧٠٣)، كتاب «الزكاة» / باب قبول الصدقة من الكسب الطيب. رقم (١٠١٥).

(٥) «السنة» لعبد الله بن أحمد (٢/ ٤١٣) رقم (٩٠١)، و«السنة» لابن أبي عاصم (١/ ٥٥) رقم (١٢٠).

(٦) «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٣٨٥) رقم (٣٧٨).

(٧) النسائي (٨/ ١٠١)، كتاب «الإيمان» / باب صفة الإيمان والإسلام.

يعرفه حتى ذهب بدليل قول النبي ﷺ: «هذا جبريل أتاكم ليُعَلِّمَكُم دينكم فخذوا عنه والذي نفسي بيده ما شُبَّهَ عليّ منذ أتاني قبل مرتي هذه، وما عرفته حتَّى وليّ»<sup>(١)</sup>.

وفي رواية أحمد: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم ما أتاني في صورة إلا عرفته غير هذه الصورة»<sup>(٢)</sup>.

وفي رواية البخاري: «ذاك جبريل جاء يعلمكم دينكم، لم يأتني على حال أنكرته قبل اليوم»<sup>(٣)</sup>.

(حتى جلس إلى النبي): ولم يقل جلس عنده ليفيد الغاية أي: أن جلوسه كان ملاصقاً للنبي ﷺ ولهذا قال بعدها مباشرة «فأسند ركبته إلى ركبته»، أي أسند ركبته إلى ركبتي النبي ﷺ بدليل الرواية الأخرى: «فألزق ركبته بركبته»<sup>(٤)</sup>، وفي رواية «حتى وضع ركبته على ركبتي رسول الله ﷺ»<sup>(٥)</sup>.

(ووضع كفيه على فخذه): أي وضع ذلك السائل كفيه على فخذي النبي ﷺ بدليل ما ورد عند المروزي «فدنا منه حتى وضع ركبته على ركبتي رسول الله ﷺ ويديه على فخذي رسول الله ﷺ»<sup>(٦)</sup>.

وقال: يا محمد وكان الأخرى به أن يقول: يا رسول الله! وأن يخصه في المخاطبة بما يليق

(١) «الإيمان» لابن منده (١٤٧/١ - ١٤٩) رقم (١٣ و ١٤)، والدارقطني (٢٨٢/٢) رقم (٢٠٧)، وقال في نفس الموضع: «إسناد ثابت صحيح».

(٢) أحمد (٥٢-٥٣).

(٣) «خلق أفعال العباد» (٦١-٦٢) رقم (١٩١).

(٤) الترمذي (٦/٥)، كتاب «الإيمان» / باب ما جاء في وصف جبريل للنبي ﷺ الإيمان والإسلام. رقم (٢٦١٠)، و«الإيمان» لابن منده (١٢٦/١ - ١٢٧) رقم (٥).

(٥) «تعظيم قدر الصلاة» (٣٧٤/١) رقم (٣٦٧).

(٦) «تعظيم قدر الصلاة» (٣٧٤/١) رقم (٣٦٧)، وانظر: «سنن النسائي» (٨/١٠١).

به دون غيره من البشر لقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] فنهى أن يقولوا: يا محمد أو يا أحمد أو يا أبا القاسم ولكن يقولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، وكيف لا يخاطبونه بذلك، والله ﷺ أكرمهم في مخاطبته إياه بما لم يكرم به أحداً من الأنبياء فلم يدعه باسمه في القرآن قط بل يقول: يا أيها النبي...، يا أيها الرسول...

أما غيره فناداهم بأسمائهم ﴿يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] ﴿يَنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرَ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾<sup>(١)</sup> [المائدة: ١١٠].

إذا السر في ذلك والله أعلم أنه أراد التعمية.

قوله: (أخبرني عن الإسلام): فأجاب بذكر أركان الإسلام ومبانيه العظام وأسسها التي يرتكز عليها. فبدأ بالشهادتين ليبين أن التوحيد هو أصل الدين وأساس العمل وأنه لا يصح ذلك إلا بمعرفة النبي ﷺ والإيمان به واتباعه ولذلك قال بعد قوله أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، «ولم يقل: وأني رسول الله مع أن السياق يقتضيه لأنه يخاطبه، لأن إظهاره باسمه العلم أوكد وأشد تعظيماً»<sup>(٢)</sup>.

ثم ثنى بإقام الصلاة لعظم قدرها من الدين، ومما يدل على عظم قدرها من دين الله ما يلي:

#### ١ - فرضها بعد التوحيد مباشرة:

افترض الله على موسى عليه السلام الصلاة بعد التوحيد مباشرة لم يكن بينهما فاصل، قال تعالى: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٣-١٤]. «فدل ذلك على عظم قدر الصلاة وفضلها على سائر الأعمال؛ إذ لم يبدأ مناجيته

(١) «الصارم المسلول» (٤٢٢-٤٢٣).

(٢) «شرح الأربعين» للعثيمين (٢١).



وكليمه بفريضة أولى منها»<sup>(١)</sup>.

٢- الأمر بوجوبها: أمر الله بالصلاة وأوجبها فقال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]. أي كتاباً واجباً<sup>(٢)</sup>.

٣- وَعِيدٌ مِنْ ضَيِّعِهَا: توعد الله من أضاع الصلاة بالعذاب الشديد في نار جهنم

فقال: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩]. والغى «نهر في جهنم بعيد القعر، خبيث الطعم»<sup>(٣)</sup>.

٤- مدح المصلين: الصلاة أعظم أمور الدين العملية التي أثنى الله على من قام بها،

ولذلك كان يبدأ بها قبل أي عمل، قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

فمدحهم في أول نعتهم بالخشوع فيها، ثم أعاد ذكرها في آخر الآيات إعظاماً لقدرها في القربة إليه ولما أعد للقائمين بها المحافظين عليها من جزيل الثواب ونعيم المآب فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (١) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٩-١١].

فقوله: (تقيم الصلاة): أي تأتي بها قويمه ولا تكون قويمه إلا بفعل شروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

قال الراغب: «إقامة الشيء توفية حقه قال تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى

تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ٦٨] أي توفون حقوقها بالعلم والعمل. ولم يأمر تعالى

(١) «تعظيم قدر الصلاة» (١/٩٦).

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (١/١١٨).

(٣) «معالم التنزيل» (٣/٢٠١).

بالصلاة حيثما أمر ولا مدح بها حيثما مدح إلا بلفظ الإقامة تنبيهًا أن المقصود منها توفية شرائطها لا الإتيان بهيئاتها نحو «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ»<sup>(١)</sup>.

قوله (وتؤتي الزكاة): أي تعطيها لمستحقها، لأن ذلك حقهم أعطاهم الله إياه لا فضل لك في ذلك.

وقوله: (وتصوم رمضان): صيام رمضان على البالغ العاقل هو الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس.

قوله: (وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً): وهو قصد بيت الله الحرام لأداء النسك المشروع في عشر ذي الحجة ولكن الله قيده بالاستطاعة لبعد الشقة بينه وبين كثير من المسلمين وصعوبة الوصول إليه فالحمد لله على رحمته بهذه الأمة.

(قال: صدقت): الصدق: هو الخبر المطابق للواقع. ولهذا قال الراغب: ويستعمل التصديق في كل ما فيه تحقيق قال تعالى: «وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا» [الأحقاف: ١٢]<sup>(٢)</sup>.

أي أن جوابك صحيح مطابق للواقع فهذا الذي قلت هو الإسلام.  
قال (فعجبنا له يسأله ويصدقه): التعجب هنا مما خفي سببه ولم يعلم<sup>(٣)</sup>. وذلك لأن حال السائل أن يكون مستفهمًا غير عالم بما يسأل عنه.

أما التصديق فيدل على علمه بجواب سؤاله. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن ما جاء به النبي ﷺ لا يعرف إلا من جهته وليس هذا السائل ممن عرف بقاء النبي ولا بالسماع منه ومع ذلك يسأل سؤال عارف عالم محقق مصدق لمن يجيبه. فلذلك تعجب الصحابة عليهم السلام من صنيعه.

(١) «المفردات» (٤١٨).

(٢) «المفردات» (٢٨١).

(٣) «تاج العروس» (٣/ ٣١٩).

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ،  
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ  
الْإِحْسَانِ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

ولما سأله عن الإيمان فسر الإيمان بالأمور الباطنة وذلك لاجتماعه مع الإسلام في  
موضع واحد.

وبدأ بالإيمان بالله لأنه أصل الدين، وَثَنَى بالإيمان بالملائكة لأن الملائكة هم أصل  
الإيمان بالوحي فهم الواسطة بين الله ورسوله عليهم الصلاة والسلام.  
وأعاد لفظة تؤمن عند ذكر القدر؛ لبيان أهميته فالإيمان به جزء من الإيمان بالله  
ولكثرة ما سيقع من الخلط والخطأ فيه. بخلاف الملائكة والكتب والرسول واليوم الآخر.  
قوله: (أن تعبد الله كأنك تراه) دليل على عدم إمكانية رؤية الله بالبصر في هذه الدنيا  
لأنه قال كأنك؛ ولم يقل: وأنت تراه.

ويؤيده الحديث الآخر: «إِنَّ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ ﷻ حَتَّى يَمُوتَ»<sup>(١)</sup>.

قال شيخ الإسلام: «أجمع سلف الأمة وأئمتها على أن المؤمنين يرون الله بأبصارهم  
في الآخرة، وأجمعوا على أنهم لا يرونه في الدنيا بأبصارهم، ومن قال من الناس: إن  
الأولياء أو غيرهم يرى الله بعينه في الدنيا، فهو مبتدع ضال مخالف للكتاب والسنة وإجماع  
سلف الأمة»<sup>(٢)</sup>.

(١) مسلم (٤/٢٢٤٥)، كتاب «الفتن وأشرار الساعة» / باب ذكر ابن صياد. رقم (٢٩٣١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦/٥١٢).

(فإن لم تكن تراه فإنه يراك): في تفسيرها قولان للعلماء:

الأول: أنه تعليل لقوله (أن تعبد الله كأنك تراه) فإن العبد لما أمر باستحضار قرب الله منه حتى كأنه يرى الله ﷻ فإنه قد يشق عليه أن يصل إلى هذا المقام العالي. فينبغي له أن يستعين على ذلك بإيمانه وبقينه بأن الله مُطَّلَعٌ عليه في جميع أحواله سرّه وعلايته وباطنه وظاهره، وذلك أنه إذا تحقق له هذا المقام سهل عليه الانتقال إلى المقام الأعلى وهو مقام المشاهدة.

الثاني: أنه إشارة إلى أنَّ من شق عليه أن يعبد الله كأنه يراه فليعبده مستشعرًا أن الرب سبحانه مطلع عليه يرى جميع أفعاله وتصرفاته وحركاته وسكناته بل وخلجات ضميره<sup>(١)</sup>.

«قال وهيب: بينما أنا قاعد، إذ أخذ بقفاي رجل، فقال: يا وهيب، خف الله لقدرته عليك، واستحي من الله لقربه منك»<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٣١-١٣٢).

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٣٥).

**قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟ قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأُمَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّيْءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ.**

.....

قوله: (فأخبرني عن الساعة): أي أخبرني عن وقت قيام الساعة، متى يكون؟ وفي هذا السؤال نوع استغراب إذ كيف يسأل عن وقت قيام الساعة مع أنه يعلم أن الله استأثر بعلمه.

يجيب عن هذا الاستشكال القرطبي فيقول: «مقصود هذا السؤال امتناع السامعين من السؤال عنها إذ قد كانوا أكثروا السؤال عن تعيين وقتها كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢] و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وهو كثير في الكتاب والسنة، فلما أجابه النبي ﷺ بأنه لا يعلمها إلا الله - كما في الرواية الأخرى: «في خمس لا يعلمهن إلا الله ثم تلا النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]»<sup>(١)</sup> - يسئ السائلون من معرفتها فانكفوا عن السؤال عنها»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن رجب: «أراد بسؤاله عن الساعة إظهار انفراد الله بعلمها دون خلقه حتى ينقطع السؤال عنها»<sup>(٣)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (١/ ١١٤)، كتاب «الإيمان» / باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة. رقم (٥٠)، ومسلم (١/ ٣٩)، كتاب «الإيمان» / باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان. رقم (٩).

(٢) «المفهم» (١/ ١٥٤).

(٣) «فتح الباري» (١/ ١٩٨).

والساعة في اللغة: جزء من الليل والنهار وتجمع ساعاتٍ وساعاً، وتصغر سُوَيْعَةً والليل والنهار معاً أربع وعشرون ساعة<sup>(١)</sup>.

واصطلاحاً: الوقت الذي تقوم فيه القيامة.

وسميت بالساعة: لقربها، أو لأنها تأتي بغتة تفجأ الناس في ساعة فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة أو لسرعة الحساب فيها ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]<sup>(٢)</sup>.

وتطلق الساعة ويراد بها ثلاثة أشياء:

١ - الساعة الصغرى: وهي موت الإنسان فمن مات فقد قامت قيامته وذلك لدخوله في عالم الآخرة.

٢ - الساعة الوسطى: وهي موت أهل القرن الواحد ويدل له حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رجال من الأعراب جفاة يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيسألونه: متى الساعة؟ فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول: «إِنْ يَعْشُ هذا لَا يُدْرِكُه الهرم حتَّى تقومَ عليكم سَاعَتُكُمْ»، قال هشام: يعني أي موتهم<sup>(٣)</sup>.

قال الكرمانى: «هذا الجواب من الأسلوب الحكيم، أي: دعوا السؤال عن وقت القيامة الكبرى، فإنها لا يعلمها إلا الله واسألوا عن الوقت الذي يقع فيه انقراض عصركم فهو أولى لكم؛ لأن معرفتكم به تبعثكم على ملازمة العمل الصالح قبل فوته؛ لأن أحدكم لا يدري من الذي يسبق الآخر»<sup>(٤)</sup>.

(١) «تهذيب اللغة» (٣/ ٨٩).

(٢) «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ٤٢٢) و«حاشية الدرة المضية» (٧٨)، و«الرد القويم» لحمود التويجري (٣٣٠).

(٣) البخاري مع الفتح (١١/ ٣٦١-٣٦٢)، كتاب «الرقاق»/ باب سكرات الموت. رقم (٦٥١١).

(٤) «فتح الباري» (١١/ ٣٦٤).

٣- الساعة الكبرى: وهي بعث الناس من قبورهم أحياء للحساب والجزاء وهذا هو المقصود في القرآن إذا ذكرت الساعة.

كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] وغيرها من الآيات.

ولما كان وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله أجابه النبي ﷺ بقوله: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»؛ أي: أن العلم بوقتها منتف عني وعنك على حد سواء، فكما أنك لا تعلمها فأنا لا أعلمها أيضاً والباء في «بأعلم زائدة للتوكيد»<sup>(١)</sup>.

وجزم النبي ﷺ بأن السائل لا يعلمها؛ لأن ذلك مما استأثر الله بعلمه، ولذلك قال: «في خمس لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾»<sup>(٢)</sup> [لقمان: ٣٤].

ولما كان العلم بوقت الساعة غير ممكن انتقل إلى السؤال عن علاماتها الدالة على قربها فقال: أخبرني عن أمارتها.

(أمارتها): بدون ألف بعد الراء هكذا لفظ مسلم.

والأماراة: هي العلامة.

ومنه قولهم: هي أماراة ما بيني وبينك، أي: علامة. قاله حميد، وأنشد:

إذا طلعت شمسُ النهار فإِنَّهَا أمارَةُ تسليمي عليك فسَلِّمي<sup>(٣)</sup>

(١) «حصول المأمول» (١٤٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «تهذيب اللغة» (٢٩٤ / ١٥).

أي علامة قرب قيام الساعة التي تسبقها فتأتي قبل قيامها، والأمارات والأشراط بمعنى واحد، فأشراط الساعة علاماتها ولذلك ورد في بعض الروايات، وسأحدثك عن أشراطها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُنظَرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨] أي علاماتها.

وأمارات الساعة وعلاماتها كثيرة جداً<sup>(١)</sup>.

وتنقسم إلى قسمين:

١ - علامات (أشراط) الساعة الصغرى.

٢ - علامات (أشراط) الساعة الكبرى.

وضابط العلامات الكبرى: هو ما قارب قيام الساعة وكان غير معتاد الوقوع، كطلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة التي تسم الناس وتخطبهم. أما الصغرى: فهي ما عدا ذلك. أي: أنها قد تتقدم الساعة بزمن، وتكون كالمعتاد الوقوع كالتطاول في البنيان وقبض العلم ونحو ذلك<sup>(٢)</sup>.

الحكمة من بيان أمارات وأشراط الساعة:

الحكمة هي: «إيقاظ الغافلين وحثهم على التوبة والاستعداد»<sup>(٣)</sup>.

وذلك أن ظهور هذه الأمارات والأشراط في عالم الناس تجعلهم يتذكرون الآخرة كلما رأوا شيئاً من ذلك فيستعدوا لها بفعل الطاعات والتوبة من الخطيئات، ويشبهها بعضهم «بالمريض إذا صادف أشراط الموت عليه شيئاً فشيئاً فإنه لا يألو في ذلك الوقت أن

(١) ذكرها أهل العلم في ثنایا كتبهم، وأفردها بعضهم بمصنفات مستقلة، وأوسعها: «إتحاف الجماعة في

أشراط الساعة» للشيخ حمود التويجري، فقد ذكر مائة وثلاثين علامة من علامات الساعة.

(٢) انظر: «النهاية في الفتن والملاحم» (١/ ٢١٤) و«أشراط الساعة» للوابل (٧٧).

(٣) «فتح الباري» (١١/ ٣٥٠).



يتوب ويوصي وينظر لنفسه ولورثته»<sup>(١)</sup>.

قال السفاريني: «لما كان أمر الساعة شديداً وهولها مزيداً وأمرها بعيداً كان الاهتمام بشأنها أكثر من غيرها، ولهذا أكثر النبي ﷺ من بيان أشراتها وأماراتها وأخبر عما بين يديها من الفتن البعيدة والقريبة ونبه أمته وحذّرهم ليتأهبوا لتلك العقبة الشديدة»<sup>(٢)</sup>.

«أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا» الأمة هي العبد المملوكة (رَبَّتَهَا) وفي لفظ (ربها) وفي لفظ (بعلها) وهذه الألفاظ كلها وردت في «الصحيح» فربتها وربها أي سيدها أو سيدها والبعل هنا بمعنى الرب والسيد قال تعالى: ﴿أَنْدَعُونَ بَعْلًا﴾ [الصفات: ١٢٥].

فمعنى هذه الألفاظ الثلاثة واحد وهو أَنَّ الْأُمَّةَ تَلِدُ سَيِّدَهَا ومالكها، وذلك أن الرجل الحر المسلم يمتلك الأمة فيجامعها فتحمل منه وتلد فيكون الولد بمنزلة أبيه ويؤيده ما رواه محمد بن بشر عن أبي حيان التيمي قال: «إذا ولدت الأمة بعلمها يعني السراري»<sup>(٣)</sup>.

قال الخطابي قوله: «إذا ولدت الأمة ربها» معناه: «اتساع الإسلام واستيلاء أهله على بلاد الكفر وسبي نسائهم وذرائعهم فإذا ملك الرجل الجارية منهم فاستولدها كان الولد منها بمنزلة ربها؛ لأنه ولد سيدها»<sup>(٤)</sup>، «وهو قول الأكثرين»<sup>(٥)</sup>.

(وَأَنْ تَرَى الْحَفَاةَ): الحفاة جمع حاف وهو الذي ليس له نعال يلبسها من الفقر.

(١) «المنهاج في شعب الإيمان» (١/٣٤٣).

(٢) «لوامع الأنوار البهية» (٢/٦٥-٦٦).

(٣) مسلم (١/٣٩)، كتاب «الإيمان» / باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان. رقم (٩)، والسراري جمع سُرِّيَّة وهي الجارية المتخذة للوطء.

(٤) «أعلام الحديث» (١/١٨٢).

(٥) «شرح النووي على مسلم» (١/١٥٨).

(والعراة) جمع عار وهو من ليس له ثياب تستره بسبب الفقر.

(العالة): جمع عائل وهو الفقير الذي لا يجد شيئاً من المال يشتري به ثياباً تستره ونعلاً يلبسها.

(رعاء الشاء): رعاء جمع راع وهم الذين مهنتهم رعي الغنم، وخصهم بالذكر؛ لأنهم أضعف الرعاة.

وأهل هذه الأوصاف الأربعة الدالة على الفقر الشديد لا يلبثون إلا مدة يسيرة فيغنيهم الله وتكثر أموالهم ف (يتطاولون في البنيان) تباهياً بطولها وزخرفتها.

والتطاول في البنيان يكون على ضربين:

١ - إطالتها طولاً أي ارتفاعاً في السماء إما برفعها أو بتعدد طوابقها.

٢ - تزيينها وتجميلها وزخرفتها بالأصباغ ونحوها كما قال النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يبني الناس بيوتاً يشبهونها بالمراحل»، قال إبراهيم: يعني الثياب المخططة<sup>(١)</sup>.

علماً أن التطاول في البنيان لم يكن معهوداً على عهد النبي ﷺ بل كان بنيانهم قصيراً بقدر الحاجة<sup>(٢)</sup>. قال الحسن: «كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه فأتناول سقفها بيدي»<sup>(٣)</sup>. ولكن التطاول حدث بعدهم مصداقاً لقول النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى... وحتى يتطاول الناس في البنيان»<sup>(٤)</sup>.

(١) «الأدب المفرد»/ باب نقش البنيان (١٥٧) رقم (٤٥٩)، وقال الألباني: «وهذا سند صحيح رجاله ثقات رجال البخاري في «صحيحه»، غير عبد الله بن أبي يحيى، وهو ثقة اتفاقاً». «السلسلة الصحيحة» (١٥٨/١) رقم (٢٧٩).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/١٤٤).

(٣) «الأدب المفرد»/ باب التطاول في البنيان (١٥٥) رقم (٤٥٠)، وقال محققه الألباني: «صحيح الإسناد».

(٤) البخاري مع الفتح (١٣/ ٨١-٨٢)، كتاب «الفتن». رقم (٧١٢١).

قال: ثم انطلق فلبثت ملياً. ثم قال لي: يَا عَمْرُؤُ اتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يَعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».

مضى: أي ذهب.

فلبثنا: اللبث هو المكث.

وملياً: هو الوقت الطويل باتفاق أهل اللغة والتفسير<sup>(١)</sup>.

قال ابن فارس: «الميم واللام والحرف المعتل كلمة واحدة هي الزمن الطويل وأقام ملياً أي دهرًا طويلاً»<sup>(٢)</sup>.

وقال الشنقيطي: «والتحقيق في قوله ملياً أن المراد به الزمن الطويل».

ومنه قول مهلهل:

فَصَدَّعْتُ صُمْ الْجَبَالَ لِمَوْتِهِ      وَبَكَتْ عَلَيْهِ الْمُرْمَلَاتُ مَلِيًّا<sup>(٣)</sup>

أي: فمكثنا وقتاً طويلاً.

وقد ورد تحديد مدة اللبث هنا بـ (ثلاثة أيام)<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر: «العين» (٣٤٥ / ٨) و«الصحاح» (٣٤٧ / ٧) و«اللسان» (٢٩ / ١٥) و«النهاية في غريب الحديث» (٧٩٢ / ٤) ومن المفسرين انظر: «جامع البيان» (٤٢١ / ٧) وابن أبي زمنين (٤٠٥ / ١) و«الجامع لأحكام القرآن» (١١١ / ١١) و«معالم التنزيل» (١٤٠ / ٢) «المحرر الوجيز» (٢٣ / ٤) «الدر المنثور» (٥١٤ / ٥) «التحرير والتنوير» (٩٢ / ٩) وغيرهم.

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٣٤٦ / ٥).

(٣) «أضواء البيان» (٤٢٩ / ٣).

(٤) «الإيمان» لابن منده (١٣٢ / ١) رقم (٧)، وأبو داود (٦٩ / ٥-٧٣)، كتاب «السنة» / باب في القدر.

رقم (٤٦٩٥)، والنسائي (٩٧ / ٨-١٠١).

ثم سأل رسول الله ﷺ عمر رضي الله عنه عن الشخص الذي جاء يسأل عن الدين بعد ثلاثة أيام وهو يريد أن يخبره من هو.

ولما كان عمر رضي الله عنه لا يعرفه ردّ العلم إلى عالمه فقال: (الله ورسوله أعلم) وعطف الرسول على الله بالواو هنا جائز «لأن علم الشريعة الذي يصل إلى النبي ﷺ من علم الله فصيح أن يقال الله ورسوله أعلم كما قال الله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩] ولم يقل ثم رسوله لأن الإيتاء هنا إيتاء شرعي، وإيتاء النبي ﷺ الشرعي من إيتاء الله.

أما المسائل الكونية كالمشيئة وما أشبهها فلا يقال الله ورسوله، بل يقال الله ثم رسوله، ولهذا لما قال رجل للنبي ﷺ «ما شاء الله وشئت» قال: «أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»<sup>(١)</sup>»<sup>(٢)</sup>.

وأرشدهم ﷺ إلى أن يقولوا: «مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ»<sup>(٣)</sup>.

والجمع بين الله ورسوله في رد العلم كان في حياة النبي ﷺ أما بعد وفاته إذا سئل المسلم عن شيء لا يعلمه فإنه يقول: الله أعلم.

فنسب التعليم إلى جبريل مع أنه سائل فقط؛ لأن السائل إذا سأل العالم عن شيء يعلمه بقصد انتفاع غيره كان معلماً لهم؛ لأنه كان سبباً في إجابة العالم لهذه الأسئلة التي في

(١) «الأدب المفرد» (٢٧٣) رقم (٧٨٣)، وأحمد (٢٨٣/١)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (٣٤٦-٣٤٧/١٠) رقم (٩٦٢٢)، وصححه ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣٥٢/١).

(٢) «شرح رياض الصالحين» لشيخنا العثيمين (٢٧٣/١).

(٣) أحمد (٣٩٣/٥)، وابن ماجه (٦٨٤-٦٨٥)، كتاب «الكفارات»/ باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت.

رقم (٢١١٨)، والدارمي في «سننه» (١٧٥-١٧٦)، كتاب «الاستئذان»/ باب النهي عن أن يقول: ما

شاء الله وشاء فلان. رقم (٢٦٩٩). قال البوصيري: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات على شرط مسلم».

«مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه» (١٣٧/٢).

إجابتها بيان للدين، فصار جبريل عليه السلام معلماً إياهم دينهم من هذا الوجه.  
 وقوله (دينكم): لأنه مشتمل على أصول العقائد وأصول الأعمال.  
 ولما كان الحديث مبيناً لأصول الدين التي لا يقوم إلا بها تحتم الانتباه لإجابة ما يُسأل  
 عنه فلاجل ذلك كثرت المثيرات فيه وتنقسم هذه المثيرات إلى أربعة محاور هي:  
 أولاً: هيئته وشكله الخارجي: والمثيرات في شكله الخارجي هي:

- ١- شدة بياض الثياب.
  - ٢- شدة سواد الشعر أكثر من المعتاد.
  - ٣- ليس عليه من علامات المسافر شيء.
  - ٤- أن علاماته علامات مقيم ومع ذلك لا يعرفه أحد من الصحابة.
- ثانياً: أسلوبه في التعامل مع النبي ﷺ: والأمور المثيرة في تعامله مع النبي ﷺ هي:
- ١- ذهابه إلى النبي ﷺ مباشرة، وعادة الغريب أنه يسأل عن النبي ﷺ.
  - ٢- قرب الزائد أثناء جلوسه حتى إنه أسند ركبتيه إلى ركبتي النبي ﷺ.
  - ٣- وضعه يديه على فخذي النبي ﷺ وهذا فيه نوع جفاء وأذية.
  - ٤- أسلوبه في نداء النبي ﷺ حيث ناداه باسمه المجرد، وهذا دليل على عدم توقيره للنبي ﷺ وهو جفاء ظاهر.

٥- تصديقه النبي ﷺ عند إجابة سؤاله وهذا من أكثر ما يثير الاستغراب.

ثالثاً: اختفاؤه:

ومن المثيرات في حال هذا السائل أنه قام وذهب ثم اختفى بسرعة على غير عادة الناس حيث إن النبي ﷺ أمرهم برده فلم يجدوه.

رابعاً: تأخر النبي ﷺ في إخبار الصحابة من هو السائل:

نفوس الصحابة متشوقة غاية الاشتياق لمعرفة هذا السائل ومع ذلك لم يخبرهم النبي ﷺ إلا بعد ثلاثة أيام، كل ذلك لأجل أن ينشغلوا بما سمعوا من أمور دينهم.

**الأصل الثالث: معرفة نبيكم محمد ﷺ. وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، وهاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبيينا أفضل الصلاة والسلام.**

.....

المعرفة: هي العلم اليقيني الذي لا يخالطه أدنى شك، بدليل حديث معاذ عندما أرسله النبي ﷺ إلى اليمن، وفيه: «فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم...»<sup>(١)</sup>.

ويرى الراغب أن المعرفة: إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره وأنها أخص من العلم<sup>(٢)</sup>. ويشترط شيخ الإسلام لتسمية العلم بالمعرفة وجود المحبة فيقول: «والعلم الذي يقترن به حب المعلوم قد يسمى معرفة كما في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمعروف ما تحبه القلوب مع العلم»<sup>(٣)</sup>.

**الحاجة إلى معرفة النبي ﷺ:**

الحاجة إلى معرفة النبي ﷺ فوق كل حاجة، والضرورة إلى معرفته ﷺ فوق كل ضرورة وذلك لأمر:

١- لا ينال رضى الله البتة إلا على يديه وذلك أن الطيب من الأقوال والأعمال والأخلاق ليس إلا هديته وما جاء به.

٢- أنه لا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهته.

٣- لا سبيل إلى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة إلا من طريقه.

(١) سبق تخريجه.

(٢) «المفردات» (٣٣٤).

(٣) «درء التعارض» (١٣٧/٣).

٤ - لا يتميز أهل الهدى من أهل الضلال إلا بمتابعته<sup>(١)</sup>.

ولقد كان السلف يعرفون قدر معرفة النبي ﷺ وسيرته فيعلمونها مَنْ تحت أيديهم ويحرصون على ذلك. قال علي بن الحسين: «كنا نعلم مغازي النبي ﷺ كما نعلم السورة من القرآن». وقال الزهري مرغبا في معرفة النبي ﷺ وحاثا عليها: «في علم المغازي علم الآخرة والدنيا»<sup>(٢)</sup>.

ومعرفته ﷺ تشمل أموراً هي:

أولاً: نسبه:

«محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان»<sup>(٣)</sup>.

أثبتته المصطفى ﷺ كما في حديث الأشعث بن قيس قال: أتيت رسول الله ﷺ في وفد كندة، ولا يروني إلا أفضلهم، فقلت: يا رسول الله، أستم منا؟ فقال: «نحنُ بنو النَّضْرِ بنِ كِنَانَةَ، لَا نَقْفُوا أُمَّنَا، وَلَا نَنْتَفِي مِنْ أَيْبِنَا»، قال الأشعث بن قيس: «والله لا أسمع أحداً نفى قريشاً من النضر بن كنانة إلا جلده الحد»<sup>(٤)</sup>.

قوله: «لَا نَقْفُوا أُمَّنَا»: أي لا نتهم أمتنا ولا نقذفها.

(١) وانظر: «زاد المعاد» (١/ ٦٩).

(٢) «الجامع» للخطيب (٢/ ١٩٥).

(٣) البخاري مع الفتح (٧/ ١٦٢)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب مبعث النبي ﷺ.

(٤) أحمد (٥/ ٢١٢)، وابن ماجه (٢/ ٨٧١)، كتاب «الحدود»/ باب من نفى رجلاً من قبيلة. رقم

(٢٦١٢)، قال ابن كثير: «هذا إسناد جيد قوي، وهو فيصل في هذه المسألة، فلا التفات إلى قول من

خالفه». «البداية والنهاية» (٣/ ٢٢٢)، وقال البوصيري: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات». «مصباح

الزجاجة» (٣/ ١١٨).

وعلى هذا أجمع أهل السير والعلم بالأثر<sup>(١)</sup>.

قال ابن القيم بعد أن ذكر نسبه ﷺ إلى عدنان «إلى هاهنا معلوم الصحة متفق عليه بين النسابين، ولا خلاف فيه البتة،.... ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل»<sup>(٢)</sup>. وبمثله قاله الذهبي<sup>(٣)</sup>.

وهاشم: هو عمرو بن عبد مناف، وسمي هاشمًا لهشمه الثريد مع اللحم لقومه ولأهل مكة في سنوات المحل والجوع، وفيه قال عبدالله بن الزبعرى.

عمرو العُلا هَشمَ الثَّريدَ لِقَوْمِهِ وَرَجَالُ مَكَّةَ مُسْتَنْتُونَ عِجَافٌ<sup>(٤)</sup>

والمستنون: هم الذين أصابتهم السنة المجذبة الشديدة

وقريش: هو النضر بن كنانة<sup>(٥)</sup>، فمن كان من ولده فهو قرشي، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي<sup>(٦)</sup>، فعن كليب بن وائل قال: حدثني ربيعة النبي ﷺ زينب بنت ابنة أبي سليمة، قال: قلت لها: «رأيت النبي ﷺ أكان من مضر؟ قالت: فممن كان إلا من مضر. من مضر من بني النضر بن كنانة»<sup>(٧)</sup>.

(١) «الاستيعاب» (١/ ١٠٧).

(٢) «زاد المعاد» (١/ ٧١).

(٣) «السيرة النبوية» (١).

(٤) «البداية والنهاية» (٣/ ٣٥٦ و ٤/ ٣٥٤).

(٥) «سيرة ابن هشام» (١/ ٩٣).

(٦) انظر: «البداية والنهاية» (٣/ ٢١٩).

(٧) البخاري مع الفتح (٥٢٥/)، كتاب «المناقب» / باب قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. رقم (٣٤٩١ و ٣٤٩٢).



وذكر ابن كثير في تسميته قريشاً أسباباً كثيرة لعل أقربها هذين القولين:

١ - سميت قريش من التقرش وهو التكسب والتجارة.

٢ - وقيل سمي النضر بن كنانة قريشاً لأنه يَقْرُشُ عن خلة الناس وحاجتهم فيسدها بهاله، والتَقْرُش هو التفتيش وكان بنوه يَقْرُشُونَ أهل الموسم عن الحاجة فيرفدونهم بما يبلغهم بلادهم فَسَمُّوا بذلك من فعلهم وقرشهم قريشاً<sup>(١)</sup>.

ويدل على أنه من ذرية إسماعيل حديث واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»<sup>(٢)</sup>.

وفي قوله ﷺ: «اصْطَفَى وَاصْطَفَانِي» دليل على أن النبي ﷺ هو خيار أهل الأرض وذلك أَنَّ معنى اصطفى: اختار صفوة الشيء وخالصه وخياره، والاصطفاء منة من الله تعالى تدل على رفعة وعلو. وأن قريشاً هي أعلى الناس نسباً.

ولذلك قال ابن القيم: «هو أي رسول الله ﷺ خير أهل الأرض نسباً على الإطلاق»<sup>(٣)</sup>.

والعرب: هم الذين يتكلمون اللغة العربية وهم قسمان:

١ - العرب العاربة: وينتسبون إلى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وقد سكنوا اليمن ثم تفرقوا في بقية الجزيرة العربية.

٢ - العرب المستعربة: (العدنانيون) وقد نشأوا في مكة ومنها تفرقوا في جهات كثيرة من الحجاز وتهامة وينتهي نسبهم إلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام فإنه صاهر قبيلة

(١) «البداية والنهاية» (٣/ ٢٢٢-٢٢٥).

(٢) مسلم (٤/ ٧٨٢)، كتاب «الفضائل»/ باب فضل نسب النبي ﷺ. رقم (٢٢٧٦).

(٣) «زاد المعاد» (١/ ٧١) ويدل على علو نسبه سؤال هرقل لأبي سفيان عن نسبه. البخاري مع الفتح

(١/ ٣٢)، كتاب «بدء الوحي» رقم (٧).

«جرهم» وكان من نسله «عدنان» الذي تنتسب إليه العرب المستعربة<sup>(١)</sup>.

ويدل على أنهم من ذرية إسماعيل حديث واثلة بن الأسقع المتقدم.

وأما أن إسماعيل ابن إبراهيم فلم ينزع في ذلك أحد فهو ابنه الأكبر الذي وهبه الله إياه على كبر منه ففرح به وحمد الله على ذلك ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ثانيًا: ولادته ومكانها:

ولد النبي ﷺ بمكة في شهر ربيع الأول من عام الفيل، بلا خلاف<sup>(٢)</sup>، ويؤيده قول ابن عباس «ولد رسول الله ﷺ عام الفيل»<sup>(٣)</sup>، وأما يوم ولادته فهو يوم الاثنين ويدل لذلك قول النبي ﷺ عندما سئل عن صوم يوم الاثنين: «ذاك يومٌ ولدْتُ فيه، ويومٌ بعثْتُ أو أنزلَ إليَّ فيه»، وفي لفظ: «فيه ولدْتُ وفيه أنزل عليَّ»<sup>(٤)</sup>.

وأما تاريخ ولادته ﷺ فقليل كانت ولادته في اليوم الثاني من شهر ربيع الأول وقيل في اليوم الثامن، وقيل في العاشر، وقيل في الثاني عشر، وقيل في السابع عشر، وقيل لثمان بقين منه، وذكر ابن كثير عن الزبير بن بكار وابن عساكر أنها قالوا: «ولد في الثاني عشر من رمضان» وردّه، وكذلك رده ابن حجر لشذوذه.

وقيل: أنه ولد في السابع والعشرين من شهر رجب وردّه ابن حجر لشذوذه<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر: «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» (٣/١).

(٢) «التمهيد» (٢٦/٣).

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (٤٧/١٢) رقم (١٢٤٣٢)، وقال الذهبي: «صحيح». «السيرة النبوية» (٥).

(٤) مسلم (٢/٨١٩-٨٢٠)، كتاب «الصيام»/ باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس. رقم (١١٦٢).

(٥) «الاستيعاب» (١٩/١) و«شرح مسلم» للنووي (١٥/١٠٠) و«البداية والنهاية» (٣/٣٧٣-٣٨٠).

و«السيرة النبوية» للذهبي (٥/٨) و«فتح الباري» (٦/٥٧٠).

ثالثاً: أسماؤه ﷺ:

أسماء النبي ﷺ التي وردت في الكتاب والسنة هي:

١ - محمد: معناه اسم مفعول من حمد أي كثير الخصال التي يحمد عليها، فيحمد حمداً بعد حمد وذلك دليل على كثرة حامديه من أهل السماء والأرض في الدنيا وفي الآخرة<sup>(١)</sup>.

دليله قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

٢ - أحمد: معناه أفعّل تفضيل من الحمد أي الذي يحمد أفضل مما يحمد غيره<sup>(٢)</sup>.

«والفرق بينهما أن «محمدًا» كثير الخصال التي يحمد عليها وأحمد هو الذي يحمد أفضل مما يحمد غيره فمحمد في الكثرة والكمية وأحمد في الصفة والکیفیه»<sup>(٣)</sup>.

دليله قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا رَسُولًا يُاتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

٣ - الماحي: معناه: الذي يمحو الله به الكفر.

فلم يُمَحَّ الْكُفْرُ بأحد من الخلق مثل ما مُحِيَ بالنبي ﷺ وذلك أن الله بعثه ﷺ وقد مقت أهل الأرض عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب فأظهر دينه على يد النبي ﷺ فمحي الكفر وأعز الله التوحيد وبلغ هذا الدين مشارق الأرض ومغاربها، فله الحمد والمنة.

٤ - الحاشر: معناه هو الذي يُحْشَرُ الناس على قدمه ﷺ، فكأنه بعث ليحشر الناس.

قال نافع: «فأما حاشر فبعث مع الساعة نذيراً لكم بين يدي عذاب شديد»<sup>(٤)</sup>.

٥ - العاقب: معناه الذي جاء عقب الأنبياء فليس بعده نبي فهو خاتمهم ﷺ قال ابن

(١) انظر: «جلاء الأفهام» (١٨٣-٢٢٦).

(٢) المرجع السابق.

(٣) «زاد المعاد» (٩٣/١).

(٤) «الشریعة» (٣/١٤٨٨) رقم (١٠١٤).

الأعرابي: «العاقب والعقوب الذي يخلف من كان قبله في الخير»<sup>(١)</sup>.

ودليل هذه الأسماء الخمسة حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ لي أسماءً، أنا محمدٌ، وأنا أحمدٌ، وأنا الماحي الذي يمحو اللهُ بي الكفرَ، وأنا الحاشِرُ الذي يُحْشَرُ النَّاسُ على قدميَّ، وأنا العاقِبُ الذي ليس بعده أحدٌ». والمقصود بقوله ليس بعده أحد أي ليس بعده نبي كما فسر به بذلك الزهري<sup>(٢)</sup>.

٦- المتوكل: معناه: أي المعتمد على ربه في جميع شؤونه قال ابن القيم «وهو ﷺ أحق الناس بهذا الاسم؛ لأنه توكل على الله في إقامة الدين توكلًا لم يشركه غيره»<sup>(٣)</sup>.

دليله حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عندما سأله عطاء بن يسار قائلاً له: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل والله، إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل...) <sup>(٤)</sup>.

٧- المقفّي: معناه الذي قفّي من قبله من الرسل فكان خاتمهم وآخرهم فهو بمعنى العاقب.

٨- نبي التوبة: معناه هو الذي فتح الله به باب التوبة على أهل الأرض فتاب الله عليهم توبة لم يحصل مثلها لأهل الأرض قبله. وكان أكثر الناس استغفاراً وتوبة...

(١) «تهذيب اللغة» (١/ ٢٧١).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٤٠-٦٤١)، كتاب «التفسير» / باب: «يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَدُ». رقم (٤٨٩٦)، ومسلم (٤/ ١٨٢٨)، كتاب «الفضائل» / باب في أسمائه ﷺ. رقم (٢٣٥٤).

(٣) «زاد المعاد» (١/ ٩٣-٩٤).

(٤) البخاري مع الفتح (٤/ ٣٤٢-٣٤٣)، كتاب «اليسوع» / باب كراهية السخب بالأسواق. رقم (٢١٢٥).

وكذلك توبة أمته أكمل من توبة سائر الأمم وأسرع قبولاً وأسهل تناولاً<sup>(١)</sup>.

٩- نبي الرحمة: معناه أن الله أرسله رحمة للعالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]<sup>(٢)</sup>.

دليل هذه الأسماء الثلاثة: حديث أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء فقال: «أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وَالْمُقَفِّي وَالْحَاشِرُ وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ»<sup>(٣)</sup>.

١٠- نبي الملحمة: معناه أنه بعث بجهد أعداء الله وقتالهم، بل فرض الله عليه جهاد الكفار، وجعله شريعة باقية إلى قيام الساعة، ولذلك فالمعارك بينه هو وأمته من جهة، وبين الكفار من جهة أخرى، طوال التاريخ الإسلامي.

دليله: حديث أبي موسى الأشعري قال: «سمى لنا رسول الله ﷺ لنفسه أسماء وذكر منها نبي الملحمة»<sup>(٤)</sup>.

#### رابعاً: صفاته الخلقية:

جمع الله ﷻ لنبه محمد ﷺ الأخلاق الفاضلة كلها فما من خلق حسن إلا ولنبينا محمد ﷺ أعلاه وأكمله قال أنس: «كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس»<sup>(٥)</sup>.

(١) «زاد المعاد» (١/ ٩٥).

(٢) انظر: «زاد المعاد» (١/ ٩٦) فإنه علق على ذلك تعليقاً جميلاً أبان فيه كيف نالت الخلق جمعاء رحمته.

(٣) مسلم (٤/ ١٨٢٨-١٨٢٩)، كتاب «الفضائل» / باب في أسماؤه ﷺ. رقم (٢٣٥٥).

(٤) «المصنف» لابن أبي شيبة (١١/ ٤٥٧-٤٥٨) رقم (١١٧٣٩)، وابن حبان في «صحيحه» (١٤/ ٢٢١-٢٢٢).

رقم (٢٢٢) (٦٣١٥)، والحاكم في «المستدرک» (٢/ ٦٥٩)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٥) البخاري مع الفتح (١٠/ ٤٥٥)، كتاب «الأدب» / باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل /

رقم (٦٠٣٣)، ومسلم (٤/ ١٨٠٢)، كتاب «الفضائل» / باب في شجاعة النبي ﷺ وتقدمه للحرب.

رقم (٢٣٠٧).

ورواه أبو الشيخ إلا أنه قال: «وأسمح الناس بدل وأجود الناس»<sup>(١)</sup>.

وبين شيخ الإسلام كمال صفات النبي ﷺ بعد وصفه لأتمته، فقال: «وكذلك كان صفة محمد ﷺ بينهم أكمل النبيين وأفضل الرسل بحيث قال: «أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا نبي الرحمة، وأنا نبي الملحمة، وأنا نبي التوبة، وأنا الضحوك القتال»، فوصف نفسه بأنه نبي الرحمة والتوبة وأنه نبي الملحمة وأنه الضحوك القتال، وهذا أكمل ممن نعت بالشدة والبأس غالباً أو باللين غالباً»<sup>(٢)</sup>.

ومن تلك الصفات:

#### ١ - الشجاعة:

كان ﷺ أشجع الناس كما وصفه أنس بن مالك فقال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس، لأبي طلحة عري، في عنقه السيف، وهو يقول: «لم تراعوا، لم تراعوا»<sup>(٣)</sup>.

وأما في المعارك فكان أصحابه ﷺ إذا ادلهم الخطب وحمي الوطيس واشتد القتال يتقون بالنبي ﷺ، قال البراء بن مالك: «كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به، يعني النبي ﷺ»<sup>(٤)</sup>.

ولقد تجلت شجاعته ﷺ التي لا مثيل لها في جميع المعارك، ومن ذلك شجاعته في غزوة حنين فإنه لما فر المسلمون كان يركض بغلته تجاه الكفار مع أن عددهم يربو على عشرين ألف مقاتل.

(١) «أخلاق النبي وآدابه» (١/ ٣٣١) رقم (١١١).

(٢) «الجواب الصحيح» (٥/ ٨٠-٨١).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) مسلم (٣/ ١٤٠٠)، كتاب «الجهاد والسير» / باب في غزوة حنين. رقم (١٧٧٦).

فعن العباس بن عبد المطلب رحمته الله قال: «شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب رسول الله فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار. قال العباس: وأنا أخذ بلجام بغلة رسول الله أكفها إرادة ألا تسرع...»<sup>(١)</sup>.

وفي رواية البراء: «فما رأي من الناس يومئذ أشد منه»<sup>(٢)</sup>.

## ٢- الكرم:

ضرب النبي ﷺ أروع الأمثلة في الجود والكرم حتى بهر الناس بكرمه حتى بلغ به الأمر أنه لا يسأل شيئاً إلا أعطاه مهما كثر، ومن ذلك أن رجلاً سأل فاعطاه غنماً بين جبلين، ومن شدة تأثره وانبهاره بكرم المصطفى ﷺ ذهب إلى قومه فقال: «أي قوم أسلموا، فوالله إن محمداً ليعطي عطاءً من لا يخاف الفقر»<sup>(٣)</sup>.

وتجلى كرمه ﷺ في مواقف كثيرة منها مقفله من حنين فعن جبير بن مطعم رحمته الله قال: «بينما أسير مع رسول الله ومعه الناس مقفلة من حنين فعلمت الناس يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه فوقف النبي ﷺ، فقال: «أعطوني ردائي، لو كان عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدونني بخيلاً، ولا كذوباً، ولا جباناً»<sup>(٤)</sup>.

الله أكبر من يستطيع أن يقسم هذا على الناس مع كثرته ثم لا يبقى لنفسه من ذلك شيئاً.

(١) مسلم (١٣٩٨/٣)، كتاب «الجهاد والسير»/ باب في غزوة حنين. رقم (١٧٧٥).

(٢) البخاري مع الفتح (١٦٤/٦)، كتاب «الجهاد»/ باب من قال: خذها وأنا ابن فلان. رقم (٣٠٤٢).

(٣) مسلم (١٨٠٦/٤)، كتاب «الفضائل»/ باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا، وكثرة عطائه. رقم (٢٣١٢).

(٤) البخاري مع الفتح (٣٥/٦)، كتاب «الجهاد»/ باب الشجاعة في الحرب والجبن. رقم (٢٨٢١).

إنه الكرم الذي لا يمكن أن يصل إليه أحد من البشر غيره.

### ٣- التواضع:

بلغ النبي ﷺ الكمال في التواضع فكان يركب الحمار، ويردف عليه، كما في حديث معاذ رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟...»<sup>(١)</sup>.

ويركب الدابة مسافراً عليها ورحلها قديم بال، قال أنس رضي الله عنه: «حجَّ النبي ﷺ على رَحْلٍ رَثٍّ قطيفة تساوي أربعة دراهم أو لا تساوي، ثم قال: «اللَّهُمَّ حِجَّةً لا رياءَ فيها ولا سمعةً»<sup>(٢)</sup>.

وكان يجيب من دعاه إلى أي طعام كان. قال أنس رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة فيجيب»<sup>(٣)</sup> والإهالة السنخة: هي الدهن المتغير الرائحة من طول المكث.

ويقضي حاجات الناس ولا يستنكف من أحد مهما قل شأنه فعن أنس رضي الله عنه أن امرأة كان في عقلها شيء، فقالت: يا رسول الله، إنَّ لي إليك حاجة فقال: «يا أم فلان، أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك»، فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها<sup>(٤)</sup>.

(١) سبق تخريجه.

(٢) ابن ماجه (٢/٩٦٥)، كتاب «الحج» / باب الحج على الرحل. رقم (٢٨٩٠)، و«المصنف» لابن أبي شيبه (٤/١٠٦)، وصححه الألباني بمجموع الطرق. «السلسلة الصحيحة» (٦/٢٢٨-٢٣٠) رقم (٢٦١٧).

(٣) الترمذي في «الشئائل» (١٩٠) رقم (٣١٦)، وأبي يعلى في «مسنده» (٧/٨٣) رقم (٤٠١٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤/٢٦٢) رقم (٤٨١٥).

(٤) مسلم (٤/١٨١٢-١٨١٣)، كتاب «الفضائل» / باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به. رقم (٢٣٢٦).



والغرض من البعد لأجل أن لا يسمع بشكواها أحد غير النبي ﷺ.

وكان ينام على الحصير، قال عمر: استأذنت على النبي ﷺ فأذن لي، وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من آدم حشوها ليف، وإن عند رجله قرظاً مصبوراً، وعند رأسه أهب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه، فبكيت، فقال: ما يبكيك؟ فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله، فقال: أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - الحلم:

كان النبي ﷺ يحب الحلم ويرغب فيه ويشني على من اتصفوا به، ومن ذلك ثناؤه على أشج عبد القيس بقوله: «إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الحلم، والأناة»<sup>(٢)</sup>.

وأما هو ﷺ، فحلمه لا يبلغه أحد من البشر، كان ﷺ لا يزيده الجهل عليه إلا حلماً، فعن أنس رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْدٌ نجرانيٌّ غليظُ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ فجبَّده بردائه جبدةً شديدةً، حتَّى نظرتُ إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثَّرت به حاشية البرد من شدة جبذته، ثمَّ قال: يا محمد مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسولُ الله ﷺ ثمَّ ضحك، ثمَّ أمر له بعتاءٍ<sup>(٣)</sup>.

#### ٥ - الصدق:

اشتهر ﷺ بالصدق وعرف به. اعترف بذلك أعداؤه قبل محبيه فهذا أبو سفيان بن

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٥٧-٦٥٨)، كتاب «التفسير» / باب: «تَبْنِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ». رقم (٤٩١٣).

(٢) مسلم (١/ ٤٨-٤٩)، كتاب «الإيمان» / باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين. رقم (١٨).

(٣) البخاري مع الفتح (١٠/ ٣٧٥)، كتاب «اللباس» / باب البرد والخبر والشملة. رقم (٥٨٠٩)، ومسلم (٢/ ٧٣٠-٧٣١)، كتاب «الزكاة» / باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة. رقم (١٠٥٧).

حرب وهو على الشرك لما سألته هرقل قائلاً فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال.  
قال أبو سفيان لا<sup>(١)</sup>.

بل اعترفت قريش كلها بصدقه لما سألهم رسول الله ﷺ، وذلك أنه لما نزل عليه ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. صعد الصفا فهتف: واصباحاه فقالوا: من هذا؟، فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مُصدّقين؟»، قالوا: ما جربنا عليك كذباً...»<sup>(٢)</sup>، وغيرها من الصفات الطيبة.

#### خامساً: صفاته الخلقية:

وصف الصحابة رضي الله عنهم صفات النبي ﷺ كاملة ومن ذلك:  
حديث جابر بن سمرة قال: كان وجه رسول الله «مِثْلَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَكَانَ مُسْتَدِيرًا»<sup>(٣)</sup>.

وقال أبو الطفيل: «كَانَ أَبْيَضَ مَلِيحَ الْوَجْهِ»<sup>(٤)</sup>.

ولم يختضب ﷺ لقلّة الشيب قال ابن سيرين سألت أنس بن مالك هل كان رسول الله ﷺ خضب؟ قال: «لم يبلغ الخضاب كان في لحيته شعرات بيض».

وفي لفظ قال: «لو شئت أن أعد شمطات كنّ في رأسه فعلت، وقال: لم يختضب، وقد اختضب أبو بكر بالحناء والكتم، وقد اختضب عمر بالحناء بحثاً، وفي لفظ: لم يختضب

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري مع الفتح (٧٣٧/٨)، كتاب «التفسير» / باب تفسير سورة: «تَبَّتْ يَدَايَ لِهَبٍ». رقم (٤٩٧١)، ومسلم (١/١٩٤)، كتاب «الإيمان» / باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾. رقم (٢٠٨).

(٣) مسلم (٤/١٨٢٣)، كتاب «الفضائل» / باب شبيهه ﷺ. رقم (٢٣٤٤).

(٤) مسلم (٤/١٨٢٠)، كتاب «الفضائل» / باب كان النبي ﷺ أبيض مليح الوجه. رقم (٢٣٤٠).

رسول الله ﷺ، إنما كان البياض في عنفقه وفي الصدغين، وفي الرأس نبذاً<sup>(١)</sup>.

ووصف جابر بن سمرة فمه وعينه وعقبه فقال: كان رسول الله ﷺ ضليع الفم، أشكل العين منهوس العقين<sup>(٢)</sup> قال محمد بن جعفر: قلت لسماك بن حرب: ما ضليع الفم؟ قال: «عظيم الفم»، قال قلت: ما أشكل العين؟ قال: «طويل شق العين»، قال قلت: ما منهوس العقب؟ قال: «قليل لحم العقب»<sup>(٣)</sup>، والعرب تدم بصغر الفم وتحمد سعته<sup>(٤)</sup>، قال ثعلب: عظيم الفم، واسع الفم، وقال شمر: عظم الأسنان وتراصفها<sup>(٥)</sup>، ووصفه أنس بن مالك فقال: «كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير، ولا بالأبيض الأمهق، وليس بالآدم، وليس بالجعد القطط، ولا بالسبط، بعثه الله على رأس أربعين سنة، فأقام بمكة عشر سنين، وبالمدينة عشر سنين، وتوفاه الله على رأس ستين سنة وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء»<sup>(٥)</sup>.

#### سادساً: بشريته:

خلقه الله بشراً لأنه أرسله إلى البشر قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]. وُلِدَ مِنْ أُمِّ وَأَبٍ كَمَا يُولَدُ غَيْرُهُ، فَأَبُوهُ عَبْدُ اللَّهِ، وَأُمُّهُ أَمْنَةُ بِنْتُ وَهَبٍ، وَمَاتَ ﷺ كَمَا يَمُوتُ الْبَشَرُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. قَالَ ﷺ مَبِينًا بِشْرِيَّتَهُ: «إِنَّهُ لَوْ حَدَّثَ فِي الصَّلَاةِ شَيْءٌ لَنَبَأْتُكُمْ بِهِ، وَلَكِنْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أُنْسَى كَمَا

(١) مسلم (٤/ ١٨٢١-١٨٢٢)، كتاب «الفضائل» / باب شبيهه ﷺ. رقم (٢٣٤١).

(٢) مسلم (٤/ ١٨٢٠)، كتاب «الفضائل» / باب في صفة فم النبي ﷺ وعينه وعقبه. رقم (٢٣٣٩).

(٣) «تهذيب اللغة» (١/ ٤٧٨).

(٤) «لسان العرب» (٨/ ٢٢٦).

(٥) مسلم (٤/ ١٨٢٤)، كتاب «الفضائل» / باب في صفة النبي ﷺ ومبعثه وسنه. رقم (٢٣٤٧).

الأمهق: شديد البياض، الآدم: شديد السمرة.

تسنون، فإذا نسيْتُ فذكرُوني...»<sup>(١)</sup>.

وعن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إنما أنا بشرٌ، وإنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحن بحجَّتِه من بعضٍ، فأقضي له على نحو ما أسمعُ، فمن قضيتُ له من حقِّ أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنَّما أقطعُ له قطعةً من النَّارِ»<sup>(٢)</sup>.

وعن رافع بن خديج قال: قدم نبيُّ الله ﷺ المدينة، وهم يأبرون النخل، يقولون يلحقون النخل، فقال: «ما تصنعون؟» قالوا: كنا نصنعه، قال: «لعلَّكم لو لم تفعلوا كان خيراً» فتركوه، فنفضت أو فنقصت، قال فذكروا ذلك له فقال: «إنما أنا بشرٌ، إذا أمرتُكم بشيءٍ من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتُكم بشيءٍ من رأيي، فإنَّما أنا بشرٌ»<sup>(٣)</sup>.

وعن أنس أن النبي ﷺ قال لأم سليم: «يا أمُّ سليمٍ أما تعلمين أن شرطي على ربِّي، أنِّي اشتريتُ على ربِّي فقلت: إنَّما أنا بشرٌ، أرضى كما يرضى البشرُ، وأغضب كما يغضبُ البشرُ، فأنيأ أحد دعوتُ عليه، من أمتي، بدعوةٍ ليس لها بأهلٍ، أن يجعلها له طهوراً وزكاةً، وقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ بها منه يوم القيامةِ»<sup>(٤)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (١/٥٠٣)، كتاب «الصلاة»/ باب التوجه نحو القبلة حيث كان. رقم (٤٠١)، ومسلم (١/٤٠٠)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة»/ باب السهو في الصلاة والسجود له. رقم (٥٧٢).

(٢) البخاري مع الفتح (١٢/٣٣٩)، كتاب «الحيل». رقم (٦٩٦٧)، ومسلم (٣/١٣٣٧)، كتاب «الأقضية»/ باب القضاء بالظاهر واللعن بالحجة. رقم (١٧١٣).

(٣) مسلم (٤/١٨٣٥-١٨٣٦)، كتاب «الفضائل»/ باب وجوب امتثال قوله شرعاً دون ما ذكره ﷺ من معاش الدنيا على سبيل الرأي. رقم (٢٣٦٢).

(٤) مسلم (٤/٢٠٠٩-٢٠١٠)، كتاب «البر والصلة»/ باب من لعنه النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه، وليس لذلك أهل. رقم (٢٦٠٣).

سابعاً: اصطفاؤه:

الرسالة ليست مكتسبة وإنما هي اصطفاء من الله تعالى. قال تعالى ﴿اللَّهُ يُصْطَفِي مَنِ الْمَلَكِ كَرُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾: [الحج: ٧٥]. ولما اعترض المشركون على نبوته ﷺ فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرَبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ردّ الله عليهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢]. فاختاره الله للرسالة من بين البشر كلهم مع أنه لم يكن يتطلع إليها كما كان يتطلع إليها بعض أهل الجاهلية. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ [الفصص: ٨٦].

ثامناً: عصمته ﷺ:

نبينا ﷺ معصوم في ما يبلغ عن الله تعالى، بدلالة الكتاب والسنة والإجماع. فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ۚ﴾ [٤٤] لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۚ﴾ [٤٥] ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۚ﴾ [٤٦] فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

فهذا نص صريح أن الله لا يؤيد من يكذب عليه، بل يعذبه، فإذا كان كذلك دلّ على أنه معصوم فيما يبلغه عن الله.

ومن السنة قوله ﷺ: «ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً، فخذوا به».

وفي رواية: «إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به»<sup>(١)</sup>.

وقوله ﷺ لعبد الله بن عمرو: «اكتب، فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق»<sup>(٢)</sup>.

(١) مسلم (٤/ ١٨٣٥ - ١٧٣٦)، كتاب «الفضائل»/ باب وجوب امتثال قوله شرعاً دون ذكره ﷺ من

معايش الدنيا على سبيل الرأي. رقم (٢٣٦١ و ٢٣٦٢).

(٢) أحمد (٢/ ١٦٢ و ١٩٢)، وأبو داود (٤/ ٦٠ - ٦١)، كتاب «العلم»/ باب في كتاب العلم. رقم =

وأجمعت الأمة على عصمته قال شيخ الإسلام: «إن الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله تعالى سبحانه وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه»<sup>(١)</sup>.

وكذلك هو معصوم مما وقع فيه أهل الجاهلية من الشرك وعبادة الأصنام ومن الكبائر بالإجماع. وقد شهد له بذلك ربه، فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ٢].  
تاسعاً: البلاغ.

بلغ النبي رسالة ربه كاملة كما شهد له ربه بذلك فقال: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وجه الدلالة: أن الله أخبر بأنه أكمل الدين، وإنما كمل بما بلغه رسوله ﷺ؛ إذ الدين لم يعرف إلا بتبليغه فعلم من ذلك أنه ﷺ قد بلغ جميع الدين الذي شرعه الله لعباده<sup>(٢)</sup>.  
وشهد له الصحابة رضي الله عنهم بالبلاغ حين قال لهم: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟»، قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال: بإصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد، اللهم اشهد» ثلاث مرات<sup>(٣)</sup>.

(٣٦٤٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٩/٤٩-٥٠) رقم (٦٤٧٩)، والدارمي (١/١١٩-١٢٠)،  
«المقدمة»/ باب من رخص في كتابة العلم. رقم (٤٨٤)، قال ابن حجر: «ولهذا طرق أخرى عن عبد  
الله بن عمرو يقوي بعضها بعضاً». «فتح الباري» (١/٢٠٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»  
(١/٣٨٥) رقم (١٢٠٧).

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٨٩-٢٩٠).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/١٥٥).

(٣) مسلم (٢/٨٨٦-٨٩٢)، كتاب «الحج»/ باب حجة النبي ﷺ. رقم (١٢١٨).

فشهد له خير القرون وهم صحابته رضوان الله عليهم، وكانوا في ذلك الموقف مائة ألف أو يزيدون.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «من حدثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل الله عليه، فقد كذب»، والله يقول: ﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧]<sup>(١)</sup>.

### عاشرًا: عموم رسالته:

كان الأنبياء السابقون يرسلون إلى أقوامهم خاصة، أما نبينا صلوات الله عليه فإن الله بعثه للناس أجمع. والأدلة التي تثبت عموم رسالته كثيرة جداً منها:

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨].

ومعلوم أن لفظة الناس تشمل الجن والإنس، قال تعالى: ﴿أَلَدَىٰ يُوَسْوِسُ فِي صُذُورِ النَّاسِ ۖ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٥-٦]. فسمى الله الجن في هذا الموضع ناساً كما سماهم في سورة الجن رجالاً. ويدل على دخول الجن في الناس قوله تعالى ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١].

وقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. (جن نصيبين)، فأثبت الله رسالته إلى الجن، فدل على دخولهم في الناس، إذا رسالته عامة للإنس والجن.

ويدل على عموم رسالته صلوات الله عليه أنها جاءت ناسخة لجميع الأديان. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومن السنة القولية: «أُعْطِيَ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي... ومنها: وكان النبي يُبْعَثُ

(١) سبق تخریجه.

إلى قومه خاصّة، وُبعثت إلى النَّاسِ عامّةً»<sup>(١)</sup>.

ومن السنة العملية: إرساله ﷺ الرسائل إلى جميع الناس «فكتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كلِّ جبارٍ يدعوهم إلى الله تعالى»<sup>(٢)</sup>، ثم سير الجيوش لغزو النصارى ومشركي العرب، وكذلك فعل أصحابه من بعده، والتابعون لهم بإحسان.

### حكم الإيمان به:

الإيمان بالنبي ﷺ أصل من أصول الدين لا يصح دين ولا إيمان بدونه<sup>(٣)</sup>، أمر الله به في كتابه وقرنه بوجوب الإيمان به في أي كثيرة من كتابه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

وقوله تعالى: ﴿فَءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨] وتوعد من لم يؤمن به بالنار فقال: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح: ١٣]. وجعله النبي ﷺ مفتاح دعوته وأسهلها بعد الإيمان بالله فقال في حديث معاذ عندما أرسله إلى اليمن «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ...»<sup>(٤)</sup>.

(١) سبق تخريجه.

(٢) مسلم (١٣٩٧/٣)، كتاب «الجهاد والسير»/ باب كتب النبي إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل. رقم (١٧٧٤).

(٣) انظر: «الشفاء» للقاضي عياض (٥٣٨/٢).

(٤) سبق تخريجه.



وتوعد ﷺ من لم يؤمن بنبوته ورسالته بنار جهنم، فقال: «والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ، وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»<sup>(١)</sup>.

وقد أجمعت الأمة على وجوب الإيمان به ﷺ<sup>(٢)</sup>. فمن لم يؤمن به كفر.

(١) سبق تخريجه.

(٢) «شرح السنة» للبرهاري (٩٦)، و«عقيدة السلف» للصابوني (١٦١)، و«مجموع الفتاوى» (٩/١٩).

وَلَهُ مِنَ الْعُمْرِ ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النَّبُوَّةِ، وَثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ نَبِيًّا  
رَسُولًا.

ثم انتقل إلى بيان عمر النبي ﷺ فقال: (وَلَهُ مِنَ الْعُمْرِ ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً)، ويدل  
لذلك حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قبض رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين  
سنة، وأبو بكر، وهو ابن ثلاث وستين، وعمر وهو ابن ثلاث وستين»<sup>(١)</sup>. وبمثله قالت  
عائشة<sup>(٢)</sup>، وعبد الله بن عمر<sup>(٣)</sup>، ومعاوية<sup>(٤)</sup>، وابن عباس<sup>(٥)</sup> رضي الله عنهم.

قوله: (منها أربعون قبل النبوة، وثلاث وعشرون نبياً رسولاً): أي أنه نبى بعد أن بلغ  
من العمر أربعين سنة ويدل لذلك حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: «بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
لأربعين سنةً فَمَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُوحَى إِلَيْهِ ثُمَّ أُمِرَ بِالْهَجْرَةِ فَهَاجَرَ عَشْرَ سِنِينَ  
وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ»<sup>(٦)</sup>.

ولم يكن ﷺ قبل أن يوحى إليه نبياً؛ لأنه لا علم له بذلك قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا  
إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ...﴾ [الشورى: ٥٢].

- 
- (١) مسلم (٤/ ١٨٢٥)، كتاب «الفضائل» / باب كم سن النبي ﷺ يوم قبض. رقم (٢٣٤٨).  
(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٥٥٩)، كتاب «المناقب» / باب وفاة النبي ﷺ. رقم (٣٥٣٦)، ومسلم  
(٤/ ١٨٢٥)، كتاب «الفضائل» / باب كم سن النبي ﷺ يوم قبض. رقم (٢٣٤٩).  
(٣) مسلم (٤/ ١٨٢٦)، كتاب: «الفضائل» / باب كم سن النبي ﷺ يوم قبض. رقم (٢٣٥٢).  
(٤) المرجع السابق.  
(٥) مسلم (٤/ ١٨٢٧)، كتاب «الفضائل» / باب كم سن النبي ﷺ يوم قبض. رقم (٢٣٥٣).  
(٦) البخاري مع الفتح (٧/ ٢٢٧)، كتاب «مناقب الأنصار» / باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.  
رقم (٣٩٠٢).

قال البغوي: «مَا كُنْتُ تَدْرِي» قبل الوحي «مَا أَلَكْتُبُ وَلَا أَلَايْمَنُ» يعني شرائع الإيمان ومعامله<sup>(١)</sup>.

وقد نقل شيخ الإسلام الإجماع على ذلك فقال: «فإن الله إنما نبأه على رأس أربعين من عمره، وقد قال له: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنَّ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] وقال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧] وفي «الصحاحين»: أن الملك قال له حين جاءه: اقرأ فقال: «لست بقارئ» ثلاث مرات<sup>(٢)</sup>، ومن قال إن النبي ﷺ كان نبياً قبل أن يوحى إليه فهو كافر باتفاق المسلمين<sup>(٣)</sup>.

قوله: (وَثَلَاثُ وَعِشْرُونَ نَبِيًّا رَسُولًا)؛ أي: أن مدة جمعه بين الرسالة والنبوة ثلاث وعشرون سنة. ويدل لذلك حديث ابن عباس السابق حيث قال: «بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أُمِرَ بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة».

فإذا جمعت ثلاث عشرة مع عشر سنين صارت ثلاثاً وعشرين سنة.

قوله نَبِيًّا رَسُولًا: أي جمع بين النبوة والرسالة.

النُّبُوَّةُ: مشتقة مِنَ الْإِنْبَاءِ بمعنى الإخبار أَوْ مِنَ النَّبُوَّةِ بمعنى الرفعة والعلو أَوْ مِنَ النَّبِيِّ وهو الطريق الواضح<sup>(٤)</sup>.

والنُّبُوَّةُ تشمل هذه الأمور الثلاثة وإن كان شيخ الإسلام يرجح أَنَّ النَّبِيَّ مشتقٌّ من

(١) «معالم التنزيل» (٤/ ١٣٢).

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ٢٣)، كتاب «بدء الوحي». رقم (٣)، ومسلم (١/ ١٣٩-١٤٢)، كتاب «الإيمان» / باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ. رقم (١٦٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٨٣-٢٨٤) وفيه بقية كلام نفيس فراجع إن شئت.

(٤) «لسان العرب» (١/ ١٦٢) مادة (نبا).

الإنباء؛ لأنَّ الرفعة والعلوَّ قد تكون لغيرهم وإن كانوا هم أعلى الناس وأرفعهم<sup>(١)</sup>.  
والنبيّ فعيل. وفعل قد يكون بمعنى فاعل أي مُنبئ وقد يكون بمعنى مفعول أي مُنبأ وهما متلازمان، وذلك أنَّ الله قد أنبأه وأمره أن يُنبئَ الناس بما نَبَّأَهُ اللهُ به<sup>(٢)</sup>.  
وفي الاصطلاح: هو رجل بشر أوحى إليه بشرع مَنْ قَبْلَهُ وأرسل إلى قوم مؤمنين<sup>(٣)</sup>.  
وقيل: «المبعوث لتقرير شرع مَنْ قَبْلَهُ».

أما كونه رجلاً فلا أن الله لما ذكر الأنبياء ذكرهم بصيغة التذكير فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ فقال: «نبي» بصيغة المذكر ولما جمع الأنبياء قال: ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [الأنبياء: ٨٤] فأتى بصيغة جمع المذكر السالم، وأما كونه أوحى إليه بشرع من قبله فيدل له قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤].

فالنبون يحكمون بالتوراة والتوراة منزلة على موسى عليه السلام، وأما أنهم أرسلوا وأمروا بالتبليغ فيدل له قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢].  
ففي هذه الآية دليل على أنَّ الإرسال وقع على كلٍّ من الرسول والنبي فإذا الرسول مرسل والنبي مرسل قال شيخ الإسلام عند هذه الآية: «فذكر إرسالاً يعمُّ النوعين»<sup>(٤)</sup>.

وقال الشنقيطي بعد كلام سبق: «وآية الحج هذه تبين أن ما اشتهر على ألسنة أهل العلم من أنَّ النبي هو مَنْ أوحى إليه وَحْيٌ ولم يؤمر بتبليغه، وأنَّ الرسول هو النبي الذي

(١) انظر: «النبوات» (٢/ ٨٨٣).

(٢) انظر: «النبوات» (٢/ ٨٧٣ و ٦٨٧-٦٨٨).

(٣) انظر: «النبوات» (٢/ ٧١٤-٧١٨)، و«أضواء البيان» (٥/ ٧٣٥).

(٤) «النبوات» (٢/ ٧١٤).

أوحى إليه وأمر بتبليغ ما أوحى إليه غير صحيح؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ يدل على أن كلا منهما مرسل وأنهما مع ذلك بينهما تغاير<sup>(١)</sup>.

ومن السنة: حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي»<sup>(٢)</sup>.

«والسياسة: هي القيام على الشيء بما يصلحه»<sup>(٣)</sup> في أمور الدين والدنيا ولما كانت الأنبياء تسوسهم وتعلمهم، وكان الناس يطلبون منهم ما يريدون مما يصلح دينهم ودنياهم. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

والمراد بقولهم مؤمنين أنهم يؤمنون بأن ما جاء به حق فلا يحتاج الأمر إلى إقناعهم بصحة الكتاب الذي يأمرهم باتباعه.

يوضحه حال المجددين من العلماء في أمة محمد ﷺ فإنهم لا يحتاجون إلى إقناع الناس بصحة القرآن أو برسالة محمد ﷺ وإن كانت عندهم المعاصي والمخالفات الكثيرة التي ربما تصل إلى حد الشرك الأكبر.

قال شيخ الإسلام: «فقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ دليل على أن النبي مرسل ولا يسمى رسولاً عند الإطلاق لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق كالعالم ولهذا قال النبي ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»<sup>(٤)</sup>»<sup>(٥)</sup>.

(١) «أضواء البيان» (٥/ ٧٣٥).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ٤٢١).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) «النبوات» (٢/ ٧١٨).

أما الرسول في اللغة فمشتق من الرِّسَل وهو الانبعاث فيكون معنى الرسول المنبعث<sup>(١)</sup>.

أو من الرِّسَل وهو التابع فيكون هو الذي يتابع أخبار من بعثه<sup>(٢)</sup>.

وفي الاصطلاح: رجلٌ بشر أوحى إليه بشرع جديد، وأرسل إلى قوم كافرين<sup>(٣)</sup>.

أما كونه رجلاً بشراً من بني آدم فيدل له قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩].

وأما كونه بشرع جديد فذلك لأنَّ كلَّ رسول نزل عليه كتاب من عند الله يدعو إليه.

أما إنه أرسل إلى قوم كافرين فيدل له حال أقوام الرسل كلهم من نوح إلى محمد صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين فإنهم كذبوهم وحاربوهم واتهموهم بكل نقيصة ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ ٥٢ ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

وقوله نبياً رسولاً: يدل على أنه يرى أنَّ الرسول غير النبي، وهذا هو الحق فمرتبة النبوة أدنى من مرتبة الرسالة فكل رسول نبي وليس كل نبي رسول. ومن أدلة التفريق بينهما ما يلي:

١ - قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢].

وجه الاستدلال بالآية من وجهين: أحدهما: أن الله عطف النبي على الرسول بالواو والعطف يقتضي المغايرة: مغايرة الذات أو مغايرة الصفات. فلما تغيرت صفتاهما دل على أن الصفة التي صار بها رسولاً غير الصفة التي صار بها نبياً.

(١) «المفردات» (١٩٥) مادة (رسل).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٢ / ٣٩١-٣٩٥) مادة (رسل).

(٣) انظر: «النبوات» (٢ / ٧١٤).

قال شيخ الإسلام عند هذه الآية: «فذكر إرسالاً يعم النوعين وقد خص أحدهما بأنه رسول فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كنوح»<sup>(١)</sup>.

الثاني: مجيء «لا» هنا في تأكيد النفي في أول الآية وهو قوله «وما أرسلنا» فهو على تقدير تكرير الجملة المنفية من أولها كأنه قال: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا أرسلنا من قبلك من نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته<sup>(٢)</sup>.

٢- ما ورد في وصف نوح عليه السلام، «أنه أول رسول بعثه إلى أهل الأرض»<sup>(٣)</sup>. مع أن آدم كان قبله وقد وصفه النبي ﷺ بالنبوة فقال: «آدم نبي مكرم»<sup>(٤)</sup>.

فوصف نوح بأنه أول رسول مع أن آدم كان قبله يدل على التغاير بينهما ولو كانا شيئاً واحداً لما صح أن يوصف نوح بأنه أول رسول إلى أهل الأرض.

٣- أن الله وصف بعض رسله بذلك من دون عطف بعضها على بعض فدل على أنها أوصاف متغايرة لموصوف واحد كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فالرسول غير النبي غير الأمي.

وفي وصفه تعالى لكل من موسى وإسماعيل عليهما السلام ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥١-٥٤].

(١) «النبوات» (٢/ ٧١٤).

(٢) «اللآلئ البهية شرح الواسطية» (١/ ٥٤-٥٥).

(٣) البخاري مع الفتح (٨/ ١٦٠)، كتاب «التفسير» / باب قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. رقم

(٤٤٧٦)، ومسلم (١/ ١٨٠-١٨١)، كتاب «الإيمان» / باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. رقم (١٩٣).

(٤) سبق تخرجه.

## نُبِئَ بِاقْرَأَ، وَأُرْسِلَ بِالْمَدَّثَرِ.

أي: جعله الله نبياً حين أنزل عليه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]. وذلك أول ما نزل عليه ﷺ ويدل على أنه نبى باقراً حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان أول ما بُدئَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصّادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصّبح، ثم حُبِبَ إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه (وهو التّعبّد) اللَّيالي ذوات العدَدِ قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها، حتّى جاءه الحقّ وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقْرَأْ، قال: «مَا أَنَا بِقَارِيٍّ»، قال: «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حتّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي»، فقال: اقْرَأْ، قلت: «مَا أَنَا بِقَارِيٍّ»، قال: «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حتّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي» فقال: اقْرَأْ، فقلت: «مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي»، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ١-٢]. فرجع بها رسول الله ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: «زُمَّلُونِي زُمَّلُونِي»، فزَمَلُوهُ حتّى ذهب عنه الرّوع... (١). وكان ذلك في العشر الآخر من رمضان، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ (٢) ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٣-٤].

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ﴾: الباء للاستعانة أي اقرأ مستعيناً به لأن أسماء الله كلها خير وبركة.

﴿رَبِّكَ﴾: ذكره باسم الربوبية لأن المقام مقام ربوبية وتصرف وتدبير للأموال وابتداء

رسالة.



﴿الَّذِي خَلَقَ﴾: الخلق هو الإيجاد على غير مثال سابق. وحذف المفعول إشارة إلى العموم لأن حذف المفعول يفيد العموم إذ لو ذكر المفعول لتقيد الفعل به أي عموم خلق كل شيء ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ، فَقَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾: «خص الإنسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته وأنه لا إله غيره ولا رب سواه»<sup>(١)</sup>. ولذلك كرمه وفضله فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

﴿مِنْ عَلَقٍ﴾: العلق هو الدم والمراد به من علقه أي قطعة الدم الصغيرة، وإنما ذكر العلق بصيغة الجمع ليتناسب مع ذكر الإنسان<sup>(٢)</sup>.

قوله «وأرسل بالمدثر»: أي بعث بها وصار رسولاً، وذلك أنه جاءه الأمر بإنذار الناس ودعوتهم إلى الدين الحنيف.

وهذه السورة نزلت بعد العلق ويدل لذلك حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله وهو يحدث عن فترة الوحي «بينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعتُ بصري، فإذا الملكُ الذي جاني بحراءٍ جالسٌ على كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ففرقتُ منه، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»؛ فدثروه، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ١-٥]<sup>(٣)</sup>.

«فهذا يبين أنَّ المدثر نزلت بعد تلك الفترة، وأن ذلك بعد أن عاين الملك الذي جاءه

(١) «مفتاح دار السعادة» (٥٨).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٥٢٧/٢٤).

(٣) البخاري مع الفتح (٧١٥/٨)، كتاب «التفسير»/ باب سورة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. رقم (٤٩٥٤).

بحراء أوّلًا. فكان قد رأى الملك مرتين»<sup>(١)</sup>. «فسورة اقرأ هي أول ما نزل من القرآن... فلما أمر بأن يقرأ أنزل عليه بعدها المدثر لأجل التبليغ ف قيل له: ﴿قُرْأَنَازِن﴾ فبالأولى صار نبيًا، وبالثانية صار رسولًا»<sup>(٢)</sup>.

### دلائل نبوته ﷺ:

دلائل نبوته ﷺ كثيرة جدًا اعتنى بها العلماء حتى ألف فيها أربعون مؤلفًا أو تزيد. ولما كان المقام هنا مقام اختصار وليس مقام بسط فإني أقسمها إلى ثلاثة أقسام رئيسة وأذكر نماذج منها تدل على المقصود:

### القسم الأول: الدلائل المقررة والمسموعة:

وأنواعها أربعة، هي:

#### ١ - القرآن الكريم:

أعظم دلائل النبوة على الإطلاق هو القرآن الكريم، ولذلك لما ذكر النبي ﷺ آيات الأنبياء التي آمن بسببها من آمن لم يذكر له آية غير القرآن حيث قال: «ما من نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»<sup>(٣)</sup>.

وسرّ عظمة القرآن وكونه أعظم دلائل النبوة هو أنّ المعجزات الحسية مخصوصة بزمنها ومن شاهدها، أما القرآن الكريم فهو كلام الله، ودائم بدوام الدنيا - إلى أن يرفعه الله - مشتمل على الحجة والبيان والفصاحة، مستمر على تحدي الجنّ والإنس أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله إلى أبد الدهر، ولهذا صار النبي ﷺ أكثر الأنبياء تابعاً يوم القيامة.

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٥٨/١٦).

(٢) المرجع السابق (٤٧٧/١٦).

(٣) سبق تخرجه.

## ٢- بشارات الكتب السابقة:

بشّرت الكتب السابقة بنبينا محمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، بل إنّها ذكرت صفاته حتى كأنّ الناس رأوه بأعينهم من شدة وضوح صفاته: ﴿يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

## والبشارات في هذا كثيرة ومنها:

أ- قوله: «جاء الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران»<sup>(١)</sup> وفاران هي مكة، وذلك أنّه ثبت عندهم أن إسماعيل تربى في برية فاران، ومن المعلوم المتفق عليه أن إسماعيل تربى في مكة<sup>(٢)</sup>.

والاستعلان هو الظهور، ودين الله ظهر على يدي النبي محمد ﷺ من مكة.

وقوله: «جاء الله من التيمن وظهر القدس على جبال فاران، وامتألت الأرض من تحميد «أحمد» وملك بيمينه رقاب الأمم وأنارت الأرض لنوره وحملت خيله في البحر»<sup>(٣)</sup>.

وقال أشعيا النبي معلناً باسم رسول الله ﷺ: «إني جعلت أمرك يا محمد يا قدوس الرب، اسمك موجود من الأبد»<sup>(٤)</sup>.

وصرح في اسمه ﷺ دانيال عليه السلام فقال: «ستنزع في قسيك إغراقاً وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواءً»<sup>(٥)</sup>.

(١) «سفر التثنية الإصحاح الثالث والثلاثون» (١-٣) «العهد القديم» (٣٦٢) نقلاً عن «الجواب الصحيح» (٢٠٧/٥).

(٢) انظر: «الجواب الصحيح» (٥/٢١٠-٢١٣).

(٣) «سفر حبقوق، الإصحاح الثالث» (٣-٨) «العهد القديم» (١٠٤٦) نقلاً عن «الجواب الصحيح» (٢٢٢-٢٢٣).

(٤) «الجواب الصحيح» (٥/٢٥٧).

(٥) «الجواب الصحيح» (٥/٢٧٥).

## ٣- الإخبار بالغيوب الماضية:

كالإخبار بقصة خلق آدم وإسكانه الجنة وما وقع له مع إبليس ونزوله إلى الدنيا، ونوح مع قومه، ويوسف مع إخوته، وغير ذلك من الأخبار التي لا يمكن أن يعلمها إلا نبي أو من أخذها من نبي ولما قص الله عليه قصة نوح قال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

فإذا كان هو لا يعلم ذلك ولا يعلمها قومه ولم يكن قارئاً فيقرأ كتب من سبقه، ولم يتعلم من بشر تعين أن يكون ﷺ نبياً<sup>(١)</sup>.

## ٤- الإخبار بالغيوب المستقبلية:

وردت الأخبار بالغيوب المستقبلية فمنها ما وقع كما جاء في الخبر، ومنها ما سيقع ولكنه لم يحن وقت وقوعه بعد.

ومن الأخبار التي وقعت: دخول المسلمين المسجد الحرام، وإخبار النبي ﷺ فاطمة ابنته بأنها أول أهل بيته لحوقاً به<sup>(٢)</sup>، وفتح بيت المقدس قال ﷺ «اعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس»<sup>(٣)</sup>، وغيرها كثير.

ومن الأخبار التي لم يحن وقت وقوعها بعد وستقع كما أخبر ﷺ إخباره أنه «لا تقوم الساعة... حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً»<sup>(٤)</sup>، وأنه: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول

(١) انظر: «الجواب الصحيح» (٣١٩/٥-٣٥٢).

(٢) مسلم (٤/١٩٠٤-١٩٠٥)، كتاب «فضائل الصحابة» / باب فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ. رقم (٢٤٥٠).

(٣) البخاري مع الفتح (٦/٢٧٧)، كتاب «الجزية والموادعة» / باب ما يحذر من الغدر. رقم (٣١٧٦).

(٤) مسلم (٢/٧٠١)، كتاب «الزكاة» / باب الترغيب في الصدقة قبل ألا يجد من لا يقبلها. رقم (١٥٧).

الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله؛ إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود»<sup>(١)</sup>. وعودة الأصنام مرة أخرى: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة»<sup>(٢)</sup>، وغير ذلك من الأخبار الكثيرة التي أخبر بها النبي ﷺ.

### القسم الثاني: الآيات الفعلية:

وتنقسم الآيات الفعلية إلى قسمين هما:

آيات العالم العلوي، ومنها:

انشقاق القمر، قال تعالى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

انشق القمر حتى رآه الناس، كما في حديث أنس بن مالك قال: «سأل أهل مكة رسول الله أن يرهم آية فأراهم انشقاق القمر». وفي رواية ابن مسعود رضي الله عنه: «انشق القمر على عهد رسو الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا»، وفي لفظ: «فقال لنا: اشهدوا، اشهدوا»<sup>(٣)</sup>، «شقة على أبي قبيس وشقة على السويداء»<sup>(٤)</sup>.

وجعل الله انشقاق القمر دون الشمس والكواكب لأمرين:

١ - أنه أقرب إلى الأرض من الشمس والنجوم.

(١) مسلم (٤/ ٢٢٣٩)، كتاب «الفتن وأشرار الساعة» / باب لا تقوم حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء. رقم (٢٩٢٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البخاري مع الفتح (٨/ ٦١٧)، كتاب «التفسير» / باب: ﴿وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ① وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا. رقم (٤٨٦٧، ٤٨٦٤، ٤٨٦٥)، ومسلم (٤/ ٢١٥٨-٢١٥٩)، كتاب «صفات المنافقين وأحكامهم» / باب انشقاق القمر. رقم (٢٨٠٠).

(٤) «المستدرک» (٢/ ٥١٢)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه بهذه السياقة».

٢- أن جسمه مستنير يظهر فيه الانشقاق لكل من يراه ظهوراً لا يتماهى فيه<sup>(١)</sup>.

ومنها حراسة السماء بالشهب التي تمنع الجن من استراق السمع قال تعالى: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾<sup>(٨)</sup> وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسَمِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن: ٨-٩].

ومنها عروجه إلى السماء حتى بلغ مبلغاً لم يبلغه أحد غيره ووصل إلى سدره المنتهى وسمع صريف الأقلام<sup>(٢)</sup>. وغير ذلك.

## ٢- آيات العالم السفلي:

أي ما ورد من الآيات التي وقعت على الأرض وهذا النوع من الآيات كثيرة جداً ومنها:

أ- عن جابر رضي الله عنه قال: «عطش الناس يوم الحديبية والنبي صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة فتوضأ، فجهش الناس نحوه، قال: «ما لكم؟» قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه، كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا. قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنّا مائة ألفٍ لكفانا، كنّا خمس عشرة مائة»<sup>(٣)</sup>.

ب- ما وقع للرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين حيث إنه صلى الله عليه وسلم أخذ حصيات فرمى وجوه الكفار، ثم قال: «انهزموا ورب محمد»، قال العباس: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله، ما هو إلا أن رماهم بحصياتيه فما زلت أرى حدّهم قليلاً، وأمرهم

(١) انظر: «الجواب الصحيح» (٦/ ١٦٠).

(٢) انظر: البخاري مع الفتح (١/ ٤٥٨-٤٥٩)، كتاب «الصلاة»/ باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء. رقم (٣٤٩)، ومسلم (١/ ١٤٨-١٤٩)، كتاب «الإيمان»/ باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات وفرض الصلوات. رقم (١٦٣).

(٣) البخاري مع الفتح (٦/ ٥٨١)، كتاب «المنقب»/ باب علامات النبوة في الإسلام. رقم (٣٥٧٦).

مدبراً، زاد في لفظ: حتّى هزمهم الله»<sup>(١)</sup>.

ج- عن ابن عباس، قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال: بم أعرف أنك نبي، قال: إن دعوت هذه العذق من هذه النخلة، أتشهد أني رسول الله، فدعاه رسول الله ﷺ فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي ﷺ، ثم قال: ارجع فعاد، فأسلم الأعرابي<sup>(٢)</sup>.

د- نصر الله له على أعدائه: نصر الله لنبيه محمد ﷺ على أعدائه دليل واضح على صدق نبوته فقد وعد سبحانه رسله وأوليائه بالنصر على أعدائهم فقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْنَا لِعِبَادِنَا الْأَمْسَلِينَ﴾ (١٣١) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (١٣٢) ﴿وَلَقَدْ جَاءَنَا لَهُمُ الْغُلُوبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

ولقد تحقق وعد الله بنصر نبيه محمد ﷺ على الأديان كلها، وزوى له الأرض مشارقها ومغاربها فبلغ ملك أمته ما زوى له منها فتدكدت عروش كسرى وقصر أمام جيوش المسلمين.

قال شيخ الإسلام: «وقد أيده -الله- تأييداً لا يُؤَيَّدُ به إلا الأنبياء، بل لم يؤيد أحد من الأنبياء، كما أُيِّدَ به، كما أنه بعثه بأفضل الكتب إلى أفضل الأمم بأفضل الشرائع، وجعله سيد ولد آدم ﷺ، فلا يعرف قط أحد ادعى النبوة وهو كاذب إلا قطع الله دابره وأذله وأظهر كذبه وفجوره»<sup>(٣)</sup>.

(١) مسلم (٣/١٣٩٨)، كتاب «الجهاد والسير» / باب في غزوة حنين. رقم (١٧٧٥).

(٢) الترمذي (٥/٥٩٤)، كتاب «المناقب» رقم (٣٦٢٨)، وقال: «هذا حديث حسن غريب صحيح»، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/١١٠) رقم (١٢٦٢٢)، والحاكم في «المستدرک» (٢/٦٧٦)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه».

(٣) «الجواب الصحيح» (١/٤١٠).

### القسم الثالث: صفاته وخلالاله الكريمة:

صفاته الخلقية والخلقية كلها تدل على نبوته ﷺ وكرمه على الله عز وجل، استدلت بها خديجة رضي الله عنها على علو منزلته فقالت له لما نزل عليه الوحي وقال: «لقد خشيتُ على نفسي»: كلا والله ما يُخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم وتحمل الكلَّ وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق<sup>(١)</sup>.

ومن أعظم خلالاله الدالة على نبوته صدقه حتى إن هرقل لما سأل أبا سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال هرقل: لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله<sup>(٢)</sup>.

وكانت أخلاقه تدعو الناس للإيمان بنبوته قال الجُلندي ملك عمان «لقد دلني على هذا النبي الأُمِّي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له وأنه يغلب فلا يبطر. ويُغلبُ فلا يَضجر، وأنه يفِي بالعهد وينجز الوعد وأشهد أنه نبي<sup>(٣)</sup>».

وأما صفاته الخلقية فهي صفات الكمال من الرجال صلوات ربي وسلامه عليه<sup>(٤)</sup>.

### حقوق النبي ﷺ وثمرات معرفته:

للنبي ﷺ حقوق يجب أن تؤدي ولمعرفته ثمرات عظيمة أهمها:

#### ١ - اتباعه في جميع ما يأمر به وينهى عنه:

اعتقاد عصمة الرسول ﷺ في إبلاغ دين الله توجب على العبد اتباع جميع ما يقوله

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «الشفاء» (١/ ١٦٥)، و«الروض الأنف» (٧/ ٥١٦).

(٤) انظر: «مختصر الشئائل» للترمذي (١٨-٢٦).



ﷺ قال تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

قال شيخ الإسلام: «فأمر عند التنازع بالرد إلى الله وإلى الرسول إذ المعصوم لا يقول إلا حقاً. ومن علم أنه قال الحق في موارد النزاع وجب إتباعه»<sup>(١)</sup> بل «اتفقوا أن حبه ﷺ لا يتحقق إلا باتباع آثاره، والتسليم لما جاء به، والعمل على سنته، وترك ما خالف قوله»<sup>(٢)</sup>.

## ٢ - معرفته ﷺ عند الرؤيا:

الشیطان لا يتمثل به ﷺ كما في حديث أنس رضي الله عنه قال النبي ﷺ «من رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل بي»<sup>(٣)</sup>.

(فإن الشيطان لا يتمثل بي): أي لا يستطيع أن يكون مرئياً بصورتي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي يقول: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي»، قال أبو عبد الله: قال ابن سيرين: إذا رآه في صورته<sup>(٤)</sup>.

وعن أيوب قال: «كان محمد (ابن سيرين) إذا قص عليه رجل أنه رأى النبي قال: صف لي الذي رأيته فإن وصف له صفة لا يعرفه قال: لم تره»<sup>(٥)</sup>.

وفي رواية لمسلم: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، أو لكانما رآني في اليقظة لا يتمثل الشيطان بي»<sup>(٦)</sup>، وفي رواية جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتشبه

(١) «مجموع الفتاوى» (١٢١/٣٥) وفيها زيادة فراجعها إن شئت.

(٢) «مختصر الصواعق» (١٤٤٧/٤).

(٣) البخاري مع الفتح (٣٨٣/١٢)، كتاب «التعبير» / باب من رأى النبي ﷺ في المنام. رقم (٦٩٩٤).

(٤) البخاري مع الفتح (٣٨٣/١٢)، كتاب «التعبير» / باب من رأى النبي ﷺ في المنام. رقم (٦٩٩٣).

(٥) «فتح الباري» (٣٨٤/١٢) قال ابن حجر: «سنده صحيح».

(٦) مسلم (١٧٧٥/٤)، كتاب «الرؤيا» / باب قول النبي ﷺ: «من رآني في المنام؛ فقد رآني». رقم (٢٢٦٦).

بي»<sup>(١)</sup>، وأحسن الأقوال في قوله «فَسِيرَانِي فِي الْيَقَظَةِ»:

أ- أنه يراني يوم القيامة.

ب- لكانها رآني في اليقظة فتكون اللفظة الثانية مفسرة للأولى، ولعلها أقرب.

٣- الثقة بصحة ما يقول: الإيـمان بنبوته ﷺ تحتم على المسلم الثقة بصحة ما يقول أوثق من رؤيته للشيء بعينه؛ لأن عينه قد تزيع وتطغى، أما قول الرسول ﷺ فهو وحي من الله جل وعلا فلا أصدق منه، ومن أصدق من الله قيلا، ومن أصدق من الله حديثا، وليكن القدوة في ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندما أراد المشركون أن يشككوه في رسالة النبي ﷺ فقالوا له: هل لك في صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس، فقال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق... إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدق به خبر السماء في غُدُوةٍ أو رَوْحَةٍ، فلذلك سمي أبو بكر الصديق<sup>(٢)</sup>.

٤- محبته ﷺ ومحبة ما يحب:

محبته ﷺ من أعظم حقوقه علينا، والأدلة على محبته ووجوبها كثيرة متنوعة منها:

أ- ما يدل على نفي الإيـمان عمن لم يقدم محبة الرسول على غيره حيث قال: «لا يؤمن أحدكم، حتّى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والنّاس أجمعين»<sup>(٣)</sup>، وفي رواية: «فوالذي نفسي بيده لا يؤمن...»<sup>(٤)</sup>.

ب- أن حلاوة الإيـمان لا توجد إلا بها. قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ من كنّ فيه وجد حلاوة الإيـمان: أن يكون الله ورُسُولُهُ أحبّ إليه ممّا سواهما، وأن يُحبّ المرء لا يُحِبُّه إلا الله،

(١) مسلم (٤/١٧٧٦)، كتاب «الرؤيا» / باب قول النبي ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني». رقم (٢٢٦٨).

(٢) «المستدرک» (٣/٦٥)، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٣) سبق تخريجه.

(٤) البخاري مع الفتح (١/٥٨)، كتاب «الإيـمان» / باب حب الرسول ﷺ من الإيـمان. رقم (١٤).

وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار»<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الحديث دلالة واضحة على أن المحبة لا تحصل إلا بثلاثة أمور:

أ- تكميل هذه المحبة: فتكملها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

ب- تفريعها: أن يحب المرء لا يحبه إلا الله.

ج- دفع ضدها: أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار»<sup>(٢)</sup>.

فيبغض الكفر وأهله ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ [المتحنة: ٤].

ولقد حاز الصحابة رضي الله عنهم قصب السبق في محبته ﷺ ومن ذلك:

ما قال عمر رضي الله عنه للعباس: «أسلم فوالله أن تُسلم أحب إليّ من أن يسلم الخطاب؛ لأن ذلك أحب إلى رسول الله ﷺ»<sup>(٣)</sup>.

وعندما سئل علي بن أبي طالب كيف كان حبكم لرسول الله ﷺ؟ قال: «كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ»<sup>(٤)</sup>.

وقال عمرو بن العاص: «وما كان أحد أحب إليّ من رسول الله ولا أجلّ في عيني

(١) سبق تخريجه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٠٦/١٠).

(٣) «مسند البزار» (١٨٢/١١).

(٤) «الكامل» (١٧٩/٢)، و«الشفاء» للقاضي عياض (٥٢/٢).

منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أعطت لأني لم أكن أملأ عيني منه»<sup>(١)</sup>.

وقول خبيب لأهل مكة لما رفعوه على الخشبة أحب أن محمداً مكانك قال: لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدميه»<sup>(٢)</sup>.

وحينما أرادوا قتل زيد بن الدثنة اجتمع رهط من قريش، ومنهم أبو سفيان، فقال أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك إلى الله يا زيد، أحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي. قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً<sup>(٣)</sup>.

ويصف عروة بن مسعود محبة أصحاب النبي ﷺ له، فيقول: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت على كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له<sup>(٤)</sup>.

قال شيخ الإسلام: «ومن ذلك أنه أخبر أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن حقه أن يحب. أن يؤثره العطشان بالماء والجائع بالطعام، وأنه يحب أن يوقى بالأنفس والأموال كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا

(١) مسلم (١/١١٢)، كتاب «الإيمان» / باب كون الإسلام يهدم ما قبله، وكذا الهجرة والحج. رقم (١٢١).

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي (٣/٣٢٦-٣٢٧).

(٣) «السيرة» لابن هشام (٣/٩٧٢).

(٤) البخاري مع الفتح (٥/٣٢٩-٣٣٣)، كتاب «الشروط» / باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط. رقم (٢٧٣١-٢٧٣٢).

بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ» [التوبة: ١٢٠].

فعلم أن رغبة الإنسان بنفسه أن يصيبه ما يصيب رسول الله ﷺ من المشقة معه حرام»<sup>(١)</sup>.

أما محبة ما يحب، فيدل لها قوله ﷺ: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»<sup>(٢)</sup>.

وقوله ﷺ: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»<sup>(٣)</sup>.

وقال عن أصحابه: «فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحَبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ»<sup>(٤)</sup>.

فربط النبي ﷺ محبة الصحابة ﷺ بمحبته فمن لم يحب الصحابة لم يحب النبي ومن أبغض الصحابة فقد أبغض النبي ﷺ.

قال أنس رضي الله عنه فرحاً بمحبته لرسول الله ﷺ وصحابته لما سمع قوله ﷺ: «فإنك مع من أحببت»، فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم»<sup>(٥)</sup> بل تعدى ذلك، فأحبوا ما يحبه ﷺ من الأمور الاعتيادية كمحبة أنس رضي الله عنه للدباء لما رأى رسول الله ﷺ يتتبع الدباء من حول القصعة، قال: «فلم أزل أحب الدباء

(١) «الصارم المسلول» (٤٢١).

(٢) البخاري مع الفتح (١١٣/٧)، كتاب «مناقب الأنصار» / باب حب الأنصار من الإيمان. رقم (٣٧٨٣)، ومسلم (٨٥/١)، كتاب «الإيمان» / باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنه من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق. رقم (٧٥).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أحمد (٨٧/٤).

(٥) مسلم (٢٠٣٢-٢٠٣٣)، كتاب «البر والصلة» / باب المرء مع من أحب. رقم (٢٦٣٩).

من يومئذ»<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - تعزيره وتوقيره:

التعزير: اسم جامع لنصره وتأَييده ومنعه من كل ما يؤذيه<sup>(٢)</sup>.

والتوقير: «هو التعظيم والإجلال والتفخيم»<sup>(٣)</sup>، وعرفه شيخ الإسلام، فقال: «اسم جامع لكل ما فيه سكينه وطمأنينة من الإجلال والإكرام وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرج به عن حدِّ الوقار»<sup>(٤)</sup>.

وعرفه ابن القيم فقال: «هو التعظيم الصادر عن الهيبة والإجلال»<sup>(٥)</sup>.

قال تعالى: ﴿وَتَعَزَّزُوهُ وَتُوقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩] وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ومن ذلك:

أ- أن لا ينادى باسمه قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

قال قتادة: «أمرهم أن يفخّموه ويشرفوه»<sup>(٦)</sup>.

يفرق بين النداء والإخبار، فالنداء لا ينادى باسمه، أما الإخبار فيخبر عنه باسمه

(١) البخاري مع الفتح (٩/ ٥٦٣)، كتاب «الأطعمة» / باب من ناول أو قدم إلى صاحبه على المائدة شيئاً. رقم (٥٤٣٩).

(٢) «الصارم المسلول» (٤٢٢).

(٣) «جامع البيان» (٥٧/ ٢٦).

(٤) «الصارم المسلول» (٤٢٢).

(٥) «طريق الهجرتين» (٢/ ٦٣٥).

(٦) «جامع البيان» (١٨/ ١٧٧).

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح: ٢٩].

ب- عدم التقدم عليه: نهى الله عن التقدم عليه ﷺ في حياته وبعد مماته، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] والنهي عن التقدم عليه بعد مماته بعدم التقدم على سُنَّتِهِ.

ج- غض الصوت عنده: نهى الله عن رفع الصوت فوق صوته فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢].

قال ابن أبي مليكة: «كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما رفعاً أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، قال نافع: لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي قال: ما أردت خلافك فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ...﴾».

قال ابن الزبير: «فما كان عمر رضي الله عنه يسمع رسول الله بعد هذه الآية حتى يستفهمه»<sup>(١)</sup> وقال أبو بكر: «والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله»<sup>(٢)</sup>.

ومدح الذين يغضون أصواتهم عنده فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٥٩٠)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾. رقم (٤٨٤٥).

(٢) «المستدرک» (٢/ ٥٠١)، وقال: «حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه».

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمَّحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿[الحجرات: ٣]﴾.

وبعد موته غَضُّ الصوت عند سنته باحترامها وإتباعها وعدم مخالفتها بآراء الرجال أو بأهوائهم. ومن ذلك غَضُّ الصوت عند قبره ﷺ وفي مسجده.

#### ٥ - الصلاة عليه:

أمر الله المؤمنين بالصلاة على نبيه محمد ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وأوجبها النبي ﷺ على كلِّ مَنْ سَمِعَ ذكره، فقال: «من ذُكِرْتُ عنده فليُصَلِّ عليَّ»<sup>(١)</sup>. «والأمر ظاهر في الوجوب»<sup>(٢)</sup>.  
ودعا ﷺ على كلِّ مَنْ سَمِعَ اسمه فلم يصل عليه، فقال: «رغم أنف رجلٍ ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَلِّ عليَّ»<sup>(٣)</sup>.

#### ٦ - جعله في مقامه فلا غلو ولا جفاء:

حدّد النبي ﷺ مقامه بكلمتين اثنتين فقال: «عبد الله ورسوله»، فعبد الله تحمي المسلم من الغلو ورسوله تحمي المسلم من الجفاء.  
فالعبد لا حق له في العبودية كما قال ﷺ: «لا تُطْرُونِي كما أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ،

(١) النسائي في «الكبرى» (٣٠ / ٩) رقم (٩٨٠٦)، و«عمل اليوم والليلة» (٣١٥) رقم (٦١). قال ابن القيم: «إسناده صحيح». «جلاء الأفهام» (٤٤٥).

(٢) «جلاء الأفهام» (٤٥٥).

(٣) أحمد (٢٥٤ / ٢)، والترمذي (٥٥٠ / ٥)، كتاب «الدعوات» / باب قول رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل». رقم (٣٥٤٥)، وقال: «وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، والقاضي إسماعيل بن إسحاق الجهضمي في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» (٣٢) رقم (١٦). قال ابن حجر بعد أن ذكر عدة أحاديث في الصلاة على النبي ﷺ، وذكر منها هذا الحديث: «فهذا الجيد من الأحاديث الواردة في ذلك». «فتح الباري» (١٦٨ / ١١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٨ / ٣) رقم (٣٥٠٤).



فإننا أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله»<sup>(١)</sup>.

لأن العبودية لا تصلح إلا لله فمن أعطيها فقد شارك الله في حقه ولهذا نهى النبي ﷺ المؤمنين به عن رفعه فوق منزلته فقال: «أنا محمد بن عبد الله عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل»<sup>(٢)</sup>.

والرسالة توجب محبته، وعدم التقدم عليه وعلى سنته، وتعزيزه، وتوقيره، والصلاة عليه، واتباع أمره وحده.

قال ابن عبد الهادي: «فمن عظمه بما لا يجب؛ فإنما أتى بضد التعظيم»<sup>(٣)</sup>.

وأما الجفاء في حقه ﷺ فضابطه: كل ما فيه تنقص له أو عدم توقير. كعدم احترام سنته أو عدم الاهتمام بالعمل بها أو عدم تعلم سيرته، أو ضعف محبته، أو محاربة دينه، وإيذاء المؤمنين به، أو إيذائه ﷺ بتكذيب أخباره، أو الطعن في أهل بيته وزوجاته، ورميهم بالفاحشة أو وصفه بالجن والذلة أو سب صحابته وتكفيرهم ونحو ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧]<sup>(٤)</sup>.

(١) سبق تخريجه.

(٢) أحمد (١٥٣/٣)، وقال ابن عبد الهادي: «وفي «المسند» بإسناد صحيح على شرط مسلم». «الصارم المنكي» (٢٨٨).

(٣) «الصارم المنكي» (٣٣٨).

(٤) وانظر إن شئت: «الصارم المسلول» (٤٧٥-٤٧٧).

## وَبَلَدُهُ مَكَّةُ وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ. بَعَثَهُ اللَّهُ بِالْإِذْنِ عَنِ الشُّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ.

قوله: «وبلده مكة»: أي البلد التي ولد فيها ونشأ فيها وعاش فيها غالب حياته حتى بلغ من العمر ثلاثاً وخمسين سنة.

قوله: «وهاجر إلى المدينة»: أي انتقل إليها وترك مكة البلد التي عاش فيها وأحبها حباً شديداً، ومن ثم علل سبب خروجه منها فقال ﷺ لمكة: «ما أطيبك من بلد، وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك»<sup>(١)</sup>.

ولهذه المحبة الشديدة أسباب هي:

### ١ - أنها أحب الأرض إلى الله:

ويدلّ لذلك ما رواه عدي بن الحمراء الزهري رحمته الله، أنه سمع النبي ﷺ وهو واقف بالحزورة في سوق مكة يقول: «والله إنك لخَيْرُ أرضِ الله، وأحبُّ الأرضِ إلى الله رحمته، ولولا أنّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ»<sup>(٢)</sup> ومن المعلوم أن الرسول ﷺ يحب كل ما أحبه الله تعالى،

(١) الترمذي (٧٢٣/٥)، كتاب «المناقب» / باب فضل مكة. رقم (٣٩٢٦)، وقال: «حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وابن حبان في «صحيحه» (٢٣/٩) رقم (٣٧٠٩)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٧٦/١٠) رقم (١٠٦٢٤)، و«المستدرک» للحاكم (١/٦٦١)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٢) أحمد (٣٠٥/٤)، والترمذي (٧٢٢/٥)، كتاب «مناقب الأنصار» / باب في فضل مكة. رقم (٣٩٢٥)، وقال: «حديث حسن غريب صحيح».

قال ابن عبد البر: وقد ثبت عن النبي ﷺ في هذه المسألة ما يغني عن قول قائل، ثم ذكر الحديث بروايته ثم قال: قال أبو عمر هو حديث حسن صحيح ثابت عند جماعة أهل العلم بالحديث ولم يأت عن النبي ﷺ من وجه صحيح يعارضه. «الاستذكار» (٢/٤٦٤) وانظر: «التمهيد» (٢/٢٨٨) و(٦/٣٣).

ومن ذلك حبه لمكة، ولهذا دعا الله فقال: «اللهم حبب إلينا المدينة كما حبيت مكة أو أشد»<sup>(١)</sup>.

## ٢- أنها خير أرض الله تعالى:

وفي هذا تفضيل لها على غيرها من البلدان فقد جعل الله فيها بيته، وعظمه، فحرم ما حوله، وباركه وضاعف العمل فيه، وجعله مأوى أفئدة عباده المؤمنين، فَمَنْ كانت هذه صفته تعلقت القلوب بمحبته والمكث والسكنى فيه.

## ٣- أنها البلد الذي شب وترعرع وعاش فيها جُلّ حياته:

كيف لا يحبها وفيها شب وترعرع، بل إن ذلك مما جبلت عليه النفوس في بلدان وأماكن أقل من مكة بكثير فكيف بمكة التي شرفها الله وأعلى قدرها وجعل في قلوب المؤمنين محبتها ومع هذا كله «هاجر إلى المدينة» وتركها.

وقدم المؤلف ذكر هجرته ﷺ إلى المدينة مع أنه لم يَحْنُ بعد. إشارةً وتنبهًا إلى أهمية تقديم الدين على الدنيا حتى وإن كان في ذلك هجر الأوطان وفقد الأهل والخلان. ولما ذكر المرسل بيّن من الذي أرسله فقال: «بعثه الله»: البعث هو الإثارة والإرسال أي أرسله الله.

## قال الإمام أحمد قواعد الإسلام أربع:

١- دال: وهو الله تعالى.

٢- دليل: وهو القرآن.

٣- مبيّن: وهو الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ٢٦٢)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة. رقم (٣٩٢٦)، ومسلم (٢/ ١٠٠٣)، كتاب «الحج»/ باب الترغيب في سكنى المدينة. رقم (١٣٧٦).

٤ - مستدل: وهم أولو الألباب وأولو العلم<sup>(١)</sup>.

قوله: «بِالنَّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ»: هذه هي أعظم مهمات الرسل عليهم الصلاة والسلام وهي أساس دعوتهم قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

والنذارة هي الإنذار: يقال أنذره أي حذره وخوفه في إبلاغه ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ﴾<sup>(٢)</sup> [غافر: ١٨].

وتناذر القوم أي خوف بعضهم بعضاً.

والإنذار: هو الإعلام بالشيء المخوف على سبيل التحذير منه، وعرفه الشنقيطي فقال: «هو الإعلام المقترن بتخويف وتهديد»<sup>(٣)</sup>، وشرطه: أن يمكن تداركه.

فإنذاره عن الشرك: إبلاغه أمتة خطورة الشرك وتحذيرها من الوقوع فيه لعلمه ﷺ بمنافاته للدين وإحباطه للعمل وشقاوة المشرك شقاوة لا يسعد بعدها أبداً.

من أمثلة إنذاره ﷺ:

فعله ﷺ لما أنزلت عليه ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]: «صَعِدَ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: «يَا بَنِي فَهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ» - لِبُطُونِ قَرِيشٍ - حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو هَبٍّ وَقَرِيشٌ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تَرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صَدَقًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

(١) «العدة» للقاظمي أبي يعلى (١/ ١٣٥)، و«النبوات» (١/ ٢٤٨).

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (١٤/ ٤٢١-٤٢٢) و«تاج العروس» (١٤/ ٢٠٠).

(٣) «العذب النمير» (٢/ ٢٧٣).

وفي رواية لأبي هريرة قال: «قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قال: «يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشترؤوا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمّة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سأليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً»<sup>(١)</sup>.

واستمر طيلة حياته ﷺ يحذر من الشرك حتى وهو في النزع حيث قال: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد». يحذر ما صنعوا<sup>(٢)</sup>.

ويدعو إلى التوحيد: دعا الرجل دعواً ودعاءً: أي ناداه والاسم الدعوة ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥]<sup>(٣)</sup>.

والمقصود بدعوة الناس إلى التوحيد: حثهم على التمسك به وترغيبهم فيه ببيان فضائله وثمراته وخطورة إضاعته.

ومن أمثلة ذلك:

١ - عن الأشعث بن سليم، عن رجل من كنانة قال: «رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا وإذا رجل من خلفه يسفي عليه التراب، فإذا هو أبو جهل، وإذا هو يقول: يا أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى»<sup>(٤)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (٨ / ٥٠١)، كتاب «التفسير» / باب: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾. رقم (٤٧٧٠)، (٤٧٧١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (٣ / ١٢٠ - ١٢٣) و«اللسان» (١٤ / ٢٥٨).

(٤) «دلائل النبوة» للبيهقي (٢ / ١٨٦)، قال الذهبي: «إسناده قوي». «السيرة النبوية» (٨٦).

وفي رواية عن ربيعة بن عباد رحمته الله قال: «رأيتُ النبي صلى الله عليه وسلم في الجاهليّة في سُوق ذي المجاز، وهو يقول: «يا أيّها النَّاسُ قولُوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا». والنَّاسُ مجتمعونَ عليه، ووراءهُ رجلٌ وضيءُ الوجه، أحولُ ذو غديرَتينِ يقول: إِنَّهُ صابِئٌ كاذِبٌ، يتَّبِعُهُ حيثُ ذهب، فسألتُ عنه فذكروا لي نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا لي: هذا عمُّه أبو هَبٍ»<sup>(١)</sup>.

٢- في عرضه نفسه صلى الله عليه وسلم على القبائل حيث عرض نفسه على بني شيبان بن ثعلبة قوم مفروق فسأله مفروق بن عمرو: إلام يدعو الناس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَدْعُوكُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِلَى أَنْ تُؤْثِرُونِي وَتَنْصُرُونِي...»<sup>(٢)</sup>.

ولما بعث معاذًا إلى اليمن قال له: «فليكنْ أَوَّلَ ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله...»<sup>(٣)</sup>. وغير ذلك كثير.

(١) أحمد (٤ / ٣٤١)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٥ / ٦١) رقم (٤٥٨٢)، وقال الألباني: «إسناده جيد».

«صحيح السيرة النبوية» (١٤٢-١٤٣).

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي (٢ / ٤٢٥).

(٣) سبق تخريجه.

**والدليل قوله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدر: ١- ٧].

**ومعنى ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾:** ينذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عظمه بالتوحيد. ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طهر أعمالك عن الشرك. ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرجز: الأصنام وهجرها: تركها والبراءة منها وأهلها.

استدل المؤلف بصدر سورة المدر لعدة أمور:

١ - أنها من أوائل ما نزل على النبي ﷺ<sup>(١)</sup>.

٢ - البداية بأمره ﷺ بالتوحيد والدعوة إليه بقوة وحزم حيث قال ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾.

٣ - التحذير من الشرك ليس بتركه فقط بل بالبعد عنه بهجرانه وأهله والبراءة منهم. يا: حرف نداء.

أي: منادى مفرد مبني على الضم.

والهاء: للتنبيه والتوكيد وهو نداء للنبي ﷺ.

﴿الْمَدَّثِرُ﴾: هو المتلفف بقطيفة أو بثيابه التي تغطي بها عندما أصابه الرعب من رؤيته للملك، ونداؤه بالمدثر من باب الملاطفة وليس من باب العتاب؛ «فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها»<sup>(٢)</sup>، كما فعل النبي ﷺ مع علي عندما غاضب فاطمة عليها السلام حين وجده نائماً قد سقط رداؤه عن شقه،

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٧٦-٦٧٧)، كتاب «التفسير». رقم (٤٩٢٢).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٩/ ٣٣).

وأصابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه ويقول: «قُمْ أَبَا تُرَابٍ. قُمْ أَبَا تُرَابٍ»<sup>(١)</sup>.

﴿قُرْآنًا ذُرًّا﴾: أي انهض وشمّر عن ساق العزم وأعلم الناس وحذّرهم وخوّفهم من عذاب الله إن هم بقوا على الشرك. وفي ذلك فائدة لطيفة وهي أنّ أوّل ما أمره الله به الإنذار عن الشرك قبل بقية المنكرات والمعاصي التي كانوا متلبسين بها، وما ذلك إلا لخطورة الشرك، وأنه أقبح المنكرات لمنافاته للتوحيد بالكلية ولإحباطه جميع الأعمال.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾: أي عظمه بالتوحيد. قال البغوي: «أي عظمه عما يقوله عبدة الأوثان»<sup>(٢)</sup>. وتكبيره سبحانه في أمور خمس:

١ - تكبير الله سبحانه في ربوبيته: فلا منازع له في الربوبية في «الخلق والملك والتدبير» ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

٢ - تكبير الله سبحانه في ألوهيته: فلا يستحق العبادة إلا هو، فمن صرف العبادة لغير الله لم يكبره في ألوهيته ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

٣ - تكبير الله في أسمائه وصفاته: فإن صفاته عُلِّيا وأسماءه حسنى فيها كمال الجلال والكمال والعظمة ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿فَلَا تَضُرُّوهُ اللَّهُ الْأَمْثَالُ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

(١) البخاري مع الفتح (١/ ٥٣٥)، كتاب «الصلاة»/ باب نوم الرجال في المسجد. رقم (٤٤١)، ومسلم (٤/ ١٨٧٤-١٨٧٥)، كتاب «فضائل الصحابة»/ باب من فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام. رقم (٢٤٠٩).

(٢) «معالم التنزيل» (٤/ ٤١٣).



٤ - تكبير الله في قضاؤه وقدره: أي أنَّ قضاؤه هو الخير وفيه الحكمة البالغة ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

٥ - تكبير الله في شرعه وأمره: أي اعتقاد كمال شرعه وأنه لا نقص فيه بوجه من الوجوه والعمل به في كل ما يأمر به وترك ما ينهى عنه وأنه أكبر من جميع ما يشرعه العباد بعضهم لبعض<sup>(١)</sup>.

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].  
وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

﴿وَيَا بَاكَ فَطْهَرْ﴾ «الطاء والهاء والراء أصل واحد صحيح يدل على نقاء وزوال دنس، ومن ذلك الطهر خلاف الدنس. والتطهر التنزه عن الذم وكل قبيح»<sup>(٢)</sup>.

أي نَقَّ أعمالك من الشرك، وهذا هو قول عامة المفسرين. قال سعيد بن جبير «وقلبك ونيتك فطهر» وقال قتادة ومجاهد: «نفسك فطهر من الذنب» فكنى عن النفس بالثوب وهو قول إبراهيم والضحاك والشعبي والزهري.

قال السدّي: «يقال للرجل إذا كان صالحًا إنه لطاهر الثياب، وإن كان فاجرًا إنه لخبث الثياب»<sup>(٣)</sup>.

قال ابن القيم: «وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أنَّ المراد بالثياب ههنا القلبُ والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق»<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر: «شرح الأصول الثلاثة» لصالح آل الشيخ، ضمن «جامع الشروح» (٧٠٨).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٤٢٨ / ٣).

(٣) «معالم التنزيل» (٤١٣ / ٤).

(٤) «إغاثة اللهفان» (٥٢ / ١).

ويؤيد هذا المعنى ما يلي:

١ - أنه ورد في القرآن استعمال اللباس في الأعمال قال تعالى: ﴿وَلْيَأْسُ النَّفْسُ ذَلِكَ

حَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

٢ - أن التكنية عن النفس بالثياب واردٌ عن العرب، كقول عنتر:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرّم

٣ - أن هذه الآية نزلت في أول الإسلام قبل أن تفرض الصلاة وتوجب لها الطهارة.

قال البخاري بعد أن ساق حديث النبي ﷺ حينما جاءه الملك وهو في بطن الوادي

بعد نزوله من حراء فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدْيَنُ﴾ إلى ﴿وَالرُّجْزَ فَهْجُرْ﴾. ثم قال: «قبل أن تفرض الصلاة»<sup>(١)</sup>.

إذا المقصود بطهارة الثياب هو طهارة القلب من دنس الشرك بالتوحيد.

وقوله: ﴿وَالرُّجْزَ﴾: الأوثان<sup>(٢)</sup> أو الأصنام فالمعنى واحد. «والرجز والرجس:

العذاب»<sup>(٣)</sup>، وسميت الأصنام رجزا لأنها سبب العذاب الأبدي.

﴿فَاهْجُرْ﴾: الهاء والجيم والراء أصلان يدل أحدهما على قطيعة وقطع<sup>(٤)</sup>.

وقال الجوهري: الهجر ضد الوصل<sup>(٥)</sup>، والتهاجر: التقاطع<sup>(٦)</sup>. والمهاجرة في الأصل

(١) البخاري مع الفتح (٨ / ٦٧٨ - ٦٧٩)، كتاب «التفسير» / باب: ﴿وَيَأْتِيكَ فَطَهِّرْ﴾. رقم (٤٩٢٥).

(٢) البخاري مع الفتح (٨ / ٦٧٩)، كتاب «التفسير» / باب: ﴿وَالرُّجْزَ فَهْجُرْ﴾. رقم (٤٩٢٦)، و«معالم التنزيل» (٤ / ٤١٣).

(٣) المرجع السابق.

(٤) «معجم مقاييس اللغة» (٦ / ٣٤).

(٥) «الصحاح» (٢ / ٨٥١).

(٦) «مختار الصحاح» (٣٢٤).

مصارمة الغير ومتاركته<sup>(١)</sup>. فأصل الهجر البغض والفراق والترك.

ولهذا قال المؤلف وهجرها: تركها والبراءة منها وأهلها.

فالهجر والهجران مفارقة الإنسان غيره بالبدن أو اللسان أو القلب.

فمن الهجر بالبدن قوله تعالى: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: ٣٤].

﴿وَأَعَزِّلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].

ومن الهجر باللسان قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ

مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

فقوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥] حث على المفارقة بالوجه كلها.

والهجرة مشتقة من الهجر<sup>(٢)</sup> وهي نوعان:

أحدهما الهجرة القلبية: وهي هجرة القلب إلى الله ورسوله بمحبة الله ومحبة ما يحب

مع فعله تقرباً إلى الله، وبغض ما يبغض مع مجانبته والبعد عنه والبراءة منه.

وهي أصل أنواع الهجرة ولبها وروحها ولأجل ذلك حصر النبي ﷺ الهجرة فيها

فقال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»<sup>(٣)</sup>.

وفي رواية: «والمهاجر من هجر السوء»<sup>(٤)</sup>.

(١) «تاج العروس» (١٤ / ٣٩٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٨ / ٢٨٠).

(٣) البخاري مع الفتح (١ / ٥٣)، كتاب «الإيمان» / باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده. رقم (١٠).

(٤) أحمد (٣ / ١٥٤)، قال المنذري: «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار وإسناد أحمد جيد». «الترغيب والترهيب» (٣ / ٣٥٤).

وفي رواية: «والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»<sup>(١)</sup>.

وفي الألفاظ السابقة جعل النبي ﷺ المبتدأ وهو المهاجر معرّفًا ليكون محصورًا في الخبر وهو (مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ) وهذا حصر نسبي يدل على أن أفضل أنواع الهجرة هي الهجرة القلبية.

يوضحه جواب النبي ﷺ لما سئل أي الهجرة أفضل: قال: «أَنْ تَهْجُرَ مَا كَرِهَ رَبُّكَ»<sup>(٢)</sup>، وفي رواية: «وإنَّ أفضل الهجرة من هجر ما نهى الله عنه»<sup>(٣)</sup>.

قال ابن القيم: «وهذه الهجرة هي الهجرة على الحقيقة وهي الأصل وهجرة الجسد تابعة لها»<sup>(٤)</sup>.

وقال ابن رجب عند قوله ﷺ: «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»، فأصل الهجرة: هجران الشر ومباعدته لطلب الخير ومحبتة والرغبة فيه.. فأصل الهجرة أن يهجر ما نهاه الله عنه من المعاصي فيدخل في ذلك هجران بلد الشرك رغبة في دار الإسلام وإلا فمجرد هجره بلد الشرك مع الإصرار على المعاصي ليس بهجرة تامة كاملة، بل الهجرة التامة الكاملة هجران ما نهى الله عنه ومن جملة ذلك هجران بلد الشرك مع القدرة عليه»<sup>(٥)</sup>.

وهي ذات شقين:

الأول: الهجرة إلى الله سبحانه «هجرةً تتضمن (مِنْ) و(إِلَى) فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته، ومن عبودية غيره إلى عبوديته، ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه إلى

(١) أحمد (٢١/٦)، وابن ماجه (١٢٩٨/٢)، كتاب «الفتن» / باب حرمة دم المؤمن. رقم (٣٩٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٩/٢).

(٢) أحمد (١٩١/٢)، والنسائي (١٤٤/٧)، كتاب «البيعة» / هجر البوادي. والدارمي في «نقضه على المريسي» (٥٦٢).

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (٥٩١/١٣) رقم (١٤٥٠٧).

(٤) «الرسالة التبوكية» (١٩).

(٥) «فتح الباري» (٣٥/١)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/٢١٠-٢١٢).

خوف الله ورجائه والتوكل عليه، ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له إلى دعاء الله وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له، وهذا بعينه معنى الفرار إليه قال تعالى: ﴿فِرُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup> [الذاريات: ٥٠].

الثاني: الهجرة إلى رسول الله ﷺ بتحكيمة في كل شيء والتسليم له والانقياد لحكمه وأمره ونهيه باطنًا وظاهرًا، «فيكون تعبد به أعظم من تعبد الركب بالدليل الماهر في ظلم الليل ومتاهات الطريق»<sup>(٢)</sup>. قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فلك عند كل عمل هجرتان إحداهما إلى الله بالتقرب والإخلاص، والأخرى إلى رسوله ﷺ بالاتباع.

فعندما تريد أن تتوضأ تهاجر إلى الله بالتقرب إليه بذلك العمل وتهاجر إلى رسول الله ﷺ فتتوضأ كما توضأ النبي ﷺ، وعندما تريد الصلاة تهاجر إلى الله بالتقرب إليه وحده بتلك الصلاة، وتهاجر إلى رسول الله ﷺ فتصلي كما صلى رسول الله ﷺ.

قال ابن القيم ناظرًا شقي الهجرة القلبية:

وَأَجْعَلْ لِقَلْبِكَ هِجْرَتَيْنِ وَلَا تَنْمُ	فَهُمَا عَلَى كُلِّ امْرِيٍّ فَرَضَانِ
فَالْهِجْرَةُ الْأُولَى إِلَى الرَّحْمَنِ بِالْ	إِخْلَاصٍ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ
فَالْقَصْدُ وَجْهَهُ اللَّهُ بِالْأَقْوَالِ وَالْ	أَعْمَالِ وَالطَّاعَاتِ وَالشُّكْرِانِ
فَبِذَاكَ يَنْجُو الْعَبْدُ مِنْ إِشْرَاكِهِ	وَيَصِيرُ حَقًّا عَابِدَ الرَّحْمَنِ
وَالْهِجْرَةُ الْأُخْرَى إِلَى الْمَبْعُوثِ بِالْ	حَقِّ الْمُبِينِ وَوَاضِحِ الْبُرْهَانِ
فَيَدُورُ مَعَ قَوْلِ الرَّسُولِ وَفِعْلِهِ	نَفْيًا وَإِثْبَاتًا بِلا رُوْغَانِ <sup>(٣)</sup>

(١) «الرسالة التبوكية» (١٩).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٦٣) وانظر: «زاد المعاد» (٣/ ١٢).

(٣) «النونية مع شرح ابن عيسى» (١/ ١٢٧) وإن أردت الاستزادة فانظر: «طريق الهجرتين» لابن القيم.

وإليها أشار عمر رضي الله عنه بقوله: «خالطوا الناس بالأخلاق، وزايلوهم بالأعمال»<sup>(١)</sup>.  
 فلا يلزم من هذا النوع من الهجرة مفارقة الناس، وعلى هذا أكد علي بن أبي طالب رضي الله عنه بقوله: «خالطوا الناس بألستكم وأجسادكم وزايلوهم بأعمالكم وقلوبكم، فإن للمرء ما اكتسب، وهو يوم القيامة مع من أحب»<sup>(٢)</sup>.  
 وتبعهم على ذلك الحسن البصري فقال: «خالطوا الناس في الأخلاق الكريمة، وزايلوهم في الأفعال القبيحة»<sup>(٣)</sup>.

### حكم الهجرة القلبية:

الهجرة القلبية «فرض عين على كل أحد في كل وقت»<sup>(٤)</sup>.  
 والأدلة على الهجرة القلبية كثيرة جداً فكل دليل ورد في أفراد العبادة لله، وكل دليل ورد في الأمر باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم هو دليل على الهجرة القلبية.  
 وسأكتفي بدليل واحد يكفي في الدلالة على المقصود وهو قول الحق تبارك وتعالى:  
 ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

أمر الله بالفرار إليه والأمر يقتضي الوجوب والاستعجال بالهجرة إلى الله، وعدم التأخر والتواني ولذلك عبر عنه بالفرار. والفرار هو أقصى درجات السرعة لأن القلب قد يعرض له ما يمنعه من الهجرة فأمر بالفرار إليه كي يتخلص من كل ما يثقله من هوى وشيطان ودنيا وأولاد ونحو ذلك.

وخطورة المعوقات عن الفرار إلى الله كان الأنبياء يوصون أولادهم به في كل لحظة

(١) «مدارة الناس» لابن أبي الدنيا (٣٧) رقم (٢١).

(٢) «سنن الدارمي» (١/٣٤٥) رقم (٣٢٠).

(٣) «آداب الحسن البصري» لابن الجوزي (٤٥).

(٤) «الرسالة التبوكية» (١٨).

من لحظات أعمارهم قال تعالى:

﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

[البقرة: ١٣٢].

ومن المعلوم أنهم لا يدرون متى ينزل بهم الموت ولكن عليهم أن يلزموا الفرار إلى الله حتى إذا جاءتهم مناياهم فإذا هم على أحسن حال فيختم له بخاتمة أهل السعادة.

منزلتها:

يتجلى عظيم منزلة الهجرة القلبية بأمور:

- ١ - أنَّ الهجرة القلبية هي مقتضى الشهادتين وثمرتها السعادة في الدنيا والآخرة.
- قال ابن القيم بعد أن نعى على أولئك الذين ينشغلون بتفريع مسائل الهجرة البدنية - التي قد لا تقع لبعضهم أصلاً - عن الهجرة القلبية التي هم بأمس الحاجة إليها في كل وقت وحين «وأما هذه الهجرة التي هي واجبة على مدى الأنفاس، فإنه لا يُحْصَلُ فيها علماً ولا إرادة وما ذاك إلا للإعراض عما خلق له، والاشتغال بما لا ينجيه وحده عما لا ينجيه غيره. وهذا حال من عشت بصيرته وضعفت معرفته بمراتب العلوم والأعمال»<sup>(١)</sup>.
- ٢ - أنَّ كلَّ الناس يُسألون عنها في البرزخ ويوم القيامة ويطالبون بها في الدنيا.
- قال قتادة: «كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين»<sup>(٢)</sup>.

٣ - خطورة فقدها:

من فقد الهجرة القلبية بشقيها أو أحدهما، فقد فقد الإيمان، وانتقل إلى الكفر، قال ابن القيم: «فما لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فَلْيَحْثُ على رأسه الرماد وليراجع الإيمان من

(١) «الرسالة التبوكية» (٢٤).

(٢) المرجع السابق (٢٨).

أصله فيرجع وراءه ليقتبس نوراً قبل أن يحال بينه وبينه، ويقال ذلك على الصراط من وراء السور، والله المستعان»<sup>(١)</sup>.

زمنها ووقتها: زمنها ووقتها كل لحظة من لحظات العمر من بدايته إلى نهايته، وذلك لأن المعوقات التي تعوق العبد عن الله والدار الآخرة تحيط به من كل جانب، ولا يكاد يسلم منها إلا بالمجاهدة المستمرة مع الاستعانة بالله تعالى.

قال ابن القيم: «وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعونه إلى خلاف ما يحبه الله ويرضاه وقد بُلي بهؤلاء الثلاث فلا يزالون يدعونه إلى غير مرضاة ربه، وداعي الإيمان يدعوه إلى مرضاة ربه فعليه في كل وقت أن يهاجر إلى الله ولا ينفك في هجرته إلى الممات»<sup>(٢)</sup>.

أما أعظم دوافعها فهو المحبة؛ وذلك أن المهاجر من شيء إلى شيء لا بُدَّ أن يكون ما هاجر إليه أحب إليه مما هاجر منه فيقدم أحبهما إليه على الآخر وتكون قوتها وضعفها «بحسب داعي المحبة في قلب العبد فإن كان الداعي أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل. وإذا ضعف الداعي ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علماً ولا يتحرك لها إرادة»<sup>(٣)</sup>»<sup>(٤)</sup>.

وقوله: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾<sup>(٦)</sup> وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ [المذثر: ٦-٧].

(مَنْ): الميم والنون أصلان أحدهما يدل على قطع. ومنه: مننت الجبل أي قطعته ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦] أي غير مقطوع. والمنون: المنية؛ لأنها تنقص العدد وتقطع

(١) «مدارج السالكين» (٢/٤٦٣).

(٢) «الرسالة التبوكية» (٢٣).

(٣) المرجع السابق.

(٤) ملحوظة: الهجرة البدنية أرجأتها إلى موضعها من الكتاب.



المدد... وربما قالوا: منَّ بيد أسداها إذا قرَّع بها، وهذا يدل على أنه قطع الإحسان<sup>(١)</sup>.  
قال الأزهري: «وَلَا تَمَنَّ» أي لا تعط شيئاً مقدراً لتأخذ به ما هو أكثر منه<sup>(٢)</sup>.  
«تَسْتَكْثِرُ»: السين والتاء للمبالغة، أي لا تعد الشيء كثيراً فتستعظم ما تبذله. فمعنى قوله: «وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْثِرُ» قال الحسن: لا تمن عملك تستكثره على ربك<sup>(٣)</sup>.  
أي لا تعد عملك في الدعوة إلى الله شيئاً عظيماً تستعظمه في عينك فإنه نعمة من الله عليك، وهو فيما أنعم الله به عليك وأعطاك قليل<sup>(٤)</sup>، وهو درس للأمة كلها.  
«وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ»: أي اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك<sup>(٥)</sup>.  
قال مجاهد: فاصبر على ما أوديت فيه<sup>(٦)</sup>.  
فالعمل وآثاره وما ينتج عنه اجعله لله وذلك أنه حمل أمراً عظيماً وهو دعوة الناس أجمع إلى التوحيد ونبد الشرك، فلا شك أنهم سيؤذونه أذى عظيماً فليصبر على أذاهم لوجه الله تعالى.  
قال السعدي: «أي احتسب بصبرك واقصد به وجه الله تعالى»<sup>(٧)</sup>.

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ٢٦٧) مادة (المن).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٥/ ٤٧١).

(٣) «جامع البيان» (٢٩/ ١٤٩).

(٤) انظر: «جامع البيان» (٢٩/ ١٤٨-١٥٠)، و«معالم التنزيل» (٤/ ٤١٤)، و«التحرير والتنوير» (٩/ ٢٧٧-٢٧٨).

(٥) «تفسير القرآن العظيم» (١٤٣٢).

(٦) «معالم التنزيل» (٤/ ٤١٤).

(٧) «تيسير الكريم الرحمن» (٨٩٥).

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ <sup>(١)</sup> وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ،  
وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ.

أَيُّ أَنَّهُ ﷺ اسْتَمَرَ عَشْرَ سِنِينَ يَقَرُّرُ التَّوْحِيدَ وَيَدْعُو إِلَيْهِ وَيَحْذَرُ مَنْ ضَدَّه قَبْلَ أَنْ  
تَفْرُضَ الْفَرَائِضُ وَتَشْرَعَ الْأَحْكَامُ وَذَلِكَ لِأُمُورٍ:

١- أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالتَّحْذِيرَ مِنَ الشَّرْكِ هِيَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ مِنَ دَعْوَةِ  
الرَّسْلِ.

٢- أَنَّ الْفَرْعَ لَا يَصِحُّ إِلَّا بِالْأَصْلِ. فَالتَّوْحِيدُ هُوَ الْأَصْلُ وَالْعِبَادَاتُ هِيَ الْفَرْعُ فَلَا  
بُدَّ مِنْ تَرْسِيخِهِ فِي النَفُوسِ أَوَّلًا.

٣- أَنَّ مَنْ صَحَّ تَوْحِيدُهُ وَتَعْظِيمُهُ لِلَّهِ وَخَوْفُهُ مِنْهُ انْقَادَتْ نَفْسُهُ لَطَاعَةِ رَبِّهِ.  
قَوْلُهُ: «وَبَعْدَ الْعَشْرِ»: أَيُّ بَعْدَ عَشْرَ سِنِينَ مِنْ بَعْثِهِ ﷺ أُسْرِيَ بِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ  
ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ.

وَالْإِسْرَاءُ: مَا خُذَ مِنَ السُّرَى وَهُوَ السَّيْرُ لَيْلًا، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ «عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ  
السُّرَى» وَالْمَقْصُودُ هُنَا: هُوَ سَيْرُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ عَلَى الْبَرَقِ.  
عِدَّةُ مَرَّاتِ الْإِسْرَاءِ: الَّذِي عَلَيْهِ أُمَّةُ النُّقْلِ أَنَّ الْإِسْرَاءَ وَالْمَعْرَاجَ كَانَ مَرَّةً وَاحِدَةً  
بِمَكَّةَ بَعْدَ الْبَعْثَةِ <sup>(٢)</sup>.

وَكَانَتْ بَدَايَتُهُ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ <sup>(٣)</sup> بِنَصِّ الْقُرْآنِ وَالْخَبَرِ الْمُتَوَاتِرِ، وَاتِّفَاقِ النَّاسِ <sup>(٤)</sup>.

(١) انظر: «البداية والنهاية» (٤/ ٢٦٩).

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٣٧).

(٣) «منهاج السنة» (٥/ ٦٧).

(٤) «الجواب الصحيح» (٥/ ٤٠٩ و ٤٢٦).

ومما يدل على أنه مرة واحدة: فرض الصلاة.

قال ابن القيم في رده على الذين ظنوا أن الإسراء والمعراج تكرر أكثر من مرة: «ويا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه مراراً، كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة تفرض عليه الصلاة خمسين ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمسيناً ثم يقول: «أَمْضَيْتُ فريضتي، وخَفَّفْتُ عن عبادي»، ثم يعيدها في المرة الثانية إلى خمسين ثم يحطها عشرًا عشرًا وقد غلّط الحفاظ شريكاً في ألفاظ من حديث الإسراء. ومسلم أورد المسند منه ثم قال: «فقدم وأخر وزاد ونقص، ولم يسرد الحديث، فأجاد وأفاد»<sup>(١)</sup>.

المعراج: هو الصعود والرقى ومنه قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] أي تصعد. وعرج في الشيء أي رقي. والمعراج: المصاعد والدرج<sup>(٢)</sup>.

والمقصود هنا: هو عروج النبي ﷺ من بيت المقدس إلى ما فوق السموات العلى.

### أدلة الإسراء والمعراج:

ثبت الإسراء من المسجد الحرام إلى بيت المقدس بالقرآن الكريم. قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ، لِنُرِيَهُ، مِّنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

### ومن السنة:

حديث أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أُتِيَْتُ بِالْبُرَاقِ، (وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ، وَدُونِ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرُهُ عِنْدَ مُتَهَيِّ طَرَفِهِ)، قال: فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، قال: فَارْبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ، قال: ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ ﷺ، بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٤٢).

(٢) «اللسان» (٢/ ٣٢١).

اللَّبَنَ، فَقَالَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ، فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جَبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جَبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِابْنِي الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا، فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جَبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جَبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جَبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَرَحَّبَ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جَبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جَبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمُعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السُّدْرَةِ الْمُنتَهَى، وَإِذَا وَرَقُهَا كَأَذَانِ الْفِيلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقَلَالِ، قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ

إِلَى مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَى خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلَتْ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ، قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى رَبِّي، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، خَفَّفْ عَلَى أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَارْجِعْ إِلَى مُوسَى، فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلُّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ، قَالَ: فَنَزَلَتْ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ» وفي رواية للبخاري «بَيْنَمَا أَنَا فِي الْحَطِيمِ، -وَرُبَّمَا قَالَ: فِي الْحِجْرِ- مُضْطَجِعًا»<sup>(١)</sup>.

وينبغي أن يعلم أن الإسراء: بجسد النبي ﷺ وروحه يقظة لا منامًا<sup>(٢)</sup> ويدل لذلك ما يلي:

١ - قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا

الَّذِي بَنَيْنَا لَهُ حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]

وجه الاستدلال: أن الله وصفه بالعبد «والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح، كما

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ٣٠١-٣٠٢)، كتاب «مناقب الأنصار» / باب المعراج. رقم (٣٨٨٧)، ومسلم

(١/ ١٤٥-١٤٧)، كتاب «الإيمان» / باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات.

رقم (١٦٢).

(٢) انظر: «الشرعية» للأجري (٣/ ١٥٢٦)، و«الرسالة الوافية» للداني (٩٩)، و«الاقتصاد في الاعتقاد»

لعبد الغني المقدسي (ص ١٥٥)، وابن كثير في «التفسير» (٧٨٨)، و«شرح الطحاوية» لابن أبي العز

(١/ ٢٧٣) وغيرهم.

أنَّ الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح، هذا هو المعروف عند الإطلاق وهو الصحيح فيكون الإسراء بهذا المجموع»<sup>(١)</sup>.

٢- أنه قال: ﴿سُبْحَنَ﴾ فمجد نفسه وعظمها والتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام فلو كان منامًا لم يكن له كبير شأن.

٣- قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]؛ لأن البصر من آلات الذات لا الروح وكذلك قوله: ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ أَيْنَأُنْزِلَ﴾ [الإسراء: ١].

٤- لو كان الإسراء منامًا لما كذبت به قریش<sup>(٢)</sup>؛ لأن المنام يحصل فيه أشياء كثيرة ولا تستنكر.

٥- أن المخاطبين فهموا أنه بالجسد والروح ولذلك كذبوه وحاولوا تشكيك المسلمين في دينهم حتى ارتد بعض من أسلم.

٦- أن الأحاديث التي ذكرت ذلك يدل منطوقها أنه أسري به بجسده وروحه.

٧- أنه ركب البراق والركوب من حاجة البدن وليس مما تحتاجه الروح<sup>(٣)</sup>.

٨- أن هذا هو فهم السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم.

قال ابن عباس عند قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به<sup>(٤)</sup>.

وبمثله قال سعيد بن جبیر والحسن ومجاهد ومسروق والضحاك وقتادة وابن جريج

(١) «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (١/٢٧٦).

(٢) «الشریعة» للآجري (٣/١٥٣٩).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧٨٨) و«أضواء البيان» (٣/٣٩١-٣٩٣).

(٤) البخاري مع الفتح (٨/٣٩٨)، كتاب «التفسير» / باب: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾. رقم (٤٧١٦).

وابن زيد. وقال عكرمة: هي رؤيا يقظة، ولو كانت رؤيا نوم لم تكن فتنة حتى ارتاب قوم وارتد قوم عن الإسلام. وذلك أنه غير مستغرب على النائم أن يرى مسيرة سنة وليس مسيرة شهر فقط<sup>(١)</sup>. وقال الآجري: «من زعم أنه -أي: الإسراء والمعراج- منامٌ فقد أخطأ في قوله، وقصّر في حقّ نبيه، وردّ القرآن والسنة، وتعرض لعظيم سخط الله»<sup>(٢)</sup>.

### الحكمة من الإسراء إلى بيت المقدس أولاً:

الحكمة هي: إظهار صدق دعوى الرسول ﷺ في عروجه إلى السماء وذلك لأن المخاطبين يعرفون بيت المقدس معرفة تامة ولهذا سألوه عن صفته فلما أخبرهم بها وجب عليهم تصديقه. وأمر آخر وهو أنّ لهم عيراً في الطريق فسألوه عنها فأخبرهم بها فوقع كما أخبر فظهر في ذلك صدق قوله بعروجه إلى السماء<sup>(٣)</sup>.

### حكم الاحتفال بالإسراء والمعراج:

الاحتفال بالإسراء والمعراج بدعة منكرة لما يلي:

- ١- أنّ النبي ﷺ لم يأمر به ولم يفعله ولو كان مشروعاً لكان هو أولى الناس بفعله، والخير كل الخير في فعل ما فعله النبي ﷺ وترك ما ترك.
- ٢- أنّ أي أمر عبادي لم يأمر به النبي ﷺ ولم يفعله ولم يقرّه فهو بدعة في الدين قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا؛ فهو ردٌّ»<sup>(٤)</sup>.
- ٣- أنّ أصحاب القرون المفضلة الثلاثة لم يفعلوه. ولو كان خيراً لسبقونا إليه.
- ٤- أنّه لم يرد دليل صحيح في تحديد وقته، وهذا يدل على أنه لا ينبغي على معرفته عبادة وقربة.

(١) انظر: «الرسالة الوافية» للداني (٩٩-١٠٠).

(٢) «الشریعة» (٣/ ١٥٤٠).

(٣) انظر: «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (١/ ٢٧٧).

(٤) سبق تخریجه.

قال ابن أبي شامة: «ذكر بعض القصاص أن الإسرائ كان في رجب وذلك عند أهل التعديل والتجريح عين الكذب. قال الإمام أبو إسحاق الحربي: أُسري برسول الله ﷺ ليلة سبع وعشرين من ربيع الأول، قال: وقد ذكرنا ما فيه من الاختلاف والاحتجاج في كتابنا المسمى «بالابتهاج في أحاديث المعراج»<sup>(١)</sup>.

وقال شيخ الإسلام: «لم يقم دليل معلوم على شهر ليلة الإسرائ ولا على عشرها ولا على عينها، بل النقول في ذلك منقطعة مختلفة ليس فيها ما يقطع به»<sup>(٢)</sup>.

(١) «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (٧١).

(٢) «زاد المعاد» (١/ ٥٧) وللاستزادة انظر: «البدع الحولية» (٢٦٨-٢٨٢).



**وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلَاثَ سِنِينَ وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ. وَالْهَجْرَةُ: الْإِنْتِقَالُ مِنْ بِلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بِلَدِ الْإِسْلَامِ.**

قوله: «وَصَلَّى فِي مَكَّةَ» أي أنه بقي بمكة بعد الإسراء وفرض الصلاة عليه ثلاث سنين قبل أن يهاجر إلى المدينة، وكانت صلاته في مكة ركعتين ركعتين، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «فُرِضَتِ الصَّلَاةُ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَفُرِضَتْ أَرْبَعًا، وَتُرِكَتْ صَلَاةُ السَّفَرِ عَلَى الْأُولَى»<sup>(١)</sup>.

قال وبعدها: أي بعد أن تم ثلاث عشرة سنة من مبعثه في مكة أمره الله بالهجرة إلى المدينة ودليل ذلك حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ لِأَرْبَعِينَ سَنَةً فَمَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُوْحَى إِلَيْهِ ثُمَّ أُمِرَ بِالْهَجْرَةِ فَهَاجَرَ عَشْرَ سِنِينَ وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ»<sup>(٢)</sup>.

**أَمْرٌ: مِنَ الْأَمْرِ، وَالْمَقْصُودُ هُنَا: الطَّلَبُ عَلَى سَبِيلِ الْإِلْزَامِ.**

**بِالْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ: وَهِيَ الْهَجْرَةُ الْبَدْنِيَّةُ إِلَى طَيِّبَةِ الطَّيِّبَةِ.**

بعد أن بين المؤلف الهجرة القلبية انتقل إلى بيان القسم الآخر من الهجرة وهو الهجرة البدنية، فعرّفها بقوله: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

والانتقال: النون والقاف واللام أصل صحيح يدل على تحويل شيء من مكان إلى مكان<sup>(٣)</sup> إذاً هو الخروج والسفر من ديار الشرك إلى ديار الإسلام بنية المقام المستمر في بلاد

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ٢٦٧-٢٦٨)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب التاريخ. من أين أرخوا التاريخ. رقم (٣٩٣٥).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ٤٦٣).

الإسلام وعدم الرجوع إلى دار الشرك مرة أخرى.

والمؤلف هنا قسم الدار إلى قسمين هما:

١ - دار شرك وكفر.

٢ - دار إسلام وإيمان.

وهذا التقسيم هو الذي درج عليه علماء الأمة أجمع لا خلاف بينهم.

ومن أدلة ذلك:

أولاً: الأمر بالهجرة:

أمر الله بالهجرة بصيغة عتاب تاركي الهجرة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

وقطع الولاية بين المهاجرين وبين غيرهم ممن لم يهاجر، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢].

والهجرة تكون من دار إلى دار، ولو كانت الدار واحدة لما شرعت الهجرة، ولما شرع القتال. فدل ذلك على أن الدنيا داران دار كفر ودار إسلام.

قال ابن عبد البر: «وقد بقي باب باق إلى يوم القيامة وهو المسلم في دار الحرب إذا أطاقت أسرته، أو كان كافراً فأسلم، لم يحل له المقام في دار الحرب، وكان عليه الخروج عنها فرضاً واجباً»<sup>(١)</sup>.

وقال البغوي عند حديث: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة»: أراد بها هجرة من أسلم في دار الكفر عليه أن يفارق تلك الدار ويخرج من بينهم إلى دار الإسلام»<sup>(٢)</sup>.

(١) «التمهيد» (٨/ ٣٩٠).

(٢) «شرح السنة» (١٠/ ٣٧٣).

ثانياً: البراءة من المسلم الذي يقيم بين المشركين:

أمر النبي ﷺ بفراق المشركين وشدد عليه حتى تبرأ ممن يقيم في ديارهم فقال ﷺ: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين»<sup>(١)</sup>.

ولو كانت داراً واحدة لم يبرأ النبي ﷺ ممن يقيم بين أظهر المشركين.

ثالثاً: التصريح بذكر اسم الدارين:

ورد التصريح باسم دار الشرك في حديث ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال: «إن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر كانوا من المهاجرين لأنهم هجروا المشركين وكان من الأنصار مهاجرون لأن المدينة كانت دار شرك فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ ليلة العقبة»<sup>(٢)</sup>.

أما دار الإسلام فقد وردت في حديث بريدة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه ثم قال: «وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين»<sup>(٣)</sup>.

وقد صرح النبي ﷺ في هذا الحديث بالدارين كليهما فقال: «ادعهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين»، فجعلهما دارين متغايرتين.

ودار المهاجرين هي دار الإسلام كما في كتاب خالد بن الوليد لأهل الحيرة: «وجعلت لهم: أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت عنه جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام، فإن خرجوا من دار الهجرة ودار الإسلام فليس على المسلمين النفقة

(١) سبق تخريجه.

(٢) النسائي (١٤٤-١٤٥) كتاب «البيعة»/ باب تفسير الهجرة.

(٣) مسلم (١٣٥٧/٣) كتاب «الجهاد»/ باب تأمير الإمام الأمراء. رقم (١٧٣١).

على عيالهم»<sup>(١)</sup>.

ضابط دار الكفر: هي التي يحكمها الكفار، وتجري فيها أحكام الكفر.

أما ضابط دار الإسلام: هي التي يحكمها المسلمون، وتجري فيها أحكام الإسلام.

ومما يوضح ذلك بلاد الأندلس لما كان المسلمون هم حكامها وتجري فيها أحكام الإسلام وشعائره ظاهرة كانت بلاد إسلام. فلما غلب الكفار عليها وحكموها وعذبوا المسلمين وهجروهم وظهرت فيها شعائر الشرك والوثنية النصرانية عادت دار كفر.

فغلبة الأحكام هي المناط الذي ينبني عليه الحكم كما صرح بذلك أهل العلم وإليك طرفاً من أقوالهم:

قال في «المدونة»: «وكانت الدار يومئذ دار الحرب (يعني: مكة)؛ لأن أحكام الجاهلية كانت ظاهرة يومئذ»<sup>(٢)</sup>.

وقال أبو يوسف ومحمد بن الحسن: «إذا أظهروا الشرك فقد صارت دارهم دار حرب؛ لأن البقعة إنما تنسب إلينا أو إليهم باعتبار القوة والغلبة»<sup>(٣)</sup>.

وقال عبد القاهر البغدادي: «كل دار ظهرت فيها دعوة الإسلام من أهلها بلا خفير ولا مجير ولا بذل جزية، ونفذ فيها حكم المسلمين على أهل الذمة إن كان فيهم ذمي، ولم يقهر أهل البدعة فيها أهل السنة، فهي دار الإسلام وإذا كان الأمر على ضد ما ذكرناه في الدار فهي دار الكفر»<sup>(٤)</sup>.

(١) «الخراج» لأبي يوسف (١٥٥-١٥٦).

(٢) «المدونة» (١/٥١١).

(٣) «المبسوط» (١٠/١١٤).

(٤) «أصول الدين» (٢٧٠).

وقال ابن حزم: «الدار إنما تنسب للغالب عليها والحاكم فيها والمالك لها»<sup>(١)</sup>.

وقال أبو يعلى الحنبلي: «وكل دار كانت الغلبة فيها لأحكام الإسلام دون أحكام الكفر فهي دار إسلام، وكل دار كانت الغلبة فيها لأحكام الكفر دون أحكام الإسلام فهي دار كفر، وإن الدار لا تخلو من أن تكون دار كفر أو دار إسلام»<sup>(٢)</sup>.

ويقول الكاساني: «لا خلاف بين أصحابنا في أن دار الكفر تصير دار إسلام بظهور أحكام الإسلام فيها»<sup>(٣)</sup>.

ويقول الرافعي: «ليس من شرط دار الإسلام أن يكون فيها مسلمون، بل يكفي كونها في يد الإمام»<sup>(٤)</sup>.

قال ابن القيم: «قال الجمهور: دار الإسلام هي التي نزلها المسلمون وجرت عليها أحكام الإسلام، وما لم تجر عليه أحكام الإسلام لم يكن دار إسلام وإن لاصقها، فهذه الطائف قريبة إلى مكة جداً، ولم تصر دار إسلام بفتح مكة، وكذلك الساحل»<sup>(٥)</sup>.

ويقول ابن مفلح: «فكل دار غلب عليها أحكام المسلمين فدار الإسلام، وإن غلب عليها أحكام الكفار فدار الكفر، ولا دار لغيرهما.. وهو الذي ذكره القاضي والأصحاب»<sup>(٦)</sup>. وقال عن دار الحرب: «هي ما يغلب فيها حكم الكفر»<sup>(٧)</sup>.

---

(١) «المحلى» (١٢/١٢٦).

(٢) «المعتمد في أصول الدين» (٢٧٦).

(٣) «بدائع الصنائع» (٧/١٣٠).

(٤) «الفتح العزيز» (٨/١٤).

(٥) «أحكام أهل الذمة» (٢/٧٢٨).

(٦) «الآداب الشرعية» (١/١٩٠).

(٧) «المبدع» (٣/٣١٣).

وقال المرداوي: «ودار الحرب ما يغلب فيها حكم الكفر»<sup>(١)</sup>.

وقال الحجاوي: «وتجب أي: (الهجرة) على من يعجز عن إظهار دينه بدار الحرب وهي ما يغلب فيها حكم الكفر»<sup>(٢)</sup>.

وقال الشيخ أبو بطين: «قال الأصحاب: الدار داران دار إسلام ودار كفر فدار الإسلام هي التي تجري أحكام الإسلام فيها، وإن لم يكن أهلها مسلمين وغيرها دار كفر»<sup>(٣)</sup>.

وقال الشيخ سليمان بن سحمان:

وَاللّٰهُ حَرَّمَ مُكُوثَ مَنْ هُوَ مُسْلِمٌ      فِي كُلِّ أَرْضٍ حَلَّهَا الْكُفَّارُ  
وَلَهُمْ بِهَا حُكْمُ الْوِلَايَةِ قَاهِرٌ      فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ فَاَلْقَامَ شَنَارٌ<sup>(٤)</sup>

وقال السعدي: «فبلاد الإسلام التي يحكمها المسلمون وتجري فيها الأحكام الإسلامية ويكون النفوذ فيها للمسلمين ولو كان جمهور أهلها كفاراً»<sup>(٥)</sup>.

ويستدل له بما يلي:

١ - اتفاق الفقهاء على أن دار أهل الذمة دار إسلام سواء كانوا منفردين في بلد لم يمازجهم فيه أحد من المسلمين كما في بلاد نجران أو كانوا أكثرية كاثرة كما في بلاد خيبر في عهد رسول الله ﷺ، فقد عين عليها رسول الله ﷺ والياً مسلماً يقيم فيهم حكم الله. أو مختلطين مع المسلمين كاليهود والنصارى في بلاد الشام؛ وذلك لأنهم تحت حكم الإسلام،

(١) «الإنصاف» (٤/ ١٢١).

(٢) «الإقناع» (٢/ ٦٨-٦٩).

(٣) «مجموعة الرسائل» (١/ ٦٥٥).

(٤) «ديوانه» (١/ ٣١٩-٣٢٠).

(٥) «المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ / قسم الفقه» (٢/ ٢٧٠).

وهكذا كل بلد فتحها المسلمون، وصارت تحت حكمهم: صارت دار إسلام.  
وفي هذا دليل على أن مجرد السكنى لا يصح أن يكون مناطاً للحكم على الدار بدار  
إسلام أو كفر.

٢- أن الإسلام والكفر في مسائل الدولة رُبطا بالحكم ولم يُربط بالسكان، ومن  
المسلم به أن الحكم من خصائص الدولة وليس من خصائص السكان.  
٣- أن المقصود بالأحكام هو فرضها على الناس والالتزام بها عملياً وهذه من أعمال  
الحاكم.

٤- أن النبي ﷺ ربط بقاء الهجرة بقتال العدو، والذي يقاتل ويعقد ألوية القتال هي  
الدولة بحكامها وجنودها وليس عامة الناس.

أقسام الهجرة من حيث البلاد وأهلها:

تنقسم الهجرة من حيث البلاد وأهلها إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام:

وهذا النوع من الهجرة هو أصل أقسامها الثلاثة وأعظمها وأشهرها ولهذا اكتفى  
المؤلف بذكره دون بقية الأقسام وهذا النوع هو الذي قال الله في أهله مادحاً إياهم:  
﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ  
وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

وعلى رأس هؤلاء المهاجرين رسول الله ﷺ فإنه أرى دار هجرته وهو في مكة، كما في  
حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى  
أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرَ، فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ...»<sup>(١)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (٦/٦٢٧)، كتاب «المنقب» / باب علامات النبوة في الإسلام. رقم (٣٦٢٢)، ومسلم

(٤/١٧٧٩-١٧٨٠)، كتاب «الرؤيا» / باب رؤيا النبي ﷺ. رقم (٢٢٧٢).

وأخبر بأنها دار هجرته وهجرة أصحابه فقال فيما روته عائشة رضي الله عنها أنه قال صلى الله عليه وسلم للمسلمين: «إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين» - وهما الحرتان - فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة<sup>(١)</sup>. وهجرة أصحابه صلى الله عليه وسلم من مكة أشهر من أن تذكر.

### الثاني: الهجرة من بلد البدعة إلى بلد السنة:

الهجرة من بلد البدعة إلى بلد السنة سنة متبعة مأثورة عن سلفنا الصالح رحمهم الله رحمة واسعة ومن ذلك هجرة بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومنهم جرير بن عبد الله البجلي وعدي بن حاتم الطائي وحنظلة بن الربيع الكاتب فإنهم خرجوا من الكوفة حتى نزلوا قرقيسيا وقالوا: لا نقيم ببلدة يشتم فيها عثمان بن عفان<sup>(٢)</sup> وكذلك من تبعهم بإحسان ومنهم محمد بن عبدالعزيز التيمي فإنه باع داره وقال: لا أقيم بالكوفة بلدة يشتم فيها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup>.

وعمر بن الحسين الخرقى فإنه خرج من مدينة السلام لما ظهر سب الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين<sup>(٤)</sup> وخرج محمد بن نظيف المالكي من القيروان إلى مصر عند ظهور سب السلف رحمهم الله تعالى<sup>(٥)</sup>، بل أوجب ذلك مالك رحمته الله فقال: «لا يحل لأحد أن يقيم ببلد سُبَّ فيها السلف»<sup>(٦)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ١٣٠-١٣٢)، كتاب «مناقب الأنصار» / باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة. رقم (٣٩٠٥).

(٢) «الإبانة الصغرى» لابن بطة (١٦٤)، و«تاريخ بغداد» (١/ ٥٤٨).

قال البغدادى: قال لي محمد بن علي الصواري: «أنا رأيت قبورهم بقرقيسيا».

(٣) «طبقات الحنابلة» (٢/ ٧٥).

(٤) «الإبانة الصغرى» لابن بطة (١٦٤).

(٥) «ترتيب المدارك» (٦/ ٢٠٦).

(٦) «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٨٤).



وقال القصري: «وفي البخاري: والفرار من الفتن من الإيمان، فما كان من الإيمان فهو من شعبه بلا شك... فالفرار ظاهراً من بين ظهرائي المشركين واجب على كل مسلم، وكذلك كل موضع يخاف فيه الفتنة في الدين من ظهور بدعة أو ما يجر إلى كفر في أي بلد كان من بلاد المسلمين فالهجرة منه واجبة إلى أرض الله الواسعة»<sup>(١)</sup>.

وقال في «الإقناع وشرحه»: «وتجب الهجرة على من يعجز عن إظهار دينه بدار الحرب وهي ما يغلب فيها حكم الكفر... زاد جماعة وقطع به في المنتهى أو بلد بُغاة أو بدع مُضِلَّة كَرَفُضٍ واعتزال فيخرج منها إلى دار أهل السنة وجوباً إن عجز عن إظهار مذهب أهل السنة فيها»<sup>(٢)</sup>.

### الثالث: الهجرة من بلد المعصية إلى بلد الطاعة

إذا كثرت المعاصي في بلد من بلدان المسلمين ولم يستطع المسلم إنكارها ومحاربتها فإن عليه أن يهاجر منها إلى بلد تظهر فيه الطاعة ويعز فيه أهلها وتختفي فيه المعصية ويذل أهلها. قال تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قال سعيد بن جبير عند قوله: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ﴾ إذا عمل فيها بالمعاصي فاخرج منها».

وقال عطاء: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ﴾ أي مجانبة أهل المعاصي.

وقال مجاهد: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ﴾ فهاجروا وجاهدوا.

وقال ابن جرير: «قال بعضهم: أريد بذلك أنها لم تضق عليكم فتقيموا بموضع منها لا يحل لكم المقام فيه، ولكن إذا عمل بمكان منها بمعاصي الله فلم تقدرُوا على تغييره

(١) «شعب الإيمان» للقصري (١/ ٢٣٩-٢٤٠).

(٢) «كشاف القناع عن متن الإقناع» (٣/ ٤٣).

فأهربوا منه» ثم أيّده وصوّبه<sup>(١)</sup>.

وقال البغوي بعد أن ذكر هذه الآثار: «وكذلك يجب على كل من كان في بلد يعمل فيها بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له العبادة»<sup>(٣)</sup>.

ويلحق بهذه الأنواع:

فَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ أَنَهَا قَالَتْ: «لَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْنَا مَكَّةَ وَأُوذِيَ أَصْحَابُ

(٢) «شرح السنة» للبغوي (١٤ / ٣٩٩).

(٣) «معالم التنزيل» (٣/ ٤٧٢)، وانظر: «الدرر السنية» (١٢/ ٣٩٩-٤٠٢).

(٤) مسلم (٢١١٨/٤)، كتاب «التوبة»/ باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله. رقم (٢٧٦٦).

رسول الله ﷺ وفَتِنُوا ورَأَوْا ما يُصِيبُهُم من البلاءِ والفِتْنَةِ في دينهم وأنَّ رسولَ الله ﷺ لا يَسْتَطِيع دَفْعَ ذلكَ عنهم... فقال لهم رسول الله ﷺ: «إِنَّ بأَرْضِ الحَبَشَةِ ملكًا لا يُظْلَمُ أَحَدٌ عنده، فالحقوا ببلاده حتَّى يجعلَ اللهُ لَكُمْ فرجًا ومُخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فيه»، فخرجنا إليها أرسالًا حتَّى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دارٍ إلى خير جَارٍ أَمِنَّا على ديننا، ولم نخشَ منه ظلمًا...»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: «بلغنا مخرجَ النَّبيِّ ﷺ ونحنُ باليمن، فخرجنا مُهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرُهُم، أحدهما أَبُو بُرْدَةَ، والآخرُ أَبُو رُهم، إمَّا قال في بضع، وإمَّا قال: في ثلاثة وخمسين، أو اثنين وخمسين رجلًا من قومي، فركبنا سفينةً، فألقنا سفينتنا إلى النَّجاشيِّ بالحَبَشَةِ، فوافقنا جعفر بن أبي طالبٍ، فأقمنا معه حتَّى قدمنا جميعًا، فوافقنا النَّبيَّ ﷺ حين افتتح خيبر، وكان أناسٌ من الناس يقولون لنا، يعني لأهل السَّفينة سبقناكم بالهجرة، ودخلت أسماءُ بنتُ عُميسٍ، -وهي ممَّن قدم معنا- على حفصة زوج النَّبيِّ ﷺ زائرةً، وقد كانت هاجرت إلى النَّجاشيِّ فيمن هاجر، فدخل عُمرُ على حفصة، وأسماءُ عندها، فقال عُمرُ حين رأى أسماءَ: من هذه؟ قالت: أسماءُ بنتُ عُميسٍ، قال عمر: أَلَحَبَشِيَّةُ هذه أَلَحَبَشِيَّةُ هذه؟ قالت أسماءُ: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة، فنحنُ أحقُّ برسول الله منكم، فغضبت وقالت: كَلَّا والله، كُنْتُمْ مع رسول الله يُطْعَمُ جائِعُكُمْ، ويعطَى جاهِلُكُمْ، وكُنَّا في دار أو في أرض البُعْداءِ البُغْضاءِ بالحَبَشَةِ، وذلك في الله، وأيم الله لا أطعمُ طعامًا ولا أشربُ شرابًا، حتَّى أذكرُ ما قُلتَ لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نؤذِي ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي ﷺ وأسأله، والله لا أكذبُ ولا أزيغُ، ولا أزيدُ عليه، فلمَّا جاء النَّبيُّ ﷺ قالت: يا نبيَّ الله إنَّ عُمرَ قال: كذا وكذا قال: «فما قُلتَ لَهُ؟» قالت: قُلتُ لَهُ: كذا وكذا، قال: «ليس بأحقَّ بي منكم، وَلَهُ ولأصحابه هجرةٌ واحدةٌ، ولكم أنتم أهل السَّفينة هجرتان» قالت

(١) «سيرة ابن إسحاق» (١٩٤)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١٦/٩) رقم (١٧٧٣٤)، وصححه الألباني

في «صحيح السيرة النبوية» (١٧٠).

أسماء: فلقد رأيتُ أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونني أرسالاً، يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيءٌ هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ<sup>(١)</sup>.

### فضل الهجرة:

لما كانت الهجرة لها أثر كبير على صلاح الفرد والمجتمع وعزة المسلمين وعلوهم ورفعتهم ونصرهم على أعدائهم تكاثرت الأدلة في بيان فضلها على صفات متنوعة ومن ذلك:

#### ١ - سعادة المهاجر:

الهجرة من أسباب سعادة العبد المهاجر دنيا وأخرى، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [النحل: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِلَى اللَّهِ لَهَوَ خَيْرُ الرِّزْقَيْنِ﴾ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿الحج: ٥٨-٥٩﴾.

#### ٢ - محو الذنوب وغفرانها:

الهجرة يمحو الله بها الذنوب السالفة، وإن عظمت وكثرت، كما حدث بذلك عمرو بن العاص قائلاً: «لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعنك فبسط يمينه قال: فقبضت يدي قال: «مالك يا عمرو؟»، قال: قلت: أردت أن أشرطَ قال: «تشرط بماذا؟»، قلت: أن يغفر لي قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ٤٨٤-٤٨٥)، كتاب «المغازي» / باب غزوة خيبر. رقم (٤٢٣٠-٤٢٣١)،

ومسلم (٤/ ١٩٤٦-١٩٤٧)، كتاب «فضائل الصحابة» / باب من فضائل جعفر بن أبي طالب، وأسماء

بنت عميس، وأهل سفيتهم ﷺ. رقم (٢٥٠٢، ٢٥٠٣).

قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهَجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا...»<sup>(١)</sup>.

بل ويغفر الله بها الذنوب اللاحقة كما في حديث الطفيل بن عمرو الدوسي وفيه: «فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ هَاجَرَ إِلَيْهِ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، وَهَاجَرَ مَعَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَاجْتَوَا الْمَدِينَةَ فَمَرَضَ فَجَزَعَ فَأَخَذَ مَشَاقِصَ لَهُ فَقَطَعَ بِهِ بَرَاجِمَهُ فَشَخَبَتْ يَدَاهُ حَتَّى مَاتَ، فَرَأَاهُ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فِي مَنَامِهِ فَرَأَاهُ وَهَيْئَتُهُ حَسَنَةً وَرَأَاهُ مَغْطِيًّا يَدَيْهِ فَقَالَ لَهُ: مَا صَنَعَ بِكَ رَبِّكَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ لِي بِهَجْرَتِي إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ. فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكَ مَغْطِيًّا يَدَيْكَ قَالَ: قِيلَ لِي: لَنْ نَصْلَحَ مِنْكَ مَا أَفْسَدْتَ، فَقَصَّهَا الطُّفَيْلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «اللَّهُمَّ وَلِيَدَيْهِ فَاغْفِرْ»<sup>(٢)</sup>.

### ٣- عظيم أجرها:

عندما تقع المصائب والنكبات بالمجتمعات ينشغل بها الناس عن العبادة والذكر، ولا يتذكر العبادة إلا القليل من الناس فيكون لها مزية فضل على غيرها من الأوقات والأحايين. والهجرة تعادل بفضلها تلك العبادة قال ﷺ: «العبادة في الهرج كهجرة إلي»<sup>(٣)</sup>.

### أهداف الهجرة وثمارها:

أهداف الهجرة كثيرة منها:

#### ١- حفظ الدين:

الهجرة من أعظم أسباب حفظ الدين، وذلك أن البقاء مع المشركين في ديارهم سبب رئيس في فتنة الإنسان عن دينه؛ إما بالترغيب أو بالترهيب، قالت عائشة رضي الله عنها: «كان

(١) مسلم (١/١١٢)، كتاب «الإيمان» / باب كون الإسلام يهدم ما قبله، وكذا الهجرة والحج. رقم (١٢١).

(٢) مسلم (١/١٠٨-١٠٩)، كتاب «الإيمان» / باب الدليل على أن قاتل نفسه لا يكفر. رقم (١١٦).

(٣) مسلم (٤/٢٢٦٨)، كتاب «الفتن وأشرار الساعة» / باب فضل العبادة في الهرج. رقم (٢٩٤٨).

المؤمنون يفرُّ أحدُهم بدينه إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ مخافةً أن يُفتَنَ عليه»<sup>(١)</sup>.

## ٢ - الجهاد في سبيل الله:

وذلك أن المسلمين إذا انحازوا إلى مكان وتجمعوا فيه صارت لهم شوكة ودولة ومن ثم شرعوا في جهاد أعداء الله وفتح بلاد الكفر، كما هي حال النبي ﷺ وأصحابه في المدينة.

## ٣ - مراغمة أعداء الله:

مراغمة أعداء الله مطلب شرعي ذكره الله بقوله: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠].

«أي مكاناً يراغم فيه أعداء الله»، وذلك أن «علامة المحبة الصادقة مغايضة أعداء المحبوب ومراغمتهم»<sup>(٢)</sup>، بل «لا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه وإغاضته له» لكن «لا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة»<sup>(٣)</sup>. ولأجل ذلك قدّم الله المراغمة على السعة بل مدح مغيظي الكفار وأثنى عليهم فقال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ، فَتَزَرَّهُ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

وكتبه في الأعمال الصالحة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

قال ابن القيم: «فمغايضة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له، فموافقته فيها من كمال

(١) البخاري مع الفتح (٧/٢٢٦)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة. رقم (٣٩٠٠).

(٢) «روضة المحبين» (٤٧٢).

(٣) «مدارج السالكين» (١/٢٢٦-٢٢٧) بشيء من التصرف.

العبودية... فَمَنْ تعبد الله بمراغمة عدوه فقد أخذ من الصّدقيّة بسهم وافر. وعلى قدر محبة العبد لربه وموالاته، ومعاداته لعدوه يكون نصيبه من هذه المراغمة... وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس، ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - تكثير سواد المسلمين:

تكثير سواد المسلمين يفيد فائدتين إحداهما: تقوية قلوب المؤمنين، والأخرى إرهاب الكافرين وتخويفهم ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَاجِئْكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَدْفَعُوا﴾ [آل عمران: ١٦٧]، أو ادفعوا: أي: كثّروا المؤمنين، فإنّ ذلك يرهّب الأعداء.

قال السدي: «أي: كثروا سواد المسلمين، ورابطوا، وإن لم تقاتلوا يكون ذلك دفعاً وقمعاً للعدو»<sup>(٢)</sup>.

قال أنس بن مالك: «رأيت يوم القادسية عبد الله بن أم مكتوم الأعمى، وعليه درع يجر أطرافها، وبيده راية سوداء، ف قيل له: أليس قد أنزل الله عذرك؟ قال: بلى، ولكنني أكثر المسلمين بنفسي، وفي لفظ: «أكثر سواد المسلمين»<sup>(٣)</sup>.

#### ٥ - السلامة والراحة من رؤية المنكرات:

رؤية المنكرات تؤثر في القلب ولو على المدى البعيد فيصاب بالبرود وفقد الغيرة، بل ربما أشرب حبها، فارتكبها، فأضرّت بدينه، فإذا هاجر إلى بلاد الإسلام سلم من ذلك كله.

(١) المرجع السابق.

(٢) «معالم التنزيل» (١/ ٥٣٣).

(٣) «المحرر الوجيز» (١/ ٥٣٩)، وأصله عند عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٨٢) رقم (٣٤٩٧).

## ٦- الأمن من غدر الكفار:

إذا انتقل المسلم وهاجر إلى إخوانه المؤمنين وتحيز إلى تلك الفئة المؤمنة سلم من غدر الكفار وخداعهم وصار في مأمن منهم ومن غوائلهم.

## ٧- تمييز أولياء الله من أعدائه:

الممايزة بين الموحدين والمشركين من أصول هذا الدين وهي التي يعبر عنها العلماء بالولاء والبراء، ومن أعظم وسائلها الهجرة من ديار الكفر والشرك إلى بلاد الإسلام، فإن لم تكن هجرة وممايزة صارت الفتنة والفساد الكبير.

## آثار ترك الهجرة:

كما أن للهجرة ثمرات عظيمة فتركها له أضرار جسيمة على الفرد والمجتمع منها:

## ١- انقطاع الولاية بينه وبين المهاجرين:

نهى الحق سبحانه عن موالاته المؤمنين الممتنعين عن الهجرة، فقال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكِيلٍ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢].

وحتى للغاية فلا تكون ولاية إلا بالهجرة في سبيل الله، فلما هاجروا جعلهم الله من

المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥].

## ٢- غضب الله على من ترك الهجرة وعقوبته:

توعد الله بالنار من توفي ظالماً لنفسه بترك الهجرة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي

أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ

مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧] ولم يتوعدهم الله بالنار إلا لشناعة فعلهم الذي أغضبه

عليهم.



## ٣- حرمانهم من الغنيمة والفبيء:

من عقوباتهم الدنيوية جراء تقصيرهم في الهجرة حرمانهم من الغنيمة والفبيء كما في حديث بريدة الطويل، وفيه قال: «اغزُوا باسمِ الله في سبيلِ الله، قاتلُوا مَنْ كفر بالله... إذا لقيتَ عدوَّكَ من المشركين فادعُهُمْ إلى إحدى ثلاثِ خصالٍ -أو خلالٍ- فَأَيَّتَهُنَّ ما أجابوك؛ فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، ثم ادعُهُمْ إلى التَّحَوُّلِ مِنْ دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلُوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإنَّ أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنَّهم يكونون كأعرابِ المسلمين يجري عليهم حكمُ الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفبيء شيءٌ إِلَّا أَنْ يُجاهدُوا مع المسلمين...»<sup>(١)</sup>.

## ٤- ضياع الدين:

من عاش بين المشركين يرى شركهم وكفرهم وسكت على ذلك، هانت في قلبه شريكاتهم، فإنه كلما كثر الإمساس قلَّ الإحساس، بل ربما تنازل عن شيء من دينه لإرضاء الكفار أضف إلى ذلك حرمانه من الجهاد في سبيل الله ومراغمة أعدائه وتكثير سواد المؤمنين، وكفى بهذا ضياعاً للدين.

(١) سبق تخريجه.

**والهجرة: فريضة على هذه الأمة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام. وهي باقية إلى أن تقوم الساعة.**

.....

انتقل المؤلف إلى بيان حكم الهجرة ووجوبها على هذه الأمة؛ لأنَّ مَنْ «كان كافراً فأسلم لم يحل له المقام في دار الحرب، وكان عليه الخروج فرضاً واجباً... وكيف يجوز لمسلم المقام في دار تجري عليه فيها أحكام الكفر، وتكون كلمته فيها سفلى ويده، وهو مسلم، هذا لا يجوز لأحد»<sup>(١)</sup>.

والهجرة واجبة بالكتاب والسنة والإجماع.

ومن أدلة ذلك ما يلي:

أولاً: أن الله عاتب المؤمنين الذين قعدوا ولم يهاجروا حتى ماتوا فوصفهم بالظالمين أنفسهم وتوعدهم بالعذاب العظيم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغَالِبِينَ أَنْفُسُهُمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]، «هذا وعيد شديد يدل على الوجوب؛ لأن القيام بواجب دينه واجب على من قدر عليه، والهجرة من ضرورة الواجب، وتتمته، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن كثير: «هذه الآية عامة في كل مَنْ أقام بين ظهرائي المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكناً من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع وبنص هذه الآية»<sup>(٣)</sup>.

(١) «التمهيد» (٨/ ٣٩٠-٣٩١).

(٢) «المغني» (١٣/ ١٥١).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣٥٣).

ثانياً: أن النبي ﷺ منع من إقامة المسلم بين المشركين إذا كان قادراً على الهجرة فقال: «أنا بريء من كل مسلم يُقيم بين أظهر المشركين»، قيل: يا رسول الله! ولم؟ قال: «لا تراءى ناراهما»<sup>(١)</sup>. «ومعناه: لا يكون بموضع يرى نارهم، ويرون ناره إذا أوقدت في أي وأخبار سوى هذين كثير»<sup>(٢)</sup>.

وقوله ﷺ: «لا يقبل الله من مشركٍ بعدما أسلم عملاً أو يفارق المشركين إلى المسلمين»<sup>(٣)</sup>.

وقال ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه؛ فهو مثله»<sup>(٤)</sup>، وفي لفظ: «لا تُساكنوا المشركين، ولا تُجامعُوهم، فمن ساكنهم أو جامعهم؛ فليس منا»<sup>(٥)</sup>، فلازم المنع من الإقامة في ديار الكفار هو الهجرة. قال العبدوسي المالكي الأندلسي: «المقام بين أظهر الكفار مع القدرة على الهجرة عنهم حرام بإجماع»<sup>(٦)</sup>.

ثالثاً: الأمر بالهجرة والتأكيد عليه من أول إسلام المسلم:

أكد النبي ﷺ على الهجرة عند بيعته أصحابه على الإسلام، كما في حديث جرير بن عبد الله أنه حين بايع النبي ﷺ أخذ عليه: ألا يُشرك بالله شيئاً، ويُقيم الصلاة، ويُؤتي الزكاة، ويُصحح المسلم، ويُفارق المشرك»<sup>(٧)</sup>.

(١) سبق تخريجه.

(٢) «المغني» (١٣/ ١٤٩-١٥٠).

(٣) أحمد (٤/ ٥)، والنسائي (٨٢-٨٣/ ٥)، كتاب «الزكاة» / باب من سأل بوجه الله ﷻ، وابن ماجه

(٢/ ٨٤٨)، كتاب «الحدود» / باب المرتد عن دينه. رقم (٢٥٣٦)، وقال الألباني: «إسناده حسن».

«السلسلة الصحيحة» (١/ ٦٤٤).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) «نوازل ابن طركاظ» (٩٣-٩٤) نقلاً عن «الصراع العقائدي في الأندلس» (٦٤٠).

(٧) سبق تخريجه.

رابعاً: قطع العلاقة بين المهاجرين ومن لم يهاجر، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢]، وقطع العلاقة يدل على وجوب الهجرة؛ لأنه لا تقطع العلاقة إلا لترك واجب، أو فعل محرم.

خامساً: الإجماع على وجوب الهجرة.

قال النووي: «واتفق الجميع على أنَّ الهجرة قبل الفتح كانت واجبة عليهم»<sup>(١)</sup>. وهذا من مكة لما كانت دار كفر - وهي أفضل البقاع - فغيرها من البلدان من باب أولى.

قال ابن هبيرة: «واتفقوا على وجوب الهجرة من ديار الكفار إن قدر على ذلك»<sup>(٢)</sup>. واستثني من الوجوب من يستطيع إظهار دينه في بلاد الكفر فإن الهجرة في حقّه مستحبة وليست بواجبة.

أما حكم السفر إلى بلاد الكفار كحكم الإقامة يمنع منه مَنْ عَجَزَ عن إظهار دينه<sup>(٣)</sup>، واشترط له شيخنا محمد العثيمين ثلاثة شروط هي:

١ - أن يكون عنده علم يمنعه من الشبهات.

٢ - أن يكون عنده دين يحميه من الشهوات.

٣ - أن يكون لحاجة وضرورة<sup>(٤)</sup>.

فمن لم تجتمع فيه هذه الشروط الثلاثة لم يجز له السفر إلى ديار الكفر.

صفة إظهار الدين:

تتضح كيفية إظهار الدين بمعرفة أصله الذي يقوم عليه فمن أظهره فقد أظهر الدين

(١) «شرح مسلم» (٩/ ١٢٢)، وانظر: «الدرر السنية» (٨/ ١١٠).

(٢) «الإفصاح» (٢/ ٢٧٣).

(٣) «الدرر السنية» (٨/ ٣١٨).

(٤) «المجموع الثمين» (١/ ٤٩ - ٥٠).

ومن لم يظهره لم يظهر الدين.

وأصله هو الشهادتان اللتان بهما يدخل الإنسان دين الله ﷻ فيفرد الله بالعبادة، ويفرد النبي ﷺ بالإتباع، ويحب الله ويحب فيه ويوالي فيه، ويبغض الله ويعادي فيه، فيبغض الشرك والمشركين ويعاديهم.

وضابط إظهار الدين: مجاهرة المسلم بالتوحيد والبراءة مما عليه المشركون من الشرك بالله في العبادة وغير ذلك من أنواع الكفر والضلال<sup>(١)</sup>.

ويوضحه الشيخ حسين بن غنام الإحساني حيث يقول راداً على من ظن أن إظهار الدين هو الأذان والصلاة والصوم وغير ذلك من أنواع العبادات:

«ليس الأمر كما زعمتم فإن الله سبحانه ذكر في كتابه المراد من إظهار الدين وأنه ليس ما توهمتم فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون ١-٦]. فأمره أن يقول لهم: إنكم كافرون وإنه بريء من معبوداتهم وأنهم بريئون من عبادة الله وهو قوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

وقوله ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾: تصريح بالبراءة من دينهم الذي هو الشرك، وتمسك بدينه الذي هو الإسلام، فمن قال ذلك للمشركين ظاهراً في مجالسهم ومحافلهم وغشاهم به فقد أظهر دينه».

ثم استدل بقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [المتحنة: ٤].

(١) «فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم» (١/ ٩١-٩٢).

ثم نقل كلام الشيخ حمد بن عتيق على هذه الآية فقال: «قال شيخنا حمد بن عتيق رحمته: فأخبر الله تعالى عن جميع المرسلين أنهم تبرؤوا من الشرك والمشركون فإن معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي من المرسلين وقوله: ﴿وَبَدَا﴾ أي ظهر وبان. وهذا هو الواجب أن تكون العداوة والبغضاء ظاهرة يعلمها المشركون من المسلم وتكون مستمرة»<sup>(١)</sup>. «فمن حقق ذلك علماً وعملاً وصرح به حتى يعلمه منه أهل بلده لم تجب عليه الهجرة من أي بلد كان. وأما من لم يكن كذلك بل ظن أنه إذا ترك يصلي ويصوم ويحج سقطت عنه الهجرة فهذا جهل بالدين وغفول عن زُبْدَةِ رسالة سيد المرسلين»<sup>(٢)</sup>.

وللشيخ إسحاق بن عبدالرحمن بن حسن استدلال لطيف بقوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ﴾ أبطل فيه دعوى من قصر إظهار الدين على مجرد العبادة، فقال: «لأنه إذا حمل على ذلك فقد تساوى المستثنى والمستثنى منه؛ إذ هو مناط الرخصة في زعم المجيز ولا يتصور في المستضعف أن يترك عبادة ربه»<sup>(٣)</sup>.

قال الشيخ سليمان بن سحمان مبيناً صفة إظهار الدين:

فَاسْمَعْ إِذَا إِظْهَارُهُ عَنْ ظَاهِرِ الْقُدْرَةِ	رَأَى بَلْ جَاءَتْ بِهِ الْآثَارُ
إِظْهَارُ هَذَا الدِّينِ تَصْرِيحٌ لَهُمْ	بِالْكُفْرِ إِذْ هُمْ مَعَشَرٌ كُفَّارُ
هَذَا وَلَيْسَ الْقَلْبُ كَافٍ بَغْضُهُ	وَالْحُبُّ مِنْهُ وَمَا هُوَ الْمَعْيَارُ
لَكِنَّمَا الْمَعْيَارُ أَنْ تَأْتِيَ بِهِ	جَهْرًا وَتَصْرِيحًا لَهُمْ إِذْ جَارُوا <sup>(٤)</sup>

(١) «الدرر السنية» (٤٣٣/٨) ثم استمر الشيخ/ في ذكر الأدلة والنقول عن أهل العلم تركتها خشية الإطالة من (٤٣٣-٤٣٦) فراجع إن شئت.

وانظر: «الجيوش العمرية» لابن سحمان (١٢٠-١٢٢)، و«سبيل النجاة والفكاك» (٩٢).

(٢) «الدرر السنية» (٤١٨/٨).

(٣) المرجع السابق (٤٠٢/١٢).

(٤) «ديوانه» (٣٢٠).

### أقسام الهجرة بالنسبة لحال المهاجر:

- ١ - واجبة على مَنْ كان قادرًا على الهجرة ولا يمكنه إظهار الدين.
  - ٢ - مستحبة لمن كان قادرًا على الهجرة لكنه يمكنه إظهار الدين.
  - ٣ - مَعْفُوءَةٌ عن العاجز الذي لا يستطيع الهجرة من أَسْرٍ أو مرض أو إكراه على الإقامة، أو ضعف من النساء والولدان وشبههم، أو نحو ذلك<sup>(١)</sup>.
- وقوله: «وهي باقية إلى أن تقوم الساعة» أي أن الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام مستمرة إلى قيام الساعة لحديث عبد الله السعدي: أنه ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة ما دام العدوُّ يقاتل». فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمرو بن العاص: إن النبي ﷺ قال: «... ولا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه، وكفى الناس العمل»<sup>(٢)</sup>، وفي لفظ: «لا تنقطع الهجرة ما قوتل العدو»<sup>(٣)</sup>.

وفي لفظ: «لا تنقطع الهجرة ما قُوتِلَ الكُفَّارُ»<sup>(٤)</sup>، وقاتل العدو يبقى إلى قيام الساعة.

وعن جنادة بن أبي أمية: «أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ قال بعضهم: إنَّ الهجرة قد انقطعت فاختلفوا في ذلك. قال: فانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ فقلتُ: يا رسول الله! إن أناسًا يقولون: إنَّ الهجرة قد انقطعت، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الهجرة لا تنقطع ما

(١) انظر: «المغني» (١٣/١٥١).

(٢) أحمد (١/١٩٢)، قال ابن كثير: «وهذا إسناد جيد قوي». «البداية والنهاية» (١١/٢٦٣).

(٣) أحمد (٥/٢٧٠).

(٤) النسائي (٧/١٤٦-١٤٧)، كتاب البيعة/ ذكر الاختلاف في الهجرة، قال أبو زرعة: «الحديث صحيح مثبت عن عبد الله بن السعدي، كذا رواه الثقات الأثبات، منهم: مالك بن مخامر، وأبو إدريس الخولاني، وعبد الله بن محيريز، وغيرهم». «تاريخ دمشق» (٣١/٤٠٣).

كان الجهاد»<sup>(١)</sup>.

قال ابن عبد البر بعد كلام سبق: «وقد بقي من الهجرة بابٌ باقٍ إلى يوم القيامة وهو المسلم في دار الحرب إذا أطاقت أسرته أو كان كافراً فأسلم لم يحلّ له المقام في دار الحرب، وكان عليه الخروج عنها فرضاً واجباً»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن قدامة: «وحكم الهجرة باقٍ لا ينقطع إلى يوم القيامة في قول عامة أهل العلم»<sup>(٣)</sup>.

وقال ابن العربي المالكي بعد كلام سبق: «فأما الهجرة من أرض الكفر فهي فريضة إلى يوم القيامة»<sup>(٤)</sup>.

وقال ابن حجر: «وهذه الهجرة باقية الحكم في حق مَنْ أسلم في دار الكفر وقدر على الخروج منها»<sup>(٥)</sup>.

ولا يرد علينا قول النبي ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيةٌ»<sup>(٦)</sup>؛ لأن المقصود بذلك لا هجرة من مكة بعد أن فتحت وصارت دار إسلام ويدل على خصوصيتها بمكة ثلاثة أمور:

١ - أن هذا الحديث خطاب لأهل مكة؛ لأن مناسبتة فتح مكة لما استأذنه بعضهم بالهجرة، كما في رواية ابن عباس: أن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة: «لا هجرة ولكن جهاد

(١) أحمد (٤/ ٦٢)، وصححه ابن حجر في «الإصابة» (٢/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٢) «التمهيد» (٨/ ٣٩٠).

(٣) «المغني» (١٣/ ١٥٠)، وانظر: «سبل السلام» (٤/ ٤٣).

(٤) «عارضة الأحوذى» (٧/ ٨٨).

(٥) «فتح الباري» (٦/ ٣٩)، وانظر (٧/ ٢٢٩-٢٣٠).

(٦) البخاري مع الفتح (٦/ ٣)، كتاب «الجهاد والسير»/ باب فضل الجهاد والسير. رقم (٢٧٨٣).



ونية»<sup>(١)</sup>.

٢- أن مكة صارت دار إسلام فلا معنى للهجرة منها. قال البغوي: «قوله «لا هجرة» يريد بها الهجرة من مكة إلى المدينة فإنها ارتفعت يوم الفتح، لأن مكة صارت يوم الفتح دار إسلام، وكانت الهجرة عنها واجبة قبل ذلك لكونها مساكن أهل الشرك، وكل من أسلم اليوم في بلدة من بلاد أهل الشرك فإنه يؤمر بمفارقتها والهجرة عنها إلى دار الإسلام»<sup>(٢)</sup>.

٣- الأحاديث الدالة على استمرار الهجرة حتى طلوع الشمس من مغربها تدل على أن المقصود بقوله: «لا هجرة بعد الفتح» مخصوص بمكان معيّن وهو مكة، وكذلك بلاد الكفر، إذا فتحت وصارت الدولة للإسلام.

(١) البخاري مع الفتح (٦/١٨٩)، كتاب «الجهاد والسير» / باب: «لا هجرة بعد الفتح». رقم (٣٠٧٧)، ومسلم (٣/١٤٨٧)، كتاب «الإمارة» / باب المبالغة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير، ومعنى: «لا هجرة بعد الفتح». رقم (١٨٦٣).

(٢) «شرح السنة» (٧/٢٩٥).

**والدليل: قوله تعالى:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٧ - ٩٩].

﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾: إن للتوكيد.

﴿تَوَفَّيْنَاهُمْ﴾: إما أن تكون ماضياً فهي تخبر عن حال قوم معينين قال ابن عباس: هم قوم تخلفوا بعد النبي ﷺ وتركوا أن يخرجوا معه. وقال عكرمة: نزلت في قيس بن الفاكه ابن المغيرة والحارث بن زمعة بن الأسود وقيس بن الوليد بن المغيرة وأبي العاص بن منبه ابن الحجاج، وعلي بن أمية بن خلف... فقتلوا ببدر<sup>(١)</sup>.

أو تكون مستقبلاً على تقدير إن الذين تتوفاهم الملائكة. فعلى هذا تكون الآية عامة وهو الراجح لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فتكون إحدى التاءين من توفاهم محذوفة وهي مرادة في الكلمة؛ لأن العرب تفعل ذلك والتوفي: هو قبض الروح.

﴿الْمَلَائِكَةُ﴾: ملائكة الموت أي ملك الموت وأعوانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]، أو ملك الموت وحده، ﴿قُلْ يَتُوفَّيْكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، والعرب قد تخاطب الواحد بلفظ الجمع.

﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾: في محل نصب على الحال؛ أي تتوفاهم الملائكة في حال ظلمهم أنفسهم بترك الهجرة والمقام في دار الشرك.

قال ابن جرير: «مُكْسَبِي أَنْفُسِهِمْ غَضَبَ اللَّهِ وَسَخَطَهُ»<sup>(١)</sup>.

﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾: الملائكة يسألونهم سؤال توبيخ، أي: أكنتم في أصحاب النبي ﷺ أم كنتم مع المشركين؟ على أي حال كنتم وبأي شيء تميزتم عنهم بل كثرتم سوادهم.

﴿قَالُوا كُنَّا مُتَضَاعِفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾: الضعف خلاف القوة قال مقاتل: «كنا مقهورين بأرض مكة لا نطيق أن نظهر الإيمان»<sup>(٢)</sup>.

﴿قَالُوا﴾: أي الملائكة.

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾: والاستفهام هنا للتوبيخ، أي: لماذا لم تهاجروا من بلاد الشرك ما دامت أرض الله واسعة؟ والأرض: هنا قيل المدينة، وقيل: المراد مطلق الأرض. والسعة: المقصود بها سعة الرزق وسعة الحرية في التمسك بالدين.

﴿فَتَهَاجَرُوا فِيهَا﴾: أي تهاجروا إليها فتنتقلوا من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام. وفي هذا بيان لعدم قبول اعتذارهم لعدم صحته. ولما بين عدم قبول اعتذارهم ذكر وعيدهم فقال: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

﴿فَأُولَئِكَ﴾: الإشارة في قوله فأولئك إلى الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم بترك الهجرة.

﴿مَأْوُهُمْ جَهَنَّمُ﴾: أي منزلهم الذي يأوون إليه هو جهنم، واشتقت من قولهم: بُئِرْ جَهَنَام، أي: بعيدة القعر، وقيل: مِنَ الْجُحُمَةِ، وهو آخر الليل<sup>(٣)</sup>، فسميت بذلك لبعدها قعرها وظلمتها واسودادها.

(١) المرجع السابق (٢٣٣ / ٥).

(٢) «تفسير مقاتل» (٤٠١ / ١).

(٣) انظر: «لسان العرب» (١٢ / ١١٠-١١٢).

﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾: هذا كقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمَصِيرَةَ﴾، وذلك أَنَّ ساء فعل جامد لإنشاء الذم (كبئس)، والمعنى قبح مرجعهم الذي يصيرون إليه، وعبر في هذه الآية بساءت؛ لأن النار كل ما فيها يسوء ولا يسرّ، وهذا وعيد شديد يدل على أن الهجرة واجبة على القادر وأن مَنْ لم يهاجر فقد ارتكب ذنباً عظيماً؛ لأنه لا يتوعد بمثل هذا الوعيد إلا على ترك واجب عظيم الوجوب.

ثم استثنى الله أهل الأعذار الحقيقيين فقال: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٨].

﴿إِلَّا﴾: الاستثناء منقطع<sup>(١)</sup> بمعنى «لكن»؛ لأن المستثنى منه عاصون بالتخلف عن الهجرة، فخرج من ذلك المستضعفون فلم يتوجه إليهم الوعيد. و﴿الْمُسْتَضَعْفِينَ﴾: جمع مستضعف وهو العاجز المقهور. ﴿مِنَ﴾: بياينة تبين المستضعفين مَنْ هُم.

وهم: ﴿الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ الذين لا يستطيعون الهجرة إما لحبسٍ أو مرضٍ ونحوه كالأعمى.

قال ابن عباس: «كنت أنا وأمي من المستضعفين»، وفي رواية: «كنت أنا وأمي مِّنْ عَذَرِ اللَّهِ»<sup>(٢)</sup>.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: أي لا يقدرّون على الانتقال من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، ولهذا قال: ﴿حِيلَةً﴾ وحيلة هنا نكرة في سياق النفي فتفيد العموم. وهي مشتقة من الحَوْل وهو

(١) «اللباب في علوم الكتاب» (٦/ ٥٩٣).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٢٥٥)، كتاب «التفسير»/ باب قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضَعْفِينَ

مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾. رقم (٤٥٨٧ و ٤٥٨٨).

القوة، أي: لا قوة لهم على الهجرة، أو من التحيل: أي التوصل إلى الشيء على وجه لا يشعر به الغير<sup>(١)</sup> والمقصود أنهم لا يستطيعون حيلة يتخلصون بها من الكفار.

﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾: السبيل هو الطريق أي لا يعرفون طريقاً يسلكونها للخروج إلى المدينة أو إلى الأرض التي يرغبون الهجرة إليها؛ لعدم خبرتهم بالدروب، ولا يجدون دليلاً يوصلهم فجمعوا بين العجز وعدم معرفة الطريق، فهؤلاء عذرهم الله.

قال الطبري: «استثنى جل ثناؤه المستضعفين الذين استضعفهم المشركون من الرجال والنساء، وهم العجزة عن الهجرة بالعسرة، وقلة الحيلة، وسوء البصر والمعرفة بالطريق من أرضهم»<sup>(٢)</sup>.

ومن المعذورين: عياش بن أبي ربيعة، وسلمة بن هشام، والوليد بن الوليد، ولقد كان النبي ﷺ يدعوهم إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة فيقول: «اللَّهُمَّ أَنْجِ عِيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ. اللَّهُمَّ أَنْجِ سلمةَ بن هشام، اللَّهُمَّ أَنْجِ الوليد بن الوليد، اللَّهُمَّ أَنْجِ المستضعفينَ من المؤمنين...»<sup>(٣)</sup>.

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾: إشارة إلى المستضعفين الذين قبل الله عذرهم لصحته فعفا عنهم ولذلك قال: «عسى الله أن يعفو عنهم».

قال ابن عباس: «عسى من الله واجبة»<sup>(٤)</sup>، وذلك لأن عسى للإطماع والإطماع من الكريم حاصل.

(١) انظر: «لسان العرب» مادة (حول)، (حيل) و«إعلام الموقعين» (٣/ ٢٥٢).

(٢) «جامع البيان» (٥/ ٢٣٢).

(٣) البخاري مع الفتح (٢/ ٤٩٢)، كتاب «الاستسقاء» / باب دعاء النبي ﷺ: «اجعلها عليهم سنين كسني يوسف». رقم (١٠٠٦).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٩١)، قال القرطبي: «عسى من الله واجبة في جميع القرآن؛ إلا قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَفَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ﴾. «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٣٩).

قال ابن رجب: «إن الكريم إذا أطمع لم يقطع من رجائه المطمع»<sup>(١)</sup>.

وفي قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ﴾ فائدتان:

- ١ - لئلا يغتر الإنسان بعفو الله فيأمن مكره. ففيها الجمع بين الخوف والرجاء.
- ٢ - أنَّ ترك الهجرة أمر مضيّق لا توسعة فيه، وذلك أنَّ المعذور يقال في حقه: عسى الله أن يعفو عنه فكيف الحال بغيره. وفي هذا حُصُّ على الهجرة وتوكيد لوجوبها.

و﴿كَانَ﴾ هنا: مسلوقة الزمان تفيد دوام استمرار وصف الله به، أي: أنه جل وعلا لم يزل ولا يزال عفواً غفوراً. قال محمود شاكر: «فهو خبرٌ عن مغفرة كانت ولا أوّل لها، وهي كائنة أبداً لا انقطاع لها؛ لأنها من صفات الله سبحانه»<sup>(٢)</sup>.

﴿عَفُوًّا﴾: العَفْوُ: فَعُول من العَفْو، وهو بناء المبالغة، وهو الصفح عن الذنوب وترك مجازاة المسيء<sup>(٣)</sup>، ولهذا علّم النبي ﷺ أمّنا عائشة رضي الله عنها أن تتوسل بعفو الله في دعائها فقال لها قولي: «اللهم إِنَّكَ عَفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي»<sup>(٤)</sup>.

﴿غَفُورًا﴾: فَعُول من الغَفْرِ وهو الستر والتغطية، ومنه المِغْفَر قال الزجاج: «ومعنى الغَفْرِ في الله سبحانه هو الذي يستر ذنوب عباده ويغطيهم بستره»<sup>(٥)</sup> قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٩٠).

(٢) «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» (١٣).

(٣) «شأن الدعاء» (٩٠).

(٤) الترمذي (٥/ ٥٣٤)، كتاب «الدعوات». رقم (٣٥١٣)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٥)، كتاب «الدعاء»/ باب الدعاء بالعفو والعافية. رقم (٣٨٥٠)، والنسائي في «الكبرى» (٧/ ١٤٦) رقم (٧٦٦٥)، وصححه النووي في «الأذكار» (١٩١) رقم (٥٥١)، وابن القيم في «إعلام الموقعين» (٤/ ٢٩٨).

(٥) «تفسير أسماء الله الحسنى» (٣٨).

المؤمن حتى يضع عليه كنفه وَيَسْتُرْهُ وَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا، فيقول: نعم، أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»<sup>(١)</sup>.

وغفوراً: من أبنية المبالغة، فالله غَفُورٌ؛ لَأَنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لِعِبَادِهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ إِلَى مَا لَا يَحْصَى<sup>(٢)</sup>.

وفائدة جمع هذين الاسمين بيان أن الله يتجاوز عن الذنوب ويعفو عن أصحابها ويستترها عن الناس فلا يفضحهم. فبالعفو يزول المرهوب وبالمغفرة يحصل المطلوب. وثمت عوائق قد تمنع المسلم من الهجرة تحتاج إلى علاج ناجع يرفع المسلم عن ثقله الأرض ويحركه بسرعة متوجهاً إلى بلاد الإسلام.

وهذه العوائق يجمعها أمران:

١ - خوف المشقة وضيق العيش وكراهية مفارقة الوطن:

وهذا العائق ذكر الله علاجه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْغَمًا كَثِيرًا

وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠].

﴿يُهَاجِرْ﴾: فعل الشرط.

و﴿يَجِدْ﴾: جوابه وفيه تحقيق لدفع ضيق العيش والمشقة والذل ولهذا قال: ﴿يَجِدْ فِي

الْأَرْضِ مُرْغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

قال ابن كثير: «هذا تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين وأن المؤمن

(١) البخاري مع الفتح (٥/٩٦)، كتاب «المظالم»/ باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾. رقم

(٢٤٤١)، ومسلم (٤/٢١٢٠)، كتاب «التوبة»/ باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله. رقم (٢٧٦٨).

(٢) «اشتقاق أسماء الله الحسنى» للزجاجي (٩٤).

حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه»<sup>(١)</sup>. وهو ما عناه بقوله: ﴿مُرْغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

﴿مُرْغَمًا﴾: مأخوذ من الرُّغَام، وهو التراب، أي: أنه يجد في الأرض مهاجرًا ومتحولًا يمتنع فيه ويتقوى ويرغم به أنوف أعدائه ويذلهم ويغيظهم ومنه قوله ﷺ: «تَرْغِيمًا لِلشَّيْطَانِ»<sup>(٢)</sup> ووصف المراغم بالكثرة لما في ذلك من التحفيز على الهجرة.

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣٥٣).

(٢) مسلم (١/٤٠٠)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة» / باب السهو في الصلاة والسجود له. رقم (٥٧١).



**وقوله تعالى:** ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسَعَةً فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ [النكبوت: ٥٦]. **قال**  
**البغوي رحمه الله:** سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَمْ يَهَاجِرُوا نَادَاهُمُ اللَّهُ  
**بِاسْمِ الْإِيمَانِ.**

﴿وَسَعَةً﴾: تشمل سعة الحرية في الدين وسعة الرزق.

٢ - خوفه ألا يصل إلى مكان هجرته:

وهذا العائق عاجله بقوله ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

قوله ﴿ثُمَّ يُدْرِكُهُ﴾: إشارة إلى أنه خرج من دار الشرك فارًّا بدينه هاربًا به لكن الموت لحقه فأدركه قبل بلوغه دار الهجرة.

وعلاج الله لهذا العائق: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

قد: هنا للتحقيق أي أنه استوجب وثبت له ثواب الهجرة إلى ربه بمجرد خروجه من منزله، فهي صفقة رابحة دون شك، ضَمِنَ الله فيها أن ينيله أجر الهجرة كاملاً، والموت يجيء في مواعده لا علاقة له بهجرة ولا بإقامة، ولو أقام المهاجر ولم يخرج من بيته لجاء الموت في مواعده ولخسر هذه الصفقة الرابحة، فلا أجر ولا مغفرة بل تتوفاه الملائكة ظالمًا لنفسه وشتان بين صفقة وصفقة وبين مصير ومصير.

قوله: ﴿يَعْبَادِيَ﴾: المنادي هو الله سبحانه وأضافهم إليه سبحانه إضافة تشريف وتكريم؛ لأنهم عباده المخلصون له المختصون بعبوديته وحده خلافاً لغيرهم من أهل الشرك والوثنية.

وخاطبهم بوصفهم عباداً لأن العبودية هي أشرف منازل المكلفين ومنه قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧] وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ

فِي رَبِّ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا» [البقرة: ٢٣] وغيرها من الآيات.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: صفة موضحة للعباد وهم الذين آمنوا بالله وبرسوله وعبدوه لوحده.

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿أَرْضِي﴾: أضاف الأرض لذاته المقدسة إضافة خلق وملك.

﴿وَسِعَةً﴾: الواو والسين والعين كلمة تدل على خلاف الضيق والعسر<sup>(١)</sup>.

فتشمل سعة المكان والحرية في الدين بحيث لا يمنعه أحد من إظهار دينه وعبادة ربه وسعة الرزق أيضاً.

﴿فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ﴾: أي لا تعبدوا إلا أنا. وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، والمعنى إن ضاق بكم مكان فلن يضيق بكم آخر، فإن أرضي واسعة فهاجروا وأفردوني بالعبادة، فلا تعبدوا إلا أنا.

قال الزجاج: «أمرهم بالهجرة من الموضع الذي لا يمكنهم فيه عبادة الله إلى حيث تنهياً لهم العبادة»<sup>(٢)</sup>، ثم قال تعالى بعدها: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧] وذلك ليهوّن عليهم أمر الهجرة فلا يصعب عليهم ترك الأوطان ومفارقة الأهل والخلان، فإنهم إن لم يفارقوهم لإرضاء الله بالهجرة إلى بلاد الإسلام فارقوهم بدون اختيارهم إلى حيث حساب الله وجزاؤه وشتان بين الفراقين، ولهذا قال بعدها: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: ٥٨] أي لننزلهم غرف الجنة وهي علائها.

وقوله: قال البغوي إلى آخره: مقصوده من ذلك بيان أن تارك الهجرة ليس بكافر ولكنه عاصي لله مرتكبٌ كبيرةً من كبائر الذنوب.

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٩/ ١٠٩).

(٢) «زاد المسير» (٦/ ١٤٤).

والدليل على الهجرة من السنة قوله ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»<sup>(١)</sup>.

وبعد أن ذكر دليل الهجرة من القرآن أعقبه بالدليل من السنة؛ ليبين الوقت الذي تصح فيه الهجرة وتكون مقبولة عند الله تعالى، ويشهد له: حديث عبد الله بن السعدي: أن النبي ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل»، فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف، وعمر بن العاص: إن النبي ﷺ قال: «إن الهجرة خصلتان إحداهما: أن تهجر السيئات، والأخرى: أن تهجر إلى الله ورؤسوله، ولا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه، وكفى الناس العمل»<sup>(٢)</sup>. وفي رواية: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ثلاثاً، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»<sup>(٣)</sup>.

قوله: (لا تنقطع الهجرة): لا نافية تنفي انقطاع الهجرة.

انقطع الشيء: ذهب وقته، ومنه قولهم: انقطع البرد والحر<sup>(٤)</sup>، والمقصود لا ينتهي وقت الهجرة بل هي باقية على مشروعيتها.

حتى: لبيان الغاية.

تنقطع التوبة: قال «صاحب اللسان»: «المنقطع هو الشيء نفسه. ومُنْقَطَع كل شيء:

(١) أحمد (٩٩/٤)، وأبو داود (٣/٧-٨)، كتاب «الجهاد» / باب ما جاء في الهجرة، هل انقطعت. رقم (٢٤٧٩)، والنسائي في «الكبرى» (٨/٦٧) رقم (٨٦٥٨).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «سنن الدارمي» (٢/١٠٦) رقم (٢٥١٣).

(٤) «لسان العرب» (٨/٢٧٩).

آخره حيث ينتهي إليه طرفه، فينقطع كمقاطع الرمال والأودية»<sup>(١)</sup>.

ومعنى انقطاع التوبة: أي عدم قبولها، لا عدم وقوعها، ويدل لذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمنَ مَنْ عليها فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها، لم تكن آمنت من قبل»، وفي رواية: «فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل»، ثم قرأ الآية: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا تَكُنَّ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]»<sup>(٢)</sup>. فمن هذه الأدلة ظهر حكم بقاء مشروعية الهجرة إلى حين طلوع الشمس من مغربها.

(١) المرجع السابق (٨/ ٢٧٨).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٢٩٦-٢٩٧)، كتاب «التفسير» / باب: ﴿قُلْ هَلْ مِنْكُمْ شَهِدَاءُكُمْ﴾. رقم (٤٦٣٥)،

وباب: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾. رقم (٤٦٣٦).

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ. مثل الزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ.

فلما: الفاء للترتيب.

استقر بالمدينة: استقر مأخوذ من القرار: وهو اللبث والإقامة في مكان بنية البقاء المستمر فيه وعدم الانتقال منه كلية إلى غيره.

والنبي ﷺ هاجر إلى المدينة وبقي فيها إلى أن مات.

أمر: الأمر واحد الأوامر، وهو طلب الفعل على سبيل الإلزام أو الاستحباب.

بقية: أي ما بقي من الشرائع التي لم يؤمر بها بعد.

شرائع الإسلام: هي الأحكام؛ وذلك أَنَّ عامة الأحكامُ شُرعت في المدينة، وسميت شرائع لشروع أهلها فيها.

قال ابن كثير: «في الفرقان شريعةٌ يُحِلُّ الله فيها ما يشاء ويُحَرِّم ما يشاء؛ ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل غيره التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به جميع الرسل»<sup>(١)</sup>.

وربط المؤلف بين التوحيد والشرائع ليبين وجوب الإيمان بكل الدين عقيدة وأحكاماً وأنه لا يصح الإيمان إلا بهما معاً، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤٣١).

ذكر المؤلف نوعين من الشرائع:

أحدهما: ما يختص نفعه بالفاعل كالزكاة والصوم والحج.

والزكاة في اللغة: النماء والزيادة.

وفي الاصطلاح: إخراج نصيب مقدر شرعاً من المال ودفعه للأصناف الثمانية.

وسُميت الزكاة زكاةً لأن بها تزكية لنفس المتصدق قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً

تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وتزكية للمال وحفظ له، بل ونماء له، قال ﷺ: «ما نقصت صدقةً من مالٍ»<sup>(١)</sup>.

قال البغوي: «قوله: «ما نقصت صدقة من مال»: أراد أن الله تعالى يبارك فيه، فيزداد

ماله، وسميت الزكاة زكاة للبركة التي تظهر في المال، يقال: زكا الشيء يزكو: إذا كثر»<sup>(٢)</sup>.

يوضحه قول النبي ﷺ: «تصدقوا؛ فإنه ما نقصت صدقة من مال، ولكن تزيد فيه»<sup>(٣)</sup>.

والصوم لغة: الإمساك

واصطلاحاً: الإمساك عن جميع المفطرات من طلوع الفجر الثاني إلى غروب

الشمس.

وفيه تزكية عظيمة للصائم بينها ربنا بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ

كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

(١) مسلم (٤/٢٠٠١)، كتاب «البر والصلة» / باب استحباب العفو والتواضع. رقم (٢٥٨٨).

(٢) «شرح السنة» (٦/١٣٣).

(٣) «مسند البزار» (١٧/١١٩).

والحج لغة: القصد.

واصطلاحًا: هو قصد مكة لأداء المناسك في أشهر الحج. وفي الحج تزكية عظيمة للمسلم فيعود من حجه كيوم ولدته أمه قال النبي ﷺ: «من حجَّ فلم يرفُثْ ولم يفسُقْ: رجع من ذُنوبه كيوم ولدته أمُّهُ»<sup>(١)</sup>.

---

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ٣٨٢)، كتاب «الحج» / باب فضل الحج المبرور. رقم (١٥٢١)، ومسلم (٢/ ٩٨٣)، كتاب «الحج» / باب فضل الحج والعمرة. رقم (١٣٥٠).

وَالْأَذَانَ، وَالْجِهَادَ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ.  
وغير ذلك من شرائع الإسلام، أخذ على هذا عشر سنين.

النوع الثاني: ما يتعدى نفعه إلى الآخرين، ومثل له بالأذان والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الأذان لغة: الإعلام ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٣].  
واصطلاحًا: هو النداء للصلاة بألفاظ أولها التكبير وآخرها التوحيد.  
وتعدي نفعه ظاهر، ومن ذلك:

- ١ - أنه يطرد الشيطان كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أذَّن المؤذن أدبر الشيطان وله حصاص»، وفي رواية: «وله ضراط»<sup>(١)</sup>.
- والحصاص: شدة العدو<sup>(٢)</sup> وقيل هو الضراط ولا منافاة بينهما فإنه من شدة عدوه يخرج منه الضراط ويبعد كثيرًا حتى يصل إلى الروحاء<sup>(٣)</sup> لئلا يسمع صوت المؤذن.
- ٢ - أنه دعوة للمسلمين إلى الصلاة، ولولا الأذان لم يدرك كثير من الناس الصلاة؛ وذلك لانشغالهم في أعمالهم أو مع أهليهم أو لاستغراقهم في نومهم.
- ٣ - أن الأذان يحمي المسلمين من الغارة عليهم، فقد كان النبي ﷺ يغير إذا طلع الفجر، وكان يستمع الأذان، فإن سمع أذانًا أمسك، وإلا أغار<sup>(٤)</sup>.

(١) مسلم (٢٩١ / ١)، كتاب «الصلاة» / باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه. رقم (٣٨٩).

(٢) «شرح النووي على مسلم» (٩٢ / ٤).

(٣) قال سليمان: فسألته عن الروحاء، فقال: هي من المدينة ستة وثلاثون ميلًا. مسلم (٢٩٠ / ١).

(٤) مسلم (٢٨٨ / ١)، كتاب «الصلاة» / باب الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر إذا سمع فيهم الأذان. رقم (٣٨٢).



وقد رغب النبي ﷺ في الأذان في أحاديث كثيرة منها:

قوله ﷺ: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا»<sup>(١)</sup>.

وقوله ﷺ: «لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌ ولا إنسٌ ولا شيءٌ إلا شهد له يوم القيامة»<sup>(٢)</sup>.

وقوله ﷺ: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»<sup>(٣)</sup>.

ولأجل هذه الفضائل وغيرها اشرأبت أعناق الفضلاء إليه حتى تمنى الخليفة الثاني أن يكون مؤذناً فقال: «لو كنتُ أطيق الأذان مع الخلافة لأذنتُ»<sup>(٤)</sup>. وحتى اختار بعضهم أن الأذان أفضل من الإمامة<sup>(٥)</sup>.

ومن تأمل ألفاظ الأذان رأى فيها العجب وذلك أنها بدأت بتعظيم الله تعالى في القلوب وأنه أكبر من كل شيء مع تكراره أربع مرات لكي يثبت ويستقر في قلب المؤذن والمستمع أفراد الله وحده بالتعظيم والذل والخضوع، ولذلك عقبها بشهادة أن لا إله إلا الله التي هي تجريد التوحيد له سبحانه وحده والتي من أجلها خلقنا، ثم ثلث بالإيمان برسول الله ﷺ الذي بلغ دينه حتى تربى النفوس على قصر الاتباع على النبي ﷺ وحده والسير على منهاجه دون غيره من المتبوعين؛ وذلك لأنه لا يُوصل إلى رضوان الله وجنته

(١) البخاري مع الفتح (٩٦/٢)، كتاب «الأذان» / باب الاستهم في الأذان. رقم (٦١٥)، ومسلم

(١/٣٢٥)، كتاب «الصلاة» / باب تسوية الصفوف وإقامتها. رقم (٤٣٧).

(٢) البخاري مع الفتح (٨٧-٨٨/٢)، كتاب «الأذان» / باب رفع الصوت بالنداء. رقم (٦٠٩).

(٣) مسلم (١/٢٩٠)، كتاب «الصلاة» / باب فضل الأذان. رقم (٣٨٧).

(٤) «المصنف» لعبد الرزاق (٤٨٦/١) رقم (١٨٦٩)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (١/٢٢٤)، و«السنن

الكبرى» للبيهقي (٢/٢١٢) واللفظ له، وصححه ابن حجر في «فتح الباري» (٢/٧٧).

(٥) انظر: «الاختيارات الفقهية» (٣٦).

إلا طريقه ﷺ، ثم رَّبَّع بدعوة السامعين والمستمعين إلى أفضل الأعمال والذي به يكون العبد من المفلحين في الدنيا والآخرة وهي الصلاة فنادى إليها مرغبًا فيها بضمان الفلاح لأهلها فكأنه قال: من أراد الفلاح فليحافظ على هذه الصلوات في المساجد جماعة مع المسلمين. وفي هذا إشعار بالبعث والجزاء والجنة والنار.

ثم أعاد تعظيم الله وتكبيره مرة أخرى مؤكدًا عليه ثم ختمه بكلمة التوحيد التي لا يصلح عمل إلا بها.

أما الجهاد لغة: فهو مأخوذ من الجهد وهو المشقة أو بذل الوسع والطاقة<sup>(١)</sup>.

أما في الاصطلاح: بذل الجهد في قتال الكفار<sup>(٢)</sup>.

وأما نفع الجهاد فعظيم. كيف لا يكون عظيمًا وبه قوام الملة وصلاح الأمة ومن منافعه:

#### ١ - نشر التوحيد:

وذلك أن التوحيد هو سر خلق الناس كلهم وهو السبيل الوحيد لرضا ربهم جل وعلا.

ومن المعلوم أن الدول الكافرة لا بد أن تقف سدًا منيعًا ضد وصول التوحيد إلى عموم الناس فكان لا بد من الجهاد في سبيل الله حتى يقضى على الدول الكافرة، ومن ثمَّ يدخل الناس في دين الله أفواجًا.

#### ٢ - رفع الذل عن المسلمين:

من حكمة الله تعالى أَنْ رَبَّطَ عز المسلمين بالإسلام وذُهِمَّ بالتهاون بالتمسك به، فإذا

(١) انظر: «تهذيب اللغة» (٣٧/٦)، و«المفردات» (٩٩).

(٢) انظر: «بدائع الصنائع» (٤٢٩٩/٩)، و«فتح الباري» (٣/٦)، و«مطالب أولي النهى» (٤٩٧/٢)

وغيرها.

أضاعوا أمر الله ونكلوا عن الجهاد سلط الله عليهم أعداءهم؛ فإذا راجعوا دينهم ومنه الجهاد في سبيل الله كان لهم العز والرفعة، ومن الأمثلة على ذلك حال المسلمين عند الحروب الصليبية حيث غزتهم دول الكفر فلما رجعوا إلى دينهم ورفعوا راية الجهاد أعزهم الله وأذل أهل الكفر وأخرجوا من بلاد الإسلام صاغرين. قال تعالى: ﴿فَتِلْوُهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِكُّهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

٣- إعلاء كلمة الله وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وليكون الدين كله لله قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِئْتَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وحدد هذا المقصد رسول الله ﷺ فقال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى»<sup>(١)</sup>.

ولما للجهاد من أثر بالغ في رفعة الدين وعلوه وخذلان الباطل ودحره أمرنا الله به فقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: ٧٨].

بل واشترى منا أنفسنا فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وأوضح أنه من أسس التجارة الرباحة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١].

وجعله ﷺ ذروة سنام الإسلام فقال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»<sup>(١)</sup>.

ولما سئل النبي ﷺ عن أفضل الأعمال جعل الجهاد أفضلها بعد الإيمان بالله كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل قال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا قال: «الجهاد في سبيل الله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»<sup>(٢)</sup>.  
وأوضح ﷺ علو مرتبة المجاهد عندما سئل أي الناس أفضل فقال: «مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله»<sup>(٣)</sup>.

وعلق قلوب المجاهدين بثمرته حين قال في غزوة بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»، فاهتزت قلوبهم اشتياقاً إلى الجنة فتحركت للجهاد جوارحهم فقال عمير بن الحمام: يا رسول الله! جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «نعم»، قال: بخٍ بخٍ، فقال رسول الله ﷺ: «ما يملكك على قولك بخٍ بخٍ» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها قال: «فإنك من أهلها» فأخرج تمراتٍ من قرنه فجعل يأكل منهن ومن شدة شوقه إلى الجنة قال: لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل رضي الله عنه وأرضاه<sup>(٤)</sup>.

وكان أصحابه رضي الله عنهم يحركون مشاعر الناس وقلوبهم كما كان النبي ﷺ يفعل ومن ذلك ما فعله أبو موسى الأشعري رضي الله عنه في أحد المعارك حيث قال: وقد حضر العدو

(١) أحمد (٢٣١ / ٥).

(٢) البخاري مع الفتح (٧٧ / ١)، كتاب «الإيمان» / باب من قال: الإيمان هو العمل. رقم (٢٦)، ومسلم (٨٨ / ١)، كتاب «الإيمان» / باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال. رقم (٨٣).

(٣) البخاري مع الفتح (٦ / ٦)، كتاب «الجهاد» / باب أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله. رقم (٢٧٨٦)، ومسلم (١٥٠٣ / ٣)، كتاب «الإمارة» / باب فضل الجهاد والرباط. رقم (١٨٨٨).

(٤) سبق تخريجه.

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»، فتحرك قلب أحد المجاهدين للجنة واشتأقت نفسه لها، فقام فقال: يا أبا موسى أأنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم. فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام ثم كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قُتل<sup>(١)</sup>.

«والأمر بالجهاد وذكر فضائله في الكتاب والسنة أكثر من أن يحصر، ولهذا كان أفضل ما تطوَّع به الإنسان. وكان باتفاق العلماء أفضل من الحجِّ والعمرة، ومن الصلاة التطوع والصوم التطوع، كما دلَّ عليه الكتاب والسنة... وهذا بابٌ واسع، لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه، وهو ظاهر عند الاعتبار؛ فإنَّ نفع الجهاد عامٌّ لفاعله ولغيره في الدين والدنيا، ومشتملٌ على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة، فإنَّه مشتملٌ من محبة الله تعالى والإخلاص له والتوكُّل عليه وتسليم النفس والمال له، والصبر والزهد، وذكر الله، وسائر أنواع الأعمال على ما لا يشتمل عليه عملٌ آخر. والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى الحسينين دائماً: إمَّا النصر والظفر، وإمَّا الشهادة والجنة»<sup>(٢)</sup>.

وقال الشيخ ابن باز: «فإنَّ الجهادَ في سبيل الله من أفضل القربات، ومن أعظم الطاعات، بل هو أفضل ما تقرَّب به المتقرَّبون، وتنافس فيه المتنافسون بعد الفرائض، وما ذاك إلَّا لما يترتَّب عليه من نصر المؤمنين، وإعلاء كلمة الدين، وقمع الكافرين والمنافقين، وتسهيل انتشار الدعوة الإسلامية بين العالمين، وإخراج العباد من الظلمات إلى النور، ونشر محاسن الإسلام وأحكامه العادلة بين الخلق أجمعين، وغير ذلك من المصالح الكثيرة والعواقب الحميدة للمسلمين»<sup>(٣)</sup>.

(١) مسلم (٣/ ١٥١١)، كتاب «الإمارة»/ باب ثبوت اللجنة للشهيد. رقم (١٩٠٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٥٢-٣٥٣).

(٣) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (١٨/ ٦١-٦٢).

ثم انتقل إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: والأمر: هو طلب الفعل على سبيل الإلزام أو الاستحباب.

«المعروف: اسم جامع لكل ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح»<sup>(١)</sup>.

والنهي: هو طلب الكف عن الفعل.

«المنكر: المنكر اسم جامع لكل ما نهى الله عنه»<sup>(٢)</sup>.

و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ركنان وثيقان من أركان الدين يجب على المرء أن لا يهملهما»<sup>(٣)</sup>. بل الأمر بالمعروف «أخص أوصاف المؤمنين وأقواها دلالة على صحة عقدهم وسلامة سريرتهم»<sup>(٤)</sup>.

أمر الله به فقال: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وأثنى على نبيه به فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ولما وصف المؤمنين جعله أول أوصافهم فقال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [التوبة: ٧١].

بل جعله الله مناط خيرية هذه الأمة فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ١٠٦).

(٢) المرجع السابق.

(٣) «الحجة في بيان المحجة» (٢/ ٥٠٧).

(٤) «الجامع لشعب الإيمان» (١٣/ ٢٤٥).

قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية ثم قال: «يأيتها الناس من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله منها»<sup>(١)</sup>.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه عند هذه الآية: «خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا الإسلام»<sup>(٢)</sup>.

وذلك لـ «أن صلاح المعاش والعباد في طاعة الله ورسوله ﷺ ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبه صارت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس»<sup>(٣)</sup>.

وترجم ذلك الرسل عليهم الصلاة والسلام عملياً في حياتهم فأنكروا المنكر بأيديهم، فأبونا إبراهيم عليه السلام يقوم بتكسير آلهة قومه ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٨].

ولما عبدت بنو إسرائيل العجل غضب موسى لله فأحرقه ونسفه في اليم: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُْحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧].

ولما دخل نبينا محمد ﷺ مكة فاتحاً منصوراً لم يقر له قرار ولم يهدأ له بال حتى كسر الأصنام التي وضعت حول البيت وكان عددها ثلاثمائة وستون، فجعل يطعن بها بعود في يده ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، و﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبا: ٤٩]<sup>(٤)</sup>.

وكان قلبه ﷺ يتألم أشد التألم من وجود منكر الشرك حتى صرح بذلك لأصحابه

(١) «جامع البيان» (٤/ ٤٣).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٢٢٤)، كتاب «التفسير» / باب: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. رقم (٤٥٥٧).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٠٦-٣٠٧).

(٤) البخاري مع الفتح (٨/ ٤٠٠)، كتاب «التفسير» / باب: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ

زَهُوقًا﴾، ومسلم (٣/ ١٤٠٨)، كتاب «الجهاد والسير» / باب إزالة الأصنام من حول الكعبة. رقم

(١٧٨١).

حاثًا إياهم على إزالة المنكر والغيرة لدين الله، ومن ذلك قوله لجريير بن عبد الله: «ألا ترينني من ذي الخلصة»، ثم أرسله ومعه مائة وخمسون فارسًا كلهم من أحمس، فسار إليها جريير وحرقتها بالنار وكسرها، ثم أرسل مبشرًا من أصحابه إلى النبي ﷺ يبشره فلما أتى النبي ﷺ قال: «يا رسول الله! والذي بعثك بالحق ما جئت حتى تركتها كأنها جمل أجرب». ففرح ﷺ بإزالة الصنم، فدعا لأحمس، وبرك عليها خمس مرات<sup>(١)</sup>.

وتتابعت الأمة عبر العصور تنكر المنكرات وتزيلها باليد عند القدرة ومن ذلك:

- ١ - بعث علي عليه السلام أبا الهياج الأسدي فقال: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: «أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويت»»<sup>(٢)</sup>.
- ٢ - قال الحسن: «ليس الدفوف من أمر المسلمين في شيء وأصحاب عبد الله ابن مسعود كانوا يشققونها»<sup>(٣)</sup>.

- ٣ - قال إبراهيم النخعي: «كنا ننتبع الأزقة نخرق الدفوف من أيدي الصبيان»<sup>(٤)</sup>.
- ٤ - قال ابن معين: «رأيت وكيعاً رأى امرأة عند عطار والعطار يكلمها فقال لإنسان: اذهب إلى ذلك العطار ففرق بينهما»<sup>(٥)</sup>.
- ٥ - قال عمر بن صالح: «رأيت أحمد بن حنبل مرّ به عود مكشوف فقام وكسره»<sup>(٦)</sup>.
- ٦ - قال الوليد بن شجاع: «كنت أخرج مع سفيان الثوري فما يكاد لسانه يفتر عن

(١) سبق تخريجه.

(٢) مسلم (٢/٦٦٦-٦٦٧)، كتاب «الجنائز» / باب الأمر بتسوية القبور. رقم (٩٦٩).

(٣) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلال (٩٠).

(٤) المرجع السابق (٩١).

(٥) المرجع السابق (٦٦).

(٦) المرجع السابق (٨٥).



الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذاهباً وراجعاً»<sup>(١)</sup>.

وأجمع أهل السنة والجماعة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأيديهم وألسنتهم إن استطاعوا فإن عجزوا فبقلوبهم<sup>(٢)</sup>.

ومما استدلوا به قوله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»<sup>(٣)</sup>.

«وإنكار القلب هو الإيمان بأن هذا منكر وكرهته لذلك»<sup>(٤)</sup>، والإنكار به واجب في كل حال؛ إذ لا ضرر في فعله ومن لم يفعله فليس بمؤمن قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ميت الأحياء الذي لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً، وهذا هو المفتون الموصوف بأن قلبه كالكوز مخجياً»<sup>(٥)</sup>.

وعندما قسم الناس حذيفة قال: «ومنهم من لا ينكر بقلبه ولسانه فذلك ميت الأحياء»<sup>(٦)</sup>.

وأما منافع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكثيرة أجملها في ما يلي:

#### ١ - حماية المجتمع من العذاب العام:

المعاصي الظاهرة في المجتمع سبب للعقوبات التي إذا وقعت عمّت الصالح

(١) «حلية الأولياء» (١٣ / ٧) للاستزادة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلال، «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لابن تيمية المطبوع ضمن الاستقامة (٢ / ١٩٨ - ٣١١) و «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لخالد السبت.

(٢) «رسالة إلى أهل الثغر» (٢٩٥) و «اعتقاد أهل السنة» للإسماعيلي (٥٤) «شرح السنة» للبرهاري (٥٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١ / ١٧٢).

(٥) «الاستقامة» (٢ / ٢١٢).

(٦) «حلية الأولياء» (١ / ٢٧٤ - ٢٧٥).

والطالح، ولذلك حذرنا الله منها بقوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] ومن أحسن ما يفسر هذه الآية إجابة النبي ﷺ أم المؤمنين زينب حينما سألته: أَمْهَلَكَ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قال: «نعم إذا كَثُرَ الْخَبْثُ»<sup>(١)</sup>.

وقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦-١١٧].

فقال سبحانه: مصلحون ولم يقل صالحون، والمصلحون هم الأمور بالمعروف والناهون عن المنكر الذي يصلحون ما أفسد الناس.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «أمر الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب»<sup>(٢)</sup>.

وهذا فهم السلف قاطبة، قال عمر بن عبدالعزيز كان يقال: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِذَنْبِ الْخَاصَّةِ، وَلَكِنْ إِذَا عُمِلَ الْمُنْكَرُ جَهَارًا اسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ كُلَّهُمْ»<sup>(٣)</sup>، بل كانوا يخافون مغبة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال سفيان الثوري: «إني لأرى الشيء يجب علي أن آمر فيه وأنهى فلا أفعل فأبول دمًا»<sup>(٤)</sup>.

## ٢ - إقلاع العصاة عن معاصيهم وتوبتهم إلى الله:

ويشهد له إجابة الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر للمخذلين الذين قالوا لهم

(١) سبق تخريجه.

(٢) «جامع البيان» (٢١٨/٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٦٨٢/٥).

(٣) «الموطأ» (٩٩١/٢)، و«الزهد» لابن المبارك (٤٧٦) رقم (١٣٥١)، و«الزهد» لأحمد (٣٥٨)، و«حلية الأولياء» (٢٩٨/٥).

(٤) «الجرح والتعديل» (١٢٤/١)، و«حلية الأولياء» (١٥-١٤/٧).

﴿لَمْ تَعْظُون قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فأجابوهم بأنهم يطمعون في هدايتهم ﴿قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايَ رَبِّكَمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

وكثير من العصاة تابوا بسبب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

### ٣- شد ظهر المؤمن وإرغام أنف المنافق:

وذلك أنَّ المؤمنَ يَقْوَى عندما يرى الأمرين بالمعروف والناهي عن المنكر عن يمينه وشماله وأمامه فينشط على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي الوقت نفسه يضعف المنافق ويذل. قال سفيان الثوري رحمته الله: «إذا أمرت بالمعروف شددت ظهر المؤمن، وإذا نهيت عن المنكر أرغمت أنف المنافق»<sup>(١)</sup>.

### ٤- حماية المجتمعات من الفساد:

وذلك أنه إذا تعطل الأمر والنهي تجرأ أهل الفساد فنشروا سموهم ومعاصيهم فكثر الخبث، أما إذا كان الأمر والنهي قائماً انقمع أهل المنكرات فلم يستطع أصحاب الأهواء نشرها فتبقى مجتمعات المسلمين نظيفة سالمة منها.

أراد بقوله: (وغير ذلك من شرائع الإسلام) أنه لم يقصد استيفاءها وإنما قصد ذكر نماذج فقط يستدل بها على غيرها.

أما قوله (أخذ على هذا عشر سنين): أي أنه صلى الله عليه وسلم عاش في المدينة عشر سنين يُعَلِّمُ الناس دينهم، ويجاهد بمن آمن منهم مَنْ كفر حتى أظهر الله الدين.

(١) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلال (٦٧).

## وبعدها تُوفي صلاة الله وسلامه عليه.

قوله: (وبعدها توفي): أي بعد عشر سنين من مقدمه ﷺ إلى المدينة توفاه الله عز وجل.

الوفاة: هي خروج الروح من الجسد.

وكانت وفاة النبي ﷺ يوم الاثنين<sup>(١)</sup> في شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة للهجرة بالإجماع<sup>(٢)</sup>، وأما اليوم فالأشهر أنه في اليوم الثاني عشر<sup>(٣)</sup>.

وقد نال الشهادة كما نال الرسالة. قالت عائشة رضي الله عنها: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: «يَا عَائِشَةُ! مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْرٍ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَهْرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ»<sup>(٤)</sup>.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «لَأَنْ أَحْلَفَ تَسْعًا أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَتَلَ قِتْلًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلَفَ وَاحِدَةً أَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْ وَذَلِكَ بِأَنْ اللَّهَ جَعَلَهُ نَبِيًّا وَاتَّخَذَهُ شَهِيدًا»<sup>(٥)</sup>.

وقال الزهري: «تُوفي رسول الله ﷺ شهيداً»<sup>(٦)</sup>، وبمثله قال موسى بن عقبة<sup>(٧)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (٢/ ١٦٤)، كتاب «الأذان»/ باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة. رقم (٦٨٠)، و(٣/ ٢٥٢)، كتاب «الجنائز»/ باب موت يوم الاثنين. رقم (١٣٨٧).

(٢) «البداية والنهاية» (٦/ ٦٢٤).

(٣) «لطائف المعارف» (٢١٢).

(٤) البخاري مع الفتح (٨/ ١٣١)، كتاب «المغازي»/ باب مرض النبي ﷺ ووفاته. رقم (٤٤٢٨).

(٥) أحمد (١/ ٤٠٨، ٤٣٤، ٣٨١)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٠/ ١٠٩) رقم (١٠١١٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (٩/ ١٣٢) رقم (٥٢٠٧)، والحاكم في «المستدرک» (٣/ ٦٠) رقم (٤٣٩٤)، وقال: «هذا

حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، و«دلائل النبوة» (٧/ ١٧٢).

(٦) «زاد المعاد» (٣/ ٣٣٧).

(٧) «زاد المعاد» (٤/ ١٢٢).

فأكرمه الله بالنبوة والرسالة بل جعله أفضل الرسل كلهم، ثم ختم له حياته الكريمة بالشهادة فأكمل له مراتب الفضل كلها<sup>(١)</sup>.

ولما كانت وفاة النبي ﷺ شديدة شاقة على نفوس المؤمنين قُدم لها بمقدمات لعلها تخفف ألم المصيبة وتهون أثر الصدمة ومن هذه المقدمات:

١ - إخبار القرآن بموته، ومن ذلك قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، ومعنى (مَيِّت) بالتشديد؛ أي: ستموت.

وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣].

يوضحه: أن عمر بن الخطاب كان يدخل ابن عباس مع أشياخ بدر فقال له عبد الرحمن بن عوف: إن لنا أبناءً مثله، فقال عمر: إنه من حيث تعلم، فسأل عمر ابن عباس عن هذه الآية: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فقال: أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم<sup>(٢)</sup>.

٢ - تكرار النبي ﷺ في حجة الوداع قوله: «لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا».

فعن جابر رضي الله عنه قال: «رأيتُ النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر ويقول:

(١) انظر: «زاد المعاد» (٤/ ١٢٣).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٦٢٨)، كتاب «المناقب» / باب علامات النبوة في الإسلام. رقم (٣٦٢٧).

«لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلّي لا أحجُّ بعد حجّتي هذه»<sup>(١)</sup>.

وفي رواية: «أيها الناس خذوا مناسككم؛ فإني لا أدري لعلّي لا أحج بعد عامي هذا»<sup>(٢)</sup>.

وفي رواية: «خذوا عني مناسككم لعلّي لا أراكم بعد عامي هذا»<sup>(٣)</sup>.

وفي رواية: «أفأص رسول الله ﷺ من عرفة وعليه السكينة وأمرنا بالسكينة ثم قال: «خذوا مناسككم لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا»<sup>(٤)</sup>، وهذا القول إن لم يكن تصريحًا بدنو أجله، فهو تلميح به.

٣- إخباره ﷺ أصحابه بتحير الله له بين الدنيا وبين لقاء الله وأنه اختار لقاء الله. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «جلس على المنبر فقال: «إِنَّ عَبْدًا خَيْرُهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ»، فبكى أبو بكر وقال: «فدينك بآبائنا وأمهاتنا»، فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يُخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده وهو يقول: فدينك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله ﷺ هو المُخير، وكان أبو بكر هو أعلمنا به. وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَمْنِ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صَحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، إِلَّا خُلَّةَ الْإِسْلَامِ. لَا يَبْقَيْنَ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ»<sup>(٥)</sup>.

(١) مسلم (٢/ ٩٤٣)، كتاب «الحج»/ باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا، وبيان قوله ﷺ: «لتأخذوا مناسككم» رقم (١٢٩٧).

(٢) النسائي (٥/ ٢٧٠)، كتاب «مناسك الحج»/ باب الركوب إلى الجمار واستغلال المحرم.

(٣) «السنن الكبرى» للبيهقي (٥/ ١٢٥).

(٤) «السنن الكبرى» للنسائي (٢/ ٤٢٥).

(٥) البخاري مع الفتح (٧/ ٢٢٧)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب هجرة النبي ﷺ واصحابه إلى المدينة.

رقم (٣٩٠٤)، ومسلم (٤/ ١٨٥٤-١٨٥٥)، كتاب «فضائل الصحابة»/ باب فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه. رقم (٢٣٨٢).

٤ - إخباره ﷺ ابنته فاطمة عليها السلام بقرب أجله:

وذلك أنه قال لها: «إِنَّ جَبْرِيلَ كَانَ يِعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارِضُنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أَرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجْلِي، وَإِنَّكَ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لِحَاقًا بِي...»، وفي رواية: «وَإِنَّهُ قَدْ عَارِضُنِي بِهِ الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أَرَى الْأَجَلَ إِلَّا قَدْ اقْتَرَبَ فَاتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي؛ فَإِنِّي نَعَمُ السَّلَفُ أَنَا لَكَ»<sup>(١)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (٦/٦٢٨)، كتاب «المناقب» / باب علامات النبوة في الإسلام. رقم (٣٦٢٤)، و(١١/٧٩-٨٠)، كتاب «الاستئذان» / باب من ناجى بين يدي الناس، ولم يخبر بسر صاحبه، فإذا مات أخبر به. رقم (٦٢٨٥، ٦١٨٦)، ومسلم (٤/١٩٠٤)، كتاب «فضائل الصحابة» / باب فضل فاطمة بنت النبي عليه الصلاة والسلام. رقم (٢٤٥٠).

ودينه باقٍ. وهذا دينه. لا خير إلّا دلّ الأمة عليه. ولا شرّ إلّا حذرّها منه.

دينه: الضمير يعود إلى النبي ﷺ، وأضافه إلى النبي ﷺ؛ لأنه هو الذي بلغه إلينا: «إنّ على الرّسولِ إلّا البلاغ» كما أنه يضاف إلى الله لأنه هو الذي شرعه فيقال هذا دين الله ويضاف إلى الناس ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾؛ لأنهم هم الذين اعتقدوه وعملوا به. وقوله باقٍ: بقي الشيء يبقى بقاءً وهو ضد الفناء<sup>(١)</sup> ومنه الباقيات الصالحات. وقال ابن فارس: «الباء والقاف والياء أصل واحد وهو الدوام» ثم نقل كلام الخليل فقال: «بقي الشيء يبقى بقاءً وهو ضد الفناء»<sup>(٢)</sup>.

وقال الراغب: «البقاء ثبات الشيء على حاله الأولى وهو ضد الفناء»<sup>(٣)</sup>. فدين الإسلام باقٍ إلى أن تقوم الساعة ثابت على حاله الأولى كما نزل على نبينا محمد

ﷺ

ويتضح بقاءه بالشرع والواقع:

أما الشرع ففيما يلي:

١ - حفظ الله لمصدره:

مصدر دين الإسلام وأساسه هو القرآن الكريم والسنة المطهرة التي هي وحي من الله تعالى كالقرآن قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

(١) «تهذيب اللغة» (٣٤٨ / ٩).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٢٧٦ / ١) مادة (بقي).

(٣) «المفردات» (٦٧).



قال قتادة وحسان بن عطية: «الحكمة هي السنة»<sup>(١)</sup>. وقال الشافعي: «ذكر الله جل ثناؤه الكتاب وهو القرآن، وذكر الحكمة فسمعت مَنْ أَرْضَى من أهل العلم بالقرآن يقول الحكمة: سنة رسول الله ﷺ»<sup>(٢)</sup>.

وقال تعالى عنهما معاً: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].  
فكل ما بلغه النبي ﷺ من دين الله فهو وحى يجب قبوله ولما كان حفظ الدين لا يتأتى إلا بحفظ مصدره تكفل الله سبحانه بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وذلك بحفظه من الزيادة والنقصان والتغيير والتبديل، قال تعالى: ﴿وَلِئَلَّا يَكُنَّ لِلْكَافِرِينَ عَزِيزٌ ۖ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].  
قال الشاطبي: «والحفظ دائم إلى أن تقوم الساعة»<sup>(٣)</sup>.

## ٢ - بقاء أهله ينافحون عنه إلى يوم القيامة:

تضافرت الأدلة بل تواترت على بقاء الطائفة المنصورة القائمة بأمر الله إلى قيام الساعة، وفي هذا بيان واضح على بقاء الدين. إذ لو لم يكونوا يعرفون دين الله فكيف يطبقونه واقعاً عملياً في حياتهم فضلاً عن أن ينافحوا عنه ومن أدلة ذلك:  
قوله ﷺ: «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك»<sup>(٤)</sup>. وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس».

(١) «الإبانة الكبرى» (١/ ٣٤٥-٣٤٦) تحقيق رضا نعلسان.

(٢) «السنة» للمروزي (٢٦٥).

(٣) «الموافقات» (٢/ ٤١)، وانظر: «الجواب الصحيح» (٢/ ٣٨)، و«مختصر الصواعق» (٤/ ١٤٩٣-١٤٩٤).

(٤) البخاري مع الفتح (٦/ ٦٣٨)، كتاب «المناقب». رقم (٣٦٤١).

وفي رواية: «لا تزال عصابة من المسلمين يُقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوهم إلى يوم القيامة»<sup>(١)</sup>.

وقوله ﷺ: «لن يبرح هذا الدين قائماً يُقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة»<sup>(٢)</sup>، وفي رواية: «لا تزال طائفة من أمتي يُقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»<sup>(٣)</sup>، وقال ﷺ: «لا يزال أهل الغربِ ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»<sup>(٤)</sup>.  
والغربُ: هو الدلو الكبير وأهل الغرب هم العرب لاختصاصهم به غالباً قاله علي بن المدني<sup>(٥)</sup>.

### ٣- عموم رسالته إلى الثقلين:

دلت الأدلة على أن رسالة نبينا محمد ﷺ عامة إلى الإنس والجن قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَايَهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٢٨].  
وقال النبي ﷺ: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَسْتٌ»، وذكر منها: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»<sup>(٦)</sup>.

- 
- (١) مسلم (٣/ ١٥٢٤)، كتاب «الإمارة» باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم». رقم (١٠٣٧).
- (٢) مسلم (٣/ ١٥٢٤)، كتاب «الإمارة»/ باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم». رقم (١٩٢٢).
- (٣) مسلم (١/ ١٣٧)، كتاب «الإيمان»/ باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة محمد ﷺ. رقم (١٥٦).
- (٤) مسلم (٣/ ١٥٢٥)، كتاب «الإمارة»/ باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم». رقم (١٩٢٥).
- (٥) «شرح مسلم» للنووي (١٣/ ٦٨).
- (٦) سبق تخريجه.

وهذه العمومية تدل على بطلان التعبد لله بغير دينه ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ  
الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وإذا كان كذلك وجب  
بقاؤه إلى يوم القيامة.

#### ٤ - أنه ﷺ هو الخاتم:

ختم الله نبينا محمد ﷺ الأنبياء كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ  
وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فإذا كان هو الخاتم فلا بد أن يبقى دينه؛ لأن الناس لا تستقيم حياتهم بدون دين  
يتعبدون به لربهم وخالقهم سبحانه.

#### ٥ - دوام التكليف:

أجمع السلف والأئمة على دوام التكليف إلى يوم القيامة ولا يتحقق ذلك إلا ببقاء  
الشرعية وسلامتها من التغيير والتبديل وإلا فإنها لو تغيرت وتبدلت لانقطع التكليف  
بها<sup>(١)</sup>.

أما الواقع: إذا نظرت إلى الواقع رأيت تكالب قوى الكفر والشر والفساد من خارج  
المجتمع الإسلامي وداخله وتعاونهم المستمر على حرب الإسلام وأهله وإنفاق الأموال  
وتجنيد الرجال والأفكار بداية بعبد الله بن سبأ اليهودي، فالدول الباطنية والتتار الذين  
أفسدوا البلاد، ثم تلك الدول النصرانية وحروبها العسكرية والفكرية التي لم تهدأ ولن  
تهدأ إلى آخر الدهر، ومعهم المنافقون في الداخل، ومع ذلك كله بقي الدين غصًا طريًا كما  
نزل على نبينا محمد ﷺ يستمسك به المؤمنون ولله الحمد والمنة.

قوله: (وهذا دينه): هذا اسم إشارة للقريب والضمير في دينه يعود إلى النبي ﷺ.

(١) انظر: «معالم طريقة السلف في أصول الفقه» د. عابد السفياي (١١٨).

والمقصود أن دين النبي ﷺ بين يديك كما أنزله الله على نبينا محمد ﷺ، أخذه الصحابة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ، وورثوه من بعدهم حتى وصل إلينا غصًا طريًا كما نزل فمن طلبه وجده في متناول يده قريباً منه؛ فلا عليك أيها الأخ المبارك إلا أن تتعلمه وتعمل بما فيه وتدعو الناس إليه.

قوله: (لا خير إلا دل الأمة عليه):

لا خير: لا نافية تنفي جميع الخير.

والخير: ضد الشر وهو اسم جامع لكل ما فيه منفعة للعبد في دينه ودنياه.

إلا: أداة استثناء والاستثناء من النفي إثبات.

دلّ: مأخوذ من الدلالة، وهو الإرشاد أي: أرشد الناس إليه وبينه بياناً شافياً كافياً لا يحتاجون معه إلى غيره.

الأمة: تأتي لعدة معان: منها الملة والإمام والجماعة من الناس<sup>(١)</sup>، وهو المقصود هنا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُوبُ﴾ [القصص: ٢٣]، أي: جماعة من الناس، والمقصود هنا أمة محمد ﷺ.

عليه: الضمير يعود على الخير. فلا خير إلا من طريق واحد وهو طريق الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

وجمع ﷺ بين النفي والإثبات لبيان حصر الخير فيما أتى به النبي ﷺ فقط وفي هذا فائدتان:

- ١ - توحيد مصدر التلقي وهو (الكتاب والسنة فقط) بفهم السلف الصالح.
- ٢ - أن ما عداه شر يجب البعد عنه حماية للمسلم من الابتداع في الدين وارتكاب المنكرات والمعاصي.

(١) «نزهة الأعين النواظر» (١٤٣-١٤٤).

ولعل هذا هو السر في كون النبي ﷺ يكرر بيانه في خطبه فيقول: «أما بعد؛ فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»<sup>(١)</sup>.

وقوله: (ولا شر إلا حذرهما منه):

لا: نافية تنفي جميع الشرور.

الشر: ضد الخير وهو اسم جامع لكل ما يضر العبد في دينه ودنياه.

إلا: أداة استثناء، والاستثناء من النفي إثبات.

حذرهما: «الحاء والذال والراء أصل واحد، وهو من التحرز والתיقظ»<sup>(٢)</sup>.

فالحذر: هو الاحتراز عن مخيف. ورجل حذر: أي متيقظ شديد الحذر والفرع متحزر. والتحذير هو التخويف. والإحذار: هو الإنذار<sup>(٣)</sup> أي أنذرها وخوفها منه لتتحصن وتحترز منه؛ وما ذلك إلا لشدة خطورته على دين العبد.

منه: الضمير يعود على الشر ففيه إثبات تحذير النبي ﷺ أمته من جميع الشرور.

ويدل لذلك قوله ﷺ: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم...»<sup>(٤)</sup>.

(١) سبق تخريجه.

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٣٧ / ٢).

(٣) «اللسان» (٤ / ١٧٥-١٧٦).

(٤) مسلم (٣ / ١٤٧٢-١٤٧٣)، كتاب «الإمارة» / باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول. رقم

(١٨٤٤).

وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ: التَّوْحِيدُ وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ. وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَ مِنْهُ الشَّرُّكَ، وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَيَأْبَاهُ.

شرح المؤلف ببيان الخير الذي أرشدنا إليه نبينا محمد ﷺ بكلمات معدودات شملت جميع المأمورات سواء كانت واجبة أو مستحبة، فبدأ بأصل الدين الذي لا يصح إلا به وهو التوحيد ثم ضم إليه بقية الدين، فقال وجميع ما يحبه الله ويرضاه، وذلك أن الله يحب جميع ما شرع لعباده سواء كان ذلك فريضة أو نافلة لكن الفريضة أحب إليه سبحانه كما قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ»، ولما كانت النافلة محبوبة إليه سبحانه جعل جزاء المتقرب إليه بها محبته سبحانه له وحفظه من الذنوب والمعاصي فقال: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَنْ اسْتَغَاذَنِي لأُعِذَّنَّهُ»<sup>(١)</sup>.

وكل ما شرعه وأحبه فقد رضي به لنا ديناً قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا»<sup>(٢)</sup>.

ثم انتقل إلى الشق الآخر من الدين وهو المنهيات الممنوعات المحرمات معبراً عنها بالشر للتنفير منها، فهي شرٌّ محض؛ لأنها تغضب الرب وتفسد القلب وتحبط العمل وتنقص الإيمان أو تبطله بالكلية، وبدأ بالشرك لأنه مناقض للتوحيد محبط للعمل: ﴿وَلَوْ

(١) سبق تخريجه.

(٢) مسلم (٣/ ١٣٤٠)، كتاب «الأقضية» / باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة. رقم (١٧١٥).

أَشْرَكُوا لِحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [الأنعام: ٨٨] مُبْطَلٌ جزاءه: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

ثم ذكر فروع الشرك وهي المعاصي، فقال: وجميع ما يكرهه الله ويأباه، فكل المعاصي يكرهها الله ﷺ ألا ترى أن الله لما نهى عن قتل الأولاد والزنى وقتل النفس المحرمة وأكل مال اليتيم وغيرها من المحرمات قال: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨]. قال ابن كثير: «أي قبيحه مكروه عند الله ﷺ»<sup>(١)</sup>.

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا: يَكْرَهُ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ»<sup>(٢)</sup>، وإذا كان الله يكره هذه الأمور فلأن يكره الشرك ولا يرضى به من باب أولى، قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

وجميع ما يكرهه فقد منع منه. وقوله: ويأباه: أي يمنعه ولهذا ورد النهي عن الشرك والمحرمات في أي كثيرة من كتاب الله، وأحاديث كثيرة من سنة رسول الله ﷺ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقال ﷺ في وصيته لأبي الدرداء<sup>(٣)</sup>، ومعاذ بن جبل<sup>(٤)</sup> رضي الله عنهما: «لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا،

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٧٩٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «الأدب المفرد» (١٩) رقم (١٨)، وابن ماجه (١٣٣٩/٢)، كتاب «الفتن» / باب الصبر على البلاء. رقم (٤٠٣٤)، و«تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (١٨٤-١٨٥) رقم (٩١١)، وقال البوصيري: «هذا إسناد حسن، وشهر مختلف فيه». «مصباح الزجاجة» (١٩٠/٤) رقم (١٤٢٩). وقال الهيثمي: «رواه الطبراني وفيه شهر بن حوشب، وحديثه حسن وبقيه رجاله ثقات». «مجمع الزوائد» (٢١٧/٤) رقم (٧١١٥)، وقال الألباني: «حسن» في تعليقه على «الأدب المفرد» (١٩).

(٤) أحمد (٢٣٨/٥)، و«تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (١٨٠-١٩١) رقم (٩٢١).

وإن حُرِّقَتْ أَوْ قُطِّعَتْ».

وقال عبادة بن الصامت أوصانا رسول الله ﷺ بسبع خلال، فقال: «لا تُشركوا بالله شيئاً، وإن قُطِّعْتُمْ، أو حُرِّقْتُمْ، أو صُلِّبْتُمْ...»<sup>(١)</sup>.

وفي نهيه عن الزنى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وفي نهيه عن أكل مال اليتيم: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤].

وغير ذلك مما ورد النهي عنه كله يجب اجتنابه والحذر منه قال ﷺ جامعاً ذلك كله: «فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»<sup>(٢)</sup>.

(١) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٨٩) رقم (٩٢٠).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٢٥١)، كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة» / باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ. رقم (٧٢٨٨).



## بعثه الله إلى الناس كافة.

قوله: بعثه الله: البعث هو الإثارة والإرسال، أي: أرسله الله داعياً إلى دينه، والضمير في قوله: بعثه يعود على نبينا محمد ﷺ.

إلى الناس: لفظة الناس تطلق على الجن والإنس قال ابن منظور: «الناس قد يكون من الإنس ومن الجن»<sup>(١)</sup>.

ويدل له قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَهِ النَّاسِ ۝٣﴾ من شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١-٥] ثم بين أقسام الناس فقال: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٦].

قال الراغب: «الناسُ جماعة حيوان ذوو فكر وروية، والجنُّ لهم فكر وروية، ويتحركون في مُراداتهم ولهذا دخلوا في عموم الناس في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾»<sup>(٢)</sup>.

كافة: كف الشيء يكفّه كفاً أي جمعه<sup>(٣)</sup>. والكافة: الجماعة، ومنه قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨] أي جميعكم. قال أبو إسحاق: «كافة بمعنى الجميع والإحاطة»<sup>(٤)</sup>، ويدل لذلك الكتاب والسنة والإجماع.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

(١) «اللسان» (٦/ ٢٤٤).

(٢) «تحقيق البرهان في رسالة محمد ﷺ للجان» (٦٤٤).

(٣) «اللسان» (٩/ ٣٠١).

(٤) «تهذيب اللغة» (٩/ ٤٥٤).

يَعْلَمُونَ ﴿سبأ: ٢٨﴾ أي أرسله الله لجميع الناس.

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧].

والعالم كل ما سوى الله. ولكن هذا من العام المخصوص. وذلك أن العام المخصوص دال على ما بقي بعد التخصيص فيكون المراد بالعالمين هنا هم الإنس والجن قال ابن عباس: «العالمون الجن والإنس دليله قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ولم يكن نذيرًا للبهائم»<sup>(١)</sup>.

ولهذا هدد الله من لم يؤمن بالنبى ﷺ فقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، وطبق النبي ﷺ ذلك عملياً خلال دعوته فدعا جميع الناس إلى دين الله كما بين ذلك أنس رضي الله عنه بقوله: «كَتَبَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى كَسْرَى وَإِلَى قَيْصَرٍ وَإِلَى النَّجَاشِيِّ وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ النَّجَاشِيُّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ»<sup>(٢)</sup>، وكذلك دعوته ﷺ أهل الكتاب إلى الإيذان به وقتال من لم يؤمن وفرض الجزية عليهم ثم خلفاؤه رضي الله عنهم من بعده قاتلوا الفرس والروم وألزموهم إمّا بالإسلام أو دفع الجزية<sup>(٣)</sup>.  
وأكد المؤلف عموم رسالته بقوله «كافة».

ويدل لذلك قوله ﷺ: «أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي. نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ، فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلُّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ، وَكَانَ النَّبِيُّ

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١/١٣٨).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/٢٠٦).

يُبْعَثُ فِي قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»، وفي لفظٍ لمسلم: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ» وذكر منها «وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً»<sup>(١)</sup>، قال ابن رجب: قوله: «إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً» يدخل فيه الجن بلا ريب<sup>(٢)</sup>.

ولما كانت اعتراضات أهل الكتاب أكثر من غيرهم والبليَّةُ بهم أشدَّ وردت نصوص خاصة بهم تدل دلالة واضحة على شمول رسالة محمد ﷺ لهم ووجوب اتباعهم له ﷺ قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقوله تعالى أمرًا نبيه ﷺ بدعوتهم: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ويؤكد ﷺ شمول رسالته لليهود والنصارى بالقسم فيقول: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»<sup>(٣)</sup>.

قال شيخ الإسلام: «وفي القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن دعوة المشركين وعباد الأوثان وجميع الإنس والجن ما لا يحصى إلا بكلفة، وهذا كله معلوم بالاضطرار من دين الإسلام»<sup>(٤)</sup>.

ومما يدل على أنه رسول للجن أيضًا سورة الجن وما ذكر الله عنهم في سورة الأحقاف

(١) سبق تخريجه.

(٢) «فتح الباري» (٢/٢٦).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «الجواب الصحيح» (١/٣٣٦-٣٣٧).

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۖ﴾ (٢٩) قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴿[الأحقاف: ٣٠-٣١]﴾.

وكذلك سورة الرحمن: فإنها خطاب للجن والإنس معًا، ولهذا قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣].

وكذلك إجابته ﷺ داعي الجن ودعوتهم وقراءته القرآن عليهم<sup>(١)</sup>.

«وقد اتفق العلماء على أن كفارهم يدخلون النار، كما أخبر الله بذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]»<sup>(٢)</sup>.

وقال شيخ الإسلام: «ونبينا محمد ﷺ قد أرسل إلى الثقلين»<sup>(٣)</sup>، «وهذا أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين»<sup>(٤)</sup>.

(١) مسلم (١/ ٣٣٢)، كتاب «الصلاة» / باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن. رقم (٤٥٠).

(٢) «النبوات» (٢/ ١٠٠٩).

(٣) المرجع السابق (٢/ ١٠٠٥).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٩/ ١٩).

**وافترض الله طاعته على جميع الثقلين: الجن والإنس. والدليل قوله تعالى:**  
**﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].**

الفرض: هو الإيجاب ومنه قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [النور: ١] أي أوجبنا عليك العمل بها، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] أي أوجب عليك العمل به<sup>(١)</sup>.

قال الأزهري: «فرض رسول الله ﷺ أي أوجب وجوباً لازماً... قال الله عز وجل: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٩٧]. أي أوجبه على نفسه بإحرامه»<sup>(٢)</sup>.

فمعنى افترض الله طاعته: أي أوجب الله طاعته وجوباً لازماً. وفي هذا دليل على أن الإنسان ليس مخيراً بين طاعة الرسول ﷺ وعدمها، بل إن طاعته من معنى شهادة أن محمداً رسول الله.

وطاعته: فعل ما يأمر به وترك ما ينهى عنه راضية بذلك نفسه. ولما كان وجوب طاعته ﷺ أصلاً من أصول الدين أبدأ الله فيه وأعاد على صور متنوعة كثيرة:

فمرة يذكر الغرض من إرسال الرسل وهي طاعتهم واتباعهم فيقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

وأخرى يقرنها بطاعته سبحانه فيقول: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وثالثة بالأمر المباشر فيقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩].

(١) «المفردات» (٣٧٨).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٢ / ١٤).

ورابعة بذكر ثمرة الطاعة فيقول: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

ويقول: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمِيثُ﴾ [النور: ٥٤].

وخامسة ببيان حسرة من عصى الرسول ﷺ فلم يطعه في وقت لا ينفع فيه الندم والتحسر فقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّنَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾ [الفرقان: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

وقد أجمع العلماء على أنَّ دين الإسلام الذي جاءنا به رسول الله ﷺ «فرض على من بلغه من جن وإنس»<sup>(١)</sup>.

فمن اعتقد أنَّ لأحد من جميع الخلق خروجاً عن اتباعه وطاعته فهو كافر<sup>(٢)</sup>، بل أجمع العلماء على كفره، قال شيخ الإسلام: «ومعلوم بالاضطرار من دين المسلمين باتفاق جميع المسلمين: أنَّ مَنْ سَوَّغَ اتباع غير دين الإسلام، أو اتباع شريعة غير شريعة محمد ﷺ؛ فهو كافر»<sup>(٣)</sup>.

على جميع الثقليين: أي على كل الثقليين.

والثقلان: هما الجن والإنس قال تعالى: ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١].

وقد أجمع المفسرون على أن الثقليين هما الجن والإنس، وهما اللذان ذكرهما النبي ﷺ بقوله: «وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فيقول: لا أدري، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمِطَارِقٍ مِنْ حَدِيدٍ

(١) «منازل الأئمة الأربعة» للسلماسي الشافعي (١٣١).

(٢) انظر: «مراتب الإجماع» (٢٦٧) و«مجموع الفتاوى» (٥٩ / ٢٧).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥٢٤ / ٢٨).

ضَرْبَةً، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرُ الثَّقَلَيْنِ»<sup>(١)</sup>.

وورد في سبب تسميتهما بالثقلين أقوال عدة هي:

١ - لتفضيل الله إياهما على سائر المخلوقات بالعقل الذي خصا به.

٢ - لأنها أثقلا الأرض.

٣ - لأنها أثقلا بالتكاليف.

٤ - لثقلهما بالذنوب<sup>(٢)</sup>.

ولعل سبب التسمية بها مجتمعة؛ إذ لا تنافي بينها والله أعلم.

الْجَنُّ: من جن الشيء يجنه إذا ستره ومنه ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦] أي ستره بظلمته ومنه سمي الجنين لاستتاره في بطن أمه، وسمي القلب جنناً لأن الصدر أجنه وستره.

والجن: جماعة ولد الجان، وجمعهم الجِنَّة والجان، وإنما سموا جنّاً؛ لأنهم استجنوا من الناس فلا يرونهم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرُنْكُكُمْ هُوَ وَاقِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وأبوهم إبليس خلق من النار ثم خلق منه نسله. قال تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]<sup>(٣)</sup>.

والإنس: أنس الهمزة والنون والسين أصل واحد وهو ظهور الشيء، فالإنس خلاف الجن لظهورهم<sup>(٤)</sup>.

قال الأزهري: وأصل الإنس من الإيناس وهو الإبصار يقال: أنستّه وأنستّه، أي

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ٢٣٢-٢٣٣)، كتاب «الجنائز» / باب ما جاء في عذاب القبر. رقم (١٣٧٤).

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (٩/ ٧٨) و«تفسير القاسمي» (١٥/ ٥٦٢٣).

(٣) «تهذيب اللغة» (١٠/ ٤٩٦) و«اللسان» (١٣/ ٩٢) و«مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٣٥ و٣٤٦).

(٤) «معجم مقاييس اللغة» (١/ ١٤٥).

أبصرته ومنه: ﴿ءَأَنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]. أي أبصر، وأبوهم آدم خلق من الطين وخلق منه نسله قال تعالى: ﴿خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْنَاهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]<sup>(١)</sup>.

﴿قُلْ﴾: أمر الله نبيه محمد ﷺ أن ينادي الناس ويخبرهم بأن الله أرسله داعيًا إياهم للدخول في دين الله تعالى.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾: هذا نداء لجميع الثقلين الجن والإنس.

﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾: إن لتوكيد الرسالة وأنها من عند الله فرسولنا محمد ﷺ مرسل من ربه بدينه ليدعو الناس إليه ويبين لهم حلاله وحرامه وما يجب عليهم فعله وما يجب تركه.

﴿إِلَيْكُمْ﴾: الضمير يعود إلى الناس أي أن الرسالة لكم أيها الناس كلكم ليست لقوم دون آخرين.

وأكد عموم الرسالة وأنها لجميع الناس من بعثته إلى أن تقوم الساعة بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ فجميعًا حال تعود على ضمير الجمع في قوله ﴿إِلَيْكُمْ﴾.

قال قوام السنة الأصهباني حول هذه الآية: «وهذا خطابٌ لكافة الناس مَنْ كان في عصر النبي ﷺ وَمَنْ جاء بعد وفاته ويجيء إلى أن تقوم الساعة»<sup>(٢)</sup>.

ثم ذكر من نعوت المرسل ما يوجب الخوف منه، والخضوع والذل له، والتقرب إليه بجميع محابه فقال: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

فجمع في هذه الآية بين ملكه التام لمخلوقاته وقدرته التامة على تدبيرها وتصريفها خلقًا وإبداعًا وإحياءً وإماتةً، فما شاء أحياه وما شاء أفناه، له الحكم والسلطان التام. ومن

(١) «تهذيب اللغة» (٨٦ / ١٣) وانظر: «اللسان» (١٠ / ٦).

(٢) «الحجة في بيان المحجة» (١٧٠ / ٢).



كان كذلك وجب إفراده بالعبادة؛ لأنه لا يستحق أن يعبد إلا هو ولهذا قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

فقررت هذه الآية أصولاً أربعة هي:

١ - إثبات أن للعالم إلهاً قادراً مالِكاً مدبراً ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٢ - إثبات أنه منزّه عن الشريك ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٣ - إثبات أنه تعالى قادر على الحشر والبعث والقيامة ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

٤ - أن هذه الأمور الثلاثة لا تعلم تفصيلاً إلا عن طريق الرسل فلما ثبتت هذه الأمور الأربعة أمر بالإيمان به فقال: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ثم بيّن ما يفيد بل يحقق صدق رسالته فقال: ﴿الَّتِي الْأُمِّيَّ﴾ فأَمِيتَهُ ﷺ دليل على صدق رسالته؛ إذ كيف يأتي بهذا العلم العظيم، وهو أمي، إلا أن الله علمه ذلك، فقال: ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾. أي الآيات التي أنزلها الله عليه متكلماً بها سبحانه. وفي هذا يكمن سر الاقتداء به فلهذا حَضَّ ربنا عليه فقال: ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ أي اسلكوا طريقه، واقتفوا أثره، وأطيعوا أمره، واعملوا بسنته ومما يزيد في عزم العبد على اقتفاء أثره أن المتبع له مهتد دنيا وأخرى ولهذا قال ﷺ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

## وَأَكْمَلَ اللَّهُ بِهِ الدِّينَ.

وأكمل «الكاف والميم واللام أصل صحيح يدل على تمام الشيء يقال: كَمَلَ الشيء وكُمِّلَ فهو كامل أي تام ومنه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾»<sup>(١)</sup> [المائدة: ٣].  
قال الأزهري: «وأكملت الشيء أي: أجملته وأتممته»<sup>(٢)</sup>.  
والكمال: اسم لاجتماع أجزاء وأبعاض الموصوف<sup>(٣)</sup>.

والدين كذلك فإنه يتكون من أركان وواجبات وسنن، ولكن النبي ﷺ حينما دعا الناس إليه بدأ بالتوحيد، فطلب منهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فلما آمنوا أمرهم بالصلاة، فلما آمنوا وصدقوا وعملوا فرض الله عليهم الهجرة ثم الصيام والزكاة والحج والجهاد وأتم لهم بقية شرائع الدين فلما تم ذلك كله أنزل الله قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾»<sup>(٤)</sup> [المائدة: ٣].

قال الإمام أحمد: «كان بدء الإيمان في أول الإسلام ناقصاً فجعل يتم»<sup>(٥)</sup>.  
فقوله: أكمل الله به الدين: أي أتم الله الدين بما أوحاه إلى رسوله محمد ﷺ.  
والأدلة على كمال الدين كثيرة منها:

١ - قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً

وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٥ / ١٣٩).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٠ / ٢٦٥) وانظر: «العين» (٥ / ٣٧٩).

(٣) انظر: «الفروق» للعسكري (٢٩٤) و«تهذيب اللغة» (١٠ / ٢٦٥) و«العين» (٥ / ٣٧٩).

(٤) انظر: «الشرعية» (٢ / ٥٥٢-٥٥٣ و ٥٥٦) و«الإبانة» لابن بطة (٢ / ٦٢٨-٦٣١) تحقيق رضا نعيان.

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٢ / ٤٧٥).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أنزل في هذا القرآن كل علم، وكل شيء قد بُيِّن لنا في القرآن، ثم تلا هذه الآية»<sup>(١)</sup>، «فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلةً إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها»<sup>(٢)</sup> ويدل لهذا قوله في الآية: ﴿تَبَيَّنَّا﴾ «فإنها من المصادر التي بنيت على هذه الصيغة لتكثير الفعل والمبالغة فيه»<sup>(٣)</sup> ولكونه مبيناً لكل شيء انحصر الهدى فيه وأثمر لأهله الرحمة والبشرى دنيا وأخرى وانحصار الهدى فيه دليل على كماله.

٢- قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

أثبت الله في هذه الآية أنه فصل كل شيء وتفصيل كل شيء دليل بين على كمال الدين فلا يحتاج إلى أن يبحث عن الهدى في غيره وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

٣- قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣]. هذه الآية نزلت قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بثلاثة وثمانين يوماً فقط وهذه الآية صريحة في كمال الدين.

٤- قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]. تمت كلمة الله صدقاً في أخبارها وعدلاً في أحكامها، ولهذا قال بعدها ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف: ٢٧]. حيث حفظها وأحكمها بأنواع الصدق وبغاية الحق فلا يمكن تغييرها ولا اقتراح أحسن منها وتتمامها في الأخبار والأحكام دليل على كمال الدين.

(١) «جامع البيان» (١٤/ ١٦٢).

(٢) «الرسالة» للشافعي (٢٠).

(٣) «محاسن التأويل» (١٠/ ٣٨٤٩).

ويتضح كمال الدين فيما يلي:

أولاً: كمال في الاعتقاد:

فكل ما يلزم العبد اعتقاده فقد بينه الله ووضحه رسوله ﷺ أتم بيان وأجلاه. فقد بين ربوبيته، وخلقه لكل شيء، وكمال قدرته وعلمه المحيط بكل شيء، وعزته، ورحمته، وحلمه، وسمعه، وبصره، وحياته الكاملة التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وغير ذلك مما ورد من أسمائه الحسنی وصفاته العلی قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ثم أوضح سبحانه في آي كثيرة لازم الإيمان بأسمائه وصفاته وربوبيته وهو الإيمان بالوحيته ووجوب إفراده بالعبادة كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

وكذلك الأمور المغيبة سواء كانت من غيوب المستقبل كالجنة والنار، وما قبلهما من عذاب القبر ونعيمه والنفخ في الصور والحشر وتطير الصحف ونحو ذلك، أو كانت من الأمور الحاضرة ولكنها غيبٌ بالنسبة لنا كالملائكة، أو كانت غيوب نسبية ماضية مما وقع للأمم السابقة.

وأوضح أكمل إيضاح وأجلاه دلائل النبوة، ومن هو خاتم الرسل وأنه أفضل الأنبياء، وأن من ادعى النبوة بعده فهو دجال كذاب.

ثانياً: كمال في الأحكام:

سواء كانت هذه الأحكام عبادات كالصلاة والزكاة والحج والصيام والجهاد وغيرها، أو معاملات بين الناس في بيعهم وشرائهم كإباحة البيع وتحريم الربا والغش والخذاع، وأحكام الإمامة وما يجب على الحاكم والمحكوم كل منهما تجاه الآخر.

أو أخلاقاً مع الناس كالتواضع ولين الجانب والعفو والسماحة، وغير ذلك مما هو معلوم في كلام الله وكلام رسوله كما في حديث العرباض بن سارية: «قد تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلَهَا كُنْهَارُهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «خرج علينا رسول الله فقال: أَيُّمُ اللَّهِ لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ، لَيْلَهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ. قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: صَدَقَ وَاللَّهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَدْ تَرَكْنَا وَاللَّهِ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ لَيْلَهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ»<sup>(٢)</sup>.

وقال أبو ذر رضي الله عنه: «لَقَدْ تَرَكْنَا مُحَمَّدًا ﷺ وَمَا يَحْرُكُ طَائِرُ جَنَاحِيهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا أَذَكَّرَنَا مِنْهُ عَلِمًا»<sup>(٣)</sup>.

وقال أبو الدرداء: «لَقَدْ تَرَكْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا فِي السَّمَاءِ طَيْرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحِيهِ إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عَلِمًا»<sup>(٤)</sup>.

وجواب سلمان رضي الله عنه لذلك المستهزئ الكافر عندما سأله هل علمكم رسولكم كل شيء حتى الخراءة. أجاب سلمان رضي الله عنه جواب المؤمن المعتز بدينه فقال أجل: «لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لَغَائِطٍ، أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقْلٍ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ»<sup>(٥)</sup>.

(١) سبق تخريجه.

(٢) ابن ماجه (٤/١)، «المقدمة»/ باب اتباع سنة رسول الله ﷺ. رقم (٥)، و«السنة» لابن أبي عاصم (٢٦/١) رقم (٤٧)، والبزار في «مسنده» (٧٦/١٠) رقم (٤١٤١)، وقال: «إسناده حسن»، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٦/١).

(٣) أحمد (١٥٣/٥).

(٤) أبو يعلى في «مسنده» (٤٦/٩) رقم (٥١٠٩). وقال الهيثمي: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح». «مجمع الزوائد» (٢٦٤/٨) رقم (١٣٩٧٣).

(٥) مسلم (٢٢٣/١)، كتاب «الطهارة»/ باب خصال الفطرة. رقم (٢٦١).

والإيمان بكمال الشريعة يوجب على العبد أمرين:

أولاً: الاتباع وتوحيد المصدر:

من آمن برسالة النبي ﷺ وأن ما جاء به هو الحق من عند الله أوجب له ذلك ألا يأخذ دينه إلا من مشكاة النبوة، فما جاء به قبلناه وعملنا به واعتقدنا صحته وما نهانا عنه اجتنبناه ممثلين قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وجاءت الأدلة المتكاثرة على الأمر بلزوم الوحي المنزل على رسولنا ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

وأنه الشفاء والهدى والرحمة: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]. «وذلك أن الله تبارك وتعالى أكمل الدين بمحمد ﷺ خاتم النبيين، وبينّه وبلغه البلاغ المبين، فلا تحتاج أمته إلى أحد بعده يغير شيئاً من دينه، وإنما تحتاج إلى معرفة دينه الذي بعث به فقط»<sup>(١)</sup>. وأنكر على من لم يكتف بالوحي فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِن فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وقبل ذلك كله أمر نبيه ﷺ بتوحيد المصدر فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

ولما كان اتباع الوحي شاقاً لأنه يمنع حظ النفس أمر الله نبيه محمداً ﷺ بالصبر عليه فقال: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

فالاتباع هو أس الدين ونظامه ويتضح ذلك بما يلي:

١ - أنه شرط لقبول العمل:

قال تعالى: ﴿لِبَلْوَاكُمْ أَتُكْمَلُونَ عَمَلًا﴾ [المك: ٢].

﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: أي أخلصه وأصوبه، والخالص هو أن يكون لله وحده، والصواب أن يكون على سنة المصطفى ﷺ.

وأكد النبي على أهمية المتابعة وأنها شرط أساس في قبول العمل فقال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا؛ فهو ردٌّ»<sup>(١)</sup>؛ أي: مردود عليه غير مقبول.

٢ - أنه دليل المحبة الصادقة:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل

عمران: ٣١].

وهذه الآية هي التي يسميها السلف آية الامتحان، قال ابن كثير «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله»<sup>(٢)</sup>.

٣ - أنه سبب لدخول الجنة والنجاة من النار:

لما كان الاتباع سبباً رئيساً لدخول الجنة: دعت الملائكة لأهله، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

وأكد عليه النبي ﷺ في قوله: «كُلُّ أُمَّتِي يدخلون الجنة إلا من أبى»، قالوا: يا رسول

(١) سبق تخريجه.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٢٣١-٢٣٢).

الله ومن يأبى. قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»<sup>(١)</sup>.

قال الإمام مالك: «السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك»<sup>(٢)</sup>.

٤ - أنه سبب لمنع العذاب:

الاتباع سبيل قوي للوقاية من العذاب، قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بُعْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥].

٥ - بشرى المتبعين:

قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

ثانيًا: البعد عن الابتداع والحذر منه:

من وُفِّقَ لاتباع الوحيين نفر من البدعة نفورًا عظيمًا، وكانت نتيجة ذلك الاستقامة على ما درج عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام وأهل القرون الثلاثة الذين هم خير القرون.

ولقد كان النبي ﷺ يغرس في قلوب أصحابه ﷺ بغض البدعة، فيقول في كل خطبة يخطبها: «وَكُلُّ بَدْعٍ ضَلَالَةٌ»<sup>(٣)</sup>.

ولما وعظهم موعظةً بليغة ذرفت منها عُيُونُهُمْ ووجلت منها قلوبهم طلبوا منه الوصية فكان من وصيته تحذيرهم من البدعة فقال: «وَيَاكُمْ وَمَحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٍ، وَكُلُّ بَدْعٍ ضَلَالَةٌ»<sup>(٤)</sup>.

(١) سبق تخريجه.

(٢) «تاريخ بغداد» (٧/ ٣٤٧).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.



وكان لهذه التربية أعظم الأثر في نفوس أصحابه فكانوا رحمهم الله أحرص الناس على الاتباع وأبعدهم من الابتداع وأقوالهم في ذلك كثيرة مشهورة ومنها:

قول حذيفة رحمهم الله: «يا معشر القراء، استقيموا فقد سبقتكم سبقاً بعيداً، وإن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتكم ضلالاً بعيداً»<sup>(١)</sup>. ومثله عن عبدالله بن مسعود رحمهم الله<sup>(٢)</sup>، وقال ابن عباس: «عليكم بالاستقامة والاتباع، وإياكم والبدع»<sup>(٣)</sup>.

وقال معاذ بن جبل رحمهم الله: «إياكم وما ابتدع، فإن كل بدعة ضلالة»<sup>(٤)</sup>.

وقال عبدالله بن عمر رحمهم الله: «كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة»<sup>(٥)</sup>.

وسار السلف بعدهم على منهجهم في التحذير من البدع قال الإمام أحمد رحمهم الله بعد كلام سبق: «واحذر البدع كلها... ولا تشاور أحداً من أهل البدع في دينك»<sup>(٦)</sup>.

وقال أحمد بن سنان: «ليس في الدنيا مُبتدع إلا ويبغض أهل الحديث، فإذا ابتدع الرجل نزعته حلاوة الحديث من قلبه»<sup>(٧)</sup>.

وكانوا يفرحون بالسلامة من البدع ويعدون ذلك من أعظم نعم الله عليهم.

قال مجاهد: «ما أدري أي النعمتين عليّ أعظم، أن هداني للإسلام أو عافاني من هذه الأهواء»<sup>(٨)</sup>، وبمثله عن أبي العالية<sup>(٩)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (١٣ / ٢٥٠)، كتاب «الاعتصام» / باب الاقتداء بسنن الرسول ﷺ. رقم (٧٢٨٢).

(٢) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (١ / ٣٣٢).

(٣) «ذم الكلام وأهله» (٤ / ١٤).

(٤) أبو داود (١٧ / ٥)، كتاب «السنة» / باب لزوم السنة. رقم (٤٦١١).

(٥) «السنة» للمروزي (٩٤)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي (١ / ٩٢).

(٦) «طبقات الحنابلة» (١ / ٣٤٤).

(٧) «عقيدة السلف وأصحاب الحديث» (٣٠٠)، و«ذم الكلام وأهله» (٢ / ١٥٨).

(٨) «سنن الدارمي» (١ / ٨٨) رقم (٣٠٩)، و«حلية الأولياء» (٣ / ٢٩٣).

(٩) «حلية الأولياء» (٢ / ٢١٨).

ويوصون بالبعد عن أصحاب البدع، ومن ذلك أن رجلاً جاء إلى سفيان الثوري فقال: «يا أبا عبد الله! أوصني قال: إِيَّاكَ وَالْأَهْوَاءَ. إِيَّاكَ وَالْخُصُومَةَ، إِيَّاكَ وَالسُّلْطَانَ»<sup>(١)</sup>.

وكانوا يرون أَنَّ أهل الأهواء أسرعُ الناس ردَّةً وأن هذه الآية نزلت فيهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨]<sup>(٢)</sup>.

وأنهم يُحَرِّمُونَ الورعَ قال الأوزاعي: «ما ابتدع رجل بدعة إلا سلب الورع»<sup>(٣)</sup>. ويعتقدون أَنَّ ذنب البدعة أعظم الذنوب ما خلا الشرك، قال الشافعي: «لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خيرٌ له من أن يلقاه بشيء من الأهواء»<sup>(٤)</sup>.

وبمثل ذلك قال يونس بن عبيد لابنه كما روى ذلك ختن بن شعبة قال: «كنت عند يونس فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله! تنهانا عن مجالسة عمرو بن عبيد وقد دخل عليه ابنك؟ قال: ابني. قال: نعم. فتغيظ الشيخ فلم أبرح حتى جاء ابنه فقال: يا بني قد عرفت رأيي في عمرو، ثم تدخل عليه قال: كان معي فلان وجعل يعتذر قال: أنهاك عن الزنا، والسرقه، وشرب الخمر، ولأن تلقى الله بهن أحب إلي من أن تلقاه برأي عمرو وأصحاب عمرو»<sup>(٥)</sup>.

وقال سلام بن أبي مطيع: «لأن ألقى الله بصحيفة الحجاج أحب إلي من أن ألقى الله بصحيفة عمرو بن عبيد»<sup>(٦)</sup>.

(١) «حلية الأولياء» (٢٨ / ٧).

(٢) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (٢ / ٤٣١ و ٤٩٦).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٧ / ١٢٥).

(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣ / ٥٧٠)، و«آداب الشافعي ومناقبه» لابن أبي حاتم (١٨٧)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١٠ / ٢٠٦).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (٦ / ٢٩٤).

(٦) المرجع السابق (٧ / ٤٢٨).

ولأجل ذلك رأوا أن احتراق المسجد بالنار وتهدمه من أساسه أقل خطراً وأهون خطباً من حدوث بدعة فيه لا تغير. قال عمر بن الخطاب: «لأن أسمع في ناحية المسجد بنار تشتعل أحب إليّ من أن أسمع فيه بدعة ليس لها مغير»<sup>(١)</sup>.

وقال أبو إدريس الخولاني: «لأن أرى في المسجد نارا لا أستطيع إطفاءها أحب إليّ من أن أرى فيه بدعة لا أستطيع تغييرها»<sup>(٢)</sup>.

وذلك أن النار تفسد بانيان المسجد وإصلاح أمر البنيان يسير، وكل الناس يعينونك عليه وأما البدعة فإنها تفسد الأديان ثم لا يتاب منها غالبا.

واسترخصوا الدنيا حذراً منها وخوفاً من غيها فصبروا على قطع ما يجري عليهم من بيت المال، فعن إبراهيم بن الحسين قال: «لما دعي عفان بن مسلم للمحنة، كنت آخذا بلجام حماره، فلما حضر عُرِضَ عليه القول بخلق القرآن، فامتنع أن يجيب، فقيل له: يحبس عطاؤك، قال: وكان يعطى في كل شهر ألف درهم، فقال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، فلما رجع إلى داره، عذلوه نساؤه، ومن في داره، قال: وكان في داره نحو أربعين إنسانا، قال: فذكر عليه داق الباب، فدخل عليه رجل فشبهته بسمان أو زيات، ومعه كيس فيه ألف درهم فقال: يا أبا عثمان ثبتك الله كما ثبت الدين، وهذا في كل شهر»<sup>(٣)</sup>.

وتحملوا السجن والقيد والضرب كما فعل البويطي فيما يحكيه الربيع بن سليمان، فيقول: «رأيت البويطي على بغل في عنقه غل، وفي رجله قيد، وبين الغل والقيد سلسلة حديد، فيها طوبة وزنها أربعون رطلاً، وهو يقول: إنما خلق الله الخلق بكن، فإذا كانت كن

(١) «ذم الكلام وأهله» (٧٤ / ٤) رقم (٨١٤).

(٢) «الاعتصام بالكتاب والسنة» لأحمد بن نصر الخزازي (٨٢).

(٣) «تاريخ بغداد» (٢٧١ / ١٢).

مخلوقة فكانت مخلوقاً خلق مخلوقاً، فوالله لأموتن في حديدي هذا حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم، ولئن أدخلت إليه لأصدقته، يعني - الواصل -.

قال عبد الرحمن بن أحمد المصري: كان البويطي متقشفاً، حمل من مصر أيام المحنة إلى العراق، وأرادوه على المحنة فامتنع، فسجن في بغداد وقيد فتوفي في السجن والقيد سنة اثنتين وثلاثين ومائتين<sup>(١)</sup>.

واسترحصوا أعضاءهم ولحومهم لأجل إمامتها. قال عمر بن عبدالعزيز: «لَوْ كَانَ بِكُلِّ بدعة يُمِيتُهَا اللهُ عَلَى يَدَيَّ، وَكُلِّ سُنَّةٍ يُنْعِشُهَا اللهُ عَلَى يَدَيَّ بضعَةً مِنْ لَحْمِي حَتَّى يَأْتِيَ آخِرَ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِي لَكَانَ فِي اللهِ يَسِيرًا»<sup>(٢)</sup>.

ولم يرغبوا في البقاء في الدنيا إلا لأجل ذلك. قال عمر بن عبدالعزيز: «والله لولا أَنْ أَنْعِشَ سُنَّةٌ وَأُمِيتَ بدعة لما سَرَّني أَنْ أَعِيشَ فِي الدُّنْيَا فَوْقًا، وَلَوْدَدْتُ أَنِّي كَلِمًا أَنْعَشْتُ سُنَّةً وَأُمْتُ بدعة أَنْ عَضُّوا مِنْ أَعْضَائِي سَقَطَ مَعَهَا»<sup>(٣)</sup>.

وجادوا بأنفسهم لله طامعين في إمامتها كما فعل أحمد بن نصر الخزاعي، وذلك حينما قال له الواصل: «يا أحمد! ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله، وأحمد بن نصر مستقتل قد تنور وتطيب. قال: أفعمل خلق هو؟ قال: هو كلام الله، قال: فما تقول في ربك أترأه يوم القيامة؟ قال: يا أمير المؤمنين! جاءت الآثار عن رسول الله أنه قال: «تَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»<sup>(٤)</sup> فنحن على الخبر... فضربه الواصل ضربة

(١) «تاريخ بغداد» (١٤ / ٣٠٢-٣٠٣)، و«مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٣٩٨).

(٢) «الاعتصام بالكتاب والسنة» لأحمد بن نصر الخزاعي (٨٠).

(٣) المرجع السابق.

(٤) البخاري مع الفتح (١٣ / ٤١٩)، كتاب «التوحيد» / باب قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ۖ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ =

على حبل العاتق، ثم ضربه أخرى على رأسه، ثم انتضى سيفا الدمشقي سيفه، فضرب عنقه وحزّ رأسه»<sup>(١)</sup>.

فأثنى الإمام أحمد عليه في موقفه هذا، فقال: «ما كان أسخاه، لقد جاد بنفسه»<sup>(٢)</sup>.

ولقد أثنى ابن القيم رحمته على أحمد بن نصر لنصره السنة والموت لأجل ذلك فقال:

ولأجله قُتل ابنُ نصرٍ أحمداً      ذاك الخُزاعيُّ العظيمُ الشانِ  
إذ قال ذا القرآنِ نفسُ كلامه      ما ذاك مخلوقٌ من الأكوانِ<sup>(٣)</sup>

و«البدعة ما خالفت الكتاب والسنة أو إجماع سلف الأمة من الاعتقادات والعبادات»<sup>(٤)</sup>.

وعرفها الشاطبي فقال: «طريقة في الدين مخترعة تُضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التّعبد لله سبحانه»<sup>(٥)</sup>.

وعرفها شيخنا العثيمين فقال: «ما أُحْدِثَ في الدين على خلاف ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من عقيدة أو عمل»<sup>(٦)</sup>.

رقم (٧٤٣٤)، ومسلم (١/٤٣٩)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة»/ باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليها. رقم (٦٣٣).

(١) «تاريخ الطبري» (٥/٧٠) وانظر: «سير أعلام النبلاء» (١١/١٦٧-١٩٦).

(٢) «مناقب الإمام أحمد» (٣٩٩).

(٣) «الكافية الشافية مع شرح ابن عيسى» (٢/٦).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٨/٣٤٦).

(٥) «الاعتصام» (١/٣٧).

(٦) «شرح لمعة الاعتقاد» (٢٣).

وتكمن خطورة البدعة بما يلي:

١ - أنها تحبط العمل:

قال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه؛ فهو رُدٌّ»<sup>(١)</sup>.

٢ - اتهام دين الله بالنقص:

فكأنه ببدعته أراد إكمال ما نقص من دين الله، ولهذا رد الله هذه الفرية العظيمة بقوله:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

٣ - اتهام الرسول ﷺ بعدم البلاغ:

والنبي ﷺ نفى ذلك أشد النفي في حجة الوداع فقال: «وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟»، قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وأديت ونصحت، فقال: بإصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد، اللهم اشهد»، ثلاث مرَّاتٍ<sup>(٢)</sup>.

قال مالك رحمه الله: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة؛ لأن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]. فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً»<sup>(٣)</sup>.

٤ - أنها مخالفة صريحة لأمر النبي ﷺ بالسنة ومجانبة البدعة حيث أمر بها فقال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعصوا عليها بالنواجز، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وإن كل بدعة ضلالة»<sup>(٤)</sup>.

وبين في أكبر مجمع بعرفة في حجة الوداع أنه لا يحمي الناس من البدعة إلا التمسك

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «الاعتصام» (١/ ٤٩)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢٦٥).

(٤) سبق تخريجه.

بكتاب الله فقال: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله»<sup>(١)</sup>.

#### ٥ - أنها تغشى صاحبها بالذلة والصغار:

قال سفيان بن عيينة: «ليس في الأرض صاحب بدعة إلا وهو يجد ذلةً تغشاه، قال: وهي في كتاب الله قالوا: وأين هي من كتاب الله؟ قال: أما سمعتم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ١٥٢] قالوا: يا أبا محمد، هذه لأصحاب العجل خاصة قال: كلا اتلوا ما بعدها ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، فهي لكل مفتر، ومبتدع إلى يوم القيامة»<sup>(٢)</sup>.

وقال أبو قلابة عند هذه الآية: «فهو جزاء كل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله تعالى»<sup>(٣)</sup>.

وقال سلام بن أبي مطيع: «رأى أيوب رجلاً من أصحاب الأهواء، فقال: إني لأعرف الذلة في وجهه، ثم قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، ثم قال: هذه لكل مفتر»<sup>(٤)</sup>.

#### ٦ - عقوبتها في الآخرة:

قال ابن عباس رضي الله عنه عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾. فأهل البدع والأهواء ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٧]. فأهل السنة والجماعة»<sup>(٥)</sup>.

(١) سبق تخريجه.

(٢) «حلية الأولياء» (٧/ ٢٨٠).

(٣) «ذم الكلام وأهله» (٤/ ٨٧-٨٨) رقم (٨٣٠).

(٤) المرجع السابق (٤/ ١٩٧-١٩٨) رقم (٩٨٩).

(٥) «تاريخ بغداد» (٧/ ٣٧٩)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ٧٢).

## ٧- إبطال السنة وبغضها:

من مخاطر البدع العظيمة أنها لا تجتمع هي والسنة، بل تزيع السنة وتحل محلها، قال ﷺ: «مَا أَحْدَثَ قَوْمٌ بَدْعَةً إِلَّا رُفِعَ مِثْلُهَا مِنَ السُّنَّةِ، فْتَمَسَّكَ بِسُنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ إِحْدَاثِ بَدْعَةٍ»<sup>(١)</sup>.

قال حسان بن عطية (من كبار التابعين): «مَا ابْتَدَعَ قَوْمٌ بَدْعَةً فِي دِينِهِمْ إِلَّا نَزَعَ اللَّهُ مِنْ سُنَّتِهِمْ مِثْلَهَا»<sup>(٢)</sup>، وذلك أن صاحب البدعة يكره السنة التي تخالف مذهبه. بل ويبتلي صاحبها ببغض السنة، قال الأوزاعي: «ليس من صاحب بدعة يُحدثه عن رسول الله ﷺ بخلاف بدعته إِلَّا أَبْغَضَ ذَلِكَ الْحَدِيثَ»<sup>(٣)</sup>؛ لأنه يدل على فساد مذهبه وبطلانه.

ويوضح ذلك شيخ الإسلام فيقول: «فلا تجد قط مبتدعاً إِلَّا وهو يُحِبُّ كِتْمَانَ النُّصُوصِ الَّتِي تُخَالِفُهُ وَيُبْغِضُهَا، وَيُبْغِضُ إِظْهَارَهَا وَرَوَايَتَهَا وَالتَّحَدُّثَ بِهَا، وَيُبْغِضُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ»<sup>(٤)</sup>.

## ٨- خطورتها على المجتمع:

ثبت بسنة النبي ﷺ أن أهل البدع شر من أهل المعاصي، فإنه ﷺ وصف الخوارج بالمروق من الدين فقال: «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ». وأمر بقتلهم فقال: «فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ؛ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ

(١) أحمد (٤/ ١٠٥)، وجود ابن حجر إسناده في «الفتح» (١٣/ ٢٥٣).

(٢) «سنن الدارمي» (١/ ٤٦) رقم (٩٨).

(٣) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٤٣٠).

(٤) «درء التعارض» (١/ ٢٢١).



القيامة»<sup>(١)</sup>.

وأما شارب الخمر لما لعنه أحد الصحابة قال ﷺ: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله»<sup>(٢)</sup>.

قال شيخ الإسلام: «أئمة أهل البدع أضُرُّ على الأمة من أهل الذنوب، ولهذا أمر النبي ﷺ بقتل الخوارج، ونهى عن قتال الولاة الظلمة»<sup>(٣)</sup>، بل نقل الإجماع على ذلك، فقال: «أهل البدع شرُّ من أهل المعاصي الشهوانية بالسنة والإجماع»<sup>(٤)</sup>.

ولخطورتهم كان أهل العلم ينهون عن توقيرهم. قال إبراهيم بن ميسرة: «من وقَّره صاحب بدعة؛ فقد أعان على هدم الإسلام»<sup>(٥)</sup>.

وبمثله قال إسحاق الهمداني<sup>(٦)</sup>، والأوزاعي<sup>(٧)</sup>، ومحمد بن مسلم<sup>(٨)</sup>، بل «اتفقوا على القول بقهر أهل البدع وإذلالهم وإخزائهم وإبعادهم وإقصائهم والتباعد منهم ومن مصاحبتهم ومعاشرتهم، والتقرب إلى الله عزَّ وجلَّ بمجانبتهم ومهاجرتهم»<sup>(٩)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (٢٨٣/١٢)، كتاب «استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم»/ باب قتل الخوارج والملحدین بعد إقامة الحجة عليهم. رقم (٦٩٣٠)، ومسلم (٧٤٦-٧٤٧)، كتاب «الزكاة»/ باب التحريض على قتل الخوارج. رقم (١٠٦٦).

(٢) سبق تحريجه.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨٤/٧).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠٣/٢٠).

(٥) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٣٩/١).

(٦) «القدر» للفريابي (١١١).

(٧) «ذم الكلام وأهله» (١٥٧/٤).

(٨) «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (١٤).

(٩) «عقيدة السلف وأصحاب الحديث» (٣١٦).

وذلك لـ «أن توقير صاحب البدعة مظنة لمفسدتين تعودان على الإسلام بالهدم: أحدهما: التفات الجهال والعامّة إلى ذلك التوقير فيعتقدون في المبتدع أنه أفضل الناس، وأن ما هو عليه خير مما عليه غيره، فيؤدي ذلك إلى اتباعه على بدعته دون اتباع أهل السنة على سنتهم.

والثانية: أنه إذا وُقِّرَ من أجل بدعته: صار ذلك كالحادي المحرض له على إنشاء الابتداع في كل شيء وعلى كل حال، فتحيا البدع، وتموت السنن، وهو هدم الإسلام بعينه»<sup>(١)</sup>.

بل ويزجرونهم أشد الزجر، كما فعل سالم بن عبدالله عندما جاءه سائل فقال: رجل زنى؟ فقال سالم: يستغفر الله ويتوب إليه. فقال له الرجل قدّره الله عليه؟ فقال سالم: «نعم. قال: ثم أخذ قبضةً من الحصى فضرب بها وجه الرجل وقال: قُمْ»<sup>(٢)</sup>. فانظر إلى فعل سالم عند المعصية أمره بالاستغفار والتوبة لكن لما ظهر منه الاحتجاج بالقدر على الذنب تبين أنه مبتدع شدد عليه النكير وطرده.

#### ٩ - خطورتها على الفرد:

لا تقل خطورة البدعة على الفرد عن خطورتها على المجتمع وخطورتها على الفرد من جهتين:

أ- أنها تبعده عن الله، قال أيوب السخيتاني رحمته الله: «ما ازداد صاحب بدعة اجتهداً إلاّ ازداد من الله بُعداً»<sup>(٣)</sup>.

وقال الحسن رحمته الله: «صاحب البدعة لا يزداد اجتهداً صياماً وصلاةً إلاّ ازداد من الله

(١) «الاعتصام» (١/ ١١٤).

(٢) «الشرية» (٢/ ٩٥١-٩٥٢) رقم (٥٤٦).

(٣) «حلية الأولياء» (٣/ ٩).

بُعْدًا»<sup>(١)</sup>.

فهل تطيب نفس عاقل فضلاً عن المسلم أن يعمل عملاً يبعده عن الله.

ب- أن صاحب البدعة يحرم التوبة غالباً. قال عطاء الخراساني: «ما يكاد الله أن يأذن لصاحب بدعة بتوبة»<sup>(٢)</sup>.

وقال الحسن بن أبي الحسن: «أبى الله تبارك وتعالى أن يأذن لصاحب هوى بتوبة»<sup>(٣)</sup>.  
وقال سفيان الثوري: «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها»<sup>(٤)</sup>.

وقال عطاء: «ما يكاد الله أن يأذن لصاحب بدعة بتوبة»<sup>(٥)</sup>.

وسر ذلك: أن المذنب يحس بأنه عاصي لله، فيتوب ولو بعد حين، أما صاحب البدعة فلا يشعر بأنه ارتكب حراماً، بل يظن أنه يحسن صنعاً فيستمرؤها، ويستمر عليها، فلا يتوب<sup>(٦)</sup>.

ولما كانت هذه المثابة أبداً النبي ﷺ في التحذير منها وأعاد بصيغ متنوعة منها:

١- التحذير بصيغة إياكم: أي احذروا فقال ﷺ: «وإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»<sup>(٧)</sup>.

(١) «البدع» لابن وضاح (٩٢).

(٢) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ١٤١).

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق (١/ ١٣٢) رقم (٢٣٨).

(٥) «ذم الكلام وأهله» (٤/ ١٧٤).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٩-١٠).

(٧) سبق تخرجه.

٢- رد العمل على صاحبه: قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا؛ فهو ردٌّ»<sup>(١)</sup>.

٣- براءة النبي ﷺ من المبتدع في قوله: «فمن رَغِبَ عن سُنَّتِي فليس مِنِّي»<sup>(٢)</sup>.

٤- كثرة تكرار التحذير من البدعة:

أكثر النبي ﷺ من التحذير من البدعة حتى كان ﷺ يحذر منها في كل خطبة كما في حديث جابر بن عبد الله قال: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمَرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش... ويقول: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ...»<sup>(٣)</sup>.

٥- لعن المبتدع: لعن النبي ﷺ المبتدع عموماً كما في حديث علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَهُ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لغيرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ»<sup>(٤)</sup>. وفي المدينة على وجه الخصوص فعن عاصم قال: قلت: لأنس بن مالك «أَحَرَّمَ رسول الله المدينة؟ قال: «نعم ما بين كذا إلى كذا، فمن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً، ولا عدلاً»، قال: فقال ابن أنس: «أو آوى محدثاً»<sup>(٥)</sup>.

ولعن السلف أهل البدع، قال عبد الرحمن بن مهدي: «دخلت على مالك وعنده رجل يسأله عن القرآن، فقال: لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد، لعن الله عمرًا، فإنه يبتدع هذه البدعة من الكلام، ولو كان الكلام علماً لتكلم فيه الصحابة والتابعون، كما

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري مع الفتح (٩/ ١٠٤)، كتاب «النكاح» / باب الترغيب في النكاح. رقم (٥٠٦٣)، ومسلم

(٢/ ١٠٢٠)، كتاب «النكاح» / باب استحباب النكاح لمن تآقت نفسه إليه. رقم (١٤٠١).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) مسلم (٣/ ١٥٦٧)، كتاب «الاضاحي» / باب تحريم الذبح لغير الله تعالى. رقم (١٩٧٨).

(٥) مسلم (٢/ ٩٩٤)، كتاب «الحج» / باب فضل المدينة. رقم (١٣٦٦).

تكلّموا في الأحكام والشرائع، ولكنه باطل يدل على باطل»<sup>(١)</sup>، وكذلك وكيع<sup>(٢)</sup>، ويزيد بن هارون<sup>(٣)</sup>، وابن أبي حاتم<sup>(٤)</sup>، وغيرهم.

(١) «ذم الكلام وأهله» (٤/ ١١٥-١١٦) رقم (٨٧٤).

(٢) «خلق أفعال العباد» للبخاري (٢١) رقم (٤٤).

(٣) «السنة» للخلال (٨٧/ ٥) رقم (١٦٨٨).

(٤) «شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٣٨٢) رقم (٦٤١).

**والدليل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].**

.....

﴿الْيَوْمَ﴾: أي يوم نزول هذه الآية وهو يوم عرفة وقد وافق يوم الجمعة وذلك عام حجة الوداع قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثة وثمانين يومًا.

فعن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب: أن رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: وأي آية؟ قالوا: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، قال عمر: «قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم الجمعة»<sup>(١)</sup>.

وقال الشعبي: «نزلت عليه ورسول الله ﷺ واقف بعرفة حين اضمحل الشرك وهُدم منار الجاهلية، ولم يطف بالبيت عريان»<sup>(٢)</sup>.

﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾: أكملت أي أتممت لكم دينكم ببيان صفات معبودكم، وما يجب له وشرائعه من حلال أو حرام وأمر ونهي وما يستقبلكم مما بعد الموت من حياة البرزخ والبعث واليوم الآخر والجنة والنار.

قال سعيد بن المسيب: «لما قدم عمر بن الخطاب المدينة قام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أيها الناس، إنه قد سُنَّت لكم السنن، وفرضت لكم الفرائض، وتركتم

(١) البخاري مع الفتح (١/ ١٠٥)، كتاب «الإيمان» / باب زيادة الإيمان ونقصانه. رقم (٤٥)، ومسلم

(٤/ ٢٣١٢)، كتاب «التفسير». رقم (٣٠١٧).

(٢) «الإيمان» لأبي عبيد (٦٢).

على الواضحة، إلا أن تضلوا بالناس يميناً وشمالاً»<sup>(١)</sup>.

قال شيخ الإسلام: «وحج النبي ﷺ حجة الإسلام فلما أكملوا الدين، قال عقب ذلك: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٤-٥]. فكان إحلاله الطيبات يوم أكمل الدين فأكماله تحريماً وتحليلاً لما أكملوه امتثالاً»<sup>(٢)</sup> أكمله الله وبينه رسوله ﷺ «فلم يترك شيئاً من أمور الدين: قواعده وأصوله وشرائعه وفصوله إلا بينه وبلغه على كماله وتماه ولم يؤخر بيانه عن وقت الحاجة إليه؛ إذ لا خلاف بين فرق الأمة أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز بحال»<sup>(٣)</sup>.

ووصف الدين بالكمال بيان أنه لا نقص فيه ولا عيب فهو كامل في حسنه وجلالته وأمره ونهيه ومادام كذلك فلا حاجة إلى دين غيره.

وقوله: ﴿لَكُمْ﴾: اللام تفيد اختصاصهم به دون غيرهم ممن لم يؤمن بهذا النبي الكريم. وأضاف الدين إليهم لأنهم هم القائمون به المقيمون له بتوفيق منه سبحانه. فشعورنا بإكمال الله لنا ديننا يجعلنا نفرح ونغتبط به ونشكر الله على هذه النعمة العظيمة، وذلك باتباع أمره واجتناب نهيه وعدم الزيادة والابتداع فيه.

﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾: تتمه كل شيء: ما يكون تمام غايته كقولك: هذه الدراهم تمام هذه المائة<sup>(٤)</sup>.

وأفاد وصف النعمة بالتمام دوامها واتصالها لهم في هذه الدار وفي دار القرار وأتى

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٨٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ١٥٣).

(٣) «درء التعارض» (٧/ ٢٩٦).

(٤) «تهذيب اللغة» (١٤/ ٢٦٠).

ب(على) في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ المؤذنة بشمول نعمته على عباده.

قال ابن جرير: «وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِإِظْهَارِكُمْ عَلَى عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَنَفِيَّ إِيَّاهُمْ عَنْ بِلَادِكُمْ وَقَطْعِي طَمَعَهُمْ مِنْ رَجُوعِكُمْ وَعُودِكُمْ إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرْكِ»<sup>(١)</sup>.

ومن تمام النعمة حَجُّكُمْ بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامِ آمَنِينَ مَطْمَئِنِينَ لَمْ يَخَالِطْكُمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الشَّرْكِ<sup>(٢)</sup>.

فكمل الدين من جهة الشرع بإيجابه ما أوجبه من الواجبات، وما حرم من المحرمات، وأتم الدين من جهة الفعل الذي هو تقويته لهم وإعانتة ونصره إياهم على عدوهم.

﴿نِعْمَتِي﴾: نعمة الله منه وعطاؤه ومنه قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]. قال ابن عباس: النعمة الظاهرة: الإسلام، والباطنة: ستر الذنوب<sup>(٣)</sup>، ولعل النعمة أعم من ذلك، ولكنه فسرها ببعض أجزائها.

وأضاف الله النعمة إليه لأنه هو المنعم بها فهي نعمته حقاً وهم الذين قبلوها بتوفيق منه سبحانه<sup>(٤)</sup>.

وتنقسم النعمة من حيث التقييد والإطلاق إلى قسمين:

١ - نعمة مطلقة: وهي نعمة الإسلام والسنة. النعمة المتصلة بسعادة الأبد قال تعالى:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ

(١) «جامع البيان» (٦/ ٨١).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ١١).

(٣) «تهذيب اللغة» (٣/ ١٠).

(٤) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٠٢).



وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿[النساء: ٦٩].

فهؤلاء الأصناف الأربعة هم أهل النعمة المطلقة وأصحابها أيضًا هم المعنيون بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣].

وهي التي أشار الله إليها بقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، فعلينا أن نلح على الله بطلبها كل حين.

٢- النعمة المقيدة: وهي النعمة المختصة بالدنيا كنعمة الصحة والعافية والمال والأمن والولد وما أشبه ذلك من النعم<sup>(١)</sup>.

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾: رضي «الراء والضاد والحرف المعتل أصل واحد يدل على خلاف السخط»<sup>(٢)</sup>، وقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أي: رضيت لكم الاستسلام لأمري والانقياد لطاعتي دينًا رضيته لكم فلا أسخطه أبدًا. ويستفاد من قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أمران:

١- أن نرضاه لأنفسنا فنحبه بقلوبنا ونقوم بشرائعه شكرًا لله على ما هدانا له ومن عطينا به ونجعله منهجًا نسير عليه في حياتنا.

٢- أن نرضاه لغيرنا فندعوا الناس إليه ونرغبهم فيه.

(١) انظر: «الجيوش الإسلامية» (٣٤-٣٧).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٤٠٢).

**والدليل على موته ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ**

**عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُّمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠ - ٣١].**

.....

هذه الآية استدل بها الصديق عليه السلام على موت النبي مع قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] (١).

﴿إِنَّكَ﴾: إنَّ للتوكيد أي توكيد موته ﷺ والكاف للخطاب فالمخاطب هو رسول الله

ﷺ.

﴿مَيِّتٌ﴾: الموت: «هو فراق الروح البدن» (٢)، وبه ينعدم تصرف الإنسان الذي كان يستطيعه أثناء حياته الدنيا. قال عليه السلام: «إذا مات الإنسانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ...» (٣)، فهذا الحديث «دال على انقطاع الحس والحركة من الميت، وأن أرواحهم ممسكة، وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان فدل ذلك على أنه ليس للميت تصرف في ذاته فضلاً عن غيره، فإذا عجز عن حركة نفسه، فكيف يتصرف في غيره» (٤).

ومعنى مَيِّتٌ: بالتشديد أي: ستموتُ قال الحسن والفراء والكسائي: «المَيِّتُ بالتشديد هو من لم يمِتَ وسيموت، أما بالتخفيف فهو من فارقتَه الحياة» (٥)، وقرئت «إِنَّكَ مَائِتٌ وَإِنَّهُمْ مَائِتُونَ»، ومائِتٌ في المستقبل كثير في كلام العرب (٦).

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١١٨٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١٠ / ١٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «كشف غياهب الظلام» لابن سحمان (٢٣٤).

(٥) «معالم التنزيل» (٧٨ / ٤).

(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (٢٥٤ / ١٥).

وقال ابن عاشور: «المراد بالميت هو الصائر إلى الموت فهو من استعمال الوصف فيمن سيتصف به في المستقبل تنبيهاً على تحقيق وقوعه»<sup>(١)</sup>.

فقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾: أي إنك يا محمد وإياهم ستموتون عما قريب<sup>(٢)</sup>.

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّ مِن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

والإخبار بموته ﷺ توطئة ومقدمة له لئلا يختلفوا في موته كما اختلفت الأمم في غيره.

﴿ثُمَّ﴾: للترتيب والتعقيب؛ وذلك أن الخصومة تكون بعد البعث الذي يعقب الموت.

﴿إِنَّكُمْ﴾: الضمير في إنكم عام يشمل المؤمن والكافر.

﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: أي يوم يقوم الناس لرب العالمين بعد نفخة الصور الأخيرة.

﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾: عند ظرف أي إذا التقيتم عند الله يوم القيامة.

﴿تَخَصُّمُونَ﴾: قال ابن فارس: «خصم: الخاء والصاد والميم أصلان أحدهما

المنازعة»<sup>(٣)</sup>، فالخصومة هي الجدل ورجل خصم أي مجادل شديد الخصومة، واختصموا أي تنازعوا على أمر فتجادلوا فيه كل يريد إثبات حقه على الآخر أو نفيه عنه<sup>(٤)</sup>.

وهذه الخصومة عامة بين الناس يوم القيامة. قال ابن عباس: «يخاصم الصادق الكاذب والمظلوم الظالم والمهتدي الضال والضعيف المستكبر»<sup>(٥)</sup>.

(١) «التحرير والتنوير» (١٢ / ٣٣٨).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٢ / ٢٤).

(٣) «معجم مقاييس اللغة» (٢ / ١٨٧).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (١٤٢٤)، و«اللسان» (١٢ / ١٨٠).

(٥) «جامع البيان» (١ / ٢٤).

قال ابن كثير: «وهذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا فإنها تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة»<sup>(١)</sup>.

يوضحه الزبير بن العوام رحمته الله قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُّمُونَ ﴿[الزمر: ٣٠-٣١]﴾ قال الزبير: «أي رسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: نعم ليكررن عليكم حتى يؤدي إلى كل ذي حق حقه، فقال الزبير: والله إن الأمر لشديد»<sup>(٢)</sup>.  
واستدلال المؤلف بهذه الآية من أجود أنواع الاستدلال وذلك الأمور:

- ١- لما فيها من المؤكدات.
  - ٢- لأن الصديق رحمته الله استدل بها على وفاة النبي ﷺ حين موته.
  - ٣- أن الآية ذكرت ما يلقاه العبد بعد الموت.
  - ٤- أن الآية بينت بعث الأجساد؛ لأن الاختصاص يكون في الألسنة.
- وقد دل الشرع والواقع على وفاة النبي ﷺ ومن ذلك:
- ١- موت جميع الأنفس قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿[الأنبياء: ٣٤-٣٥]﴾ والنبي ﷺ أحد هذه الأنفس.
  - ٢- بيان موت جميع الرسل السابقين وأن محمداً ﷺ سيصيبه الموت كما أصابهم قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١١٨٤).

(٢) أحمد (١/١٦٧)، والترمذي (٥/٣٧٠)، كتاب «تفسير القرآن»/ باب ومن سورة الزمر. رقم (٣٢٣٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

هذه الآية استدل بها أبو بكر على موت النبي ﷺ فقال: «من كان يعبدُ محمدًا ﷺ؛ فإنَّ محمدًا قد مات. ومن كان يعبدُ الله؛ فإنَّ الله حيٌّ لا يموت»، ثم تلا هذه الآية.

قال ابن عباس: «والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها»<sup>(١)</sup>.

٣- كمال الدين وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

لما نزلت هذه الآية بكى عمر، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يُبكيك؟»، قال: يا رسول الله أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل؛ فإنه لم يكمل قط شيء إلا نقص، قال: «صدقت»<sup>(٢)</sup>.

وذكره ابن كثير بلفظ: «فلما نزلت هذه الآية بكى عمر بن الخطاب فقل له ما يبكيك؟ فقال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان».

وعلق على بكاء عمر وقوله، فقال: «وكأنه استشعر وفاة النبي ﷺ»<sup>(٣)</sup>.

٤- نزول سورة النصر على رسول الله ﷺ:

وذلك كما يقول ابن عباس «هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه» وأقره عمر على ذلك فقال: «ما أعلم منها إلا ما تعلم»<sup>(٤)</sup>.

أما أدلة الواقع فكثيرة منها:

١- أن أفقه هذه الأمة الصديق رحمته الله لما رآه بعد موته أثبت موته وبكى. كما روت

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ١٤٥)، كتاب «المغازي» / باب مرض النبي ﷺ ووفاته. رقم (٤٤٥٤).

(٢) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٢٥٠-٢٥١) رقم (١٦٢٥٥)، و«جامع البيان» (٦/ ٨٠).

(٣) «البداية والنهاية» (٨/ ٦)، وقال: «رويناه من طريق جيد».

(٤) سبق تخرجه.

عائشة رضي الله عنها قالت: «أقبل أبو بكر رضي الله عنه على فرسه من مسكنه بالسبح حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة رضي الله عنها، فتيّم النبي صلى الله عليه وسلم وهو مسجى ببرد حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه، فقبله، ثم بكى، فقال: «بأبي أنت وأمي يا نبي الله، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتَّها»<sup>(١)</sup>.

٢- اجتماع الصحابة رضي الله عنهم على غسله والصلاة عليه ودفنه، قال أنس رضي الله عنه قال: «لما ثقل النبي صلى الله عليه وسلم جعل يتغشاه الكرب فقالت فاطمة رضي الله عنها واکرب أباه فقال لها: «ليس على أبیک کرب بعد اليوم»، فلما مات قالت: يا أبتاه أجا رباً دعاها يا أبتاه مَنْ جنة الفردوس مأواه يا أبتاه إلى جبريل نعاها، فلما دفن قالت فاطمة رضي الله عنها: يا أنس! أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب<sup>(٢)</sup>.

ولو كان حياً كحياته الدنيا ما كان مكانه تحت الأرض بل كان فوقها.

٣- مطالبة فاطمة رضي الله عنها بميراثها من أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم: فعن عروة بن الزبير أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أخبرته أن فاطمة رضي الله عنها ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم سألت أبا بكر الصديق بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقسم لها ميراثها مما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أفاء الله عليه فقال لها أبو بكر إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا نُورثُ، ما تركناه صدقة»<sup>(٣)</sup>، ومطالبتها لميراثها من أبيها صلى الله عليه وسلم تدل على جزمها بوفاته.

٤- ما روته عائشة من حالته عند موته قالت: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر على النبي صلى الله عليه وسلم وأنا مسندته إلى صدري، ومع عبد الرحمن سواك رطب يستن به، فأبده رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ١١٣)، كتاب «الجنائز»/ باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه. رقم (١٢٤١، ١٢٤٢).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ١٤٩)، كتاب «المغازي»/ باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته. رقم (٤٤٦٢).

(٣) سبق تخریجه.

بصره، فأخذت السواك فقضته، ونفضته وطيبته، ثم دفعته إلى النبي ﷺ فاستن به، فما رأيت رسول الله ﷺ استن استناناً قط أحسن منه، فما عدا أن فرغ رسول الله ﷺ رفع يده أو إصبعه ثم قال «في الرفيق الأعلى» ثلاثاً، ثم قضى، وكانت تقول: «مات بين حاقتي وذاقتي».

وقالت رحمته الله لابن الزبير: «سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت وهو مسند إليّ ظهره يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى»<sup>(١)</sup>.

٥- أن الصحابة رحمهم الله اجتمعوا واختاروا خليفة من بعده ولو كان حياً كحياته الدنيا ما فعلوا ذلك.

٦- وقع بعض الإشكالات في بعض المسائل العلمية ولم يذهبوا إليه يسألونه عنها قال عمر رحمته الله: «ثلاث، وددت أن رسول الله ﷺ لم يفارقنا حتى يعهد إلينا عهداً: الجَدِّ، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا»<sup>(٢)</sup> ولو كان حياً كحياته الدنيا لذهبوا إليه وسألوه عنها.

(١) البخاري مع الفتح (١٣٨/٨)، كتاب «المغازي» / باب مرض النبي ﷺ ووفاته. رقم (٤٤٣٨) و (٤٤٤٠) و (٤٤٤٩).

(٢) البخاري مع الفتح (٤٥/١٠)، كتاب «الأشربة» / باب ما جاء في أن الخمر ما خامر العقل من الشراب. رقم (٥٥٨٨).

## وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ.

ذكر المؤلف الناس فقط مع أن الحيوانات تبعث أيضاً. لأنهم هم المكلفون المجزيون بأعمالهم.

والبعث: هو الإثارة قال ابن فارس: «الباء والعين والشاء أصل واحد وهو الإثارة. يقال بعثت الناقة إذا أثرتها»<sup>(١)</sup>، ومنه قوله تعالى: ﴿بُعْثَرَمَا فِي الْقُبُورِ﴾ [العاديات: ٩] أي أثير وأخرج<sup>(٢)</sup>.

ومن الأسماء المرادفة للبعث (المعاد - النشور - القيامة)<sup>(٣)</sup>.

واصطلاحاً: هو إخراج الناس من قبورهم أحياء بعد إعادة أبدانهم وإدخال أرواحهم فيها.

## حكم الإيمان بالبعث:

الإيمان بالبعث ركن من أركان الإيمان لا يصح إيمان عبد بدونه. عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس فأتاه رجل فقال: «ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورُسليه، وتؤمن بالبعث»<sup>(٤)</sup>. وقد أجمع العلماء على ذلك. قال أبو حاتم الرازي وأبو زرعة الرازي: «أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازاً وعراقاً وشاماً ويمناً فكان من مذهبهم... والبعث بعد الموت حق»<sup>(٥)</sup> وكذلك نقل الإجماع غيرهما من

(١) «معجم مقاييس اللغة» (١/ ٢٦٦).

(٢) «تهذيب اللغة» (٢/ ٣٣٥).

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (٣/ ١٢٩ و ٩/ ٣٦٠ و ١١/ ٣٣٨).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ١٧٧).



العلماء<sup>(١)</sup>.

### أدلة البعث:

تضافرت الأدلة وتكاثرت وتنوعت وتعددت براهينها في إثبات البعث والمعاد، وصحة وقوعه، ووجوب الإيمان به، حتى نيفت على سبعمائة آية، وأما الأحاديث فلا تحصى إلا بمشقة، بل إن كل آية أو حديث تدل على ما يحصل بعد البعث من حشر وحساب وجزاء وجنة ونار وصراط وميزان ونحو ذلك فهو دال على البعث لأنه لا يمكن وقوعه إلا بعد البعث.

قال شيخ الإسلام: «ذكر الله في كتابه من دلائل المعاد وبراهينه ما لا يقدر أحد أن يأتي بقريب منه، وذكر فيه من أصناف الحجج ما ينتفع به عامة الخلق»<sup>(٢)</sup>.

ويمكن حصر أدلة البعث في أربعة أنواع:

### النوع الأول: الأدلة الخبرية المحضة:

أي ما ورد من الأدلة التي تخبر بوقوع البعث من دون مناقشات عقلية وهذه الأدلة وردت على صفات متنوعة هي:

١ - الإخبار بأن الله سيحيينا بعد أن نموت. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٦].

٢ - عدم قبول اعتذار المجرم يوم البعث. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [٥٥] وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى

(١) انظر: «رسالة إلى أهل الثغر» (٢٨٢)، و«منازل الأئمة الأربعة» (١٢٦)، و«الشرح والإبانة» (٢٠١)،

و«العقيدة الواسطية» (١٩).

(٢) «درء التعارض» (٣٧٤ / ٧).

يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿الروم: ٥٥-٥٧﴾.

٣- إقسام الله على وقوعه:

أقسم الله بذاته المقدسة على وقوع البعث فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧].

اللام في قوله ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ هي لام القسم والنون للتوكيد، أي: والله ليعثنكم من بعد مماتكم<sup>(١)</sup>.

٤- ثناؤه على نفسه المقدسة ومدحه إياها بإعادة الخلق وبعثهم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ بِهِ اللَّهُ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

٥- الإخبار بأن البعث موجب صفات الكمال له سبحانه. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. فأنكر هذا الظن لأنه يتضمن وصفه بما لا يليق به وإنكار موجب صفاته من البعث والجزاء<sup>(٢)</sup>.

٦- أمر النبي ﷺ بالإقسام على وقوعه:

أمر الله نبيه محمداً ﷺ بالإقسام على وقوع البعث في ثلاث آيات من كتابه قال سبحانه: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبا: ٣].

والآية الثالثة آية التغابن التي سيذكرها المؤلف فيما بعد.

(١) انظر: «جامع البيان» (٥/ ١٩١)، و«معالم التنزيل» (١/ ٤٥٨-٤٥٩).

(٢) انظر: «الفوائد» لابن القيم (١٢-١٤).

٧- ذم المكذبين للبعث بخسرانهم وحسرتهم قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۖ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

وشدة ضلالتهم ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

٨- زيارة المقابر قال تعالى: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ ❶ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿[التكاثر: ١-٢]. قال عمر بن عبدالعزيز لما قرأ هذه الآية «ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بُدٌّ من أن يرجع إلى منزله» ❶.

وقال السعدي: «سماهم الله زائرين ولم يسمهم مقيمين فدل ذلك على البعث والجزاء» ❷.

٩- النفخ في الصور، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ ❷ [الزمر: ٦٨]. والنفخ في الصور سبب لحياتهم من جديد وبعثهم من قبورهم، وكل ما ورد فيما يكون بعد البعث من ذكر الحشر والميزان وتطير الصحف والنار والصراط والجنة والقنطرة وغير ذلك.

النوع الثاني: دليل الوجود والعيان (دليل الحس والمشاهدة):

ما يشاهده الناس في حياتهم من أعظم الأدلة الدالة على البعث، وذلك أنه لا أدل على إمكان الشيء من وجوده، ومن ذلك:

١- قصة بني إسرائيل الذين طلبوا رؤية الله في الدنيا فأماتهم الله ثم أحياهم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ❷ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿[البقرة: ٥٥-٥٦].

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠ / ٣٤٦٠) رقم (١٩٤٥٥)، و«حلية الأولياء» (٥ / ٣١٧).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٩٣٣).

٢- قصة القتيل الذي اختصم فيه بنو إسرائيل عند موسى وفيها قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

٣- القوم الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت فأماهم الله ثم أحياهم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

٤- إحياء الطيور التي ذبحهن إبراهيم عليه السلام وقطعهن وخلط أجزاء بعضهن مع بعض ثم فرق أجزاءهن على الجبال وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنٌ قَالِ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

٥- إماتة الرجل الذي مر بالقرية الهامدة فاستبعد حياتها من جديد فأماته الله مائة عام، وأمات حماره معه، ثم بعثه وبعث حماره، وفي ذلك يقول الرب تبارك وتعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ...﴾ إلى قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

### النوع الثالث: دليل الاعتبار والقياس بطريق الأولى:

وقد ورد هذا النوع بعدة صور هي:

١- قياس البعث على إحياء الأرض الميتة قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وفي آية فاطر: ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝١ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ﴾

الْخُرُوجُ» [ق: ٩-١١] أي كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات كذلك نخرج الموتى من قبورهم بعدما كانوا رفاة متمزقين فمنكر البعث استبعاداً له مع أنه يرى ما هو نظيره من باب العناد وإنكار المحسوسات<sup>(١)</sup>.

فدلهم سبحانه بما أراهم من الإحياء الذي تحققوه وشاهدوه على الإحياء الذي استبعدوه.

٢- أن القادر على الخلق قادر على الإعادة من باب أولى قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

ولما اعترض ذلك المشرك على البعث استبعاداً له جاء الرد عليه بأن الذي خلقه أول مرة قادر على إعادته فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

قال الشنقيطي: «ولأجل قوة دلالة هذا البرهان المذكور على البعث بين جل وعلا أن من أنكر البعث فهو ناسٍ للإيجاد الأول كقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾»<sup>(٢)</sup>.

٣- أن قدرة الله على خلق الأعظم دليل على قدرته على ما هو دونه من باب أولى: وذلك أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس كما قال سبحانه: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

فلما كان خلق الناس أصغر وأقل شأنًا من خلق السموات والأرض صار خلقهما دليلاً على بعث الناس من قبورهم كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٢٩).

(٢) «أضواء البيان» (٥/ ١٩-٢٠).

وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ [الأحقاف: ٣٣].

٤ - إمكان إيجاد الشيء من نقيضه دال على إحياء الموتى: النار ذات حرارة ويوسنة، والشجر الأخضر ذو رطوبة وبرودة فإذا أخرج الله النار الحارة اليابسة من الشجر الأخضر الرطب البارد مع تضادهما فإخراجه للموتى من قبورهم من باب أولى.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ [يس: ٧٨-٨٠].

«فالقادر على أن يخلق من الشجر الأخضر ناراً أولى بالقدرة أن يخلق من التراب حيواناً فإن ذلك معتاد»<sup>(١)</sup>.

#### النوع الرابع: دليل الأسماء والصفات:

معرفة أسماء الله وصفاته من أبين الأدلة على البعث وذلك أن الله سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه وكمال قدرته وكمال حكمته.

فأما تقريره بذكر كمال علمه فكما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كَنْزٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

«فالذي لا يخفى عن علمه مثقال الذرة فما دونه في جميع الأوقات، ويعلم ما تنقص

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ٣٤).

الأرض من الأموات وما يبقى من أجسادهم قادرٌ على بعثهم من باب أولى، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط»<sup>(١)</sup>.

وأما تقرير كمال قدرته فبيان سهولة البعث ويسره عليه سبحانه فقال: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧] وقوله: ﴿بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ﴾ [القيامة: ٤].

وأما تقرير كمال حكمته ففي قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

فمن كمال حكمته أن يعيد الناس مرةً أخرى فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته<sup>(٢)</sup>.

### كيفية البعث:

يفنى جسم الإنسان وتحلل أجزائه ولا يبقى منها إلا عَجْبُ الذَّنْبِ فينزل الله مطراً كمني الرجال فينبت الناس كما ينبت البقل حتى تكتمل أجسادهم، ثم ينفخ إسرافيل في الصور نفخة القيام فيقوم الناس لرب العالمين، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْفِنُهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

﴿كَذَلِكَ﴾: أي «الذي أحيا الأرض بعد موتها ينشر الأموات من قبورهم بعدما مزقهم البلى فيسوق إليهم مطراً كما ساقه إلى الأرض الميتة فينزله عليهم فتحيا الأجساد والأرواح من القبور، ويأتون للقيام بين يدي الله ليحكم بينهم»<sup>(٣)</sup>.

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٦٧٥).

(٢) انظر لأدلة البعث: «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ٣٢-٣٥)، و(٧/ ٣٧٤-٣٨١)، و«إعلام الموقعين» (١/ ١٣٨-١٤٨)، و«الفوائد» (٦-٧) وغيرها.

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٨٠٤-٨٠٥).

ويوضحه قول النبي ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ»، قال: أربعون يوماً؟ قال: «أبيتُ»، قال: أربعون شهراً؟ قال: «أبيتُ» قال: أربعون سنة؟ قال: «أبيتُ». قال: «ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْماً وَاحِداً، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup>.

وفي رواية: «يُنْزِلُ اللَّهُ مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوْ الظِّلُّ (نعمان الشاك)، فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ...»<sup>(٢)</sup>.

قال النووي: «والأصح الطل بالمهملة وهو الموافق للحديث الآخر أنه كمني الرجال»<sup>(٣)</sup>.

### بعث الأجساد:

بين الله في كتابه الكريم وعلى لسان رسوله ﷺ أمر معاد الأجساد والأرواح بياناً في غاية التمام والكمال<sup>(٤)</sup>.

أدلة ذلك كثيرة منها:

١ - بعث الإنسان بنفس أجزائه التي كان عليها في الدنيا: قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٨٩-٦٩٠)، كتاب «التفسير» / باب: ﴿يَوْمَ يُفْخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾. رقم (٤٩٣٥)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٠-٢٢٧١)، كتاب «الفتن وأشراط الساعة» / باب ما بين النفختين. رقم (٢٩٥٥).

(٢) مسلم (٤/ ٢٢٥٨-٢٢٥٩)، كتاب «الفتن وأشراط الساعة» / باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض. رقم (٢٩٤٠).

(٣) «شرح النووي على مسلم» (٩/ ٣٣١).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣١٤).



خَلَقَ نَعِيدُهُ» [الأنبياء: ١٠٤].

«الإعادة التي أخبر الله بها هي الإعادة المعقولة في هذا الخطاب وهي الإعادة التي فهمها المشركون والمسلمون عن رسول الله ﷺ وهي التي يدل عليها لفظ الإعادة. والمعاد هو الأول بعينه»<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نَفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

قال السعدي: «أي قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح وشخصت أبصارهم ينظرون ماذا يفعل الله بهم»<sup>(٢)</sup>، ثم يسرون مسرعين إلى أرض المحشر. قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

٢- بعث الإنسان بنفس حاله التي مات عليها، ويدل لذلك حديث الذي وقصته راحلته وهو محرم فقال رسول الله ﷺ: «اغسلوه بماءٍ وسِدْرٍ وكفّنوه في ثوبَيْهِ، ولا تُحْمَرُوا رَأْسَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَبِّيًا»، وفي رواية: «ولا تمسوه بطيب؛ فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَبَّدًا» وفي رواية: «فإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ يَهْلُ»<sup>(٣)</sup> والتلبية والتهليل والتلبيد صفات وأفعال الإنسان الحي بروحه وجسده.

وقوله: «لا تُحْمَرُوا رَأْسَهُ» دليل على أن الرأس نفسه هو الذي يعاد مرة أخرى ففيه دليل على إعادة أبدان العباد نفسها.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٥٥).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٧٢٩).

(٣) البخاري مع الفتح (٣/ ١٣٧)، كتاب «الجنائز»/ باب كيف يكفن المحرم. رقم (١٢٦٧، ١٢٦٨)، ومسلم (٢/ ٨٦٥-٨٦٧)، كتاب «الحج»/ باب ما يفعل بالمحرم إذا مات. رقم (١٢٠٦)، واللفظ له.

### ٣- شهادة جوارح الإنسان عليه:

شهادة جوارح الإنسان عليه من أبين الأدلة على إعادة جسد العبد نفسه مرة أخرى.  
قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾  
[يس: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ وَقَالُوا لِمَ لُجُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ ۚ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ ۚ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠-٢٢].

هذه الآية دليل على بعث أجساد الناس من وجهين:

أ- أن الله أضاف السمع والأبصار والأيدي والأرجل والجلود إليهم، فدل على أنها هي جلودهم التي كانت في الدنيا ولذلك قبلت شهادتها.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟»، قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مُحَاطِبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ: يَا رَبِّ! أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قال: يقول: بلى. قال: فيقول: فَإِنِّي لَا أَجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانِه: انطُقي، قال: فتَنطِقُ بأعماله. قال: ثُمَّ يُحَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قال: فيقول: بُعْدًا لَكَنٍّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أَنَا ضِلٌّ»<sup>(١)</sup>.

ب- أن المقام مقام إظهار العدل فلا يمكن أن تشهد بما لم تعمل، فدل نطقها واعترافها بالعمل الذي باشرته أنها هي نفسها التي كانت في الدنيا.

(١) مسلم (٤/ ٢٢٨٠ - ٢٢٨١)، كتاب «الزهد والرقائق». رقم (٢٩٦٩).

٤ - عقوبة الجوارح: عقوبة أجزاء البدن يوم القيامة في النار دليل واضح على بعث الأجساد التي كانت في الدنيا كما قال تعالى عن عقوبة مانعي الزكاة ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥] إذ كيف تعذب أجساد لم تعص.

ولذلك أجمع عليه أهل السنة والجماعة.

قال أبو الحسن الأشعري: «وأجمعوا على أن الأجساد التي أطاعت وعصت هي التي تبعث يوم القيامة»<sup>(١)</sup>.

وقال شيخ الإسلام: «ومعاد الأبدان متفق عليه عند المسلمين واليهود والنصارى»<sup>(٢)</sup>.

(١) «رسالة إلى أهل الثغر» (٢٨٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨٢/٤)، و«الجواب الصحيح» (١٠/٦)، وانظر: «إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات» للشوكاني (١٠-١٤).

**والدليل قوله تعالى:** ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]. **وقوله تعالى:** ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۖ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧- ١٨].

.....

﴿مِنْهَا﴾: الضمير يعود إلى الأرض ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾: أي أن الله خلقنا أول مرة من الأرض فأنشأنا أجسامًا ناطقة، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥] وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠].

قال الشنقيطي: «والتحقيق أن معنى خلقه الناس من تراب أنه خلق أباهم آدم منه، ولما خلق أباهم من تراب وكانوا تبعًا له في الخلق صدق عليهم أنهم خلقوا من تراب»<sup>(١)</sup>.

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾: أي بعد موتكم نعيدكم في الأرض فنصيركم ترابًا كما كنتم قبل إنشائنا لكم بشرًا سويًا.

«وجاء بـ «في» دون «إلى» للدلالة على الاستقرار»<sup>(٢)</sup>.

قال قتادة: «خلقكم من التراب وإلى التراب تعودون»<sup>(٣)</sup>.

﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾: أي من الأرض نخرجكم يوم القيامة فننشئكم منها كما أنشأناكم أول مرة ونرد عليكم أرواحكم وهذا إخراج ليس بعده وفاة.

﴿تَارَةً أُخْرَى﴾: أي مرة أخرى يوم بعثكم إذا نفخ في الصور النفخة الثالثة.

وفي هذه الآية دلالة صريحة على بعث الأجساد ورد الأرواح إليها كما كانت قبل الموت<sup>(٤)</sup>.

(١) «أضواء البيان» (٤/ ٤٢٤).

(٢) «فتح القدير» (٣/ ٣٧٠).

(٣) «الكشف والبيان» (٤/ ٢٢٨).

(٤) انظر: «فتح القدير» (٣/ ٣٧٠).

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾: أي والله أنشأكم من تراب الأرض فخلقكم منه و«استعير النباتات للإنشاء لكونه أدل على الحدوث والتكوين»<sup>(١)</sup>. وقيل: جعلكم تنبتون نباتًا. ﴿نَبَاتًا﴾: اسم جعل في موضع المصدر أي إنباتًا<sup>(٢)</sup> كأنه قال: أنبتكم فنبتُ نباتًا والنبات ما يخرج حالًا بعد حال.

﴿ثُمَّ﴾: تفيد التراخي والترتيب.

﴿يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾: أي يعيدكم في الأرض بعد موتكم وتصيرون ترابًا كما كنتم.

﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾: أي يخرجكم أحياءً ببعثكم (يوم القيامة).

﴿إِخْرَاجًا﴾: أكد الإخراج بالمصدر ليدل على أن ذلك واقع لا محالة.

وميزة هذين الدليلين أن الله ذكر فيهما الدور الثلاث وهي الدنيا، فقال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾، ثم دار البرزخ فقال: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ ثم ذكر الدار الآخرة التي تكون بعد النفخ في الصور، فقال: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

وأما الدليل الثاني: فإن الله قال عن الدنيا: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾، وعن البرزخ:

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾، وعن الآخرة قال: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

(١) «فتح القدير» (٦/ ٢٩٨).

(٢) «معالم التنزيل» (٨/ ٢٣١).

## وَبَعْدَ الْبَعَثِ مُحَاسِبُونَ.

وقبل الحديث عن الحساب يحسن ذكر حالة الناس عند استلام صحف أعمالهم، وبِمَ يستلمونها؟

فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ: فيأخذون صحفهم بأيانهم فرحين بها تكرمةً من الله تعالى لهم. قال تعالى عنهم: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ (٧) ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧-٩] بل ومن شدة فرحه بها يدعو الناس ليقرواوها، مع أن كلاً منهم مشغول بنفسه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ فيقول هَؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَّةً﴾ [الحاقة: ١٩].

وَأَمَّا الْكُفَّارُ: فيستلمون كتبهم بشمائلهم من وراء ظهورهم أسفين حزينين، داعين على أنفسهم بالويل والثبور.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ فيقول يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَّةً﴾ [الحاقة: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ (١٠) ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ [الانشقاق: ١٠-١١].

والحكمة من كونهم يستلمون صحفهم بشمائلهم من وراء ظهورهم: لأنهم لما استدبروا كتاب الله، وولّوا ظهورهم إياه في الدنيا صار من العدل أن تجعل كتب أعمالهم يوم القيامة خلف ظهورهم فتخلع أيديهم الشمال حتى تكون من الخلف<sup>(١)</sup>.  
الحساب لغة: العدُّ والإحصاء بالدقة التامة دون زيادة أو نقصان<sup>(٢)</sup>.

اصطلاحاً: إطلاع العباد على أعمالهم يوم القيامة.

(١) «شرح الواسطية» للعثيمين (٢/ ١٥١).

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (٤/ ٣٢٨-٣٣٦).

أدلة إثبات الحساب كثيرة وجاءت بصيغ متعددة ومنها:

١ - بيان سرعة الله للحساب قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعٌ

الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١].

٢ - كفايته في الحساب قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً

وإن كانت مثقال حبة من خردل أثناً بها وكفى بنا حسنين﴾ [الأنبياء: ٤٧].

٣ - بيان يسره على بعض الناس قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ﴿٧﴾ ﴿فَسَوْفَ يَحَاسِبُ

حِسَاباً يَسيراً﴾ [الانشقاق: ٧-٨].

٤ - بيان سوءه على بعض الناس قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ

يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمُ

جَهَنَّمُ وَيُسَّ إِلَهُادُ﴾ [الرعد: ١٨].

٥ - مدح الذين يخافون هول الحساب وسوءه قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ۚ أَنْ

يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

٦ - توعده من نسيه بالعذاب الشديد قال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ

فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا

نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وقت الحساب: هو يوم القيامة بعد أن يخرج الناس من قبورهم ويحشرون لفصل

القضاء، ويدل له قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ

يُنْذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢٢-٢٣] أجمع أهل العلم أن مجيء الله لفصل القضاء

بين عباده يوم القيامة بدليل قوله: ﴿وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ فإن المجيء بجنهم لا يكون في

الدنيا وإنما يكون يوم القيامة.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].  
 وحديث عائشة أَنَّ النبي ﷺ قال: «ليس أحدٌ يُحاسبُ يومَ القيامةِ إلَّا هلك...»<sup>(١)</sup>.  
 وحديث أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحاسبُ به العبدُ يومَ القيامةِ من عمله صلاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ»<sup>(٢)</sup>.  
 المحاسب للخلق:

دلت الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أن المحاسب للخلق هو الله وحده تبارك وتعالى ومن ذلك:

قوله تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ في شأن الذين لم يقبلوا هدى الله: ﴿فَاتِمَّا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] فجعل سبحانه مهمة البلاغ إلى النبي ﷺ وأما الحساب فجعله من شأنه وحده.

وهي كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۖ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦] ووصف حسابه لعباده بالسرعة فقال: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

(١) البخاري مع الفتح (١١ / ٤٠٠)، كتاب «الرقاق» / باب من نوقش الحساب عذب. رقم (٦٥٣٧)، ومسلم (٤ / ٢٢٠٤)، كتاب «الجنة وصفة نعيمها» / باب إثبات الحساب. رقم (٢٨٧٦).  
 (٢) الترمذي (٢ / ٢٦٩-٢٧٠)، كتاب «الصلاة» / باب ما جاء في أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة. رقم (٤١٣)، وقال: «حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه عن أبي هريرة، وفي الباب عن تميم الداري»، والنسائي (١ / ٢٣٢)، كتاب «الصلاة» / باب المحاسبة على الصلاة، ولهذا الحديث طرق كثيرة، انظر: «تعظيم قدر الصلاة» (١ / ٢١٠-٢١٦)، منها: ما رواه النسائي (١ / ٢٣٤)، كتاب «الصلاة» / باب المحاسبة على الصلاة، وأحمد (٤ / ٦٥)، ولكن بدلاً من (أبي هريرة): «رجل من أصحاب النبي ﷺ»، قال ابن رجب: «إسناده جيد». «فتح الباري» (٣ / ٣٦١).



أي حسابهم واقع لا محالة، وكل واقع فهو سريع، وسرعة حساب الله أنه لا يشغله حساب أحد عن آخر؛ لأنه لا يشغله سمع عن سمع ولا شأن عن شأن ومن السنة قوله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلَّا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلَّا ما قدَّم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلَّا ما قدَّم، وينظر بين يديه؛ فلا يرى إلَّا النار تلقاء وجهه، فاتَّقوا النار ولو بشقِّ تمرٍ»<sup>(١)</sup>.

وقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيُضِعُّ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيُسْتَرُّهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ؛ أَيُّ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ أَوِ الْمُنَافِقُ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]»<sup>(٢)</sup>.

وقد اتفق العلماء «على أن الله سبحانه يتولى الحساب بين خلقه يوم القيامة في حالة واحدة»<sup>(٣)</sup> وقوله في حالة واحدة أي في ساعة واحدة<sup>(٤)</sup>.

وحساب الناس على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: المؤمنون الخُلصُّ وهؤلاء لا يحاسبون لما ورد في حديث السَّبْعِينَ أَلْفًا: «أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»<sup>(٥)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٧٤)، كتاب «التوحيد»/ باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم. رقم (٧٥١٢)، ومسلم (٢/ ٧٠٣-٧٠٤)، كتاب «الزكاة»/ باب الحث على الصدقة. رقم (١٠١٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «رسالة السجزي لأهل زبيد» (١٦٨) وانظر: أصول السنة لابن أبي زمنين (١١٧)، و«منازل الأئمة الأربعة» (١٢٢)، و«مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٨٦).

(٤) «درء التعارض» (٤/ ١٢٩-١٣٠).

(٥) سبق تخريجه.

الصنف الثاني: بقية المؤمنين دون السبعين ألفاً فهؤلاء يحاسبون حساب من توزن حسناته وسيئاته فترجح إحداهما بالأخرى، والموزون هو الأعمال والعامل والصحف. ويدل على وزن الصحف قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَزِنُ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُنْشَرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتَنْكَرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا، أَظْلَمْتُكَ كَتَبْتِي الْحَافِظُونَ، قَالَ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَيْكَ عَذْرَ أَوْ حَسَنَةً، فَيَبْهَتُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بَطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: أَحْضَرُوهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبَطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ، فَيَقَالُ: إِنَّكَ لَا تَظْلَمُ، قَالَ: فَتَوْضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ، قَالَ: فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ، وَثَقُلَتِ الْبَطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ»<sup>(١)</sup>.

أما وزن العامل فيدل له قول النبي ﷺ: «إِنَّهُ لَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ الْعَظِيمِ السَّمِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزَنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ»، وقال: اقرءوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]<sup>(٢)</sup>.

(١) أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي (٥/ ٢٤-٢٥)، كتاب «الإيمان» / باب فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله. رقم (٢٦٣٩)، وقال: «حديث حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٧)، كتاب «الزهد» / باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة. رقم (٤٣٠٠)، وابن حبان في «صحيحه» (١/ ٤٦١) رقم (٢٢٥)، و«جزء في البطاقة» للكتاني (٣٤)، وقال: «ولا أعلمه روي عن غير الليث بن سعد، وهو من أحسن الأحاديث»، قال الذهبي: «إسناده جيد». «معجم الشيوخ» (١/ ١١٤)، وقال ابن ناصر الدمشقي: «حديث جيد الإسناد». «منهاج السلامة في ميزان القيامة» (٥١).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٤٢٦)، كتاب «التفسير» / باب: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَنُحِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾. رقم (٤٧٢٩)، ومسلم (٤/ ٢١٤٧)، كتاب «صفة القيامة والجنة والنار». رقم (٢٧٨٥).

وحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «أنه كان يجتني سواكاً من الأراك، وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه فقال رسول الله ﷺ: «مِمَّ تضحكون؟»، قالوا: يا نبي الله! من دقة ساقيه، فقال: «والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد»<sup>(١)</sup>.

أما وزن العمل: فيدل له قول النبي ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده»<sup>(٢)</sup>، وقول النبي ﷺ: «الحمد لله تملأ الميزان»<sup>(٣)</sup> وقوله ﷺ: «ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق»<sup>(٤)</sup>. وفي رواية: «وليس شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق»<sup>(٥)</sup>.

قال ابن باز: توزن الأعمال والصحف والعامل ولكن الثقل والخفة بحسب العمل<sup>(٦)</sup>.

(١) أحمد (١/ ٤٢٠-٤٢١)، قال ابن كثير: «إسناده جيد قوي». «النهاية في الفتن والملاحم» (٢/ ٢٨-٢٩).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٥٣٧)، كتاب «التوحيد»/ باب قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾، وأن أعمال بني آدم وقولهم يوزن. رقم (٧٥٦٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٢)، كتاب «الذكر»/ باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء. رقم (٢٦٩٤).

(٣) مسلم (١/ ٢٠٣)، كتاب «الطهارة»/ باب فضل الوضوء. رقم (٢٢٣).

(٤) أحمد (٦/ ٤٤٦)، و«الأدب المفرد» (١٠٠) رقم (٢٧٠)، وأبو داود (٥/ ١٤٩-١٥٠)، كتاب «الأدب»/ باب في حسن الخلق. رقم (٤٧٩٩). قال ابن مفلح: «إسناده جيد». «الأدب الشرعية» (٢/ ٢٠٦).

(٥) أحمد (٦/ ٤٥١)، والترمذي (٤/ ٣٦٢-٣٦٣)، كتاب «البر والصلة»/ باب ما جاء في حسن الخلق. رقم (٢٠٠٢)، وقال: «وفي الباب عن عائشة، وأبي هريرة، وأنس، وأسامة بن شريك، وهذا حديث حسن صحيح».

(٦) «شرح الواسطية» المطبوع مع «التنبيهات اللطيفة» (٤٠).

الصنف الثالث: هم الكفار قال بعض أهل العلم: إنهم يحاسبون واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣] وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَكَوِيَةً﴾ [القارعة: ٨-٩].

وقيل: لا يحاسبون واستدلوا بقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١] ف قيل: إنهم لم يحاسبوا، بل حملوا وأخذوا بالنواصي والأقدام، وفي الحديث: «أما الكافرون والمنافقون فيقول الأشهاد: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾» [هود: ١٨] (١).

وجمع بين هذين القولين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال: «وفصل الخطاب أن الحساب يُرادُ به عرضُ أعمالهم عليهم وتوبيخهم عليها ويراد بالحساب موازنة، الحسنات بالسيئات، فإن أريد بالحساب المعنى الأول فلا ريب أنهم يُحاسبون بهذا الاعتبار، وإن أريد بالمعنى الثاني فإن قصد بذلك أن الكفار تبقى لهم حسنات يستحقون بها الجنة فهذا خطأ ظاهر، وإن أريد أنهم يتفاوتون في العقاب فعقاب من كثرت سيئاته أعظم من عقاب من قلت سيئاته، ومن كان له حسنات خُفِّفَ عنه العذاب، كما أن أبا طالبٍ أخفَّ عذاباً من أبي لهب قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧] والنار دركات فإذا كان بعض الكفار عذابه أشدَّ عذاباً من بعض لكثرة سيئاته وقلة حسناته كان الحساب لبيان مراتب العذاب لا لأجل دخولهم الجنة» (٢).

(١) سبق تخريجه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣٠٥-٣٠٦).

## ثمرات الإيمان بالحساب والجزاء:

للإيمان بالحساب والجزاء ثمرات عظيمة يجدها المسلم في نفسه أو في غيره.  
ومن لم يجد هذه الثمرات أو بعضها فإنما ذلك لخلل في إيمانه ومن هذه الثمرات:

## ١ - إخلاص العمل لله:

من أيقن بالحساب والجزاء أوجب له ذلك إخلاص العمل؛ لأنه يعلم علم اليقين أن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً. قال ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال: «من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»<sup>(١)</sup>.

قال الحسن رحمه الله: «رحم الله عبداً وقف عند هممه، فإنه ليس من عبدٍ يعمل حتى يهيم فإن كان خيراً أمضاه، وإن كان شراً كف عنه»<sup>(٢)</sup>.

## ٢ - الحياء من الله:

إذا استشعر العبد أن الله سيسأله عن غدراته وفجراته أوجب له ذلك الحياء منه ومن ثم ابتعد عن الذنب. قال علقمة بن مرثد لما احتضر الأسود بكى، فقيل له: ما هذا الجزع؟ فقال: مالي لا أجزع والله لو أتيت بالمغفرة من الله لأهمني الحياء منه مما قد صنعت. إن الرجل ليكون بينه وبين آخر الذنب الصغير فيعفو عنه فلا يزال مستحيياً منه»<sup>(٣)</sup>.

## ٣ - فعل الطاعات والحرص عليها:

من علم أن الله قد أحصى عليه كل شيء وسيخبره بها كلها ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] وقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] أوجب له ذلك فعل الطاعة حذراً من الحساب، قال علي بن أبي طالب

(١) سبق تخريجه.

(٢) «المصنف» لابن أبي شيبه (١٣/ ٤٩٨) رقم (١٧٠٣٦).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٢).

رحمته: «ارتحلت الدنيا مُدبرةً، وارتحلت الآخرة مُقبلة، ولكل واحدٍ منهما بُنُونٌ، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنَّ اليومَ عملٌ ولا حسابٌ، وغداً حسابٌ ولا عملٌ»<sup>(١)</sup>.

وقال سهل بن عبدالله: «المؤمن من راقبَ ربُّه وحاسبَ نفسه وتزوَّد لمعاده»<sup>(٢)</sup>.

#### ٤ - البعد عن المعاصي:

من أخطر ما يضر العبدَ المعاصي فإنَّ لها من الله طالباً قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨]، والمعاصي خِطْرَةٌ على المسلم، وإن كانت من الصغائر. ولخطورتها حذر منها النبي ﷺ فقال: «إياكم ومحقرات الذنوب، كقوم نزلوا في بطن وادٍ، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى أنضجوا خبزَهم، وإنَّ محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تُهْلِكُهُ»<sup>(٣)</sup>.

وقال ﷺ محذراً أمنا عائشة رضي الله عنها: «إِيَّاكَ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّ لَهَا مِنْ اللَّهِ طَالِبًا»<sup>(٤)</sup>. وقال عمر رضي الله عنه محذراً أحد عماله من أن تغرَّه الإمارة فيتبع هواه «حاسبَ نفسك في الرِّخاءِ قبل حساب الشدة فإنه من حاسبَ نفسه في الرِّخاءِ قبل حساب الشدة عاد مرجعه إلى الرضى، ومن ألهته حياته وشغلته أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والحسرة»<sup>(٥)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (١١ / ٢٣٥)، كتاب «الرقاق» / باب في الأمل وطوله.

(٢) «حلية الأولياء» (٦ / ١٩٧).

(٣) أحمد (٥ / ٢٣١)، قال المنذري: «رواه أحمد ورواته محتج بهم في الصحيح». «الترغيب والترهيب»

(٣ / ٣١٢)، وقال ابن حجر: «أخرجه أحمد بسند حسن». «فتح الباري» (١١ / ٣٢٩).

(٤) أحمد (٦ / ٧٠)، وابن ماجه (٢ / ١٤١٧)، كتاب «الزهد» / باب ذكر الذنوب. رقم (٤٢٤٣)، والنسائي

في «الكبرى» (١٠ / ٣٩٢) رقم (١١٨١١)، وقال البوصيري: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

«مصباح الزجاجة» (٤ / ٢٤٥) رقم (٦١٥١).

(٥) «محاسبة النفس» لابن أبي الدنيا (٥٩).

## ٥ - القناعة بالرزق:

وذلك بعلمه أنّ حلال الدنيا حسابٌ وأنّ حرامها عذاب فيكتفي بما يكفيه من النفقة لكي يسهل عليه الحساب وذلك أن مَنْ قَلَّتْ دُنياه خَفَّ حسابُه، قال ﷺ: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً»<sup>(١)</sup>.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أتعلم أول زمرة تدخل الجنة من أمتي؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، فقال: «المهاجرون يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة ويستفتحون، فيقول لهم الخزنة: أَوْ قَدْ حوسبتم، فيقولون: بأي شيء نحاسب، وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا في سبيل الله حتى متنا على ذلك، قال: فيفتح لهم فيقبلون فيه أربعين عاماً قبل أن يدخلها الناس»<sup>(٢)</sup>.

## ٦ - محاسبة النفس في هذه الدنيا:

أمر الله بمحاسبة النفس في هذه الدنيا ليخف حساب الآخرة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

ولقد فقه السلف هذه الآية فصار ديدنهم محاسبة أنفسهم في الدنيا؛ لأجل أن يخف حسابهم في الآخرة ومن أقوالهم في ذلك:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حاثاً على المحاسبة: «حاسبُوا أَنْفُسَكُمْ قبل أن تُحاسبوا وزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قبل أن تُوزَنوا؛ فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غَدًا أَنْ تُحاسبوا أَنْفُسَكُمْ، وَتَزِينُوا لِلْعَرَضِ الْأَكْبَرِ، يَوْمَئِذٍ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ»<sup>(٣)</sup>.

(١) مسلم (٢٢٨٥/٤)، كتاب «الزهد والرقائق». رقم (٢٩٧٩).

(٢) «المستدرک» للحاكم (٨٠/٢)، وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وقال الألباني:

«على شرط مسلم». «السلسلة الصحيحة» (٢/٥٣٢-٥٣٣) رقم (٨٥٣).

(٣) «الزهد» لأحمد (١٤٩)، و«محاسبة النفس» (٢٢).

وقال الحسن البصري مبيناً حال المؤمنين في المحاسبة عند قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقِيمُ بِالنَفْسِ أَلْوَامَةً﴾ [القيامة: ٢] «لا تلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟»<sup>(١)</sup>.

وقال الفضيل بن عياض: «المؤمن يحاسب نفسه ويعلم أنَّ له موقفاً بين يدي الله تعالى، والمنافق يغفل عن نفسه فرحم الله عبداً نظر لنفسه قبل نزول الموت»<sup>(٢)</sup>.

وقال ميمون بن مهران: «لا يكون الرجل نقياً حتى يحاسب نفسه محاسبة شريكه، وحتى يعلم من أين ملبسه ومطعمه ومشربه»<sup>(٣)</sup>.

#### ٧- سرعة التوبة إلى الله:

من آمن بالحساب غداً قاده ذلك إلى الإسراع بالتوبة؛ لعل الله أن يعفو عنه.

قال الحسن البصري: «إن المؤمن قوامٌ على نفسه يحاسب نفسه الله عز وجل، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن... يفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ما أردت إلى هذا مالي ولهذا، والله لا أعود إلى هذا أبداً»<sup>(٤)</sup>.

(١) «محاسبة النفس» (٢٤).

(٢) «تاريخ بغداد» (٤/ ١٨٤).

(٣) «الزهد» لوكيع (٢/ ٥٠١-٥٠٢) رقم (٢٣٩).

(٤) «الزهد» لابن المبارك (١٠٣) رقم (٣٠٧)، و«محاسبة النفس» (٣٢)، و«حلية الأولياء» (٢/ ١٥٧).



**وَمَجْزِيُونَ بِأَعْمَالِهِمْ. والدليل قوله تعالى:** ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

الجزاء: الجزاء هو المكافأة على الشيء ثواباً أو عقاباً<sup>(١)</sup>.

ففي العقاب جزاؤه أي: عقوبته، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤] أي فما عقوبته إن كنتم كاذبين وقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورَ﴾ [سبأ: ١٧]. فيكون جزاءه بذنبه: أي عاقبه عليه بما يستحق ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ يُجْزَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١].

وفي الثواب: جزاءه على طاعته: أي: أثابه عليها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٤]. ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

﴿سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ٧٩-٨٠].

وجمع الله الجزائين بقوله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [١٧٢] فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٢-١٧٣].

(١) انظر: «تهذيب اللغة» (١١/١٤٢) (جزى) و«القاموس المحيط» (١٦٤٠).

أدلة إثبات الجزاء من الكتاب والسنة كثيرة جداً وجاءت بصيغ متعددة منها:

### ١ - بيان كيفيته وصفته:

ذكر الله صفة جزاء المجرمين فقال: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سُرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَتَعَثَّى وُجُوهُهُمْ النَّارُ ۚ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٤٩-٥١]. وبينها رسول الله ﷺ، فقال: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»، قيل: يا رسول الله، فالإبل؟ قال: «ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها، ومن حقها حلبها يوم وردها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت، لا يفقد منها فصيلاً واحداً، تطؤه بأخفافها، وتعضه بأفواهها، كلما مرّ عليه أو لاها ردّ عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار...»<sup>(١)</sup>.

### ٢ - بيان توفية العبد جزاء ما عمل:

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۚ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۚ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ [النجم: ٣٩-٤١].

### ٣ - تهديد الكافر به:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، وقال:

(١) مسلم (٢/ ٦٨٠)، كتاب «الزكاة» / باب إثم الزكاة. رقم (٩٨٧).

﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِقُونَ عَنَّا آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٨-٣٩].

وقال: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، فهذا مختص بالكفار وهو الوعيد المتضمن الجزاء على الأعمال<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - إطماع المؤمنين بالجزاء الحسن:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٣-٣٥].

وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦-١٧]، وقال سبحانه: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١].

#### ٥ - أن الجزاء هو مقتضى العدل والحكمة:

وذلك أن الله فرق بين المحسن والمسيء فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الحج: ٢١-٢٢].

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

الحكمة من الحساب والجزاء: هو إظهار كمال عدل الله تعالى وفضله فأما عدله فحيث

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/٥٩٣).

يثيب المحسن على إحسانه ويقتص للمظلوم من ظالمه. وأما إظهار فضله فحيث يعفو عمن يشاء من عباده.

واكتفى المؤلف بذكر دليل الجزاء؛ لأن الجزاء هو ثمرة الحساب ونتيجته، فإذا ثبت الجزاء ثبت الحساب من باب أولى.

ولما كان المجازي بالعدل لا بُدَّ له من الاتصاف بكمال العلم وتمام الملك أثبتهما الله لنفسه قبل ذكر الجزاء فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى﴾ [النجم: ٣٠]، فأثبت كمال العلم، ثم قال بعدها: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فأثبت تمام الملك.

فقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾: الواو استئنافية. لله جار ومجرور خبر مقدم يفيد الاختصاص، أي: أنه سبحانه هو المتفرد بالملك والتدبير؛ فيتصرف فيهم تصرف الملك العظيم في عبيده ينفذ فيهم قدره، ويجري عليهم شرعه ليس لهم خيار في ذلك.

﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: أي لله ما في السموات والأرض ملكاً، كما أنه المنفرد بها خلقاً وإيجاداً، قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأنه الغني عما سواه الحاكم في خلقه بالعدل»<sup>(١)</sup>.

﴿لِيَجْزِيَ﴾: اللام هنا للتعليل<sup>(٢)</sup>. قال البغوي: «اللام في قوله ليجزى متعلق بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ لأنه إذا كان أعلم بهم جازى كل بما يستحقه»<sup>(٣)</sup>.

﴿أَسْأَوْا﴾: السوء وصف لكل قبيح، ومنه سميت النار سوأى لقبح منظرها قال تعالى:

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١٣١٣).

(٢) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢٧٩/٣)، و«التحرير والتنوير» (١٢٣/٢٧).

(٣) «معالم التنزيل» (٢٥٢/٤).

﴿ثُمَّ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوْءَ﴾ [الروم: ١٠] <sup>(١)</sup>، فيكون معنى «اسْتَوُوا»: أي عملوا المعاصي وأعظمها الشرك، فقوله: «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ اسْتَوُوا»، أي يعاقب الذين عصوه.

﴿بِمَا عَمَلُوا﴾: الباء للسببية أي بسبب أعمالهم، أو تكون للمثلية أي بمثل أعمالهم، ولا منافاة بين الأمرين، فعقوبتهم بسبب ذنوبهم ومعاصيهم والجزاء من جنس العمل.

﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾: أي يثيب الذين أحسنوا، كما في قوله تعالى: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا» [الأنعام: ١٦٠] فضاعف إثابة الحسنة إلى عشر أمثالها. «وكرر فعل الجزاء لإبراز كمال الاعتناء به والتنبيه على تباين الجزاءين» <sup>(٢)</sup>.

﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾: هم المؤمنون الذين أحسنوا بفعل الطاعات التي أعلاها وأعظمها وأساسها هو التوحيد وجمعوا مع ذلك البعد عن المحرمات واجتنابها وبذلك وصفهم الله فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

﴿بِالْحُسْنَى﴾: أي إثابتهم بالحسنى وهي الجنة التي فيها النعيم المقيم وأعلاه النظر إلى رؤية الرب الكريم جَلَّ وعلا.

فائدة: لما ذكر الله جزاء المسيء قال: ﴿بِمَا عَمَلُوا﴾ فهذا جزاء بالعدل إن لم يعف عنهم. ولما ذكر جزاء المحسن أتى بالصفة التي تقتضي التفضُّل، وتدُلُّ على الكرم والزيادة للمحسن، فقال: ﴿بِالْحُسْنَى﴾؛ فجازى المسيئين بالعدل وجازى المحسنين بالفضل.

(١) انظر: «العين» (٧/ ٣٢٧)، و«مختصر الصحاح» (٣٢٦).

(٢) «روح المعاني» (١٤/ ٦٠).

## وَمَنْ كَذَبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ.

مَنْ: شرطية. كَذَبَ فعلها وجوابها كفر، ومعنى كلام المؤلف أَنَّ مَنْ كَذَبَ بِالْبَعْثِ فهو كافر ولو آمن بأركان الإيمان الأخرى، ولو صلى وصام، وزعم أنه مسلم، والكذب خلاف الصدق والتكذيب ضد التصديق وكانت العرب تقول كَذَّبَتِ الرَّجُلَ إِذَا نَسَبَتْهُ لِلْكَذِبِ<sup>(١)</sup>.

والتكذيب بالبعث: عدم تصديق خبر الله بوقوعه.

وسبب تكذيبهم بالبعث هو جهلهم الشديد بقدرة الله حيث قاسوا قدرة الخالق لكل شيء، القادر على كل شيء بقدرتهم الضعيفة، فظنوا أَنَّ الْبَعْثَ مُحَالٌ فَأَنْكَرُوهُ: ﴿وَقَالُوا أَأُذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

قال السعدي: «فجهلوا أشدَّ الجهل حيث كذبوا الرسل وجحدوا آيات الله وقاسوا قدرة خالق السموات والأرض بقدرتهم الضعيفة العاجزة فلما رأوا أن هذا ممتنع عليهم لا يقدرون عليه جعلوا قدرة الله كذلك»<sup>(٢)</sup>.

فأبطل الله سبحانه هذه الشبهة المتهافتة ببيان عظيم قدرته. فقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۖ ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۖ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥٠-٥١] فعلى أيِّ وصف كنتم فسيعيدكم الله حتى وإن كنتم حجارة أو حديدًا أو خلقًا أعظم من ذلك، فمشيئةُ الله نافذةٌ وقدرته على كل شيء واقعة.

وكما في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ ۖ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا

(١) انظر: «تهذيب اللغة» (١٠/١٦٦) و«معجم مقاييس اللغة» (٥/١٦٧).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٥٣٤).

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ يُبَيِّنُ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿النحل: ٣٨-٤٠﴾. فأبطل قولهم في إنكار البعث مبيناً جهلهم بقدرة الخالق فقال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ثم أوضح عظيم قدرته، وأنه لا يعجزه شيء بل يكفي أن يقول للشيء كن فيكون، ومن كانت هذه عظمتة فكيف لا يقدر على بعثهم بعد الموت؟.

ولا عجب فإن بعث الأنفس جميعها من سهولته على الله كبعث نفس واحدة فقط قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

ويتضح كون إنكار البعث كفراً من عدة وجوه:

١ - أن إنكار البعث تكذيب لله ﷻ:

لأنه تكذيب لوحي الله المثبت للبعث وتكذيب الوحي تكذيب لله ﷻ كما في الحديث القدسي: «قال الله تعالى: كذبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقلوه: لن يعيدني كما بداني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته. وأما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولداً...»<sup>(١)</sup>.

٢ - أنه إنكار لكمال قدرته:

ولذلك رد الله عليهم بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٦].

٣ - أنه إنكار لكمال حكمته:

ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾

[المؤمنون: ١١٥].

(١) البخاري مع الفتح (٧٣٩ / ٨)، كتاب «التفسير» / سورة قل هو الله أحد. رقم (٤٩٧٤).

ولما كان إنكار البعث قدحاً في حكمة الله واتهاماً له بالعبث أنكره عليهم ورفع نفسه عن هذا الظن فقال: ﴿فَنَعَلَى اللَّهِ﴾ أي: تعاضم وارتفع عن هذا الظن الباطل الذي يرجع إلى القدح في حكمته<sup>(١)</sup>.

٤ - أنه إنكار لعلم الله سبحانه:

ولهذا ردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] وقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٤].

٥ - أنه سوء ظن بالله تعالى:

ولهذا ردّ عليهم بقوله: ﴿أَفَجَعَلُ الْمُتْسِلِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣٦) [القلم: ٣٥-٣٦].  
قال ابن القيم: «ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازي المحسن فيها بإحسانه والمسيء بإساءته فقد ظن به ظن السوء»<sup>(٢)</sup>.

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٦٥٥).

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٢٣٠).



**والدليل قوله تعالى:** ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ

يَسِيرٌ ﴿٧﴾ [التغابن: ٧].

﴿زَعَمَ﴾: الزعم هو الظن، وقيل الكذب، أي: ظن الذين كفروا خطأ وقالوا كذبا وهذا هو الأصل في معنى زعم وإلى هذا ذهب أهل التفسير حتى قال عبدالله بن عباس رحمته الله: «كل زعم في القرآن فهو كذب»<sup>(١)</sup>. وقال عبدالله بن عمر رحمته الله: «زعم كنية الكذب»<sup>(٢)</sup>، وقال شريح: «لكل شيء كنية، وكنية الكذب زعموا»<sup>(٣)</sup>.

وجزم به ابن عطية فقال: «لا توجد زعم مستعملة في فصيح الكلام إلا عبارة عن الكذب أو قول انفراد به قائله فيريد ناقله أن يبقى عهده على الزاعم، ففي ذلك ما ينحو إلى تضعيف الزعم، وقول سيويه: «زعم الخليل إنما يجيء فيما انفراد الخليل به»<sup>(٤)</sup> وقيل: «الزعم هو القول بالظن»<sup>(٥)</sup> وقيل: «ادعاء العلم»<sup>(٦)</sup> وقيل «الزعم خبر كاذب أو مشوب بالخطأ أو بحيث يتهمه الناس بذلك»<sup>(٧)</sup>.

**وكذلك قال أهل اللغة:**

قال ابن فارس: «الزاء والعين والميم أصلان أحدهما: القول من غير صحة ولا يقين»<sup>(٨)</sup>.

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٤٠١)، لأن الزعم في لغة قريش هو الكذب.

(٢) «جامع البيان» (٢٨/ ١٢١).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٨/ ١٣٥) و«تهذيب اللغة» (٢/ ١٥٩).

(٤) «المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٩).

(٥) «اللباب» لابن عادل (٢٠/ ٤٩٤١).

(٦) «الكشاف» (٤/ ١١٤).

(٧) «التحرير والتنوير» (٤/ ١٧١).

(٨) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٦).

والزعم: إنما هو في الكلام، ومنه قيل: فلان مزاعم، وهو الذي لا يوثق به.  
وقال الليث: سمعت أهل العربية يقولون إذا قيل: ذكر فلان كذا وكذا فإنها يقال  
لأمر يستيقن أنه حق، فإذا شك فيه فلم يُدر لعله كذب أو باطل قيل: زعم فلان قال  
وكذلك تفيد هذه الآية ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٦] أي بقولهم الكذب.

والرجل من العرب إذا حدث عمن لا يحقق قوله يقول: «ولا زعماته».

وقال شمر: الزَّعم والتزاعم أكثر ما يقال فيما يشك فيه ولا يحقق.

ويأتي الزعم حقًا وهو قليل، ويتضح من السياق كقول أمية:

وإني أذینُ لكم أنه سينجزكم ربُّكم ما زعم<sup>(١)</sup>

وقول الشاعر من أهل اليمن:

تقول: هلكنّا إن هلكت وإنما على الله أرزاق العباد كما زعم

أي: كما أخبر.

ويتلخص مما مضى أن الأصل في الزعم هو الكلام المكذوب أو المشكوك في صحته.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أي الكفار.

﴿أَنْ﴾: مخففة من الثقيلة لتلا يدخل ناصب على مثله.

﴿لَنْ﴾: أداة نفي ونصب تنصب الفعل المضارع.

﴿يُعْتُوا﴾: أي يخرجوا من قبورهم أحياء. ففي قولهم: ﴿أَنْ لَنْ يُعْتُوا﴾: نفي للبعث وإنكار

له.

ثم أمر الله نبيه أن يبطل دعواهم، فقال له: قل يا محمد ﴿بَلَى﴾: فنفي نفیهم بقوله: بلى

وبلى تأتي في اللغة لمعنيين:

١ - أن (بلى) تأتي لنفي النفي، ومن المعلوم أن نفي النفي إثبات فيصير ما بعد (بلى) إثبات. فهو لاء الكفار نفوا البعث بأداة النفي ﴿لَنْ﴾ فقال الله لنبيه ﴿قُلْ بَلَى﴾ فنفى الله نفيعهم للبعث، فثبت البعث ولذا قال بعدها ﴿وَرَبِّي لَبُئِشٌ﴾.

ولها نظائر كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ [سبأ: ٣].

فنفا إتيان الساعة بحرف النفي (لا) فقال الله لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ بَلَى﴾ فنفى الله نفيعهم للبعث بقوله ﴿بَلَى﴾، وأثبت إتيان الساعة، ولهذا قال بعد ذلك ﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

٢ - أن تأتي ﴿بَلَى﴾ جواباً لاستفهام مقترن بالنفي خاصة كقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فجاء الجواب ﴿قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢] وكقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ فجاء الجواب ﴿بَلَى﴾ [يس: ٨١]<sup>(١)</sup> ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٨٠] الجواب. ﴿بَلَى﴾. ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ﴾ ﴿بَلَى قَدِيرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٣-٤]. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ قالوا: ﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨-٩]. ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢].

قال ابن عباس: لو قالوا نعم لكفروا، ووجهه أن نعم تصديق للمخبر بنفي أو إيجاب. أما بلى: فهي حرف جواب تختص بالنفي وتفيد إبطاله<sup>(٢)</sup>.

﴿وَرَبِّي﴾: أي أقسم بربك يا محمد على إثبات البعث وقد أمره ربه أن يقسم بربوبيته على وقوع البعث في هذه الآية وفي قوله: ﴿وَيَسْتَعْثِنُكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ [يونس: ٥٣]، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣] لأن وقوع البعث متعلق بربوبيته؛ إذ له الملك والتدبير سبحانه.

(١) انظر: «العذب النمير» (٣/ ٢٧٤).

(٢) «الجدول في إعراب القرآن» (٢٨/ ٢٦٨).

﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾: أي لتخرجن من قبوركم أحياء وأكد الفعل باللام والنون.

﴿ثُمَّ﴾: للترتيب والعطف فتفيد أن الحساب بعد البعث.

﴿لَتُنَبِّئَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾: أي لتخبرن بأعمالكم كلها فقد أحصاها الله كلها ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ

جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنُسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]. وكتبها: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ

مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَدِّلُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَذَلِكَ﴾: يعود إلى البعث ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾: أي: أَنَّ البعث سهل هين على الله تعالى.

فأثبت الله البعث في هذه الآية من وجوه:

١ - صدر الآية بقوله «زعم» فبين أن إنكارهم للبعث لا مستند له إلا الدعوى

الباطلة فقضى بكذبه من أول لفظ في حكايته.

٢ - أَنَّ مُنْكَرَ البعث كافرٌ حيث ذكر كفرهم ولم يذكر إلا إنكار البعث فدل على أن

المكذب به كافر.

٣ - أكد وقوع البعث بعدة مؤكدات هي:

أ- نفي النفي بـ ﴿بَلَى﴾.

ب- القسم ﴿وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾.

ج- سهولته ويسره على الله عز وجل، ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

د- بيان المنجي من عذاب الله بعد البعث وهو الإيمان فقال: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ

الَّذِي أُنْزِلَنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨].

والفاء في قوله: ﴿فَتَأْمِنُوا﴾: الفاء الفصيحة واقعة في جواب شرط مقدر، أي: إذا كان

الأمر كذلك من البعث والنشور فآمنوا كي تسلموا من العذاب<sup>(١)</sup>.

(١) «إعراب القرآن» للدرويش (٧/ ٥٣٩).

ومما يدل على كفره أيضًا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ يَأْتِ خَلْقِ  
جَدِيدٍ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا  
خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ٥].

صدر سبحانه الآية بالتعجب من إنكارهم إعادتهم بعد فنائهم مع أنهم يرون النشأة  
الأولى ولا ينكرونها بل يقرون بها مع أنها أبلغ في القدرة من الإعادة ثم حكم عليهم  
بالكفر المخرج من الملة وختم بعقوبتهم بالنار جزاء كفرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءِذَا لَمْ يَأْتِ خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾  
[السجدة: ١٠].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى أبعد من ذلك فوصف الشاك بالبعث  
بالكفر كما في قوله تعالى في ذكر خبر المتحاورين: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُذِّدْتُ إِلَى  
رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ  
ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧].

وعلى كفر منكر البعث أجمع أهل العلم:

قال ابن عبد البر: «وقد أجمع المسلمون على أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ فَلَا إِيمَانَ لَهُ وَلَا  
شَهَادَةَ»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن حزم: «اتفق جميع أهل القبلة على تناقض فرقهم على القول بالبعث في القيامة  
وعلى تكفير من أنكر ذلك»<sup>(٢)</sup>.

وقال البهوتي: «وإذا جحد البعث كفر لتكذيبه للكتاب والسنة وإجماع الأمة»<sup>(٣)</sup>.

(١) «التمهيد» (٩/ ١١٦).

(٢) «الفصل» (٤/ ١٣٧).

(٣) «كشاف القناع» (٦/ ١٣٦).

وَأَرْسَلَ اللَّهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ. وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

انتقل المؤلف إلى بيان حال الرسل أجمع كي يوضح أمرين:

#### ١ - وحدة المعتقد:

جذور التوحيد ضاربة في أعماق التاريخ، وموكب الهدى والنور متطاوّل متواصل منذ أن أرسل الله نوحًا بل قبله؛ فإن آدم وبنيه لمدة عشرة قرون كانوا على التوحيد مرورًا بإبراهيم فموسى وعيسى وختمًا بمحمد ﷺ. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وبينها رسول الله بقوله: «الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»<sup>(١)</sup>. قال ابن حجر: «أصل دينهم واحد، وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع»<sup>(٢)</sup>.

#### ٢ - وحدة المهمة والهدف:

حصر الله مهمة الرسل ﷺ جميعًا بالبشارة والندارة في موضعين من كتابه بأقوى صيغ الحصر، وهو الجمع بين النفي والإثبات، فقال سبحانه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

وقال جل وعلا: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَمُجَدِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطْلِ لِيُذْخِرُوا بِهِ الْحَقُّ﴾ وَأَتَّخِذُوا عَآئِنِي وَمَا أَنْذَرُوا هُزُوءًا [الكهف: ٥٦].

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٧٨)، كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ

أَنْبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾. رقم (٣٤٤٣).

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٤٨٩).

فقوله: ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ حال، والمعنى ما نرسلهم إلا في حال كونهم مبشرين ومنذرين.

فجميع الرسل من نوح عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم كلهم مبشرون ومنذرون وقوله: ﴿مُبَشِّرِينَ﴾: البشارة هي الإخبار بما يسر غالباً هذا هو الأصل وقد تذكر أحياناً قليلة فيما يسوء إذا دلت القرائن على ذلك وهذا يفهم من السياق كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤].

«وسُمِّيت بشارة لأن الإنسان إذا سمع خبراً يسره أثر ذلك في دمه فجرى دمه جرياناً من البشارة فظهر أثر ذلك على بشرته، ولهذا سموها بشارة»<sup>(١)</sup>.

هذا إذا وردت مفردة لوحدها أما إذا قرن معها الإنذار فهي الإخبار بما يسر فقط.

﴿وَمُنْذِرِينَ﴾: الإنذار هو الإعلام بالشيء المخوف الذي يمكن تداركه للتحذير منه.

ولما ذكر الله وحيه لرسله جميعاً عدد بعضهم فقال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۖ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٤] ثم بين حالهم فقال: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿رُسُلًا﴾: قوله: رسلاً يدل على أنهم مرسلون من الله ليس لهم من الرسالة إلا إبلاغ ما أرسلوا به، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧] أي رسالة الله التي أرسلت بها، وقول صالح عليه السلام: ﴿يَقُومُوا لِقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٧٩]، وقول شعيب: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٩٣]،

(١) «العذب النمير» (١/ ٢٨٠).

وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨] ففي هذه الآيات وغيرها بيان أن الرسالة من الله والبلاغ من الرسل. وكان خاتمهم ﷺ يقول في أكبر مجمع في الإسلام يوم عرفة: «ألا هل بلغت، اللهم فاشهد»<sup>(١)</sup>.

وقال المغيرة بن شعبة: «أخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا أنه من قتل منا صار إلى الجنة»<sup>(٢)</sup>.

قال الزهري: «من الله ﷻ الرسالة وعلى رسول الله ﷺ البلاغ، وعلينا التسليم»<sup>(٣)</sup>.  
﴿مُبَشِّرِينَ﴾: أي مبشرين أهل الإيمان والتوحيد والطاعة بجزيل الثواب وكريم المآب في جنات النعيم التي أعلى نعيمها رؤية الرب الكريم جل وعلا.  
﴿وَمُنْذِرِينَ﴾: أي محذرين أهل الكفر والشرك والتكذيب والعصيان عظيم عقابه وأليم عذابه ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ (١٤) ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٤-١٥].

قال شيخ الإسلام: «منذرين لمن عصاهم باللعن والإبعاد وأن يعذبوا عذاباً أليماً»<sup>(٤)</sup>.  
﴿لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾: أي لأجل ألا يبقى لأحد من الناس عذر وحجة يحتج بها، والحجة هي البيان الواضح الذي لا يستطيع الخصم دفعه. وقد بين الله هذه الحجة التي يحتج بها الناس ويخاصمون بها الرب بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْزِيَ﴾ [طه: ١٣٤].

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري (١٣/٥٠٣)، كتاب «التوحيد» / باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾. رقم (٧٥٣٠).

(٣) المرجع السابق.

(٤) «مجموع الفتاوى» (٢/١).



وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفصل: ٤٧].

وأكد ذلك النبي ﷺ لما قال سعد بن عباد: لو رأيت رجلاً مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، وَاللَّهِ لَا نَأْخِزُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي، وَمَنْ أَجَلِ غَيْرَةِ اللَّهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، وَمَنْ أَجَلِ ذَلِكَ بَعَثَ الْمُبَشِّرِينَ وَالْمُنْذِرِينَ، وَلَا أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحَةُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْجَنَّةَ»<sup>(١)</sup>.

وفي رواية لمسلم: «وَلَا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجَلِ ذَلِكَ بَعَثَ اللَّهُ الْمُرْسَلِينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ»<sup>(٢)</sup>. «فَجَعَلَ اللَّهُ حُجَّتَهُ الَّتِي يَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ تَارِكَهَا رَسَلَهُ الْمُنْذِرِينَ»<sup>(٣)</sup>.

وسيعترف الكافرون يوم القيامة بقيام الحجة عليهم بإرسال الرسل في مواقف عدة هي:

الموقف الأول: حال سوقهم إلى النار ووصولهم إليها:

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]. فقوله: ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد

(١) البخاري مع الفتح (٣٩٩ / ١٣)، كتاب «التوحيد» / باب قول النبي ﷺ: «لَا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ». رقم (٧٤١٦).

(٢) مسلم (١١٣٦ / ٢)، كتاب «اللعان». رقم (١٤٩٩).

(٣) «ضابط التأويل» لابن تيمية ضمن «جامع المسائل» المجموعة الخامسة (٤٦).

العموم<sup>(١)</sup> فيشمل كل كافر: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾، فكل كافر يجيب بأن الرسل قد جاءت، ولم يبق له عذر ولا حجة.

أما الموقف الثاني: فهو حال إلقائهم في النار: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٨-٩]. «فكلمة ﴿كُلَّمَا﴾ تعم أزمئة الإلقاء كلها فتعم جميع الملقين من الأفواج في النار أنهم جاءهم نذير في الدنيا»<sup>(٢)</sup>.

أما الموقف الثالث: حال كونهم قد أرهقهم العذاب، واصطرخوا في النار، وطلبوا الخروج فلم يمكنوا ثم طلبوا التخفيف ولو يوماً واحداً فإذا بهم يدفعون بهذا السؤال فيعترفون ولكنه اعتراف بعد فوات الأوان ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتٍ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٩-٥٠].

وكل من بلغته الرسالة فقد قامت عليه الحجة قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

قال ابن القيم: «فكل من بلغه القرآن فقد أنذر به وقامت حجة الله به»<sup>(٣)</sup>.

وقال شيخ الإسلام عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤] فدل ذلك على أن مقتضى لعذابهم قائم. ولكن شرط العذاب هو بلوغ الرسالة ولهذا قال: ﴿لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ

(١) «العذب النمير» (٢/ ٢٨١)، وذلك أن الأسماء الموصولة كلها تفيد العموم.

(٢) المرجع السابق.

(٣) «الصواعق المرسلة» (٢/ ٧٣٥).

حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» [النساء: ١٦٥] <sup>(١)</sup>.

وكون الله لا يعذب إلا مَنْ أُرسل إليه رسولا تقوم به الحجة عليه أصل قررته النصوص كما سبق وكما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] <sup>(٢)</sup>.

وكما في قوله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ؛ إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» <sup>(٣)</sup>.

قال سعيد بن جبیر: «كنت لا أسمع بحديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه أو قال تصديقه في القرآن فبلغني أن رسول الله ﷺ قال: «لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة، يهوديٍّ ولا نصرانيٍّ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِمَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا دَخَلَ النَّارَ»، فجعلت أقول: أين مصداقها حتى أتيت على هذا: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَارُ مَوْعِدَهُ﴾ [هود: ١٧] قال: الأحزاب الملل كلها» <sup>(٤)</sup>.

وأجمع على ذلك أهل العلم ومن نقل الإجماع ابن حزم فقال: «اتفقوا.. أن من خالف دين الإسلام ممن بلغه كافر مخلد في النار» <sup>(٥)</sup>.

وابن تيمية حيث قال: «وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أنَّ من بلغته رسالة النبي ﷺ فلم يؤمن به فهو كافر لا يُقبل منه الاعتذار بالاجتهاد لظهور أدلة الرسالة وأعلام النبوة» <sup>(٦)</sup>.

(١) «الجواب الصحيح» (٢/ ٣٠٦).

(٢) انظر: «الجواب الصحيح» (٢/ ٢٩١ - ٢٩٧).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «جامع البيان» (١٢/ ١٩).

(٥) «مراتب الإجماع» (٢٦٧).

(٦) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٩٦).

## ضابط قيام الحجة:

حدد شيخ الإسلام رحمته ضابط قيام الحجة فقال: «الحجة قامت بوجود الرسول المبلغ وتمكنهم من الاستماع والتدبر».

ثم وضح المقصود من التمكن من الاستماع فيقول: «لا بنفس الاستماع ففي الكفار من تجنب سماع القرآن واختار غيره»<sup>(١)</sup>.

ومن أصناف مَنْ قامت عليهم الحجة وقد تمكنوا من السماع «رجل لم يتبعه -أي رسول الله- فهذا قامت عليه الحجة: إما لكونه لم ينظر في أعلام الإسلام، أو نظر وعلم فاتبع هواه، أو قصر»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن القيم متحدثاً عن قيام الحجة: «حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، وبلوغ ذلك إليه، وتمكنه من العلم به سواء علم أو جهل، فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه فقصر عنه ولم يعرفه فقد قامت عليه الحجة»<sup>(٣)</sup>.

وقال القرافي: «القاعدة الشرعية دلت على أن كل جهل يمكن المكلف دفعه لا يكون حجة للجاهل»<sup>(٤)</sup>.

ويقول علاء الدين السمرقندي الحنفي: «كون المأمور به معلوماً للمأمور، أو ممكن العلم به، باعتبار سبب قيام العلم شرطاً لصحة التكليف، وفي الحاصل حقيقة العلم ليس بشرط، ولكن التمكن من العلم باعتباره سبباً كافٍ»<sup>(٥)</sup>.

(١) المرجع السابق (١٦/١٦٦).

(٢) «الجواب الصحيح» (١/٢٤٥).

(٣) «مدارج السالكين» (١/٢٣٩).

(٤) «الفروق» (٤/٢٦٤).

(٥) «ميزان الأصول» (١٧١).

وقال ابن اللحام بعد كلام سبق: «إذا تقرر هذا فهأهنا مسائل تتعلق بجاهل الحكم، هل هو معذور أم لا؟ فإذا قلنا يعذر، إنما محله إذا لم يقصر ويفرط في تعلم الحكم. أما إذا قصر أو فرط فلا يعذر جزماً»<sup>(١)</sup>.

ويقول البيضاوي عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]: «المقصود منه التوبيخ والتشريب، لا تقييد الحكم وقصره؛ فإن العالم والجاهل المتمكن من العلم سواءً في التكليف»<sup>(٢)</sup>.

ويقول محمد المقرئ المالكي: «أمر الله ﷻ العلماء أن يبينوا، ومن لا يعلم يسأل، فلا عذر بالجهل ما أمكن التعليم»<sup>(٣)</sup>.

وبمثل ذلك حدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ضابط قيام الحجة فقال: «إذا بلغه كلام الله وكلام رسوله وخلا من شيء يعذر به»<sup>(٤)</sup>.

والشيء الذي يعذر به إما أن يكون حديث العهد بالإسلام أو ناشئاً ببلد لا يمكنه التعلم كمن نشأ ببادية بعيدة أو كان من الأطفال الصغار أو المجانين، أو كان ذلك في مسألة خفية مثل الصِّرفِ والعَطْفِ<sup>(٥)</sup>.

وذلك لأن «الحجة على العباد إنما تقوم بشيئين: بشرط التمكن من العلم بما أنزل الله والقدرة على العمل به، فأما العاجز عن العلم كالمجنون أو العاجز عن العمل فلا أمر عليه

(١) «القواعد» (١/ ١٩٧-١٩٩).

(٢) «أنوار التنزيل» (١/ ٥٦).

(٣) «القواعد» (٢/ ٤٠٢).

(٤) «مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب / القسم الخامس / الرسائل الشخصية» (٢٢٠).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٦/ ٦١) و(٢٨/ ٥٠١)، و(١١/ ٤٠٧)، و«الجواب الصحيح» (٢/ ٢٩٨)،

و«الآشياء والنظائر» (٢٠٠)، و«المغني» (١٢/ ٢٧٥)، و«الرسائل الشخصية» ضمن مجموع مؤلفات

الشيخ محمد بن عبد الوهاب» (٢٤٤).

ولا نهي، وإذا انقطع العلم ببعض الدين أو حصل العجز عن بعضه كان ذلك في حق العاجز عن العلم أو العمل بقوله: كمن انقطع عن العلم بجميع الدين أو عجز عن جميعه كالمجنون مثلاً وهذه أوقات الفترات»<sup>(١)</sup>.

وينبغي أن يعلم أنه لا تلازم بين قيام الحجة في أصول الدين الكبار، وبين فهمها كما يفهمها مَنْ هداه الله ووفقه وانقاد لأمره فإن الكفار قد قامت عليهم الحجة من الله تعالى مع إخباره بأنه جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوا كلامه فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

«وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠] وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾<sup>(١٠٣)</sup> الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

والآيات في هذا المعنى كثيرة يخبر سبحانه أنهم لم يفهموا القرآن ولم يفقهوه، وأنه عاقبهم بالأكنة على قلوبهم والوقر في آذانهم، وأنه ختم على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم فلم يعذرهم مع هذا كله بل حكم بكفرهم وأمر بقتالهم، وقاتلهم رسول الله ﷺ وحكم بكفرهم فهذا يبين لك أن بلوغ الحجة نوع وفهمها نوع آخر»<sup>(٢)</sup>.

ولما سئل الشيخ محمد عبدالوهاب عن بعض الناس هل قامت عليهم الحجة أم لا؟ أجاب بقوله: «ما ذكرتموه من قول الشيخ: كُلُّ مَنْ جحد كذا وكذا وأنكم شاكون في هؤلاء الطواغيت هل قامت عليهم الحجة أم لا؟ فهذا من العجب العجيب كيف تشكون

(١) «مجموع الفتاوى» (٥٩/٢٠)، وانظر: «كشف الشبهتين» (٩١-٩٢).

(٢) «الدرر السنية» (٧٣-٧٤/١١).

في هذا وقد وضحته لكم مراراً؟ فإن الذي لم تقم عليه الحجة هو الذي حديث عهد بالإسلام والذي نشأ ببادية. أو يكون ذلك في مسألة خفية مثل الصرف والعطف فلا يكفر حتى يعرف.

وأما أصول الدين التي أوضحها الله في كتابه فإن حجة الله هي القرآن فمن بلغه فقد بلغته الحجة.

ولكن أصل الإشكال أنكم لم تفرقوا بين قيام الحجة وفهم الحجة فإن أكثر الكفار والمنافقين لم يفهموا حجة الله مع قيامها عليهم كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

وقيام الحجة وبلوغها نوع وفهمهم إياها نوع آخر، وكفرهم ببلوغها إياهم وإن لم يفهموها<sup>(١)</sup>، ثم استطرد يذكر الأدلة على ذلك.

ومما يوضح أن قيام الحجة ببلوغها أمور:

١ - أن الله لم يعذر الكفار إذ لم يفهموا، بل صرح بكفرهم، فقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا (الكهف: ١٠٣-١٠٤).

قال الطبري عند هذه الآية: «فسوى - جل ثناؤه - بين هذا العامل في غير ما يرضيه على حسبان أنه في عمله بما يرضيه في تسميته في الدنيا بأسماء أعدائه المعاندين له الجاحدين ربوبيته مع علمهم بأنه ربهم وألحقه بهم في الآخرة في العقاب والعذاب»<sup>(٢)</sup>.

وأما الإمام ابن منده فقد بَوَّبَ باباً بعنوان: «ذكر الدليل على أن المجتهد المخطئ في

(١) «مجموعة مؤلفات الشيخ / القسم الثالث / الفتاوى» (١٢-١٣).

(٢) «التبصير في معالم الدين» (١٧).

معرفة الله عز وجل ووحدانته كالمعاند»، ثم استدل بالآية السابقة<sup>(١)</sup>.

٢- أن النبي ﷺ إذا دعا أحداً إلى الإسلام لم يكن يسأله، هل فهمت أم لا؟ سواء كان من العرب أو غيرهم.

٣- أن رسائل النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر باللغة العربية، وهم عجم، وليسوا عرباً، ومع هذا قامت عليهم الحجة<sup>(٢)</sup>.

٤- أن الشاك في أصول الدين كافر، والشك هو التردد بين شيئين كالذي لا يجزم بصدق الرسول ﷺ ولا كذبه، ولا يجزم بوقوع البعث ولا عدم وقوعه، وهذا كفر بالإجماع: «ولا عذر لمن كان حاله هكذا لكونه لم يفهم حجج الله وبياناته؛ لأنه لا عذر له بعد بلوغها، وإن لم يفهمها»<sup>(٣)</sup>.

٥- أن النبي ﷺ قامت به الحجة على أهل مكة كلهم رجالاً ونساءً، مع أنه ﷺ لم يكن يطلب من النساء اللاتي في البيوت أن يخرجن إليه يحدثهن عن الإسلام، وقد يخبرها زوجها إن لم يكن مسلماً، بخلاف الواقع، ومع ذلك قامت عليهن الحجة به ﷺ.

٦- أن ربط قيام الحجة بفهمها يحصر الكفر في المعاند فقط، ويلزم منه أن يكون مقلدة النصارى واليهود لم تقم عليهم الحجة.

قال ابن قدامة: «نعلم قطعاً أن النبي ﷺ أمر اليهود والنصارى بالإسلام واتباعه، وذمهم على إصرارهم، وقاتل جميعهم، وقتل البالغ منهم، ونعلم أن المعاند العارف مما يقلُّ، وإنما الأكثر مقلدة اعتقدوا دين آبائهم تقليداً، ولم يعرفوا معجزة الرسول ﷺ وصدقه. والآيات الدالة في القرآن على هذا كثيرة، كقوله: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾

(١) «التوحيد» (١/ ٣١٤).

(٢) يجب عليهم أن يبحثوا عن مترجم يترجمها لهم.

(٣) «مسألة فيمن يكفر غيره من المسلمين» لأبي بطين (٢١).



مِنَ النَّارِ» [ص: ٢٧]، وقوله: «وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ» [المجادلة: ١٨]، وقوله: «وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ» [الزخرف: ٣٧]»<sup>(١)</sup>.

وقال الشيخ أبا بطين معلقاً على كلام ابن قدامة: «فَيَنَّ َهِ أَنَا لَوْ لَمْ نَكْفُرْ إِلَّا الْمَعَانِدِ الْعَارِفِ لَزِمْنَا الْحُكْمَ بِإِسْلَامِ أَكْثَرِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَهَذَا مِنْ أَظْهَرِ الْبَاطِلِ»<sup>(٢)</sup>.

وقال َهِ معلقاً على كلام لشيخ الإسلام: «فَقَوْلُ الشَّيْخِ تَقِي الدِّينِ َهِ: «إِنْ التَّكْفِيرُ وَالْقَتْلُ مَوْقُوفٌ عَلَى بُلُوغِ الْحُجَّةِ» يَدُلُّ مِنْ كَلَامِهِ عَلَى أَنَّ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ - وَهُمَا التَّكْفِيرُ وَالْقَتْلُ - لَيْسَا مَوْقُوفَيْنِ عَلَى فَهْمِ الْحُجَّةِ مُطْلَقًا، بَلْ عَلَى بُلُوغِهَا.

فَفَهْمُهَا شَيْءٌ، وَبُلُوغُهَا شَيْءٌ آخَرٌ، فَلَوْ كَانَ هَذَا الْحُكْمُ مَوْقُوفًا عَلَى فَهْمِ الْحُجَّةِ: لَمْ نَكْفُرْ وَنَقْتُلْ إِلَّا مَنْ عَلِمْنَا أَنَّهُ مَعَانِدٌ خَاصَّةً، وَهَذَا بَيْنَ الْبَطْلَانِ»<sup>(٣)</sup>.

٧- أَنْ فَهْمُ الْحُجَّةِ خَاصٌّ بِالْأُمُورِ الْخَفِيَّةِ دُونَ الظَّاهِرَةِ:

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو بَطِينٍ مُجَلِّيًا هَذِهِ الْحَقِيقَةَ: «آخِرُ كَلَامِهِ - يَقْصِدُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةٍ - يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَعْتَبِرُ فَهْمَ الْحُجَّةِ فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَخْفَى عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَلَيْسَ فِيهَا مَنَاقِضَةٌ لِلتَّوْحِيدِ وَالرَّسَالَةِ كَالْجَهْلِ بِبَعْضِ الصِّفَاتِ.

وَأَمَّا الْأُمُورُ الَّتِي هِيَ مَنَاقِضَةٌ لِلتَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِالرَّسَالَةِ، فَقَدْ صَرَحَ َهِ فِي مَوَاضِعٍ كَثِيرَةٍ بِكُفْرِ أَصْحَابِهَا وَقَتْلِهِمْ بَعْدَ الْإِسْتِتَابَةِ وَلَمْ يَعْذِرْهُمْ بِالْجَهْلِ مَعَ أَنَا نَتَحَقَّقُ أَنَّ سَبَبَ وَقُوعِهِمْ فِي تِلْكَ الْأُمُورِ إِنَّمَا هُوَ الْجَهْلُ بِحَقِيقَتِهَا، فَلَوْ عَلِمُوا أَنَّهَا كُفْرٌ تَخْرُجُ مِنَ الْإِسْلَامِ لَمْ يَفْعَلُوهَا، وَهَذَا فِي كَلَامِ الشَّيْخِ كَثِيرٌ»<sup>(٤)</sup>.

(١) «روضة الناظر» (٣/ ٩٨٠).

(٢) «مسألة فيمن يكفر غيره من المسلمين» (٢٢).

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

وبين الشيخ إسحاق بن عبد الرحمن قيام الحجة في الأمور الكبار فقال: «ومسألتنا هذه في عبادة الله وحده لا شريك له، والبراءة من عبادة ما سواه، وأن من عبد مع الله غيره، فقد أشرك الشرك الأكبر الذي ينقل عن الملة، هي أصل الأصول، وبها أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وقامت على الناس الحجة بالرسول وبالقُرآن»، ثم يوضح خصوصية فهم الحجة بالأمور الخفية، وأن ذلك هو فهم العلماء كلهم، فيقول: «وهكذا تجد الجواب في مسائل الدين في ذلك الأصل عند تكفير من أشرك بالله، فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، ولا يذكرون التعريف في مسائل الأصول، إنما يذكرون التعريف في المسائل الخفية التي قد يخفى دليلها على بعض المسلمين، كمسائل نازع بها بعض أهل البدع، كالمرجئة، أو في مسألة خفية كالصرف والعطف»<sup>(١)</sup>.

(١) «رسالة في أصل الدين ضمن المجموعة المحمودية» (٢٤-٢٥)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ١٢٤ و ٣/ ٣٩٥)، و«الصارم المسلول» (٣/ ١١٠٨-١١١٠)، و«الجواب الصحيح» (١/ ٣٥٩-٣٦٠)، و«روضة الناظر» لابن قدامة (٣/ ٩٨٠-٩٨٢)، و«الانتصار لحزب الله الموحدين»، و«رسالة في الشرك»، و«مسألة فيمن يكفر غيره من المسلمين والذي يعذر صاحبه بالجهل والكفر الذي لا يعذر» جميعها للشيخ ابا بطين، و«الدرر السنية» (١٠/ ٩٣)، و«الضيء الشارق» للشيخ ابن سحمان (١٦٤-٣٠٠).

**وأولهم نوحٌ عليّ السلام، وآخرهم محمدٌ ﷺ، وهو خاتم النبيين. والدليل على أن أولهم نوحٌ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣].**

قوله: (وأولهم نوح) وذلك أن الله خلق آدم عليه الصلاة والسلام بيده وأسكنه جنته ثم أهبطه وزوجه إلى الأرض، ورزقه ذرية صالحة رباهم على التوحيد، فهو «نبيٌّ مُكَلَّم»<sup>(١)</sup>، لأنه أرسل إلى قوم مؤمنين.

قال شيخ الإسلام: «فالنبوّة في الأدميين هي من عهد آدم فإنه كان نبياً وكان بنوه يعلمون نبوته وأحواله بالاضطرار»<sup>(٢)</sup>. فعاشت ذريته على التوحيد عشرة قرون كما في حديث أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله! أنبيُّ كان آدم؟ قال: «نعم. مُكَلَّم» قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: «عشرة قرون»<sup>(٣)</sup>، ويؤيده ما ورد عن ابن عباس أنه قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرونٍ كلُّهم على شريعة من الحق»<sup>(٤)</sup>. وعن عكرمة قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام»<sup>(٥)</sup>.

ثم وقعت البشرية في الانحراف والشرك والاختلاف قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

(١) أحمد (٥/ ٢٦٥)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢١٧). رقم (٧٨٧١).

(٢) «شرح العقيدة الأصفهانية» (١٢٥).

(٣) ابن حبان في «صحيحه» (١٤/ ٦٩) رقم (٦١٩٠)، وابن منده في «التوحيد» (٣/ ١٤١)، وقال: «هذا إسناد صحيح على رسم مسلم والجماعة إلا البخاري». وقال ابن كثير: «وهذا على شرط مسلم». «البداية والنهاية» (١/ ٢٣٧).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) «جامع البيان» (٢٩/ ٩٩).

وسبب الانحراف عن المنهج القويم والوقوع في حمأة الشرك والوثنية هو الغلو في الصالحين فإذا انضاف إليه الجهل بأحكام الدين فلا تسأل عن شدة الانحراف والبعد عن الصراط المستقيم يوضح ذلك ابن عباس رضي الله عنه فيقول عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

«هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبت»<sup>(١)</sup>، ومعنى تنسخ العلم: أي نُبِيَّ ودرَسَ، وهي إحدى روايات البخاري.

وعن محمد بن قيس قال: «كانوا قومًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا، وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم»<sup>(٢)</sup>.

وهذا هو أول شرك وقع في الأرض فأرسل الله إليهم نوحًا عليه الصلاة والسلام، ولما كان هذا هو أول شرك وقع في الأرض كان الذي أرسل إليهم هو أول رسول ولهذا قال المؤلف وأولهم نوح، واستدل بقوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

﴿إِنَّا﴾: ذكر الله ذاته المقدسة بضمير العظمة؛ ليدل على عظمة الموحى به إلى رسله ورفعته قدر المرسلين ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: الوحي: هو الإعلام في خفاء، أي: إنا أنزلنا إليك هذا القرآن

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٦٧)، كتاب «التفسير» / باب: ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾. رقم (٤٩٢٠).

(٢) «جامع البيان» (٢٩/ ٩٨-٩٩)، وانظر: «البداية والنهاية» (١/ ٢٤٨).

العظيم وقومك لا يشعرون به ولا يرون الملك عند نزوله به وموجب الوحي الإرسال.  
 ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾: الكاف للتشبيه أي إحياء مثل إحيائنا إلى نوح، و(ما) بمعنى  
 (الذي) أي كالذي أوحيناه إلى نوح من التوحيد.  
 وبدأ بذكر نوح عليه السلام؛ لأنه أول رسول إلى أهل الشرك في هذه الأرض.

﴿وَالنَّبِيِّنَ﴾: عام يتناول جميع الأنبياء ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ الضمير يعود على نوح عليه السلام، فقوله  
 ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ يدل على أنهم بعثوا وأرسلوا بعده ولو كان قبله أحد لذكر. وهذا متقرر عند  
 جميع الأمم كما في حديث أبي هريرة الطويل في الشفاعة قال: أتي رسول الله ﷺ بلحم،  
 فرفع إليه الذراع، وكانت تُعجبُهُ، فنهس منها نهسة، ثم قال: «أنا سيّد النَّاسِ يوم القيامة...  
 فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح! إنك أول الرُّسُلِ إلى أهل الأرض، وقد سمّاك الله عبدًا  
 شكورًا...»<sup>(١)</sup>، وفي لفظ لأنس: «ولكن اتوا نوحًا أول رسول بعثه الله»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن كثير: «لما انتشر الفساد في الأرض، وعمّ البلاء بعبادة الأصنام فيها، بعث الله  
 عبده ورسوله نوحًا عليه السلام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما  
 سواه، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض»<sup>(٣)</sup>.  
 (وآخرهم محمد ﷺ):

الآخر هو الذي ليس بعده أحد فهو آخر الأنبياء ﷺ، ويدل له قوله ﷺ: «إن لي  
 أسماء، أنا محمد.... وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد»<sup>(٤)</sup>. وهذا صريح في أنه آخرهم،

(١) البخاري (٨/ ٣٩٥)، كتاب «التفسير» / باب: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾. رقم

(٤٧١٢)، ومسلم (١/ ١٨٤-١٨٦)، كتاب «الإيمان» / باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. رقم (١٩٤).

(٢) مسلم (١/ ١٨٠)، كتاب «الإيمان» / باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. رقم (١٩٣).

(٣) «البداية والنهاية» (١/ ٢٥٠).

(٤) سبق تخريجه.

فمن ليس بعده أحد، فهو الآخر.

وقوله ﷺ: «أنا محمد وأحمد والمقفّي...»<sup>(١)</sup>، والمقفّي هو الذي قفّي من قبله، فهو بمعنى العاقب.

ويلزم من كونه آخرهم: أن يكون هو الخاتم، ولهذا قال الشيخ رحمه الله: وهو خاتم النبيين.

قال ابن عباس رحمه الله: «كشف رسول الله ﷺ الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر، فقال: «أيها الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو ترى له»<sup>(٢)</sup>.

قال أبو عمر: «هذا الحديث في معنى قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وكذلك قوله ﷺ: «وأنا العاقب الذي لا نبيّ بعدي»<sup>(٣)</sup>.

ومعنى: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] آخر النبيين ومنه قوله: ﴿خَتَمُهُ، مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٢٦]. قال ابن مسعود: عاقبته طعم المسك، وختمت القرآن أي انتهت إلى آخره، وختم القارئ السورة أي بلغ آخرها.

ويأتي (خَتَمَ) بمعنى طَبَعَ وهو التغطية على الشيء، والاستيثاق منه لئلا يدخله شيء، ومنه «خاتم النبيين» لأنه خَتَمَ النبوة أي: تمها بمجيئه<sup>(٤)</sup>.

(١) سبق تخريجه.

(٢) مسلم (١/ ٣٤٨)، كتاب «الصلاة»/ باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود. رقم (٤٧٩).

(٣) «الاستذكار» (٨/ ٤٥٨).

(٤) «تهذيب اللغة» (٧/ ٣١٤-٣١٥)، و«المفردات» للراغب (١٤٩).

ووجه إتيان ختم بمعنى طبع «لأن الطَّبْعَ على الشيء لا يكون إلا بعد بلوغ آخره»<sup>(١)</sup>.  
وختَمُ النبوة: هو انتهاء بعث الله الرسل من الناس إلى الناس. والأدلة على ختم النبوة  
كثيرة بلغت مبلغ التواتر «وقد بلغ عدد الذين رووا أحاديث الختم سبعة وثلاثين  
صحابياً»<sup>(٢)</sup>.

وعلى ذلك أجمعت الأمة. قال الألوسي: «وكونه ﷺ خاتم النبيين مما نطق به الكتاب،  
وصدعت به السنة، وأجمعت عليه الأمة فيكفر مدعي خلافه ويقتل إن أصرَّ»<sup>(٣)</sup>.

وأدلة ختم النبوة كثيرة، ولكن يجمعها ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الإخبار المباشر بأن النبي ﷺ خاتم النبيين ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾

[الأحزاب: ٤٠].

أي: «ختم النبوة فطبع عليها فلا تفتح لأحد من بعده إلى قيام الساعة»<sup>(٤)</sup>.

خاتم بالفتح: أي آخر النبيين مبعثاً، فبه انتهت النبوة، فهو الطابع عليها المغطّي لها؛  
لئلا يدعيها أحد غيره.

وخاتم بالكسر: أي أنه ختم النبيين فبه ختموا فهو خاتمهم<sup>(٥)</sup>.

ومن السنة:

ما روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٢٤٥).

(٢) «عقيدة ختم النبوة» (٥٥).

(٣) «روح المعاني» (١١/ ٢١٩-٢٢٠).

(٤) «جامع البيان» (٢٢/ ١٦).

(٥) انظر: «معالم التنزيل» (٤/ ٥٣٣)، و«زاد المسير» (٦/ ٩٣).

الأنبياءُ كلما هلك نبيٌّ خلفه نبيٌّ، وإنَّه لا نبيَّ بعدي»<sup>(١)</sup>.

وحديث الشفاعة الطويل وفيه أنهم يقولون له: «أنت رسولُ الله وخاتمُ الأنبياء»<sup>(٢)</sup>.

ويزيده عليه السلام بيانا في حديث أبي هريرة فيقول عليه السلام: «فإني آخرُ الأنبياء، وإنَّ مسجدي آخرُ المساجد»<sup>(٣)</sup>.

ولما كان للمثل أثر في وضوح المراد قال عليه السلام: «مثلي ومثلُ الأنبياءِ كرجلٍ بنى دارًا فأكملها وأحسنها إلا موضعَ لبنةٍ فجعل الناسُ يدخلونها ويتعجبون ويقولون: لولا موضعُ اللبنةِ». وفي لفظ: «ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنةُ، وأنا خاتمُ النبيين»<sup>(٤)</sup>. وفي لفظ لمسلم: «فأنا موضعُ اللبنةِ جئتُ فختمتُ الأنبياء»<sup>(٥)</sup>.

النوع الثاني: التحذير من كل مدعٍ للنبوّة بيان حاله وكذبه ومن ذلك:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقومُ الساعةُ حتّى تقتل فتان عظيمتان تكون بينهما مقتلةٌ عظيمةٌ، دعوتُهُما واحدةٌ، حتّى يُبعثَ دجالونَ كذابون قريبٌ من ثلاثين، كُلُّهم يزعمُ أنه رسولُ الله...»<sup>(٦)</sup>.

وما ذكرهم الرسول صلى الله عليه وسلم لنا إلا لنحذرهم ولذلك صرح صلى الله عليه وسلم بالتحذير منهم في حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه حيث قال: «إن بين يدي الساعةِ كذابينَ فاحذروهم»<sup>(٧)</sup>.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) مسلم (٢/١٠١٢-١٠١٣)، كتاب «الحج» / باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة. رقم (١٣٩٤).

(٤) البخاري مع الفتح (٦/٥٥٨)، كتاب «المناقب» / باب خاتم النبيين. رقم (٣٥٣٤ و ٣٥٣٥).

(٥) مسلم (٤/١٧٩١)، كتاب «الفضائل» / باب ذكر كونه خاتم النبيين. رقم (٢٢٨٧).

(٦) البخاري مع الفتح (١٣/٨١)، كتاب «الفتن» / باب خروج النار. رقم (٧١٢١).

(٧) مسلم (٣/١٤٥٣-١٤٥٤)، كتاب «الإمارة» / باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش. رقم (١٨٢٢).



## النوع الثالث: قتل مدعي النبوة:

لما كان مدعي النبوة قد بلغ شأواً بعيداً من الكفر والضلال؛ لإنكاره النصوص الدالة على ختم النبوة وادعائه مرتبة لا يصلها إلا مَنْ اصطفاهم الله من رسله ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مَنِ الْمَلَكِ كَرُسُلًا وَمَنْ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] وإضلاله الفئام من الناس صار الواجب في حقه القتل قطعاً لدابر الفتنة وإراحة للناس من شره.

ولذلك أمر النبي ﷺ المؤمنين في اليمن وعلى رأسهم فيروز الديلمي بقتل الأسود العنسي لما ادعى النبوة، فقتلوه.

وسار على نهجه أبو بكر الصديق ومعه سائر الصحابة حيث سارت جيوش الإسلام من المدينة لقتال مسيلمة الكذاب وطلحة الأسدي لادعائهما النبوة<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: «تاريخ الطبري» (٣/ ٢٣١-٢٤٠ و ٢٥٦ و ٢٧١-٢٧٢)، و«البداية والنهاية» (٩/ ٤٢٩-٤٣٦

و ٤٥٢-٤٥٣ و ٤٦٥-٤٧٥)، و«عقيدة ختم النبوة» (٥٧-٦٣).

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا رَسُولًا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدِّهِ.

كل: لتأكيد بعث الله الرسل إلى أمهم جميعًا.

والأمة: تأتي لمعان منها الإمام الذي يُقتدى به ومنه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] وتأتي بمعنى الملة والدين ومنه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

وتأتي بمعنى الجماعة من الناس ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣] وهذا المعنى هو المقصود هنا.

والأُم التي خلقها الله من بني آدم بلغت سبعين أمة أثبت ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «ألا إنكم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل»<sup>(١)</sup>.

(بعث الله إليهم رسولاً من نوح إلى محمد): أي أن الله أرسل إلى كل أمة رسولاً بداية بنوح عليه السلام؛ لأنه أول الرسل، وأمته هي أول الأمم وقوعاً في الشرك وختاماً بمحمد ﷺ لأنه هو آخر الرسل، وأمته هي آخر الأمم وجوداً في الدنيا.

قال ﷺ مبيناً هذه الحقيقة: «نحنُ الآخرونُ الأولون يوم القيامة، ونحنُ أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فاختلفوا فهدانا الله لما

(١) أحمد (٣/٥)، والترمذي (٢٢٦/٥)، كتاب «تفسير القرآن» / باب ومن سورة آل عمران. رقم (٣٠٠١)، وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه (١٤٣٣/٢)، كتاب «الزهد» / باب صفة أمة النبي ﷺ. رقم (٤٢٨٨)، قال علي بن المديني وأحمد: «حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده صحيح». «زاد المعاد» (٤٥/١)، قال شيخ الإسلام: «حديث جيد». «الجواب الصحيح» (٢٣٢/٢)، وقال ابن حجر: «حديث حسن صحيح». «فتح الباري» (٨/٢٢٥).

اختلفوا فيه من الحق. فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه، هدايا الله له (قال: يوم الجمعة)، فالיום لنا وغدا لليهود وبعد غدٍ للتصاري<sup>(١)</sup>. والمقصود بالآخرين أي الآخرين خروجًا في الدنيا كما بينته رواية النسائي حيث قال: «نحن الآخرون من أهل الدنيا»<sup>(٢)</sup>.

قوله: (يأمرهم بعبادة الله وحده) أي أن الرسل عليهم الصلاة والسلام كلهم اتفقوا على أمر أممهم بإفراد الله بالعبادة لأن ذلك هو أصل الدين الذي بعثوا به ومن الأدلة الدالة على أن الرسل جميعًا أمروا قومهم بعبادة الله وحده ما أخبر الله به عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وكذلك ما قال هود لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وصالح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وشعيب عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وإبراهيم عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦] ويوسف عليه السلام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٤٠] فأبطل عبادة غير الله، ثم قرر وجوب عبادة الله وحده فقال: ﴿إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْتُمْ﴾ [يوسف: ٤٠].

وعمم ذلك فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] والأمر بعبادة الله وحده كثير جدًا في القرآن «لا يحصى إلا بكلفة، بل قطب القرآن وسائر الكتب ومدارها على عبادة الله وحده»<sup>(٣)</sup>.

وجذرها النبي ﷺ في قلوب أصحابه في كل مناسبة فيبين وأوضح أن البعثة من

(١) مسلم (٢/ ٥٨٥-٥٨٦)، كتاب «الجمعة»/ باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة. رقم (٨٥٥).

(٢) «السنن الكبرى» (٢/ ٢٥٧) رقم (١٦٦٤).

(٣) «الجواب الصحيح» (٢/ ١٥٦).

أجلها فقال: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِّ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ...»<sup>(١)</sup>.

والدعوة تبدأ بها: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ»<sup>(٢)</sup>.

والقتال وإزهاق الأنفس من أجلها فقال: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»<sup>(٣)</sup>.

فاستقرت تلك الحقيقة في قلوبهم وقلوب أتباعهم فيها هو المغيرة بن شعبة رضي الله عنه يقرر تلك الحقيقة لعامل كسرى فيقول: «أَمَرْنَا نَبِيَّنَا رَسُولَ رَبِّنَا ﷺ أَنْ نُقَاتِلَكُمْ حَتَّى تَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ»<sup>(٤)</sup>.

وأجاب بها ربعي بن عامر رستمًا عندما سأله ما الذي جاء بكم؟ فقال له: «اللَّهُ ابْتَعَثَنَا لَنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَمَنْ ضَيَّقَ الدُّنْيَا إِلَى سَعَتِهَا...»<sup>(٥)</sup>.

ولشدة ثباتها في قلوبهم كانوا يوصون بها ذرياتهم عند موتهم، كما وصَّى الربيع ابن خثيم أهله ومما قال في وصيته «وَإِنِّي أَمَرْتُ نَفْسِي وَمَنْ أَطَاعَنِي أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ فِي الْعَابِدِينَ وَنَحْمَدَهُ فِي الْحَامِدِينَ وَأَنْ نَنْصَحَ لْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ»<sup>(٦)</sup>.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) البخاري مع الفتح (٢٥٨/٦)، كتاب «الجزية والموادعة»/ باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب. رقم (٣١٥٩).

(٥) «البداية والنهاية» (٦٢٢/٩).

(٦) «سنن الدارمي» (٢٨٣/٢) رقم (٣١٨٦).

وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ. وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

الأمر بعبادة الله وحده كافٍ في نبذ الشرك والبعد عنه؛ لأن العبد لا يصح له توحيد إلا بنبذ الشرك، ولكن المؤلف عليه رحمة الله أراد تأكيد التحذير من ضده، فقال وينهاهم عن عبادة الطاغوت وهذا كثير في القرآن والسنة ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦] فقوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أمر بإفراد الله بالعبادة ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ نهي عبادة الطاغوت و﴿شَيْئًا﴾ نكرة في سياق النهي فتفيد العموم.

ولما حصر أمره لنبيه ﷺ بعبادة الله وحده أتبعه بالنهي عن الشرك به، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابِدُ﴾ [الرعد: ٣٦].

ولما دعا أهل الكتاب إلى الدعوة النصف إلى التوحيد أكده بالنهي عن الشرك فقال: ﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ٦٤].

ولما أوضح ﷺ خالص حق الله أعقبه مباشرة بالتحذير من الشرك والنهي عنه، فقال: «حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»<sup>(١)</sup>.

ولما بايعهم ﷺ على التوحيد ربط معه النهي عن الشرك، كما في حديث عوف بن مالك الأشجعي، قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: «ألا تبايعون رسول الله»، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله»، فقلنا: قد

(١) سبق تخرجه.

بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «ألا تباعون رسول الله»، قال: فبسطنا أيدينا، وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: «على أن تعبدوا الله ولا تشرکوا به شيئاً...»<sup>(١)</sup>.

ولما بين ما يرضاه لنا بدأ بالتوحيد والنهي عن الشرك فقال: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فِرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...»<sup>(٢)</sup>.

ولما أمر وفد عبد القيس بأربع، ونهاهم عن أربع بدأ به وحذّر من ضده فقال: «اعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...»<sup>(٣)</sup>.

وكان أمره بعبادة الله وحده ونبذ الطاغوت هو هَجَرَاهُ دَائِمًا كما اعترف بذلك أبو سفيان وهو على جاهليته عندما سأله هرقل قائلاً: بماذا يأمركم؟ قال أبو سفيان مجيباً يقول: «اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...»<sup>(٤)</sup>.

وربط بينهما عمر رضي الله عنه لما أوصى رجلاً من أهل البادية فقال: «تَعْبَدَ اللَّهَ لَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا...»<sup>(٥)</sup>.

وهكذا كان التابعون لهم بإحسان ومن ذلك ما فعله عبدالعزیز بن أبي رواد عندما لقي شقيق بن إبراهيم وكان شقيق قد تاب وتنسك لكن على غير الطريق السليم، قال له: «يا شقيق! ليس الشأن في أكل الشعير، الشأن في المعرفة، أن يعرفَ الله عز وجل يعبدُه ولا يشرك به شيئاً. والثانية: الرضا عن الله. والثالثة: تكون بما في يد الله أوثق منك بما في أيدي المخلوقين»<sup>(٦)</sup>.

(١) مسلم (٢/ ٧٢١)، كتاب «الزكاة» / باب كراهية المسألة للناس. رقم (١٠٤٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) «الجامع لشعب الإيمان» (٧/ ٥٢٥).

(٦) «تاريخ دمشق» (٢٣/ ١٣٦-١٣٧) و«حلية الأولياء» (٨/ ٥٩).

والطاغوت في اللغة: مشتق من طغى طغياناً أي: تجاوز حده.

قال ابن فارس: «(طغى) الطاء والغين والحرف المعتل أصل صحيح مُنْقَاسٌ، وهو مجاوزة الحد في العصيان، يقال: طغى السيل إذا جاء بهاء كثير قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ [الحاقة: ١١] يريد والله أعلم، خروجه عن المقدار»<sup>(١)</sup>.

قال الليث: «كل شيء جاوز القدر فقد طغى كما طغى الماء على قوم نوح».

وقال ابن شميل: «طغا البحر والماء إذا علا كل شيء فاجترفه».

ويقع اسم الطاغوت على الواحد قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠].

والجمع قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

والمذكر كما في الآيات السابقة والمؤنث ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الزمر: ١٧].

وقال شمر: «الطاغية الذي لا يبالي ما أتى يأكل الناس ويقهرهم لا يشنيه تحرج ولا فرق».

وقال الأخفش: «الطاغوت تكون من الأصنام وتكون من الجن والإنس وتكون جماعة وواحدًا»<sup>(٢)</sup>.

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٤١٢).

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (٨/ ١٦٧-١٦٨ و ١١/ ٧-٨)، و«العين» (٤/ ٤٣٥)، و«لسان العرب»

(٨/ ١٥).

## الطاغوت اصطلاحًا:

عرفه السلف ببعض أفرادهِ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الطاغوت الشيطان»<sup>(١)</sup> وعرفه بالشيطان؛ لأنه هو سبب الطغيان في هذه الأرض، وبه قال الشعبي ومجاهد وعطاء، وقتادة، والضحاك، والسدي<sup>(٢)</sup>. وقال عكرمة: «الطاغوت: الكاهن»<sup>(٣)</sup>.

وقيل الساحر، وقيل رئيس النصارى، وقيل حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف اليهوديان وقيل الأصنام وسدنتها وكل رأس في الضلالة<sup>(٤)</sup>.

وتعريفه ببعض أفرادهِ لا ينافي شموله لها جميعًا؛ لأن ذكر بعض الأفراد من باب التمثيل، والجامع لها كلها هو الطغيان ومجاوزة الحد<sup>(٥)</sup> ولذلك عمم أهل العلم الذين جاؤوا بعدهم تعريف الطاغوت فقال مالك: «الطاغوت هو كل ما يعبد من دون الله ﷻ»<sup>(٦)</sup> وقال ابن قتيبة: «كل معبود من حجر أو صورة أو شيطان فهو جبت وطاغوت»<sup>(٧)</sup>.

وقال ابن جرير: «والصواب من القول عندي في الطاغوت أنه كل ذي طغيان على

(١) البخاري مع الفتح (٨ / ٢٥١)، كتاب «التفسير» / باب: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾.

(٢) «جامع البيان» (٣ / ١٧).

(٣) البخاري مع الفتح (٨ / ٢٥١)، كتاب «التفسير» / باب: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾.

(٤) انظر: «جامع البيان» (٣ / ١٣) و«تهذيب اللغة» (٨ / ١٦٧-١٦٨) و«زاد المسير» (١ / ٣٠٦) و (٢ / ١٠٧-١١٧)، و«الصحاح» (٦ / ٢٤١٣).

(٥) انظر: «المحرر الوجيز» (١ / ٣٤٤)، و«روح المعاني» (٣ / ١٣).

(٦) «تفسير القرآن العظيم» (٣٣٤).

(٧) «غريب القرآن» (١٢٨).



الله فعبد من دونه إما بقهر منه لمن عبده وإما بطاعة ممن عبده له إنساناً كان ذلك المعبود أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً أو كائناً ما كان من شيء»<sup>(١)</sup>.

وعرفه شيخ الإسلام فقال: «الطاغوت كل معظم ومتعظم بغير طاعة الله ورسوله من إنسان أو شيطان أو شيء من الأوثان»<sup>(٢)</sup>.

فلفظة (كل) تفيد العموم أي أن كل متجاوز به عن قدره فهو طاغوت.

ويدل على أن الطاغوت عام في كل معبود دون الله أمران:

الأول: أن الله جعل عبادة الطاغوت في مقابلة عبادة الله تعالى والإيمان به كما في قوله:

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقِنُّونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقِنُّونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادَ﴾ [الزمر: ١٧].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ

يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠].

الثاني: أن مهمة الرسل هي الدعوة إلى التوحيد واجتناب الطاغوت قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ويدل على أن الطاغوت هو كل ما عبد من دون الله أي كثيرة في كتاب الله بينت أن

الرسل دعوا إلى التوحيد ونبتد الشرك كما في قوله ﷺ: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا

أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

فدلت هذه الآيات على أن القضية التي اتفق على التحذير منها قضية واحدة هي

(١) «جامع البيان» (٣/ ١٩).

(٢) «مجموعة الرسائل» المجموعة الثانية (٣٧٣).

«عبادة غير الله» وهي التي تسمى «عبادة الطاغوت»، وتسمى «شركاً» فكل معبود أشرك به فهو طاغوت، ويوضح ذلك أن المشرك لا يغفر له، ولا يبشر برحمة من الله قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وينبغي أن يقيد بكونه راضياً بعبادة عابديه له، قال شيخ الإسلام: «المعبود من دون الله إذا لم يكن كارهاً لذلك فهو طاغوت»<sup>(١)</sup>.

ولهذا قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في تعريفه للطاغوت: «الطاغوت عامٌّ في كل ما عُبِدَ من دون الله ورضي بالعبادة من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله»<sup>(٢)</sup>.

وهذا القيد يخرج الملائكة والرسل عليهم الصلاة والسلام والصالحين؛ لأنهم لا يرضون أن يدعوا مع الله ولا أن يطاعوا في غير طاعة الله ولذلك برأهم الله من الطاغوتية في الدنيا فصرف عبادة عابديهم إلى الشياطين التي أغوتهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ بِإِثْمِهِمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

ولما ذكر عذاب الطواغيت في الآخرة بقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ ءَالِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨-١٠٠]. بين نجاة عباده الصالحين الذين لم يرضوا بأن يعبدوا مع الله فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٠١).

(٢) «مجموعة مؤلفات الشيخ / القسم الأول - العقيدة» (٣٧٧).

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَلِدُونَ﴾ (١٠٩) لَا يَخْزُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقْنَاهُمُ الْمَلَكَةَ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿[الأنبياء: ١٠١-١٠٣].

يوضحه أن النبي ﷺ لما نزل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ شق على قريش فقالوا شتم آلهتنا فجاء عبد الله بن الزبيري فأخبروه الخبر، فقال لهم: إنا نعبد الملائكة والنصارى يعبدون المسيح واليهود يعبدون عزيزاً فهل هؤلاء في النار؟ فأنزل الله نجاة هؤلاء؛ لأنهم لم يرضوا بالشرك ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (١).

أقسام الطاغوت بحسب أنواع المعبودات:

١ - الجهادات التي لا روح فيها كالأحجار والأخشاب ونحوها:

يدل له قول عائشة رضي الله عنها في سبب نزول قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]. قالت: «أنزلت في الأنصار، كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية، التي كانوا يعبدونها عند المشلل، فكان من أهل يتخرج أن يطوف بالصفاء والمروة، فلما أسلموا، سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾» (٢).

والشاهد قولها (لمناة الطاغية) فوصفتها بالطاغية مع أنها جمادى لا روح فيها.

وكما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوسٍ على ذي الخلصة». وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية (٣).

(١) انظر: «أسباب النزول» للواحدي (٤٩٩-٥٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٩٠٣).

(٢) البخاري مع الفتح (٤٩٧-٤٩٨)، كتاب «الحج»/ باب وجوب الصفا والمروة، وجعل من شعائر الله. رقم (١٦٤٣).

(٣) سبق تخرجه.

والشاهد قوله: «وَدُو الْخَلَصَةِ طَاغِيَةٌ دُوسٍ»، فوصفها بالطاغية مع أنها جمادٌ لا روح فيها.

## ٢- ما فيه روح كالإنس والجن والشياطين:

فسر السلف الطاغوت بالشیطان والساحر. والكاهن ونحو ذلك قال جابر: «كانت الطواغيت التي يتحاكمون إليها، في جهينة واحد، وفي أسلم واحد، وفي كل حي واحد، كهان ينزل عليهم الشيطان»، وقال عمر: «الطاغوت: الشيطان»، وقال عكرمة: «الطاغوت: الكاهن»<sup>(١)</sup>.

وعند قوله: «يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ» [النساء: ٦٠].

قال مجاهد: «الطاغوت الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه وهو صاحب أمرهم»<sup>(٢)</sup>. وهذه الأنواع التي ذكرت كلها لها روح.

## ثالثاً: الأمور المعنوية:

كالهوى: «أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ

غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» [الجاثية: ٢٣].

وما أعطي صفة القداسة كالعقل عند من يقدمه على النقل، قال ابن القيم: «كسر الطاغوت الثاني وهو قولهم: إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم العقل»<sup>(٣)</sup>.

والمجاز، قال ابن القيم: «فصل في كسر الطاغوت الثالث الذي وضعته الجهمية

(١) البخاري (٨/ ٢٥١) كتاب «التفسير» باب: «وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ».

(٢) «جامع البيان» (٤/ ٨٣).

(٣) «مختصر الصواعق المرسلة» (١/ ١٢٩).

لتعطيل حقائق الأسماء والصفات وهو طاغوت المجاز»<sup>(١)</sup>.

والقومية العربية يقول أحدهم: العروبة نفسها دين عندنا نحن القوميين العرب المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية.

يقول ساطع الحصري:

هَبُونِي عِيدًا يَجْعَلُ الْعُرْبَ أُمَّةً      وَسَيُرَوِّا بِجُثْمَانِي عَلَى دِينِ بَرِّهِمْ  
سَلَامٌ عَلَى كُفْرٍ يُوحِدُ بَيْنَنَا      وَأَهْلًا وَسَهْلًا بَعْدَهُ بِجَهَنَّمَ<sup>(٢)</sup>

ولا شك أن القومية بهذا الفهم من أكبر الطواغيت.

والبعثية: يقول قائلهم:

آمَنْتُ بِالْبَعْثِ رَبًّا لَا شَرِيكَ لَهُ      وَبِالْعُرُوبَةِ دِينًا مَالَهُ ثَانِ

ثم استدل بقوله تعالى: «ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا

الطاغوت»:

﴿وَلَقَدْ﴾: اللام موطئة لقسم مقدر أي والله لقد بعثنا.

قد: هنا للتحقيق، فالجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات القسم المقدر - اللام - قد.

﴿بَعَثْنَا﴾: أي أرسلنا والبعث هو الإثارة والإرسال.

﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾: أي في كل جماعة من الناس ممن كانوا قبلكم.

﴿رُسُلًا﴾: كما أرسلنا إليكم رسولكم محمد ﷺ، وجاءت رسولا نكرة لتعم كل

مُرْسَل.

﴿أَنْ﴾: تفسيرية لجملة (بعثنا)؛ لأن البعث يتضمن معنى القول؛ إذ هو بعث

(١) المرجع السابق (٢/٢).

(٢) «اللغة والأدب وعلاقتها بالقومية العربية» (٢٥٠) نقلاً عن فكرة القومية العربية (١٣٣).

للتبليغ، ويصح أن تكون (أن) مصدرية: أي بعثناه بأن اعبدوا، ثم بين بم بعث الرسول فقال: أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، أي أن كل رسول قال لقومه: اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت.

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: أمر بجعل العبادة لله وحده، أي: أفردوا الله بالعبادة وأخلصوا له.

وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها لأنه حق الله تعالى.

﴿وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾: أي تباعدوا عن عبادة كل ما سواه سبحانه فكونوا في جانب والطاغوت في جانب آخر، وهذا غاية المباحة، وفيه من الحذر من الطاغوت ما لا يخفى؛ ولهذا قال الطبري «أبعدوا من الشيطان واحذروا أن يغويكم ويصدكم عن سبيل الله فتضلوا»<sup>(١)</sup>.

وإذا كان جميع الرسل يدعون إلى التوحيد واجتناب الشرك فمحمد ﷺ مقتد بمن كان قبله، فلماذا تعادونه وتردون دعوته؟

من فوائد هذه الآية:

١ - عبادة الله لا تنفع إلا بشرط اجتناب عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ

بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾<sup>(٢)</sup> [يوسف: ١٠٦].

٢ - أن الله لا يرضى بكفرهم ولذلك أرسل إليهم الرسل.

٣ - أن المشركين ليس لهم مستند على شركهم لا من نقل صحيح ولا عقل صريح.

٤ - وجوب الحذر من الطاغوت بالبعد عنه لئلا تنزل بنا عقوبة الله وبأسه الذي لا

(١) «جامع البيان» (١٧/ ٢٠١).

(٢) «أضواء البيان» (٣/ ٢٦٨).

يرد عن القوم المجرمين. قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

٥- أن جميع الرسل افتتحوا دعوتهم بتوحيد الألوهية، فمن أراد دعوة الناس إلى الله، فعليه أن يبدأ به وإلا صارت دعوته هباءً.

٦- أن دين الأنبياء كلهم واحد.

٧- أن إرسال الرسل وإنزال الكتب لأجل عبادة الله وحده لا شريك له.

## وَافْتَرَضَ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ.

ولما ذكر المؤلف أعظم ما أمرت به الرسل عليهم الصلاة والسلام انتقل إلى بيان حكمه فقال: وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله. وفرض: يقال فرضت الشيء أفرضه فرضاً وفرضته للتكثير أي أوجبه، والفرض الإيجاب فمعنى افترض: أي أوجب إيجاباً لازماً ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٩٧] أي أوجبه على نفسه بإحرامه<sup>(١)</sup>.

وقوله: وافترض الله أي: أوجب الله وليس غيره. على جميع العباد: وكلمة جميع من ألفاظ العموم؛ ليبين أن الدين فرض على جميع الناس إنسهم وجنهم لا يستثنى أحد من ذلك ثم بيّن ما هو المفترض، فقال: الكفر بالطاغوت والإيمان بالله.

### الكفر بالطاغوت:

ورد للكفر في اللغة معان عدة هي الستر: ومنه سمي الكافر كافراً؛ لأنه ستر نعم الله عليه ونعم الله عز وجل آياته الدالة على توحيده.

والتغطية: ومنه سمي الزارع كافراً لأنه يغطي الحب بالتراب. والعصيان والامتناع: يقال لأهل دار الحرب قد كفروا أي عصوا وامتنعوا. والبراءة والبغض والعداوة: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. أي: تبرأت.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥]. أي: يتبرأ بعضكم من بعض.

(١) «تهذيب اللغة» (١٢ / ١٢) و«العين» (٢٩ / ٧) و«اللسان» (٢٠٢ / ٧) مادة (فرض).



والكفر ضد الإيمان سُمِّيَ بذلك؛ لأنه تغطية للحق، وكذلك كَفَرَانِ النعمة جُحُودُهَا وسترها، وقال الليث: الكفر نقيض الإيمان آمنا بالله وكفرنا بالطاغوت كما أن كفر النعمة نقيض الشكر<sup>(١)</sup>.

فهذه المعاني لا بُدَّ أن يحققها المسلم بقلبه ولسانه وجوارحه تجاه الطاغوت<sup>(٢)</sup>، فإذا أراد أن يكفر بالطاغوت فعليه أن يستر ويغطي وينكر ويحدد ما ادعاه الطاغوت من الصفات التي ادعاها أو ادعيت له، وهو لا يستحقها، ويعصيه ويمتنع من طاعته وتعظيمه أعظم امتناع، ومع هذا يعلن البراءة منه ويبغضه ويعاديه بقلبه ولسانه وجوارحه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

أما الكفر بالطاغوت اصطلاحاً: «أن تعتقد بطلان عبادة غير الله، وتتركها، وتبغضها، وتكفر أهلها، وتعادهم»<sup>(٣)</sup>.

وهذا التعريف هو الذي دلت عليه اللغة والشرع.

أما اللغة فإن اعتقاد بطلان عبادة غير الله داخل تحت معنى الستر والتغطية والجحود؛ وذلك أن من اعتقد بطلان عبادة غير الله فقد جحد ما ادعاه الطاغوت أو ما ادعي له مما لا يستحقه وغطاه وستره.

وأما تركها فهو داخل تحت معنى العصيان والامتناع.

وأما تكفير أهلها بإنكار أن يكونوا على حق ومنه قوله تعالى: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾، «أي: أنكرنا

(١) «تهذيب اللغة» (١٩٣/١٠) و«معجم مقاييس اللغة» (١٩٦/٥) و«الوجوه والنظائر» لمقاتل بن سليمان

(١٦) و«الوجوه والنظائر» للدماغاني (٤٠٥-٤٠٦).

(٢) وذلك لأن الإيمان يكون بالقلب واللسان والجوارح والكفر نقيض الإيمان، فيكون بهذه الثلاثة أيضاً.

(٣) «الدرر السنية» (١٦١/١).

ما كنتم عليه من الكفر بالله، وجحدنا عبادتكم ما تعبدون من دون الله أن تكون حقاً<sup>(١)</sup> فهو داخل تحت الإنكار والجحود والستر.

وأما معاداة الطواغيت وأهلها فهو داخل تحت البراءة والعداوة الناشئة عن بغضهم. وأما دلالة الشرع فأكثر من أن تحصر:

فقوله: أن تعتقد بطلان عبادة غير الله فالقرآن كله أو جُلّه يدل عليه ومن ذلك:

١- بيان ضلال من عبد غير الله بل أنه لا أضلّ منه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كُفْرِينَ ﴿[الأحقاف: ٥-٦].

فأبطل الله عبادة غيره من وجوه:

أ- أنهم لا يستجيبون للداعي ولو قُدِّرَ أَنَّ الله أحياء إلى يوم القيامة واستمر في طلبه منهم.

ب- أنهم لا يسمعون دعاء الداعي ولا يعلمون به.

ج- أنهم ينقلبون إلى أعداء في وقت الحاجة الشديدة.

٢- بيان أنه ليس فيها شيء من خصائص الألوهية فلا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا بل هي مخلوقة مربوبة فكيف يسوغ أن تعبد. قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْ نَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

فمن كان بهذه الصفة من الضعف والعجز فعبادته باطلة بلا شك.

٣- أن المشركين يقرون بتوحيد الربوبية فيلزمهم الإقرار بتوحيد الألوهية.

قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ  
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ  
فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

والإقرار بالوهمية لله وحده يلزم منه بطلان ألوهية ما سواه.

وأما قوله: «وتركها»؛ فلأن الله أمر بتركها في قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (٣٠) حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣٠].  
والاجتناب: أبلغ من الترك فإنه ترك مع بعد ومباعدة.

وبشر تاركي الطاغوت والمجانين له فقال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ  
هُمُ الْبَشَرَى﴾ [الزمر: ١٧].

وأعلنها إمام الحنفاء خليل الرحمن مدوية أمام قومه، فقال فيما أخبر الله عنه:  
﴿وَأَعْتَرِلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].  
وافتخر يوسف عليه السلام بترك الطاغوت، فقال فيما أخبر الله عنه: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا  
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧].

ولشدة وضوح الأمر بترك الطاغوت فهمته الأمم وهي باقية على كفرها، قال الله  
تعالى مخبراً عما قاله قوم شعيب لشعيب عليه السلام: ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ  
مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٨٧].

وفي حديث أبي سفيان لهرقل لما سأله عما يقول لهم ويدعوهم إليه ويأمرهم به، قال:  
«يقول اعبدوا الله ولا تشرکوا به شيئاً واتركوا ما يقول آبائكم»<sup>(١)</sup>.

وأما قوله: «وتبغضها» البغض: نقيض الحب والبغضاء: شدة البغض<sup>(١)</sup>.

ولما كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام هم أقوى الناس تحقيقاً لهذا المقام بل هم القدوة فيه، صرّحوا لقومهم بالبغضاء كما قال الله ﷻ عنهم وعن إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

ولشدة بغض النبي ﷺ للطاغوت كان يقلقه بقاءه في الأرض ويجد في نفسه الألم الشديد من بقاءه، فيطلب من يريجه منه، ويرسل سرية لأجل هدمه وإحراقه.

روى جرير بن عبد الله رحمه الله عن النبي ﷺ قال له: «أَلَا تُرِيحُنِي مِنْ ذِي الْخَلَصَةِ». قال جرير: فانطلقت في مائة وخمسين راكباً فكسرناه، وقتلنا من وجدنا عنده فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فدعا لنا ولأحمس، وفي رواية فكسرها وحرقها حتى تركها كأنها جمل أجرب. فبرك رسول الله في خيل أحمس ورجالها خمس مرات<sup>(٢)</sup>.

ولما دخل ﷺ مكة فاتحاً منصوراً حطم الأصنام بادي ذي بدء بعود في يده، وهو يقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]. ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾<sup>(٣)</sup> [سبا: ٤٩]. وأرسل أبا سفيان والمغيرة بن شعبة لهدم اللات، ولم يوافق على طلب ثقيف بقاءه ولا لحظة واحدة<sup>(٤)</sup>.

أما تكفير عباد الطاغوت وأهله:

كفر عباد الطواغيت قد أجمع عليه أهل العلم وتكاثر الأدلة عليه بصفات متنوعة

(١) «تهذيب اللغة» (١٧ / ٨).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «السيرة النبوية» لابن هشام (١٣٩٣ / ٤).

فوصفهم الله بالكفر فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [البينة: ٦].

وأمر نبيه أن يخاطبهم بأخص أوصافهم، وهو الكفر، فقال: ﴿قُلْ يَتَائِبَ الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]. وأمر بقتلهم واستباحة دمائهم وأموالهم لكفرهم فقال: ﴿فَقَتِّلُوا آيِمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢].

وتوعدهم بالعذاب الأخرى إن هم ماتوا على الكفر فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

ومعاداتهم: لما كان عباد الطاغوت محاديين لله محاربين له وجب على المسلم معاداتهم ومحاربتهم وإظهار ذلك لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَدَأْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [المتحنة: ٤].

ومن مظاهر المعادة البراءة منهم حتى وإن كانوا أقرب الناس، كما تبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، فلما تبرأ منه مدحه الله على هذه البراءة فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وكذلك براءة نبينا محمد ﷺ منهم كما في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣]. «فليس لهم عنده عهد وميثاق فأينما وجدوا قتلوا»<sup>(١)</sup>.

وكان النبي ﷺ يوليها اهتمامًا خاصًا فيجعلها من شروط البيعة عند الدخول في الإسلام كما في حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه عندما أسلم قال قلت: يا رسول الله! اشترط عليّ فقال: «تعبد الله ولا تشرک به شيئاً، وتُصلي الصَّلَاةَ المكتوبة، وتؤدي الزَّكَاةَ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٧٤).

المفروضة، وتنصح للمسلم، وتبرأ من الكافر»<sup>(١)</sup>.

ويوضح خطورة عدم البراءة من الطواغيت وأهلها قصة ابن النواحة قال جرير والأشعث لعبد الله بن مسعود في المرتدين: «استبهم وكفلهم، فتابوا وكفلهم عشائهم»<sup>(٢)</sup>.

ولهذا الأثر قصة رواها حارثة بن مضرب، قال: صليت الغداة مع عبد الله ابن مسعود، فلما سلم قام رجل فأخبره أنه انتهى إلى مسجد بني حنيفة فسمع مؤذنين عبد الله بن النواحة يشهد أن لا إله إلا الله، وأن مسيلمة رسول الله، وأنه سمع أهل المسجد على ذلك، فقال عبد الله عليّ بابن النواحة وأصحابه فجاء بهم، فأمر قرصة بن كعب فضرب عنق ابن النواحة ثم استشار الناس في أولئك النفر فأشار عليه عدي بن حاتم بقتلهم، فقام جرير والأشعث فقالا: لا، بل استبهم وكفلهم عشائهم فتابوا وكفلهم عشائهم»<sup>(٣)</sup>. وكانت عدة المذكورين سبعين ومائة رجل»<sup>(٤)</sup>.

فأخذهم عبد الله بن مسعود عليه السلام على سكوتهم وعدم براءتهم من الطاغوت وعدم عداوتهم له، لأن حكمهما سواء قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۝﴾ [النساء: ١٤٠].

(١) أحمد (٣٥٧/٤).

(٢) البخاري مع الفتح (٤/٤٦٩) كتاب «الكفالة» / باب الكفالة في القرض والديون بالأبدان وغيرها.

(٣) «السنن الكبرى» للبيهقي (٨/٢٠٦)، صححه أبو حاتم وأبو زرعة. «علل الحديث» لابن أبي حاتم (٤٦٥) رقم (١٣٩٧)، وقال ابن حجر: «هذا إسناد صحيح». «تغليق التعليق» (٣/٢٩٠-٢٩١)، وأحمد (١/٤٠٤)، عن مَعِيز السعدي، وقال شيخ الإسلام: «إسناد صحيح». «الصارم المسلول» (٣٢٤-٣٢٥).

(٤) «المصنف» لابن أبي شيبه (٦/٤٣٩).

وأوجب النبي ﷺ عداوة الكافرين وإظهارها في الحياة العملية فأمر بعدم بداءتهم بالسلام واضطرارهم إلى أضيق الطريق فقال: «لا تبدؤا اليهود والنصارى بالسلام، فإذا لقيتموهم في طريق، فاضطروهم إلى أضيقه»<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن أعظم مظاهر معاداة الطاغوت وأهله هو الجهاد في سبيل الله، قال المتنبي:

إذا رأيت نُيُوبَ اللَّيْثِ بارزةً      فلا تظننَّ أنَّ اللَّيْثَ يَتَسِمُ

فحال المجاهدين إظهار العداوة وقتل المحاربين وإذلالهم لما يترتب على ذلك من إقامة هدف الجهاد وهو إزالة الشرك ومحو عبادة الطاغوت مع إخضاع الناس لدين الله قال تعالى: ﴿وَقَنِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقوله تعالى: ﴿وَقَنِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأفقال: ٣٩].

وأختم مبحث الكفر بالطاغوت بقول الإمام محمد بن عبد الوهاب: «ومعنى الكفر بالطاغوت أن تبرأ من كل ما يعتقد فيه غير الله من جني أو إنسي أو شجر أو حجر أو غير ذلك، وتشهد عليه بالكفر والضلال وتبغضه ولو كان أباك وأخاك».

فأما من قال: أنا لا أعبد إلا الله، وأنا لا أعرض السادة والقباب على القبور وأمثال ذلك فهذا كاذب في قول لا إله إلا الله، ولم يكفر بالطاغوت»<sup>(٢)</sup>.

(والإيمان بالله): وأما الإيمان بالله فهو الاعتقاد الجازم بربوبيته لكل شيء، وكمال أسمائه الحسنی وصفاته العلی، وأنه الحق الذي يجب أن يعبد وحده لا شريك له، وأن يُطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويوالي من والاه ويعادي من عاداه.

(١) سبق تخریجه.

(٢) «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٣٣-٣٤) وانظر: «الدرر السنية» (١٠٩/٢ و ١١٦-١٢٠).

والكفر بالطاغوت والإيمان بالله هما أساس دعوة الرسل التي ربّوا عليها أتباعهم وغرسوها في قلوبهم، وكان علي بن الحسين يعلم ولده يقول قولوا: آمنت بالله وكفرت بالطاغوت<sup>(١)</sup>، وحتى آل الأمر ببعضهم أن أثبتها في وصيته.

ومن ذلك وصية مكحول حين أوصى قال: هذا ما شهد به: يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله ويؤمن بالله ويكفر بالطاغوت على ذلك يحيا إن شاء الله ويموت ويبعث... إلخ<sup>(٢)</sup>.

«فالله الله إخواني: تمسكوا بأصل دينكم أوله وآخره أسسه ورأسه وهو شهادة أن لا إله إلا الله، واعرفوا معناها، وأحبوا أهلها واجعلوهم إخوانكم ولو كانوا بعيدين، واكفروا بالطواغيت، وعادوهم، وأبغضوا من أحبهم أو جادل عنهم أو لم يكفرهم، أو قال ما عليّ منهم، أو قال ما كلفني الله بهم، فقد كذب على الله وافترى، بل كلفه الله بهم، وفرض عليه الكفر بهم، والبراءة منهم ولو كانوا إخوانه وأولاده.

فالله الله تمسكوا بأصل دينكم لعلكم تلقون ربكم لا تشركون به شيئاً، اللهم توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين»<sup>(٣)</sup>.

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (٢/٢٧٨) رقم (٢٤٧١).

(٢) «سنن الدارمي» (٢/٢٨٣) رقم (٣١٨٤).

(٣) «الدرر السنية» (٢/١١٩-١٢٠)، و«مجموعة التوحيد» (١٥٥)، وانظر: «القول السديد» (٣٢-٣٤).

«مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٤/٣٣-٣٤).



قال ابن القيم رحمته الله: «معنى الطَّاعُوتُ هو ما تَجَاوَزَ به العبدُ حُدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ، أَوْ مَتَّبِعٍ، أَوْ مُطَاعٍ<sup>(١)</sup>».

.....

ما تجاوز به: قال الليث جاوزت الموضع جوازًا أي جزته<sup>(٢)</sup> وجاوزت الشيء وتجاوزته أي تعديته<sup>(٣)</sup>.

العبد: اختار لفظة العبد؛ لأنها هي حد المخلوق مهما علت رتبته، فأعلى الناس قدرًا ومكانة يقول: «إنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله»<sup>(٤)</sup>.  
حده: حد كل شيء منتهاه<sup>(٥)</sup>.

ومعنى ما تجاوز به العبد حده: أي تعدى به قدره ومكانته فرفعه فوق منزلته التي هي له شرعًا وواقعًا.

من معبود: المعبود هو الذي يُحِبُّ مع الذل والخضوع له فكل من عبد مع الله أو من دونه فقد تجاوز به عابدوه قدره، وذلك أن قدره أن يكون عابدًا لا معبودًا راجيًا لا مرجوا خائفًا لا مخوفًا، ومن أمثلة المعبودين بغير حق:

الملائكة، عيسى عليه السلام، وأمه مريم. ود، سواع. يغوث. نسر. ذو الخلصة. اللات. العزى. مناة. البدوي. وغيرهم.

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٥٠).

(٢) «تهذيب اللغة» (١١/ ١٤٩).

(٣) «المصباح المنير» (٤٤).

(٤) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٧٨)، كتاب «أحاديث الأنبياء» / باب قول الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ

أَنْبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾. رقم (٣٤٤٥).

(٥) «تهذيب اللغة» (٣/ ٤١٩).

المتبوع: هو الذي يقتفى أثره فيتخذ قدوة يقتدى بأفعاله. والمقصود به هنا هو الذي يقتدى به في مخالفة دين الله والصد عنه.

ومن أمثلة المتبوعين بغير حق:

## ١ - الآباء والأجداد:

اتخذت الأمم السابقة الآباء والأجداد طواغيت يقتدون بهم في أصل الدين، ويجعلون ذلك سلاحاً يصدون به الناس عن المنهج الحق، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. وفي التحليل والتحريم: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: ١٠٣-١٠٤].

وفي ارتكاب المعاصي والذنوب ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

## ٢ - السحرة والكهان:

من الابتلاء والامتحان أن يمكن الله الشياطين من استراق السمع بعض الأحيان، ثم يلقيها بعضهم إلى بعض حتى يلقيها الشيطان في أذن الساحر أو الكاهن فيكذب معها مائة كذبة، فيغتر الناس بتلك الكلمة التي سمعت من السماء ويصدقون الساحر أو الكاهن محتجين بأنه قال يوم كذا وكذا: كذا وصدق في ذلك وهم لا يدرون حقيقة الأمر فيتبعونهم فيما يقولون لهم، ولا شك أن هذا من الفتن العظيمة<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: البخاري مع الفتح (٨/ ٣٨٠)، كتاب «التفسير» / باب: ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرْقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾.

## ٣- علماء السوء:

أشد الناس خطراً على المجتمعات هم علماء السوء؛ لكثرة من يضل بسببهم ممن يتبعهم ولهذا ساءهم الله أرباباً لمتبعيهم فقال: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، وخوفنا النبي ﷺ من فتنهم، فقال: «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»<sup>(١)</sup>. وفي رواية: «وإني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين»<sup>(٢)</sup>.

## ٤- الهوى:

الهوى هو ميل النفس إلى الشهوة، وسمي بذلك لأنه يهوى بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية وفي الآخرة إلى نار جهنم<sup>(٣)</sup>.

وضابطه: كل ما خالف الحق وللنفس فيه حظ ورغبة من الأقوال والأفعال والمقاصد<sup>(٤)</sup> وينقسم الهوى إلى قسمين:

١- اتباع الهوى في الديانة: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾

[الفرقان: ٤٣].

٢- اتباع الهوى في الشهوة: ﴿ خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ

يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾ [مريم: ٥٩].

(١) أحمد (٢٧٨/٥)، وأبو داود (٤٥٠/٤-٤٥١)، كتاب «الفتن والملاحم» / باب ذكر الفتن ودلائلها. رقم

(٤٢٥٢)، والترمذي (٥٠٤/٤)، كتاب «الفتن» / باب ما جاء في الأئمة المضلين. رقم (٢٢٢٩)،

وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أحمد (١٢٣/٤)، قال ابن كثير: «إسناده جيد قوي». «تفسير القرآن العظيم» (٤٨٠).

(٣) «المفردات» (٨٤٩).

(٤) «الهوى» لشيخنا الغنيان (١٢).

واتباع الهوى في الديانة أعظم شراً وخطرًا من اتباع الهوى في الشهوة قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وما منع اليهود من اتباع دين الله إلا أهواؤهم الفاسدة ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

وكذلك مشركو العرب قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ (١٩) وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ۚ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

أو مطاع: الطاعة: هي فعل الأوامر، فتكون الطاعة لمن له سلطة وولاية على المطيع كالحكام والأمراء والرؤساء وشيوخ القبائل ونحوهم. وذلك لأن لديهم القدرة على إلزام شعوبهم بما يأمرونهم به. فيكون أحدهم طاغوتًا إذا أمرهم بما حرم الله وألزمهم بفعله كما فعل فرعون حين عبّد الناس له والنمرود وغيرهما من الحكام الظلمة ذوى السلطة والجبروت.

قال شيخ الإسلام: «والمطاع في معصية الله، والمطاع في اتباع غير الهدى ودين الحق سواء كان مقبولا خبره المخالف لكتاب الله أو مطاعا أمره المخالف لأمر الله هو طاغوت؛ ولهذا سمي الله مَنْ تَحُوكُم إِلَيْهِ مِنْ حَاكِمٍ بِغَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ طَاغُوتًا وسمى الله فرعون وعادًا طغاة»<sup>(١)</sup>.

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨ / ٢٠١).

## والطواغيت كثيرة ورؤوسهم خمسة: إبليس لعنه الله.

.....

ووجه حصر ابن القيم للطاغوت بهذه الأنواع الثلاثة لأن الطاغوت لا يمكن أن يخرج عن هذه الأنواع فهو إما طاغوت عبادة أو طاغوت متابعة أو طاغوت حكم.

وبهذا المعنى العام الشامل تكون الطواغيت كثيرة لا تحصى إلا بكلفة ومشقة. ولكن بالتبع والاستقراء وجد أن أكبرها خمسة وأن ما عداها متفرع عنها.

ولأجل ذلك قال المؤلف رحمه الله والطواغيت كثيرة ورؤوسهم خمسة.

والطواغيت: جمع طاغوت «والطاغوت فعلوت من الطغيان»<sup>(١)</sup>، وهي صيغة مبنية للكثرة والسعة. ويجمع الطاغوت أيضاً على طواغ، كما قال ﷺ: «لا تحلفوا بالطواغي ولا بأبائكم»<sup>(٢)</sup>.

كثيرة: جاءت مؤنثة لأن الطواغيت جمع تكسير.

ورؤوسهم: من الرأس أي: رؤساؤهم وهم كبارهم الذين لهم التأثير أكثر من غيرهم.

إبليس: مشتق من الإبلّاس، وهو اليأس من رحمة الله<sup>(٣)</sup>.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢].

وسمي إبليس إبليسا؛ لأنه أبلّس من الخير كله أي: أيس منه.

ويسمى الشيطان: وهو مشتق من شطن أي: بعد عن الخير، قال ابن فارس: «الشين

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/٢٠٠).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (١٢/٤٤٢).

والطاء والنون أصل مطرد صحيح، يدل على البعد<sup>(١)</sup>.

قال الليث: والشَّيْطَانُ فَيَعَالِ مَنْ شَطَنَ أَي: بعد، وقيل فَعَلَانِ مَنْ شَاطَ يَشِيْطُ إِذَا هَلَكَ واحترق<sup>(٢)</sup>، وكلاهما ينطبق على الشيطان فإنه بلغ الغاية في البعد عن رحمة الله، ولذلك هلك واحترق.

لعنه الله: أي: لعنه، وَمِنْ ثَمَّ طَرَدَهُ وَأَبْعَدَهُ وَأَخْزَاهُ وَأَقْصَاهُ وَحَكَمَ عَلَيْهِ بِالشَّقَاءِ الَّذِي لَا نِهَايَةَ لَهُ.

قال تعالى: ﴿شَيْطَانًا مَّرِيدًا ۝١١٧ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ [النساء: ١١٧-١١٨].

وبدأ به الشيخ رحمه الله لأمر:

- ١ - لأن الشيطان أصل لكل الطواغيت فجميعهم تعلّموا على يديه<sup>(٣)</sup>. وهو الذي يُؤْزِمُهُمْ إِلَى كُلِّ شَرٍّ وَضَلَالٍ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].
- ٢ - أن أذيته لآدم وبنيه جميعًا بخلاف الطواغيت الأخرى فإن أذيتها مقتصرة على قوم دون آخرين.

فعداؤه وإغواؤه مستمر طوال التاريخ من خلق آدم إلى قيام الساعة: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٧٩-٨٢].

فأغوى أبانا آدم حتى أكل من الشجرة، وما زال يزين الشرك لقوم نوح حتى عبدوا الأصنام، وزين لقوم إبراهيم إحراقه بالنار، وأغوى فرعون حتى ادعى الربوبية

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ١٨٣) مادة (شطن).

(٢) «تهذيب اللغة» (١١/ ٣١٢)، و«لسان العرب» (١٣/ ٢٣٧).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٣٩٢).

والألوهية، وصد عن دين الله وحارب المصلحين من الرسل وغيرهم، وزين لعمر وبن لحي الخزاعي إحياء الوثنية في مكة من جديد؛ فكان هو أول من بدّل دين إبراهيم عليه السلام، واستجمع قواه في دار الندوة لقتل النبي محمد ﷺ وما فتئ يحث كفار قريش على حرب المسلمين في بدر قائلاً لهم: ﴿وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

بل توجه بشهاب من نار يريد حرق النبي ﷺ، وحاول بأحمد بن حنبل عند موته لعله أن يحصل منه على لحظة عجب يخسر بها دنياه وأخراه، وما زال كذلك إلى زماننا هذا يزين الشرك والفساد للناس حتى كثر الخنا والغنا والمعاصي، بل والكفر والفجور، ولن يزال كذلك حتى لا يبقى في الأرض من يقول لا إله إلا الله فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: فيما أخبر به عن حال الناس عند قيام الساعة «فيبقى شرارُ الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا ولا يُنكرون منكراً فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستحيون؟ فيقولون: فما تأمرنا فيأمرهم بعبادة الأوثان»<sup>(١)</sup>.

أما غيره من الطواغيت فإضلالهم وإغواؤهم طوال أعمارهم المحدودة فقط.

٣- حقه الشديد على آدم وبنيه كلهم ويدل لذلك أنه طلب الإنظار ليس للتوبة والإنابة إلى الله وإنما للإغواء والانتقام ويظهر حقه في دعائه ربه: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [١٤] قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ [١٥] قَالَ فِيمَا أَعْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ [١٦] ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤-١٧].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَا تَخْذَنْ مِنْ عِبَادِكْ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [١١٨] وَلَا ضَلَالَنَّهُمْ وَلَا مَرْتَنَهُمْ فَلْيُبَيِّنَنَّ لَهُمْ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مُرَّتَهُمْ فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٨-١١٩].

(١) مسلم (٤/٢٢٥٨-٢٢٥٩)، كتاب «الفتن وأشرار الساعة»/ باب خروج الدجال ومكثه في الأرض.  
رقم (٢٩٤٠).

وفي قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

وقعوده بأطرقنا، قال ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعْدَ لَابْنِ آدَمَ بِأَطْرَقِهِ فَقَعْدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ: أَتَسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَأَبَاءَ أَبِيكَ، فَعَصَاهُ وَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعْدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهَجْرَةِ فَقَالَ: تَهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ وَإِنَّمَا مِثْلُ الْمُهَاجِرِ كَمِثْلِ الْفَرَسِ فِي الطَّوْلِ فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعْدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ: تَجَاهِدُ وَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَتَقَاتِلُ فَتَقْتُلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةَ وَيُقَسَّمُ الْمَالُ قَالَ فَعَصَاهُ فَجَاهَدُ»<sup>(١)</sup>.

ولخطورته حذرنا الله منه، بل لم يرد في التحذير من الطواغيت كالتحذير منه قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]. قال حاتم الأصم: «رَأَيْتُ كُلَّ أَحَدٍ لَهُ عَدُوٌّ فَمَنْ اغْتَابَنِي لَيْسَ بَعْدُوِي، وَمَنْ أَخَذَ مِنِّي شَيْئًا لَيْسَ بَعْدُوِي، بَلْ عَدُوِي مِنْ إِذَا كُنْتُ فِي طَاعَةٍ أَمَرَنِي بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَذَلِكَ إِبْلِيسُ وَجُنُودُهُ فَاتَّخَذْتَهُمْ عَدُوًّا وَحَارَبْتَهُمْ»<sup>(٢)</sup>.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

«أَيُّ لَا يَخْدَعُنْكُمْ بِاللَّهِ الشَّيْطَانُ فَيَمْنِيَكُمْ الْأَمَانِي وَيَعِدْكُمْ مِنَ اللَّهِ الْعِدَاتِ الْكَاذِبَةِ وَيَحْمِلْكُمْ عَلَى الْإِصْرَارِ عَلَى كُفْرِكُمْ بِاللَّهِ»<sup>(٣)</sup>.

وَالْغُرُورُ عَلَى وَزْنِ الْفَعُولِ وَفَعُولٍ مِنْ أَسْمَاءِ الْمُبَالَغَةِ... وَلِذَلِكَ قِيلَ لِلشَّيْطَانِ الْغُرُورُ

(١) أحمد (٤٨٣، ٣)، والنسائي (٦/ ٢١-٢٢)، كتاب «الجهاد»/ باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، قال ابن حجر: «إسناده حسن إلا أن في إسناده اختلافاً». «الإصابة» (٤/ ٢١٩)، وصحح إسناده العراقي. «تخريج الإحياء» (٣/ ٣٥).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٤٨٦).

(٣) «جامع البيان» (٢٢/ ١١٦).



لأنه يغر ابن آدم كثيرًا<sup>(١)</sup>.

أما غيره من الطواغيت فمهما حقدوا فلا يصل حقدهم إلى هذا الحد ولا قريب منه.

أساليب الشيطان ووسائله في حربه لابن آدم:

#### ١ - تزيين الشر:

ما زال الشيطان ولن يزال يزين الشر في قلوب الناس حتى يرغبوا فيه بل ويدافعوا عنه، قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].

فزين الشر لعاد وثمرود فصددهم عن الدين الحنيف، قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّن مَّسْكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وزين الكفر للناس. قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَنِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

وكذلك زين لهم الردة عن الإسلام. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

وزين لهم الشرك بالله وأزلهم عن التوحيد الذي فطرت عليه الناس بل وغير الناس من الحيوانات والطيور وغيرها، قال تعالى في خبر الهدهد مع سليمان عليه السلام: ﴿وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

وفي الحديث القدسي أن الله تعالى قال: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنيهم

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥ / ١٢٥).

أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا  
بِي مَا لَمْ أَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا»<sup>(١)</sup>.

فإن لم يستطع تزيين الشرك والكفر في قلوبهم زَيْنَ لهم البدع؛ لأن البدع شرٌّ من  
المعاصي وأعظمُ إثماً وأخطر على العابدين منها، فهو يفرح بها ويحبها وبقدر محبته لها يكون  
حبه لهلاك الإمام السني الذي يدفع البدع ويحاربها، قال ابن عباس رضي الله عنه: «والله ما أظن  
على ظهر الأرض اليوم أحداً أحبَّ إلى الشيطانِ هلاكاً مني. فقيل وكيف؟ فقال: والله إنه  
ليحدث البدعة في مشرق أو مغرب فيحملها الرجل إلىَّ فإذا انتهت إلىَّ قمعتها بالسنة فترد  
عليه»<sup>(٢)</sup>.

فإن لم يستطع تزيين البدعة زَيْنَ المعصية والعصية والعداوات بين الناس، قال تعالى:  
﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَيْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُضِدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ  
أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [المائدة: ٩١].

## ٢ - التشكيك في المعتقد:

من شدة عداوة الشيطان لبني آدم وحقده عليه يحرص على نسف عقيدته ودينه من  
أساسها فيتدرج في وسوسته حتى يقول: مَنْ خلق الله؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يأتي الشيطانُ  
أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه  
فليستعذ بالله وليتته»<sup>(٣)</sup>.

ولم ييأس هذا العدو من أحد حتى من أفضل البشر بعد الأنبياء وهم الصحابة رضي الله عنهم

(١) سبق تخريجه.

(٢) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (١/ ٥٥) رقم (١٢).

(٣) البخاري مع الفتح (٦/ ٣٣٦)، كتاب «بدء الخلق»/ باب صفة إبليس وجنوده. رقم (٣٢٧٦)، ومسلم

(١/ ١٢٠)، كتاب «الإيمان»/ باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها. رقم (١٣٤).

ولكن الله ردّه عنهم خاسئاً وهو حسير. فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إني أحدث نفسي بالشيء لأن آخر من السماء أحب إلي من أن أتكلم به فقال النبي ﷺ: «الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر، الحمد لله الذي ردّ كيده إلى الوسوسة»، وفي لفظ: «لأن يكون أحدنا حُمَمَةً أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ»<sup>(١)</sup>.

ومن أعجب ما فعل إبليس بأقوام يتسبون إلى الإسلام من أهل البدع أن زين لهم أن أصل دينهم هو الشك في الله تعالى وأنه لا طريق لهم إلى صحة دينهم إلا بهذا، فشكوا وما رجعوا.

### ٣- إنساؤه العبد ذكر الله:

إذا ذكر العبد ربه قوي إيمانه وضعف شيطانه فلا يستطيع إغواءه فماذا يفعل الشيطان؟ إنه يستحوذ عليه فينسيه ذكر الله لأجل أن يسيطر على قلبه ثم يغويه قال تعالى: ﴿أَسْتَحْذَوْا عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَانْسَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

### ٤- تخويفه المؤمنين من أهل الباطل:

لا يزال يخوف المؤمنين من الكفار حتى يتركوا شيئاً من دينهم ويجبنوا عن جهاد عدوهم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

### ٥- الغناء والموسيقى والمرأة والمشاركة في الأولاد:

من أساليبه في إغواء بني آدم إشاعة الغناء بينهم قال تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَلِّكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

وإذا رأيت حرص أعوان الشيطان على سفور المرأة وابتزازها علمت أنها من أعظم وسائل الشيطان قال النبي ﷺ مجلياً هذه الحقيقة «إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبَلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ وَتُدْبَرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ»<sup>(١)</sup>.

ومحذراً من فتنها أيما تحذير بقوله: «اتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»<sup>(٢)</sup>. وقوله: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضُرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»<sup>(٣)</sup>، وغير ذلك.

(١) مسلم (١٠٢١/٢)، كتاب «النكاح» / باب ندب من رأى امرأة فوقعت في نفسه إلى أن يأتي امرأته أو جاريته فيواقعها. رقم (١٤٠٣).

(٢) مسلم (٢٠٩٨/٤)، كتاب «الذكر» / باب أكثر أهل الجنة الفقراء. رقم (٢٧٤٢).

(٣) مسلم (٢٠٩٨/٤)، كتاب «الذكر» / باب أكثر أهل الجنة الفقراء. رقم (٢٧٤١).

## وَمَنْ عَبْدٌ وَهُوَ رَاضٍ.

قوله: (من عبد وهو راض) المعبودون من دون الله أو مع الله كثير وكثير. فقد عبدت الملائكة والرسل عليهم الصلاة والسلام والصالحون بل والطالحون الفاسدون المفسدون، وعبدت الأشجار والأحجار والكهوف وغير ذلك مما عظمه من انطمست بصيرته، فأعطوا تلك المعبودات حق الله تعالى فذلُّوا لها وعظموها وسجدوا لها، وقربوا لها القرابين وسبَّوا رب العالمين غيرة عليها، ونافحوا عنها واسترخصوا دماءهم وأموالهم من أجلها، كل ذلك لفرط محبتهم لها وخوفهم منها.

فمشركو العرب عبدت الملائكة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُوا لَكُمْ إِنَّا كُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠].

والنصارى عبدوا عيسى عليه السلام وزعموا أنه الله ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

واليهود عبدوا عزيزاً وزعموا أنه ابن الله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. والرافضة عبدوا علي بن أبي طالب وادعوا فيه الألوهية. قال الملطي: «فأولهم الغالية من السبئية وغيرهم وهم أصحاب عبد الله بن سبأ، قالوا لعلِّي عليه السلام: أنت أنت قال: ومن أنا؟ قالوا: أنت الخالق الباري»<sup>(١)</sup>.

وعُبدَ من يسمى (بالبدوي) داعية الدولة الفاطمية العبيدية، وعُبدَ (العيدروس) وغيرهم في بلاد الإسلام كثير ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) «التنبيه والرد» (٢٩)، وانظر: «مقالات الإسلاميين» (١٥).

وقد أحسن المؤلف رحمته صنعا حينما قيده بالرضى لأن المعبودات من دون الله أو مع الله قسبان:

١ - من عُبِدَ وهو راض: أي أنه عبد من دون أمره، ولكنه أعجبه ذلك فأظهر الرضى والموافقة لعابديه فلم يغضب ولم ينههم عن عبادته. بل بارك فعلهم إما بالسكوت وعدم الإنكار أو بتحسين الفعل وتصويبه، وهذا الصنف من الناس هو «الطاغوت»؛ لأنه رضى أن يُرَفَعَ فوق منزلته فيُعْطَى ما يختص الله به من الألوهية، ومن المعلوم أن منزلة العبد أن يكون عابداً وليس معبوداً. ومن أمثلة مَنْ عُبِدَ وهو راض: ما روي «أن بنت الحلاج أمرت بنت السمرى زوجة سليمان بن الحلاج أن تسجد لأبيها الحلاج، فقالت بنت السمرى: أو يسجد لغير الله، فسمعها الحلاج، ثم قال: نعم، إله في السماء، وإله في الأرض»<sup>(١)</sup>.

٢ - من عبد وهو غير راض: أي أنه عبد من دون إذنه ورضاه، ولما علم بذلك غضب ونهى عابديه وزجرهم وعاقبهم إن كانت لديه القدوة كما فعل علي بن أبي طالب رحمته. فهذا الصنف ليس بطاغوت لأنه لم يرض أن يُرَفَعَ فوق منزلته التي أنزله الله إياها. ولكن ينبغي أن يُعلم أن هؤلاء المعبودين الذين عبدوا بغير رضاهم لا يقع عليهم اسم الطاغوت؛ لأن عبادة عابديهم لا تقع عليهم بل تقع على الشياطين الذين أمروهم بعبادتهم وزينوها لهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾<sup>(٤٠)</sup> قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿سبأ: ٤٠-٤١﴾.

قال ابن كثير: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ يعنون الشياطين؛ لأنهم هم الذين زينوا لهم

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٣٣٧-٣٣٨).

عبادة الأوثان»<sup>(١)</sup>.

قال شيخ الإسلام: «وقد يعتقدون أنهم يعبدون الملائكة، وإن كانوا في الحقيقة إنما يعبدون الجن، فإن الجن هم الذين يعينونهم ويرضون بشركهم» ثم استدل بالآية السابقة، وقال: «والملائكة لا تعينهم على الشرك لا في المحيا ولا في الممات ولا يرضون بذلك»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن القيم: «ومن تلاعبه -أي الشيطان- بهم أن زينَ لقوم عبادة الملائكة فعبدوهم بزعمهم، ولم تكن عبادتهم في الحقيقة لهم ولكن كانت للشياطين، فعبدوا أقبح خلق الله وأحقهم باللعن والذم ثم استدل بهذه الآية»<sup>(٣)</sup>.

ولا يدخلون النار كغيرهم من المعبودات (الطواغيت) التي تدخل النار مع عابديها قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾<sup>(١٨)</sup> لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ ءَالِهَةً مَا وَرَدُوها وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ<sup>(١٩)</sup> لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨-١٠٠].

قال الطبري: جلس رسول الله ﷺ يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المسجد غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث، وكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبدالله بن الزبيري السهمي حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبدالله بن الزبيري: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبدالمطلب أنفًا وما قعد. وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حَصَبُ جَهَنَّمَ، فقال عبدالله بن

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١١٢٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٥٧/١).

(٣) «إغاثة اللهفان» (٢/٢٣٨).

الزبيري: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً أكل من عبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيزاً، والنصارى تعبد المسيح عيسى بن مريم. فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبدالله بن الزبيري ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: كل من أحب أن يُعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرهم بعبادته، فأنزل الله عليه ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٢] أي عيسى ابن مريم وعزيز ومن عبدوا من الأحرار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله<sup>(١)</sup>.

وأصله عند الحاكم عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال المشركون: الملائكة وعيسى وعزيز يعبدون من دون الله فقال: لو كان هؤلاء الذين يعبدون آلهة ما وردوها، قال فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

فثبت بهذه الآيات أن الذين لا يرضون أن يُعبدوا مع الله أو من دونه أنهم ليسوا بطواغيت ولا يدخلون النار مع من عبدوهم.

والملائكة لم يرضوا بتلك العبادة بل هم متبرؤون من أولئك العابدين ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ﴾ [سبأ: ٤١] فنزهوا الله عن أن يشرك معه أحد وكذلك عيسى يقول لربه عندما يسأله: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ

(١) «جامع البيان» (١٧/٩٦-٩٧).

(٢) «المستدرک» (٢/٣٨٤-٣٨٥)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال ابن القيم: «هذا

إسناد صحيح». «شفاء العليل» (١/٣٠٢).



أَقُولُ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّكَ إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ [المائدة: ١١٦].

وأما علي بن أبي طالب عليه السلام فإنَّ هول المفاجأة جعله يوقع بأولئك الذين قالوا له أنت الخالق البارئ أشد العقوبات زجرًا لهم وردعًا لأمثالهم.

قال المملطي: «فاستتابهم فلم يرجعوا فأوقد لهم نارًا ضخمة وأحرقهم وقال مرتجزًا: لما رأيت الأمر أمرًا مُنْكَرًا أججت ناري ودَعَوْتُ قَنْبَرًا»<sup>(١)</sup> وأصله في البخاري عن عكرمة قال: «أُتِيَ عَلِيٌّ عليه السلام بِزَنَادِقَةٍ فَأَحْرَقَهُمْ»<sup>(٢)</sup>.

ولما عبد قوم من الراوندية أبا جعفر المنصور قتلهم حين «أتوا قصره - المنصور - وجعلوا يطوفون به ويقولون: هذا قصر ربنا»<sup>(٣)</sup> وفي لفظ: «أقبلوا يصيحون بأبي جعفر أنت أنت، فخرج إليهم بنفسه فقاتلهم فأقبلوا يقولون وهم يقاتلون: أنت أنت»<sup>(٤)</sup>. وذلك أنهم يزعمون أن الأئمة سبعة، وأن سابعهم أبو جعفر المنصور<sup>(٥)</sup>.

ووجه كون من عبد وهو راض طاغوتًا أن منزلته أن يكون عبدًا عابدًا لله، فلما رفع فوق منزلته وصار معبودًا أقر ذلك الفعل، فصار طاغوتًا لتجاوزه حده الذي يجب أن يكون.

(١) «التنبيه والرد» (٢٩)، وانظر: «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة (٥٠)، و«فتح الباري» (١٢ / ٢٧٠) وحسن إسناده.

(٢) البخاري مع الفتح (١٢ / ٢٦٧)، كتاب «استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم» / باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم. رقم (٦٩٢٢).

(٣) «تاريخ الأمم والملوك» (٧ / ٢٥٤).

(٤) المرجع السابق (٨ / ٣٦٨).

(٥) انظر: «المنتظم» لابن الجوزي (٨ / ٢٩ - ٣٠).

## ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه.

انتقل المؤلف رحمه الله إلى الرأس الثالث من رؤوس الطواغيت وهو الذي يدعو الناس إلى أن يعبدوه مع الله أو من دونه بأي طريقة كانت، بالإجبار أو بافتعال مواقف ليدلّل فيها كما يزعم على أن له تأثيراً في حياة الناس، أو أنه يرى النار ويعلم مَنْ فيها، ويحكم لمريديه أنهم لن يدخلوا النار، بل يحكم بتحريم النار على كل مَنْ رآه ونحو ذلك. ووجه كونه طاغوتاً أنّه رفع نفسه فوق منزلته التي أنزله الله إياها فإن منزلته أن يكون عبداً فأصر إلا أن يكون معبوداً مشاركاً لله في ألوهيته.

والفرق بينه وبين الذي قبله أن الذي قبله لم يطلب من الناس أن يعبدوه، ولكنه رضي بها أو سر بها، وأما هذا فهو أعظم جرماً وأشدّ إثماً حيث طلب من الناس عبادته وتأليه، ولهذا هدّده الله بالعقوبة الشديدة، فقال بعد أن أثنى على الملائكة بأنهم عباد مكرمون يراعون أدب العبودية في القول، فلا يقولون حتى يقول: وإذا أمر فإذا هم مؤتمرون بأمره مطيعون له قد أكلت خشيته قلوبهم فهم منه مشفقون. ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْتِ إِلَهُ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]؛ أي: على وجه الفرض والتقدير<sup>(١)</sup> لو قال أحد الملائكة إني إله من دونه - وحاشاهم أن يقولوا ذلك - فستكون

(١) على وجه الفرض والتقدير. لأن الله خلق الملائكة مطيعين لا يعصون كما في قوله: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، وقوله: ﴿لَا يَسْقُوتُ عَلَيْهِمْ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] فلما صاروا بهذه المثابة لا يمكن أن يقع منهم الشرك.

وهذا نظير قوله تعالى عن الرسل ﷺ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وحاشاهم أن يشركوا وهم يدعون الناس إلى التوحيد ونبد الشرك ولكن هذا كله على سبيل الفرض والتقدير.

عقوبتهم جهنم جزاء على صنيعهم كغيرهم ممن ظلموا أنفسهم بالشرك وفي ذلك بيان خطورة الشرك وتفطيع أمره. وسبب هذه العقوبة الشديدة أنهم وضعوا الإلهية والعبادة في غير موضعها<sup>(١)</sup>.

قال السعدي: «وأيُّ ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص الفقير إلى الله من جميع الوجوه مشاركة الله في خصائص الإلهية والربوبية»<sup>(٢)</sup>.

وانظر كيف ختم الله الآية بقوله: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ وهذا «إشعار بظلم من يقول تلك العظيمة. كيف لا؟ وقد استهان برتبة الإلهية وجاوز بها مقامها الأسمى»<sup>(٣)</sup>.

ومن أمثلة هذا النوع من الطواغيت:

١ - إمامهم ومقدمهم فرعون، فإنه قال كما ذكره الله عنه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

٢ - كسرى كان أتباعه يعبدونه، ومن ذلك أنه أرسل رسولين ليأتياه بالنبى ﷺ فإذا هما قد حلقا لحاهما وأطلقا شواربهما فقال لهما النبى ﷺ: «من أمركما بهذا؟»، قال: أمرنا ربنا، يعنيان كسرى<sup>(٤)</sup>.

٣ - محمد بن علي السلمغاني. قال الذهبي: «وفي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة اشتهر محمد بن علي السلمغاني ببغداد، وشاع أنه يدعي الإلهية وأنه يحيى الموتى وكثر أتباعه»<sup>(٥)</sup>.

٤ - مشايخ الضلال الذين قال قائلهم: «إذا أنا مت فأتوني واسألوني حاجتكم فلا

(١) انظر: «فتح القدير» (٥١ / ٥).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٥٢١).

(٣) «محاسن التأويل» (١١ / ٤٢٦٥).

(٤) «البداية والنهاية» (٦ / ٤٨٦).

(٥) «العبر» (٢ / ١٩٠).

خير في رجل يحجبه عن أصحابه متر أو مترين من الأرض».

ومن أولئك أحمد زيني دحلان، فإنه كان يقول لبعض الناس: «لا تخافوا من شيء أبداً، وإذا حصل لكم ضيق في أي أمر كان، فنادوني واستغيثوا بي؛ فإنني أغيث الملهوف»<sup>(١)</sup>.

بل إنهم يعتقدون أن تصرف الولي بعد الموت أقوى منه حال الحياة قال محمد زاهد الكوثري (الولي في الدنيا كالسيف في غمده، فإذا مات تجرد منه، فيكون أقوى في التصرف)<sup>(٢)</sup>.

(١) «نفحة الرحمن في بعض مناقب مولانا أحمد زيني دحلان» (٣٣) نقلاً عن «الإنحرافات العقدية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجري» (١/ ٣٦٧). وانظر (الطبقات الكبرى) للشعراني (٢\_٥١٨).

(٢) إرغام المريد (٢٨).

## وَمَنْ ادَّعَى شَيْئاً مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ.

وقوله: ادَّعَى: أي قال كذباً.

ومنه قوله: ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ [المك: ٢٧] قال الحسن تكذبون من قولك تدعي الباطل وتدعي ما لا يكون.

والدَّعَى هو: ادعاء الولد غير أبيه، ومنه تنبأ الكذاب إذا ادعى النبوة<sup>(١)</sup>.

الغيب: الغين والياء والباء أصل صحيح يدل على تستر الشيء عن العيون<sup>(٢)</sup>.

فالغيب: هو ما غاب عنك مما لا يعلمه إلا الله مما كان ومما سيكون.

فادعاء الغيب: أن ينسب إلى نفسه معرفة أمر أخفاه الله عن الناس من غيبه فلم يطلع عليه أحد.

وعلم الغيب قد استأثر الله به وحده، فلم يأذن لأحد أن يشاركه فيه مهما علت مرتبته وعظمت ديانته، ولقد أوضح الله هذا وبينه بصيغ متنوعة؛ لتقطع النفس عن تطلُّبه والبحث عنه، ولئلا يُصدَّق مَنْ يدعيه ومن ذلك:

١ - الجمع بين النفي والإثبات. قال سبحانه: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا

اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

فنفي علم الغيب عن جميع أهل السموات والأرض، وأثبت الغيب له وحده، وهذه أبلغ صيغ الحصر.

٢ - تقديم ما حقه التأخير، كما في قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ

(١) «تهذيب اللغة» (٣/ ١٢٠).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٤/ ٤٠٣).

كُلُّهُ» [هود: ١٢٣]، وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

٣- حصر مفاتيح الغيب عنده. قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا

هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وهذه الآية دلت على حصر الغيب عند الله من وجهين:

أ- تقديم ما حقه التأخير.

ب- حصر المفاتيح عنده؛ لأن التوصل إلى كل شيء بطريق المفتاح، فإذا كان المفتاح لا يمكن معرفته فكيف بما في داخل الحجاب<sup>(١)</sup>.

وهذه المفاتيح ذكرها الله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

فالساعة مفتاح الآخرة، والغيث مفتاح عالم النبات، وما في الأرحام مفتاح عالم الحيوان، وما تكسبه النفس غداً مفتاح الأعمال، وخص غداً لأنه أقرب الأزمنة من المخاطب، فإذا خفي عليه فما بعده أخفى وأبعد عن معرفته، والموت مفتاح البرزخ<sup>(٢)</sup>.

وأكد على هذه المفاتيح نبينا محمد ﷺ فقال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: «شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري» للغنيان (١/ ١١١).

(٢) انظر: «بهجة النفوس» لابن أبي جمرة (٤/ ٢٧٢).

(٣) البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٦١)، كتاب «التوحيد» / باب قول الله تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾. رقم (٧٣٧٩).

٤ - حصر الغيب لله بأداة إنها. قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠].

٥ - النفي المباشر لعدم اطلاع الخلق على الغيب. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

فلا يطلع على شيء من غيبه إلا من شاء إطلاعه من رسله فقط، قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٦) إِلَّا مَنْ أَرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ [الجن: ٢٦-٢٧].

٦ - أمر الله نبينا محمدًا ﷺ بالاعتراف بعدم معرفة الغيب، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وكما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

٧ - اعتراف الرسل أجمع بعدم معرفة الغيب. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَْلَمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

٨ - اعتراف الملائكة أجمع بعدم معرفة الغيب. وذلك حينما قالوا: ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

قال القرطبي: «أي تنزيهاً لك عن أن يعلم الغيب أحد سواك»<sup>(١)</sup>.

فإذا كانت الرسل وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ وكذلك ملائكة الرحمن لا يعلمون الغيب فلا تصح دعوى غيرهم ممن هو دونهم بكثير؟

٩ - بيان جهل الجن بالغيب: الجن كغيرهم لا يعلمون الغيب، وإن ادعوا شيئاً منه،

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠ / ٢٨٥).

ومن أعظم ما يوضح ذلك أنهم لبثوا مدة طويلة يخدمون نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام بعد وفاته؛ لأنهم لم يعلموا بها حتى خرّ على الأرض بعد أن أكلت دابة الأرض عصاه قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سبأ: ١٤].

قال السعدي: «سقطت - أي العصا - فسقط سليمان عليه السلام، وتفرقت الشياطين وتبيّنت الإنس أن الجن ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ وهو العمل الشاق عليهم فلو علموا الغيب لعلموا موت سليمان الذي هم أحرص شيء عليه؛ ليسلموا مما هم فيه»<sup>(١)</sup>.

وهذه العقيدة استقرت في قلوب أصحاب النبي ﷺ، ومن بعدهم من المؤمنين قالت أمنا عائشة رضي الله عنها: «مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ فَقَدْ كَذَبَ»<sup>(٢)</sup>. تقصد رسول الله ﷺ.

«فمن ادعى مشاركة الله في شيء من ذلك بكهانة أو عرافة أو غيرها، أو صدّق من ادعى ذلك، فقد جعل لله شريكاً فيما هو من خصائصه، وقد كذب الله ورسوله، وكثير من الكهانة المتعلقة بالشياطين لا تخلو من الشرك والتقرب إلى الوسائط التي تستعين بها على دعوى العلوم الغيبية؛ فهو شرك من جهة دعوى مشاركة الله في علمه الذي اختص به، ومن جهة التقرب إلى غير الله»<sup>(٣)</sup>.

فإذا تقرر أنّ علم الغيب مما انفرد الله به وحده، ولم يشاركه فيه أحد لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ظهر ظهوراً بيناً لا خفاء فيه أنّ من ادعى شيئاً من علم الغيب فهو

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٧٩٤).

(٢) البخاري مع الفتح (٣٦١ / ١٣)، كتاب «التوحيد» / باب قول الله تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ

غَيْبِهِ أَحَدًا﴾. رقم (٧٣٨٠).

(٣) «القول السديد» (٨٤-٨٥).



طاغوت؛ لأنه تجاوز حدَّه بادعائه مشاركة الله في شيء من خصائصه، ولهذا أجمع العلماء على كفره.

قال المعصومي الخجندي: «اعلم أنَّ اعتقاد علم الغيب للميت والغائب واعتقاد علم الغيب لغير الله تعالى شركٌ وكفر... وقد اتفق جميع أهل العلم في هذا التكفير ولا أعلم أحدًا من أهل السنة والجماعة على خلافه»<sup>(١)</sup>.

ومن أمثلة هذا النوع من الطواغيت:

١ - السحرة والكهان والرمالون والمنجمون وقراء الفنجان ونحوهم.

ومن نماذج ادعاءات المنجمين خراب العالم في شعبان سنة ٥٨٢ هـ عند اجتماع الكواكب الستة في الميزان، وخيب الله ظنهم<sup>(٢)</sup>.

٢ - بعض المتصوفة:

يدعي بعض شيوخ التصوف أنهم يعلمون الغيب، ومن ذلك ما ادعاه الشيخ جاكير حيث قال: «ما أخذت العهد على مريد حتى رأيت اسمه مكتوبًا في اللوح المحفوظ وأنه من أولادي»<sup>(٣)</sup>.

وأدخل الشيخ دفعُ الله بن أبي إدريس مُريدَه المسلمي الخلوة سبعة أيام، وذبح له شاة، وأمره بأكلها، فخرج بعد هذه الأيام السبعة وهو ينظر في العالم من العرش إلى الفرش<sup>(٤)</sup>.

وأختم بكلام الدباغ حيث يقول: «إن الجنين إذا سقط من بطن أمه يراه العارف،

(١) «حكم الله الواحد الصمد» (١١٦-١١٧).

(٢) «البداية والنهاية» (١٦/٥٧٧).

(٣) «الطبقات الكبرى» للشعراني (١/١٢٧).

(٤) «طبقات ابن ضيف الله» (١١٠).

الكامل في تلك الحالة على الحالة التي يبلغ إليها عمره، وينتهي إليها أجله ويرى فيه جميع ما يدركه من خير أو شر حتى إنَّ مَنْ شَاهَدَهُ مُشَاهِدَةُ الْعَارِفِ لَوْ نَسَخَ جَمِيعَ مَا شَاهَدَهُ وَطَرَحَ النُّسخَةَ عَنْهُ وَجَعَلَ يَقَابِلُهَا مَعَ مَا يَظْهَرُ فِي الذَّاتِ وَجَدَهُمَا لَا يَخْتَلِفَانِ أَبَدًا فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ»<sup>(١)</sup>.

وهذه النقول وغيرها كثير تبين السبب الذي يجعل بعض الصوفية يصرون على قولهم بأن النبي ﷺ يعلم الغيب وما ذلك إلا ليجيزوا هذا لأنفسهم؛ إذ أنهم لو لم يقولوا بأن الرسول يعلم الغيب لما استطاعوا أن ينسبوه لأنفسهم.

---

(١) «الإبريز» (٢٦١).

## وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ.

خلق الله عباده وألزمهم بالتحاكم إليه فقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَىٰ

اللَّهِ﴾ [الشورى: ١].

وبيّن اختصاصه وتفرده بالحكم دون ما سواه فقال: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَفْضُلُ الْحَقُّ وَهُوَ

خَيْرُ الْفَصْلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧] وقال سبحانه: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]

وقال سبحانه: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

وجعل التحاكم إلى شرعه سمة تميز المؤمنين الصادقين عن غيرهم، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ

قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وخصهم بالفلاح فقال:

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، بل جعله شرطاً في صحة الإيمان، فقال: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ

فَرَدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وذلك أن الإيمان قولٌ وعمل فهو متضمن للتصديق والانقياد فتحكيم الشريعة إيمان

لأنه انقياد وخضوع لدين الله ورفض تحكيم الشريعة امتناع عن قبولها فهو كفر إباء

وامتناع ورد<sup>(١)</sup>.

وحصر التحاكم إلى شرعه مع انقياد القلب لذلك فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ

يُحَكِّمُوا فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

[النساء: ٦٥].

عن عروة بن الزبير: «أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير في شراج من الحرة ليسقي

(١) انظر: «نواقض الإيمان القولية والعملية» (٣٤٢).

به النخل، فقال رسول الله ﷺ: «اسق يا زبير - فأمره بالمعروف -، ثُمَّ أرسله إلى جارك» فقال الأنصاري: أن كان ابن عمك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: «اسق ثم احبس حتى ترجع الماء إلى الجذر»، واستوعى له حقه فقال الزبير: والله إن هذه الآية أنزلت في ذلك ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] <sup>(١)</sup>.

«فجعل ﷺ في هذه الآية من شرط الإيمان وصحته الانقياد لحكم رسوله ﷺ ودل على أن من خالفه غير منقاد للحق وغير ثابت بالإسلام» <sup>(٢)</sup>.

قال ابن القيم: «وأما الرضا بدينه فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضي كل الرضا، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه وسلم تسليماً، ولو كان مخالفاً لمراد نفسه أو هواها أو قول مقلده وشيخه وطائفته» <sup>(٣)</sup>.

ووصف المعرضين عن التحاكم إلى شرعه بعدم الإيمان، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ <sup>(٤٧)</sup> وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ <sup>(٤٨)</sup> وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْمَقُوتُ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُّدْعِينَ <sup>(٤٩)</sup> أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٤٧-٥٠]. «بين سبحانه أن من دعي إلى التحاكم إلى كتاب الله وإلى رسوله ﷺ فصد عن رسوله كان منافقاً... وليس بمؤمن، وأن المؤمن هو الذي يقول: سمعنا وأطعنا، فالنفاق يثبت، ويزول الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول ﷺ وإرادة التحاكم إلى غيره» <sup>(٤)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (٣٩/٥)، كتاب «المساقاة»/ باب شرب الأعلى إلى الكعبين. رقم (٢٣٦٢)، ومسلم

(٤/١٨٢٩-١٨٣٠)، كتاب «الفضائل»/ باب وجوب اتباعه ﷺ. رقم (٢٣٥٧).

(٢) «الحجة على تارك الحجة» لمحمد بن طاهر المقدسي (٣٩٣-٣٩٤).

(٣) «مدارج السالكين» (١١٨/٢).

(٤) «الصارم المسلول» (٣٧-٣٨).

وجعل الرغبة في التحاكم إلى غير شرعه من صفات أهل النفاق فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿[النساء: ٦٠-٦١].

ففي هذه الآية «التعجب من زعمهم أنهم مؤمنون، وما ذلك إلا لأن دعواهم الإيمان مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت بالغة من الكذب ما يحصل منه العجب»<sup>(١)</sup>.

وحصر التحاكم إليه رسوله ﷺ فقال: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ»<sup>(٢)</sup>. وترى على ذلك الصحابة، قال عمر بن الخطاب: «لَا تُسَمُّوا الْحَكَمَ وَلَا أَبَا الْحَكَمِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ»<sup>(٣)</sup>، فله الْحُكْمُ الكونيُّ القدريُّ فلا يكون شيئاً في الكون إلا ما قدره الله، وله الحكم الشرعي فلا حلال إلا ما أحل، ولا حرام إلا ما حرم، ولا دين إلا ما شرع، وله الحكم الجزائي فيجازي كُلاً بعمله.

وعلى وجوب التحاكم إلى الله وشرعه أجمع المسلمون. قال شيخ الإسلام: «ومعلوم باتفاق المسلمين أنه يجب تحكيم الرسول ﷺ في كل ما شجر بين الناس في أمر دينهم ودنياهم في أصول دينهم وفروعه، وعليهم كلهم إذا حكم بشيء أن لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما حكم ويسلموا تسليماً»<sup>(٤)</sup>.

وجه كونه طاغوتاً: لما كان التشريع خالص حق الله سبحانه صار من ادعاه فشرع

(١) «أضواء البيان» (٤/ ٨٣)، وانظر: «العذب النمير» (٥/ ٤٤٤-٤٤٨).

(٢) أبو داود (٥/ ٢٤٠)، كتاب «الأدب»/ باب في تغيير الاسم القبيح. رقم (٤٩٥٥)، والنسائي

(٨/ ٢٢٦-٢٢٧)، كتاب «آداب القضاة»/ باب إذا حكموا رجلاً ففضى بينهم، والبخاري في «الأدب

المفرد» (٢٨٢) رقم (٨١١). قال محققه الألباني: «صحيح».

(٣) «شرح السنة» (١٢/ ٣٤٤).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٣٧-٣٨) وانظر: (١٢/ ٣٣٩-٣٤٠).

للناس غير شرعه أو حكم بين الناس بغير حكمه وشرعه طاغوتًا؛ لأنه رفع نفسه أو رفعه غيره فوق منزلته التي أنزله الله إياها ويتضح ذلك من وجهين:

١ - «أن الحكم بما أنزل الله من توحيد الربوبية؛ لأنه تنفيذ لحكم الله الذي هو مقتضى ربوبيته وكمال ملكه وتصرفه. ولهذا سمي الله المتبوعين في غير ما أنزل الله تعالى أربابًا لمتبعيهم»<sup>(١)</sup>.

فمن اتخذ مع الله ندًا في التشريع أو اتخذ مشرعًا من دونه ارتضى حكمه وتشريعه، وألزم به عموم الرعية فقد أشركه معه قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

قال الشنقيطي: «لما كان التشريع وجميع الأحكام شرعية كانت أو كونيّة قدريّة من خصائص الربوبية كما دلّت عليه الآيات المذكورة كان كل من اتبع تشريعًا غير تشريع الله قد اتخذ ذلك المشرّع ربًّا، وأشركه مع الله»<sup>(٢)</sup>.

٢ - أن التحاكم إلى ما أنزل الله على رسوله ﷺ قرين عبادة الله وحده لا شريك له، ولذلك ربط الله بينهما بقوله: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠]. فكما أن إفراد الله بالعبادة حقه، فكذلك إفراده بالتشريع والحكم حقه أيضًا.

وبناءً على ذلك؛ فإن من لم يحكم بما أنزل الله فقد أشرك بالله غيره حيث أطاعه فيما حرم الله قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ لِيُجَدِّدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] فصرح بأنهم مشركون بطاعتهم إياهم شرًا أكبر مخرجًا عن ملة الإسلام بإجماع أهل العلم<sup>(٣)</sup>.

(١) «المجموع الثمين» للعثيمين (١/ ٣٣).

(٢) «أضواء البيان» (٧/ ١٦٩).

(٣) «العذب النمير» (٤/ ٢٣٢).

وهو المراد بعبادة الشيطان في قوله تعالى: ﴿لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَئِءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٦٠) وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ [يس: ٦٠-٦١] وقوله تعالى عن نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام: ﴿يَتَأْتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤] (١).

فليس المراد بعبادة الشيطان هو السجود له فإن هذا لم يكن معروفاً عند قوم إبراهيم عليه السلام، وإنما عبادة الشيطان بطاعته في التحليل والتحريم، ويوضحه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾، ثم وبَّخهم الله على ذلك قائلاً: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٢] أي أين عقولكم التي بها تهتدون أن الذي يطاع ويُتَّبَعُ شَرُّهُ ويمثل أمره هو خالق السموات والأرض لا إبليس الذي ليس بيده نفع ولا ضرر.

ولما كان التشريع والعبادة هما حق الله تعالى وحده صار من ادعاهما بتحكيم غير شرع الله طاغوتاً؛ لأنه رفع نفسه إلى منزلة المشرع، وهو الله مع أن منزلته أن يكون منفذاً لشرع الله على نفسه، وعلى مَنْ له ولاية عليه، لا أن يكون مشرعاً.

وقد أجمع العلماء على كفر من حكم بغير ما أنزل الله، ومن نقل الإجماع:

قال شيخ الإسلام: «والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه، أو حرم الحلال المجمع عليه، أو بدّل الشرع المجمع عليه كان كافراً مرتدّاً باتفاق الفقهاء، وفي مثل هذا نزل قوله تعالى على أحد القولين: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾» (٢) [المائدة: ٤٤].

وقال ابن كثير بعد أن ذكر شيئاً من أحكام (الياساق)، «وفي هذا كله مخالفة لشرائع الله المنزلة على عباده الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر فكيف بمن

(١) انظر: «أضواء البيان» (٣/ ٤٤٠) و(٤/ ٨٣)، وانظر: «فتاوى اللجنة الدائمة» (١/ ٥١٦)، و«الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد» للفوزان (٧٢-٧٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٦٧-٢٦٨).

تحاكم إلى (الياساق) وقدمه عليها؟ مَنْ فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين. قال الله تعالى:

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]<sup>(١)</sup>.

ولما ابتليت الأمة في العصور المتأخرة بتحكيم غير شرع الله انبرى العلماء لبيان حكمه، ومنهم:

١ - ما قاله الشيخ حمد بن عتيق، بعد أن نقل قول ابن كثير في التتار: «ومثل هؤلاء ما وقع فيه عامة البوادي ومن شأبهم من تحكيم عادات آبائهم، وما وضعه أوائلهم من الموضوعات الملعونة التي يسمونها شرع الرفاقة يقدمونها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله»<sup>(٢)</sup>.

٢ - قال الشيخ الشنقيطي بعد كلام سبق: «وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على السنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جل وعلا على لسان رسوله ﷺ: أنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته وأعماه عن نور الوحي مثلهم»<sup>(٣)</sup>.

٣ - وقال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ: «إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين في الحكم به بين العالمين، والرد إليه عند تنازع المتنازعين، مناقضة ومعاودة لقول

(١) «البداية والنهاية» (١٧ / ١٦٢ - ١٦٣).

(٢) «سبيل النجاة والفكاك» (٨٣ - ٨٤)، وانظر: «الدرر السنية» (٩ / ٢٥٧)، وانظر: كلام الشوكاني في «مجموع الرسائل السلفية» (٣٣ - ٣٤).

(٣) «أضواء البيان» (٤ / ٨٣ - ٨٤)، وانظر: (٣ / ٤٣٩).



الله عز وجل: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

ثم أفاض في ذكر الأدلة ووجه الاستدلال بها، ثم ذكر أنواع الكفر إلى أن قال: «الخامس وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة للشرع ومكابرة لأحكامه ومشاقة لله ولرسوله ومضاهاة بالمحاكم الشرعية إعداداً وإمداداً وإرصاداً وتأصيلاً وتفریعاً وتشكيلاً وتنويعاً وحكماً وإلزاماً ومراجع ومستندات، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهذه المحاكم مراجع هي القانون الملفق من شرائع شتى وقوانين كثيرة كالقانون الفرنسي والقانون الأمريكي والقانون البريطاني وغيرها من القوانين ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة وغير ذلك.

فهذه المحاكم في كثير من أمصار الإسلام مهياة مكملة مفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب إثر أسراب، يحكم حكاهما بينهم بما يخالف حكم السنة والكتاب من أحكام ذلك القانون وتلزمهم به وتقرهم عليه وتحتمه عليهم؛ فأى كفر فوق هذا الكفر؟ وأي مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله ﷺ بعد هذه المناقضة؟»<sup>(١)</sup>.

٤ - قال الشيخ محمد حامد فقي: «من اتخذ من كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها في الدماء والفروج والأموال ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله»<sup>(٢)</sup>.

٥ - وقد صرح بذلك الشيخ أحمد محمد شاكر فقال: «إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هي كفر بواح، لا خفاء فيه ولا مداورة، ولا عذر لأحد

(١) «تحكيم القوانين» (٥-٢١).

(٢) «تعليقاته على فتح المجيد» (٣٧٣)، باب قول الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠].

ممن ينتسب للإسلام - كائناً من كان - في العمل بها أو الخضوع لها، أو إقرارها، فليحذر امرؤ نفسه وكل امرئ حسيب نفسه»<sup>(١)</sup>.

٦- وقال الشيخ ابن باز بعد كلام سبق «وكل دولة لا تحكم بشرع الله ولا تنصاع لحكم الله ولا ترضاه، فهي دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة بنص هذه الآيات المحكمات يجب على أهل الإسلام بغضها ومعاداتها في الله وتحرم عليهم مودتها وموالاتها حتى تؤمن بالله وحده وتحكم شريعته»<sup>(٢)</sup>.

٧- وقال شيخنا محمد العثيمين: «فمن حكم شعبه بغير شريعة الله فإنه ماعدل، بل هو كافر والعياذ بالله، لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

فإذا وضع هذا الحاكم قوانين تخالف الشريعة وهو يعلم أنها تخالف الشريعة، لكنه عدل عنها وقال: أنا لأعدل عن القانون، فإنه كافر، ولو صلى، ولو تصدق، ولو صام، ولو حج، ولو ذكر الله، ولو شهد للرسول بالرسالة، فإنه كافر مخلد في نار جهنم يوم القيامة»<sup>(٣)</sup>.

٨- وقال الشيخ عبدالعزيز السلمان: «ولا شك أن من أعرض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ واعتاض عنهما بالقوانين الوضعية أنه كافر كفرةً ناقلاً عن الملة الإسلامية»<sup>(٣)</sup>.

وأختم بما قاله الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ بعد كلام سبق: «فتوحيد الله جل وعلا في الطاعة، وتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لا يكون إلا بأن

(١) «عمدة التفسير» (٤/ ١٧٤).

(٢) «نقد القومية العربية» (٥٠-٥١)، وانظر: «مجموع الفتاوى» له (٢/ ١٤٢).

(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٥٩).

(٣) «الكواشف الجليلة» (١٥٥).

يكون العباد محكمين لما أنزل الله جل وعلا على رسوله، فترك تحكيم ما أنزل الله على رسوله بحكم الجاهلية أو بحكم القوانين أو بحكم سوا ليف البادية أو بكل حكم مخالف لحكم الله جل وعلا هذا من الكفر الأكبر بالله جل جلاله، ومما يناقض التوحيد... فلا شك أن إفراد الله بالطاعة وإفراده بالحكم، وتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، كل ذلك يقتضي ألا يُحكَم إلا بِشَرِّهِ فلماذا كان الحكم بالقوانين الوضعية أو الحكم بسوا ليف البادية من الكفر الأكبر بالله جل وعلا<sup>(١)</sup>.

وقد وردت آثار عن السلف فهم منها بعضهم أن الحكم بغير ما أنزل الله إذا لم يكن استحلالاً أو تفضيلاً لحكم البشر على حكم الله كفرٌ أصغر لا يخرج عن الملة.  
ومن هذه الآثار:

ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «هي به كُفْرٌ وليس كَمَنْ كَفَرَ بالله وملائكته وكتبه ورسله»<sup>(٢)</sup> وقوله «كفر دون كفر».

وقال طاووس: «ليس بكفر ينقل عن الملة»<sup>(٣)</sup>.

وقال عطاء: «كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسوق دون فسوق»<sup>(٤)</sup>.

والإجابة عن هذا من وجوه:

الأول: أن كلام ابن عباس رضي الله عنه وغيره من السلف ليس فيمن ترك التحاكم إلى شرع الله بالكلية، وشرع قوانين استبدل بها شرع الله وإنما في القضية المعيّنة، ويدل ذلك أن هذا الكلام ورد في مناقشة الخوارج الذين كفّروا علياً رضي الله عنه بمجرد ما ظنوا أنه معصية

(١) «التمهيد شرح كتاب التوحيد» (٣٣٠-٣٣١).

(٢) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (٢/٧٣٤) رقم (١٠٠٥) تحقيق رضا نعيان.

(٣) المرجع السابق (٢/٧٣٥) رقم (١٠٠٦).

(٤) المرجع السابق (٢/٧٣٥) رقم (١٠٠٧).

حينما حَكَّم الحكمين، فقالوا: عليَّ حَكَّم الرجال فحكم بغير ما أنزل الله فهو كافر. فقال لهم ابن عباس رضي الله عنه تنزلاً مع مقاتلتهم حين ظنوا أن علياً رضي الله عنه حكم بغير ما أنزل الله: «ليس بالكفر الذي تذهبون إليه». قال سفيان: «أي ليس كفرًا ناقلاً عن الملة»<sup>(١)</sup>.

ويوضحه مناقشة الخوارج لأبي مجلز<sup>(٢)</sup> حينما أرادوا إلزامه بتكفير الأمراء في زمانه فقالوا: «يا أبا مجلز، رأيت قول الله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] أحق هو؟ قال: نعم. قالوا: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أحق هو؟ قال: نعم. قالوا: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أحق هو؟ قال: نعم. فقالوا: يا أبا مجلز فيحكم هؤلاء بما أنزل الله؟ قال: هو دينهم الذي يدينون به، وبه يقولون وإليه يدعون، فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً. فقالوا: لا والله ولكنك تفرق. قال: أنتم أولى بهذا مني، لا أرى، وإنكم أنتم ترون هذا ولا تخرجون، ولكنها أنزلت في اليهود والنصارى وأهل الشرك - أو نحواً من هذا»<sup>(٣)</sup>.

وفي رواية عمران بن حدير قال: قعد إلى أبي مجلز نفر من الإباضية قال: فقالوا له: يقول الله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

قال أبو مجلز: إنهم يعملون بما يعملون - يعني الأمراء - ويعلمون أنه ذنب. قال: وإنما أنزلت هذه الآية في اليهود والنصارى. قالوا: أما والله إنك لتعلم مثل ما نعلم، ولكنك

(١) المرجع السابق (٧٣٦/٢) رقم (١٠١٠).

(٢) أبو مجلز كان له صلة بعمر بن عبد العزيز أي أنه كان في عهد الدولة الأموية.

(٣) «جامع البيان» (١٠/٣٤٧-٣٤٨) رقم (١٢٠٢٥، ١٢٠٢٦).

تخشاهم. قال: أنتم أحق بذلك منا، أما نحن فلا نعرف ما تعرفون»<sup>(١)</sup>.

فالخوارج أرادوا أن يلزموا أبا مجلز «الحجة في تكفير الأمراء، لأنهم في معسكر السلطان، ولأنهم ربما عصوا أو ارتكبوا بعض ما نهاهم الله عن ارتكابه، ولذلك قال لهم في الخبر الأول: فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً. وقال لهم في الخبر الثاني: إنما يعملون بما يعملون ويعلمون أنه ذنب»<sup>(٢)</sup>.

إذاً فالمناقشة وقعت في بعض المعاصي التي ارتكبتها الأمراء فقط وذلك أنه لم يعرف أن حاكماً شرع تشريعات عامة وجعلها ملزمة للقضاء بها قبل التتار. وإنما الذي يقع معاص وظلم وجور لهوى أو شهوة يقع بها بعض الأمراء.

إذاً فلا يصح أن تنقل هذه الآثار وتطبق على واقع غير واقعها الذي قيلت فيه.

الثاني: أن العلماء فرقوا بين ما كان تشريعاً عاماً يلزم به الناس وما كان واقعة عين، فما كان تشريعاً عاماً فهو كفر مخرج من الملة كما سبق، وما كان واقعة عين وقعت لهوى وعصبية وشهوة فهي كفر دون كفر، وهي التي عنها ابن عباس رضي الله عنه<sup>(٣)</sup>.

قال شيخ الإسلام: «والحكم بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم هو عدل خاص، وهو أكمل أنواع العدل وأحسنها، والحكم به واجب على النبي صلى الله عليه وسلم وكل من اتبعه، ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر»، ثم بين حكم الواقعة المعينة فقال: «وأما من كان ملتزماً لحكم الله ورسوله باطنًا وظاهرًا، لكن عصي واتبع هواه، فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة»<sup>(٤)</sup>.

(١) المرجع السابق.

(٢) حاشية «جامع البيان» (١٠/ ٣٤٨) تحقيق محمود شاكر.

(٣) انظر: «توحيد الخلاق» (١٤٠).

(٤) «منهاج السنة» (٥/ ١٣١)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٣٨٨) حيث فرق بين التشريع العام وبين القضية المعينة.

وقال ابن القيم بعد أن ذكر الأقوال في الحكم بغير ما أنزل الله: «والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكافرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصياناً، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا كفر أصغر»<sup>(١)</sup>.

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم: «وأما القسم الثاني من قسمي كفر الحاكم بغير ما أنزل الله وهو الذي لا يخرج من الملة... وذلك أن تحمله شهوته وهواه على الحكم في القضية بغير ما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى، وهذا وإن لم يخرج كفرة عن الملة؛ فإنه معصية عظيمة أكبر من الكبائر»<sup>(٢)</sup>.

الثالث: أن الكفر في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾

[المائدة: ٤٤].

معرف بالألف واللام فهو الكفر الأكبر.

والقاعدة تقول: «إذا ورد الكفر معرفاً بالألف واللام فهو الكفر الأكبر، إلا إذا قيد أو جاءت قرينة تصرفه عن ذلك»<sup>(٣)</sup>.

وذكرها شيخنا العثيمين فقال: «إذا أطلق الكفر ولم يوجد له معارض فهو الكفر الحقيقي الأكبر»<sup>(٤)</sup>.

ولما سئل شيخنا محمد العثيمين هل هناك فرق بين المسألة المعينة التي يحكم فيها القاضي بغير ما أنزل الله وبين المسائل التي تعتبر تشريعاً عاماً؟

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٣٦).

(٢) «تحكيم القوانين» (٢٤).

(٣) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٣٧).

(٤) «شرح رياض الصالحين» (١/ ٢٢٩-٢٣٠).

أجاب بقوله: نعم هناك فرق، فإن المسائل التي تعتبر تشريعاً عاماً لا يتأتى فيها التقسيم السابق وإنما هي من القسم الأول فقط<sup>(١)</sup>. لأن هذا المشرع تشريعاً يخالف الإسلام إنما شرعه لاعتقاده أنه أصلح من الإسلام وأنفع للعباد.

والحكم بغير ما أنزل الله ينقسم إلى قسمين:

الأول:.....

«الثاني: أن يستبدل بحكم الله تعالى حكماً مخالفاً في قضية معينة دون أن يجعل ذلك قانوناً يجب التحاكم إليه فله ثلاث حالات:

الأولى: أن يفعل ذلك عالماً بحكم الله تعالى معتقداً أن ما خالفه أولى منه وأنفع للعباد أو أنه مساوٍ له، أو أن العدول عن حكم الله جائز، فهذا كافر كفراً مخرجاً عن الملة لما سبق في القسم الأول.

الثانية: أن يفعل ذلك عالماً بحكم الله معتقداً أنه أولى وأنفع، لكن خالفه بقصد الإضرار بالمحكوم عليه أو نفع المحكوم له، فهذا ظالم وليس بكافر وعليه يتنزل قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

الثالثة: أن يكون كذلك لكن خالفه لهوى في نفسه أو مصلحة تعود إليه فهذا فاسق وليس بكافر وعليه يتنزل قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]<sup>(٢)</sup>.

(١) أي الكفر الأكبر المخرج من الملة.

(٢) «المجموع الثمين» (١/ ٣٨).

**والدليل قوله تعالى:** ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]. **وهذا هو معنى «لا إله إلا الله».**

.....

﴿لَا إِكْرَاهَ﴾: لا نافية أي لن يدخل أحد ديناً مكرهاً بل عن اختياره.

وقيل: هي نفي بمعنى النهي: أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام وهي عامة في حق كل كافر على الصحيح<sup>(١)</sup> وعليه كثير من المفسرين<sup>(٢)</sup>.

وقيل هي: منسوخة بآيات القتال. وصوب الطبري عدم النسخ وقال: «إنما هو لا إكراه في الدين لأحد ممن حل قبول الجزية منه بأدائه الجزية ورضاه بحكم الإسلام»<sup>(٣)</sup>.

والإكراه: هو الإرغام على الشيء يقال: «أكرهته على الأمر إكراهاً أي حملته عليه قهراً»<sup>(٤)</sup>، فهو خلاف الرضا قال تعالى: ﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١].

﴿فِي الدِّينِ﴾: الألف واللام للعهد الذهني، أي: الدين المعهود عندكم أيها المؤمنون، وهو دين الإسلام.

ثم ذكر العلة في عدم إرغام الناس على الدخول في الإسلام وهي ظهور أدلته ووضوحها فقال: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾: لأن ظهور الأدلة ووضوحها تحمل المرء على الدخول في الإسلام من غير إكراه.

(١) «هداية الحيارى» (٢٩-٣٢).

(٢) «محاسن التأويل» (١/٢٥٦).

(٣) «جامع البيان» (٣/١٧).

(٤) «المصباح المنير» (٢٠٣).



وقد: هنا للتحقيق.

﴿تَبَيَّنَ﴾: أي وضح وظهر وتميز والقاعدة تقول: «كلما جاءت (مِنْ) بعد (تَبَيَّنَ) فإنها مضمنة معنى التميز أي تميز هذا من هذا»<sup>(١)</sup>.

﴿الرُّشْدُ﴾: الرشد نقيض الغي والضلال<sup>(٢)</sup> كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦].  
ويقابل الرشد بالشر كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]. وكذلك بالضرر كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١]، وذلك لأن الضرر والشر غاية الغي وثمرته<sup>(٣)</sup>.

فالرشد هو الإيمان وقيل الهدى وسداد الرأي، وقيل: إصابة الحق والصواب، وقيل: هو العلم بما ينفع والعمل به<sup>(٤)</sup>.

﴿مِنَ الْغَيِّ﴾: الغي خلاف الرشد ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ، فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١].  
قال الراغب: الغي جهل من اعتقاد فاسد قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾<sup>(٥)</sup> [النجم: ٢].

والضال: هو الذي يسلك الطريق بغير علم، وأما الغاوي: فهو العالم بالحق العادل عنه قصدًا إلى غيره<sup>(٦)</sup>، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ

(١) «تفسير القرآن الكريم» للعثيمين (١/ ٢٦٤).

(٢) «تهذيب اللغة» (١١/ ٣٢١) وانظر: «معجم مقاييس اللغة» (٤/ ٣٩٩).

(٣) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٦٨).

(٤) «جامع البيان» (٣/ ١٨)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥٦٩)، و«إغاثة اللهفان» (٢/ ١٦٨).

(٥) «المفردات» (٣٦٩)، وانظر: «الصحاح» (٦/ ٢٤٥٠).

(٦) «تفسير القرآن العظيم» (١٣٠٨).

الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿[الأعراف: ١٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا إِلَّا نَسْنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

«فبظلمه يكون غاويًا وبجهله يكون ضالًا. وكثيرًا ما يجمع الله بين الأمرين فيكون ضالًا في شيء غاويًا في شيء آخر»<sup>(١)</sup>.

فالغيُّ عمل يضر صاحبه، قال تعالى ذاكراً مقولة الشيطان ﴿وَلَا تُغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]. وذلك بأن يأمرهم بالشر الذي يضرهم فيطيعون<sup>(٢)</sup>. والمراد به في الآية هو الكفر.

وتبين الرشد من الغي بما يلي:

- ١ - بالكتاب: قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].
  - ٢ - بالسنة القولية والفعلية: وذلك أن النبي ﷺ بلغ الدين وبينه أتم بيان، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ﴾ [النحل: ٤٤].
  - ٣ - بما نقله إلينا سلفنا الصالح صحابة رسول الله ﷺ فإنهم شاهدوا التنزيل، وفهموا مراد الله ورسوله ﷺ، ومن ثم نقلوا الدين إلينا مبينين معانيه ومراميها.
- ﴿فَمَنْ﴾: الفاء للتفريع أي: أنه لم يبق بعد التبيين إلا الكفر بالطاغوت.
- وَمَنْ: شرطية.

﴿يَكْفُرُ﴾: فعل الشرط، والكفر في اللغة: مأخوذ من الستر والتغطية، أي: ينكر الطاغوت ويتبرأ منه ويعاديه.

﴿بِالطَّاغُوتِ﴾: الباء للإلصاق أي يلصق العبد الكفر بالطاغوت، وذلك بأن تبلغ الغاية في إثبات معاني الكفر به من بغضه وعداوته والبراءة منه.

(١) «جامع الرسائل / المجموعة الأولى» (٢٢٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٥٦٩ / ١٠).

والطاغوت: كل ذي طغيان على الله عبد من دونه إما بقهر منه لمن عبده وإما بطاعة له ممن عبده كائنًا ما كان من شيء<sup>(١)</sup>.

﴿وَيُؤْمِرُ بِاللَّهِ﴾: والإيمان بالله هو الإقرار به والعمل بجميع أوامره. ولم يكتف بقوله (فمن يكفر بالطاغوت) لأن الكفر تَحَلُّ وَعَدَمٌ فلا بد من إيجاد، والإيجاد هو الإيمان بالله ولذلك قال: ﴿وَيُؤْمِرُ بِاللَّهِ﴾ فلا بد منها جميعًا لأنه لا يصح دين الإسلام إلا بالبراءة من الطواغيت وتكفيرهم مع الإيمان بالله. ومن فوائد هذه الآية:

- ١ - أن من آمن بالله ولم يكفر بالطاغوت فليس بمؤمن.
- ٢ - أن كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت؛ لأن الله تعالى جعل الكفر بالطاغوت قسيمًا للإيمان بالله وقسيم الشيء غير الشيء بل هو منفصل عنه.
- ٣ - أنه ليس هناك إلا رشد أو غي لأنه لو كان هناك ثالث لذكر لأن المقام مقام حصر، ويدل له قوله تعالى: ﴿فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]. وقوله: ﴿وَإِنَّا أُولِيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]<sup>(٢)</sup>.

﴿فَقَدْ﴾: الفاء رابطة لجواب الشرط المقدر؛ لأنه مقترن بقد. وقد: حرف تحقيق.

﴿أَسْتَمْسِكَ﴾: الهمزة والسين والتاء للتأكيد والمبالغة في التمسك كقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَمْسِكَ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ [الزخرف: ٤٣]. أي تمسك تمسكًا بالغًا، قال ابن كثير: «أي فقد ثبت في أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم»<sup>(٣)</sup>.

(١) «جامع البيان» (٣/ ١٩).

(٢) «تفسير القرآن الكريم» للعثيمين (٣/ ٢٦٧-٢٦٨).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٢٠٢).

﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾: العروة في الأصل: موضع شد اليد، وأصل المادة تدل على التعلق، ومنه قولهم: (اعتراه الهم) أي: تعلق به، و﴿الْوُثْقَى﴾ من الوثاقة، على وزن فُعْلَى للتفضيل، وهي صفة للعروة أي: العروة الأشد الأحكم القوية التي بها النجاة، وهي الإسلام، ولذلك فسرهما مجاهد والسدي بـ (الإسلام)، وفسرها سعيد بن جبير بـ: «لا إله إلا الله»، وقال سالم بن أبي الجعد: «الحب في الله والبغض في الله»<sup>(١)</sup>، وكل هذه الأقوال تدور حول معنى واحد وهو: لا إله إلا الله فلا منافاة بينها.

﴿لَا أَنْفِصَامَ لَهَا﴾: لا: نافية للجنس. وأصل الفَصْم هو الكسر، أي: لا انقطاع لها وهي حال من العُرْوَةِ أي لا انقطاع لها؛ لأنها محكمة قوية.

قال الطبري: «ومعنى الكلام فمن يكفر بالطاغوت، ويؤمن بالله فقد اعتصم من طاعة الله بما لا يخشى مع اعتصامه خذلانه إياه وإسلامه عند حاجته إليه في أهوال الآخرة، كالتمسك بالوثيق من عرى الأشياء التي لا يخشى انكسار عراها»<sup>(٢)</sup>.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: سميع لإيمان المؤمن به وحده الكافر بالطاغوت عند إقراره بالوحدانية لربه ومولاه وتبرئه من الأنداد والطواغيت التي تعبد من دون الله.

﴿عَلِيمٌ﴾ بما عزم عليه من توحيد الله والإخلاص له، وما انطوى عليه قلبه من البراءة من الأصنام والطواغيت صحةً وعدمًا لا ينكتم عنه سرٌّ ولا يخفى عليه أمر فيجازي المرء يوم القيامة بما نطق به لسانه وانطوى عليه قلبه.

وجملة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: ذكرت لحمل الناس على الإيمان الصادق بالله والردع عن الكفر والنفاق؛ لأنه إذا كان الله يسمع ما نقول فلنقل الحق، وإذا كان الله يعلم ما في قلوبنا فلنصدق معه وليطابق ما نقوله بألسنتنا ما نعتقد في قلوبنا، وبهذا تكون النجاة.

(١) «جامع البيان» (٣/ ٤٢٢).

(٢) المرجع السابق (٣/ ٢٠).

وفي الحديث: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»<sup>(١)</sup>.

وفي آخر الكتاب ختم ﷺ بعلاج المعوقات النفسية والداخلية والخارجية، فقال: «وفي الحديث: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله».

فأما معوقات النفس: فعالجها بالتوحيد والصلاة: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة»، فالتوحيد يصلح القلب والعمل، فيعلق القلب بالله وحده، ومن ثم يصلح العمل، وأما الصلاة؛ فإنها تنهاه عن الفحشاء والمنكر، فلا يقع في الفواحش والمنكرات، ومن ثم تستقيم حاله.

أما المعوقات الداخلية: أي المعوقات داخل المجتمع المسلم من المنافقين وأهل البدع والطواغيت، وكذلك المعوقات الخارجية من الكفار المحاربين فعالجها بالجهاد، فقال: «وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله».

جهاد المنافقين والطواغيت وأهل البدع في الداخل بالحجة والبيان، في الرد على باطلهم، وكشف شبههم، وفضح مخططاتهم.

وجهاد الكافرين المحاربين بالسيف والسنان.

قوله: رأس الأمر: أي أعلى هذا الأمر، قال الليث: رأس كل شيء أعلاه<sup>(٢)</sup>.

(١) أحمد (٢٣١/٥)، والترمذي (١١/٥-١٢)، كتاب «الإيمان» / باب ما جاء في حرمة الصلاة. رقم (٢٦١٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/١٣١٤)، كتاب «الفتن» / باب كف اللسان في الفتنة. رقم (٣٩٧٣)، وقال شيخ الإسلام: «حديث صحيح». «مجموع الفتاوى» (١٧/٢٦)، وقال ابن القيم: «حديث صحيح». «إعلام الموقعين» (٤/٣١٠).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٣/٦٣).

الأمر: الألف للعهد رأس الأمر المعهود عند السامعين هو الإسلام أي أعلى ما أمرتم به هو الإسلام.

والمقصود به الشهادتان فهما رأس الدين وأعلاه وأساسه بدليل قوله ﷺ في الرواية الأخرى: «إِنَّ رَأْسَ هَذَا الْأَمْرِ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»<sup>(١)</sup>.

قال شيخ الإسلام بعد أن ذَكَرَ أَصْلِي الدين: «وهذان الأصلان هما تحقيق الشهادتين اللتين هما رأس الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله»<sup>(٢)</sup>.

«فمن لم يقر بهما باطنًا وظاهرًا فليس من الإسلام في شيء»<sup>(٣)</sup>، وذلك لأن «شهادة أن لا إله إلا الله متضمنة عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه وهو الإسلام العام الذي لا يَقْبَلُ اللهُ من الأولين والآخرين دينًا سواه»<sup>(٤)</sup>.

وقوله: (وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ): العمود: عمود الأمر قوامه الذي لا يستقيم إلا به<sup>(٥)</sup>.

فعمود الشيء: هو ما يرتكز عليه ولا يقوم إلا به وعمود كل شيء بحسبه.

شبه الإسلام بالخيمة فعمود الخيمة هو ما تقوم عليه، ويكون في وسطها، فإذا أقيم انتفع بالطنب والأوتاد، أما إذا أزيل العمود سقطت الخيمة ولم ينتفع بها ولا أطناها ولا أوتادها.

ولما كان عمود كل شيء بحسبه صار عمود الدين الذي يقوم عليه أمر الدين من

(١) أحمد (٥/٢٤٥).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/٣٧٣-٣٧٤).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/٨١٢).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٣/١٥).

(٥) «العين» (٢/٥٨) و«معجم مقاييس اللغة» (٤/١٣٨).

الأعمال هو الصلاة.

ولأجل هذا عظم الله قدرها تعظيماً يتجلى من خلال ما يلي:

١ - أن الله فرض الصلاة على نبيه موسى عليه الصلاة والسلام بعد التوحيد مباشرة فقال: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٣-١٤].

وكذلك نبينا محمد ﷺ أول ما فرض الله عليه بعد التوحيد هو الصلاة، وذلك حين عرج به إلى السموات، ولم يفرض عليه من الأعمال في السماء غيرها.

وهذا يدل على عظم شرفها. قال الإمام محمد بن نصر المروزي: «إن الصلاة لم تنزل مفتاح شرائع دين الإسلام وعقده لا تزول عنه أبداً، لم تنزل مقرونة بالإيمان في دين الملائكة والأنبياء والخلق أجمعين، لم يكن لله ﷻ دين غيرها قط وسائر الفرائض ليس كذلك... فهي أشهر معالم التوحيد مناراً بين ملة الإسلام وملة الكفر لن يستحق دين الإسلام ومشاركة أهل الملة. ومباينة ملة الكفر إلا بإقامتها فإن تركتها العامة انطمس منار الدين كله فلا يبقى للدين رسم ولا علم يعرف به»<sup>(١)</sup>.

٢ - أن الله أول ما أثنى على عباده المؤمنين أثنى عليهم بحرصهم على الصلاة وخشوعهم فيها فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

ثم ختم تلك الصفات بذكر الصلاة مرة أخرى إعظاماً لقدرها في القربة إليه فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩].

وعقبها بذكر ما أعد الله لهم من جزيل الثواب في جنات النعيم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠-١١].

(١) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ١٠٠٢-١١٠٣)، وانظر ما سطرته يراع ابن القيم في بيان قدر الصلاة. «الصلاة» (٢١٢).

٣- أن الله لما ذكر الأخلاق المذمومة من الهلع والجزع ومنع الخير لم يبرئ أحداً من الناس قبل المصلين حيث قال: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ [المعارج: ٢٢-٢٣].

ثم أعاد ذكرهم مرة أخرى مبيناً مآلهم الحميد فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٣٤) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَّمُونَ [المعارج: ٣٤-٣٥].

٤- أن تارك الصلاة كافر خارج عن الملة لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً بدليل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضي الله عنهم (١).

وأدلة كفر تارك الصلاة كثيرة منها:

أ- قوله تعالى: ﴿أَفَجَعَلُ الْمُشْرِكِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَنُ عَلَيْنَا بَلِغَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ رَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خِشَعَةً أَعْرَضُوهُمْ تَرَهِّفُهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ [القلم: ٣٥-٤٣]، لما امتنعوا من السجود لله في الدنيا عجزوا عن السجود لله في الآخرة. قال عليه السلام: «فياأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رآوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء، فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه، فيقولون: الساق، فيكشف عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعةً، فيذهب كيما يسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً». زاد مسلم: «كلما أراد أن يسجد خر على قفاه» (٢).

قال شيخ الإسلام: «إنما يصف سبحانه بالامتناع عن السجود الكفار كقوله: ﴿يَوْمَ

(١) «الصلاة» لابن القيم (٤٩).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣ / ٤٢١)، كتاب «التوحيد» / باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ.

رقم (٧٤٣٩)، ومسلم (١ / ١٦٧-١٧١)، كتاب «الإيمان» / باب معرفة طريق الرؤية. رقم (١٨٣).



يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ»<sup>(١)</sup> [القلم: ٤٣]. وذلك أنهم كانوا ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨].

وقال ابن القيم مبيناً وجه الدلالة من الآيات: «أنه سبحانه أخبر أنه لا يجعل المسلمين كالمجرمين، وأن هذا الأمر لا يليق بحكمته ولا بحكمه، ثم ذكر أحوال المجرمين الذين هم ضد المسلمين فقال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٣]. وأنهم يدعون إلى السجود لربهم تبارك وتعالى فيحال بينهم وبينه فلا يستطيعون السجود مع المسلمين في دار الآخرة عقوبة لهم على ترك السجود له مع المصلين في دار الدنيا.

وهذا يدل على أنهم مع الكفار والمنافقين الذين تبقى ظهورهم إذا سجد المسلمون كصيافي البقر ولو كانوا من المسلمين لأذن لهم بالسجود»<sup>(٢)</sup>.

ب- قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾<sup>(٣)</sup> وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى» [القيامة: ٣١-٣٢].

«لما كان الإسلام تصديق الخبر والانقياد للأمر جعل سبحانه له ضدين، عدم التصديق وعدم الصلاة، وقابل التصديق بالتكذيب، والصلاة بالتولي فقال: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة: ٣٢].

فكما أن المكذب كافر فالتولي عن الصلاة كافر، وكما يزول الإسلام بالتكذيب يزول بالتولي عن الصلاة»<sup>(٤)</sup>. قال الإمام أحمد: «اعلم أن حظك من الإسلام وقدر الإسلام عندك بقدر حظك من الصلاة، وقدرها عندك، واحذر أن تلقى الله عز وجل ولا قدر للإسلام عندك»<sup>(٤)</sup>.

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦١١).

(٢) «الصلاة» (٥٠).

(٣) المرجع السابق (٥٩).

(٤) «طبقات الحنابلة» (١/ ٣٥٤).

ومن السنة:

١ - قول النبي ﷺ: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ»<sup>(١)</sup>.

هذا الحديث دليل على أن تارك الصلاة كافر كفرًا ناقلًا عن الملة؛ لأن النبي ﷺ ذكر الشرك والكفر معرّفًا بالألف واللام<sup>(٢)</sup> لأن «تصدير الاسم بالألف واللام مؤذن بحصول كمال المسمى، فإنك إذا قلت: زيد العالم الصالح أفاد ذلك إثبات كمال ذلك له بخلاف قولك: زيد عالم صالح»<sup>(٣)</sup>.

قال الشوكاني في بيان حكم تارك الصلاة: «والحق أنه كافر يقتل، أما كفره فلا أن الأحاديث قد صحت أن الشارع سمى تارك الصلاة بذلك الاسم، وجعل الحائل بين الرجل وبين جواز إطلاق هذا الاسم عليه هو الصلاة، فتركها مقتض لجواز الإطلاق»<sup>(٤)</sup>.  
ويؤكد الشيخ الشنقيطي الاستدلال بهذا الحديث على أن تارك الصلاة كافر فيقول: «وهو واضح - أي الحديث السابق - في أن تارك الصلاة كافر؛ لأن عطف الشرك على الكفر فيه تأكيد قوي لكونه كافرًا»<sup>(٥)</sup>.

ومثله كذلك قول النبي ﷺ: «بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ الصَّلَاةُ، فَإِذَا تَرَكَهَا فَقَدْ أَشْرَكَ»<sup>(٦)</sup>.

(١) مسلم (١/ ٨٨)، كتاب «الإيمان»/ باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة. رقم (٨٢)، وقد استوفى طرقه محمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٧٣-٨٧٧).

(٢) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٣٧).

(٣) «الصلاة» لابن القيم (٦١).

(٤) «نيل الأوطار» (١/ ٢٩٢).

(٥) «أضواء البيان» (٤/ ٣١١).

(٦) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٨٢٢) رقم (١٥٢١)، وقال اللالكائي: «إسناده صحيح على شرط مسلم»، وقال المنذري: «إسناده صحيح». «الترغيب والترهيب» (١/ ٣٧٩).

حيث جعل الصلاة فاصلاً بين الإيمان والكفر.

٢- حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه عند مبايعتهم النبي ﷺ وفيه: وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: «إلا أن تروا كفراً بواحاً، عندكم من الله فيه برهان»<sup>(١)</sup>.

فقيد جواز المنازعة بالكفر البواح ثم بينه ﷺ بقوله: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»، قيل: يا رسول الله، أفلا ننابذهم بالسيف؟ قال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة»<sup>(٢)</sup>. وفي رواية: «لا ما صلوا»<sup>(٣)</sup>.

فدل هذا الحديثان بمجموعهما على أن ترك الصلاة كفر بواح؛ لأن النبي ﷺ علق جواز الخروج بالكفر البواح، ثم أجاز به بتركهم الصلاة فصار الحديث الثاني مفسراً للكفر البواح المذكور في الحديث الأول<sup>(٤)</sup>.

٣- قول النبي ﷺ في حديث معاذ الطويل وفيه: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله».

استدل الإمام أحمد بهذا الحديث على أن تارك الصلاة كافر. وذلك أنه «إذا سقط العمود سقط الفسطاط، ولم ينتفع بالطنب ولا بالأوتاد، وإذا قام عمود الفسطاط انتفعت

(١) البخاري مع الفتح (٥ / ١٣)، كتاب «الفتن» / باب قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أموراً تنكرونها». رقم (٧٠٥٥-٧٠٥٦)، ومسلم (١٤٧٠-١٤٧١)، كتاب «الإمارة» / باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية. رقم (١٧٠٩)، واللفظ له.

(٢) مسلم (١٤٨١ / ٣)، كتاب «الإمارة» / باب خيار الأئمة وشرارهم. رقم (١٨٥٥).

(٣) مسلم (١٤٨٠ / ٣)، كتاب «الإمارة» / باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع، وترك قتالهم ما صلوا. رقم (١٨٥٤).

(٤) انظر: «أضواء البيان» (٣١١-٣١٥ / ٤).

بالطنب والأوتاد، فكذاك الصلاة من الإسلام»<sup>(١)</sup>.

قال ابن القيم: «أخبر النبي ﷺ أن الصلاة من الإسلام بمنزلة العمود الذي تقوم عليه الخيمة فكما تسقط الخيمة بسقوط عمودها فهكذا يذهب الإسلام بذهاب الصلاة وقد احتج أحمد بهذا بعينه»<sup>(٢)</sup>؛ أي على كفر تارك الصلاة.

٤ - قول النبي ﷺ: «أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة»<sup>(٣)</sup>.

قال الإمام أحمد: «فصلاتنا آخر ديننا، وهي أول ما نُسأل عنه غداً من أعمالنا، فليس بعد ذهاب الصلاة إسلام ولا دين، فإذا صارت الصلاة آخر ما يذهب من الإسلام، فكل شيء يذهب آخره، فقد ذهب جميعه»<sup>(٤)</sup>.

٥ - عن عبدالله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف»<sup>(٥)</sup>.

ووجه الاستدلال: أن من حرم النور والنجاة والبرهان يوم القيامة، وحشر مع أخبث الكفرة: فرعون وهامان وأبي بن خلف فهو كافر. قال الطريفي: «وهذا من أوضح الأدلة على كفر تارك الصلاة»<sup>(٦)</sup>.

(١) «طبقات الحنابلة» (١/ ٣٥٤).

(٢) «الصلاة» (٧٢-٧٣).

(٣) «مسند الشهاب» (١/ ١٥٥-١٥٦) رقم (٢١٦، ٢١٧)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٣١٩). ورواه ابن أبي شيبه موقوفاً على ابن مسعود «المصنف» (١٤/ ١٠٢) رقم (١٧٧٢٧).

(٤) «طبقات الحنابلة» (١/ ٣٥٤).

(٥) أحمد (٢/ ١٦٩). وقال ابن عبد الهادي: «إسناد هذا الحديث جيد». «تنقيح التحقيق» (٢/ ١٢٦٧).

(٦) «صفة صلاة النبي ﷺ» (١٦)، وليس المقام مقام بسط الأدلة ومن أراد الاستزادة فليُنظر: «تعظيم قدر الصلاة» للمروزي، و«الصلاة» لابن القيم، و«البيان والإيضاح في حكم تارك الصلاة» منصور السماري.

## الإجماع:

أجمع الصحابة رضي الله عنهم على كفر تارك الصلاة، ومن نقل الإجماع أبو هريرة رضي الله عنه حيث قال: «كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة»<sup>(١)</sup>. وكذلك نقله عبد الله بن شقيق التابعي الجليل حيث قال: «كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة»<sup>(٢)</sup>.

وإسحاق بن راهويه حيث قال: «قد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تارك الصلاة كافر، وكذلك كان رأي أهل العلم من لدن النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا أن تارك الصلاة عمداً من غير عذر حتى يذهب وقتها كافر»<sup>(٣)</sup>. وأيوب السخيتاني قال: «ترك الصلاة كفر لا يختلف فيه»<sup>(٤)</sup>.

وبمثلهم قال الحسن البصري: «بلغني أن أصحاب رسول الله كانوا يقولون: بين العبد وبين أن يُشرك فيكفر أن يدع الصلاة من غير عذر»<sup>(٥)</sup>.  
وأما قوله: (وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله)  
الذروة: أعلى السنام وغيره والجمع ذرى<sup>(٦)</sup> وذروة كل شيء: أعلاه<sup>(٧)</sup>.

- 
- (١) «المستدرک» للحاکم (١/ ٤٧)، وقال الذهبي: «إسناده صالح».
- (٢) الترمذي (٥/ ١٤)، كتاب «الإيمان»/ باب ما جاء في ترك الصلاة. رقم (٣٦٢٢)، و«تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٩٠٥)، وصحح إسناده النووي في «رياض الصالحين» (٣٨٢). رقم (١٠٨٧)، والعراقي في «طرح الثريب» (٢/ ١٤٦).
- (٣) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٩٢٩) رقم (٩٩٠).
- (٤) المرجع السابق (٢/ ٩٢٥) رقم (٩٧٨).
- (٥) «السنة» للخلال (٤/ ١٤٢) رقم (١٣٧٢)، و«الإبانة» لابن بطة (٢/ ٦٧٣) رقم (٨٧٧)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٨١٦) رقم (١٥٠٣).
- (٦) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٣٥٢).
- (٧) «تهذيب اللغة» (١٥/ ٨).

فأعلى ما فيه وأرفعه هو الجهاد<sup>(١)</sup>، وجعله ذروة السنام؛ لأن به يعلو الإسلام، قال تعالى مبيناً ارتباط علو المسلمين بالجهاد: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

وقيده ﷺ بكونه في سبيل الله؛ لأن المرء قد يدعوه إلى الجهاد الشجاعة والمغنم والحمية وليرى مكانه، وهذا كله لا يغني عن صاحبه شيئاً، ولهذا لما سئل ﷺ عن الرجل يقاتل حميةً، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياءً، فأَيُّ ذلك في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن القيم: «ولما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة كما لهم الرفعة في الدنيا، فهم الأعلون في الدنيا والآخرة. كان رسول الله ﷺ في الذروة العليا منه واستولى على أنواعه كلها، فجاهد في الله حق جهاده بالقلب والجنان والدعوة والبيان والسيف والسنان، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده، ولهذا كان أرفع العالمين ذكراً وأعظمهم عند الله قدراً»<sup>(٣)</sup>.

والجهاد في سبيل الله على وجهين:

١ - جهاد المنافقين وأهل البدع في الداخل بالحجة والبيان باللسان وكتابة المقالات في بيان باطلهم وكشف شبههم وألأعيبهم وفضح خططهم لحرب الدين وأهله، وهذا واجب على من يستطيع ذلك، قال تعالى أمراً به: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ (٥١) فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١-٥٢]. وهذا الجهاد بالحجة والبيان لأنَّ السورة مكية.

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٨١٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «زاد المعاد» (٣/ ٥).

قال ابن القيم «فَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ أَصْعَبُ مِنْ جِهَادِ الْكُفَّارِ، وَهُوَ جِهَادُ خَوَاصِّ الْأُمَّةِ وَوَرِثَةُ الرِّسْلِ، وَالْقَائِمُونَ بِهِ أَفْرَادٌ فِي الْعَالَمِ، وَالْمُشَارِكُونَ فِيهِ وَإِنْ كَانُوا هُمْ الْأَقْلِينَ عِدَدًا فَهَمُّ الْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا»<sup>(١)</sup>. «وَهُوَ أَفْضَلُ الْجِهَادِينَ لِعَظَمِ مَنَفَعَتِهِ وَشِدَّةِ مُؤَنَّتِهِ وَكَثْرَةِ أَعْدَائِهِ»<sup>(٢)</sup>.

### ومن أمثلة جهاد المنافقين وأهل البدع

جهاد الأئمة في الردود عليهم وبيان باطلهم كما فعل الدارمي في نقضه لكلام المنافق بشر المريسي الذي يظهر الإسلام ليفسده من الداخل وهو يبطن الكفر المحض<sup>(٣)</sup>، ومثله الجعد بن درهم فقد كان يظهر الإسلام ليفسد عقائد أهله<sup>(٤)</sup> وقد تولى نشر عقائده الباطلة الجهم بن صفوان مؤسس الجهمية وقد تولى أئمة السنة الرد عليه وبيان باطله في ثانيا كتبهم أو في كتب مستقلة ومن ذلك:

الرد على الجهمية للإمام أحمد، والرد على الجهمية للدارمي، والرد على الجهمية، لهشام بن عبدالله الرازي<sup>(٥)</sup>، والرد على الجهمية لنعيم بن حماد. قال الذهبي: «كان -أي نعيم بن حماد- شديد الرد على الجهمية ألف ثلاثة عشر كتاباً في الرد على الجهمية»<sup>(٦)</sup>.

(١) المرجع السابق.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٧٠).

(٣) قال الدارمي مبيناً حقيقته: «غير أنه مكذب الأصل متلطف لتكذيبه بمحال التأويل كيلا يفطن لتكذيبه أهل الجهل ولئن كان أهل الجهل في غلط من أمره إن أهل العلم منه لعل يقين». «نقض عثمان بن سعيد الدارمي» (٩٢).

(٤) قال ابن الأثير: «وقيل: إن الجعد كان زنديقاً وعظه ميمون بن مهران فقال: لشاه قباد أحب إلي مما تدين به» «الكامل» (٥/ ٤٢٩).

(٥) «شرح اعتقاد السنة والجماعة» لللالكائي (٣/ ٥٠٦).

(٦) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٥٩٩).

والرد على الجهمية لعبد العزيز بن يحيى الكناني<sup>(١)</sup>، والرد على الجهمية لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي قال الذهبي: «وله -أي الرازي- كتاب الرد على الجهمية مجلد ضخمة انتخبت منه»<sup>(٢)</sup>.

٢- جهاد الكفار أعداء الله ورسوله بالخارج بالسنان فكل من بلغته دعوة رسول الله ﷺ إلى دين الله الذي بعثه به فلم يستجب له؛ فإنه يجب قتاله ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ١٩].

ولذلك أوجب الله على المؤمنين القتال فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وأكد الإيجاب وعظم أمر الجهاد في عامة السور المدنية وذم تاركه ووصفهم بالنفاق ومرض القلوب فقال: ﴿فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠]<sup>(٣)</sup>.

«والأمر بالجهاد وذكر فضائله في الكتاب والسنة أكثر من أن يحصر ولهذا كان أفضل ما تطوع به الإنسان..... ولم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه، وهو ظاهر عند الاعتبار فإن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا، ومشمول على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة؛ فإنه مشتمل من محبة الله تعالى والإخلاص له والتوكل عليه وتسليم النفس والمال له والصبر والزهد وذكر الله وسائر أنواع الأعمال على ما لا يشتمل عليه عمل آخر. والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى الحسنين دائماً. إما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة.

(١) «بيان تلبس الجهمية» (٤/ ٣٠١).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٢٦٤).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٤٩-٣٥٠) بتصرف يسير.



فإن الخلق لا بُدَّ لهم من محيا وممات ففيه استعمال محياهم ومماتهم في غاية سعادتهم في الدنيا والآخرة وفي تركه ذهاب السعادتين أو نقصهما».

إلى أن قال: «ثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة أنه يقاتل من خرج عن شريعة الإسلام وإن تكلم بالشهادتين»<sup>(١)</sup>، وقد جمع الله هذين النوعين بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُتَسَّ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

وقبل هذين النوعين من الجهاد يجب على العبد أن يجاهد نفسه في ذات الله حق جهاده «ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله، فيكون كله لله وبالله لا لنفسه ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده، ومعصية أمره، وارتكاب نهيه، فإنه يعد الأمانى ويمني الغرور، ويعد الفقر ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التقي والهدى والعفة والصبر، وأخلاق الإيمان كلها، فجاهده بتكذيب وعده، ومعصية أمره»<sup>(٢)</sup>.

(١) المرجع السابق (٢٨/٣٥٣-٣٥٨).

(٢) «زاد المعاد» (٨/٣) ولقد أطال ابن القيم عن الجهاد حتى استغرق المجلد الثالث.

## والله أعلم.

وفي ختام الكتاب ردّ العلم إلى العليم الخبير الذي أثبت لنفسه كمال العلم في ثلاثمائة وخمسين آية<sup>(١)</sup>، فوصف نفسه بمعرفة السر والنجوى فقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾، ثم بالغ في علمه الغيوب فقال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨]. وأنه وسع كل شيء: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

وأنه ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. فلا يغيب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ويعلم كل ما يكون في المستقبل قبل وقوعه، ولهذا أجاب الله الملائكة لما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. بل ويعلم ما لم يكن، لو كان كيف يكون كما قال سبحانه عن أصحاب النار ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]. واختص بعلم مفاتيح الغيب فقال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ففي رد العلم إليه سبحانه تعظيم له، قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، قال ابن عباس: «الله الخبير العليم، فوق كل عالم». وقال قتادة: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] حتى ينتهي العلم إلى الله. منه بدئ وتعلمت العلماء وإليه يعود<sup>(٢)</sup>.

وفي رد العلم إليه افتقار إليه وتواضع وذلل له ومسكنة بين يديه، واعتراف بفضله كما قالت الملائكة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

(١) «عقيدة المسلمين» (٢/ ١٠٤).

(٢) «جامع البيان» (١٣/ ٢٨).

وكما قال الخضر لموسى عليه السلام عندما جاءه ليعلمه مما علمه الله: «يا موسى، إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه، فأخذ طائر بمنقاره من البحر، فقال: والله ما علمي وما علمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر»<sup>(١)</sup>.

وتأسيًا بالنبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن أولاد المشركين قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»<sup>(٢)</sup>. وبصحابه الكرام حيث كانوا يردّون العلم إلى عالمه ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما سأله بعد صلاة الصبح في الحديبية. هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا جميعاً: الله ورسوله أعلم<sup>(٣)</sup>.

ولما خطبهم في حجة الوداع، ثم سأله عن اليوم والشهر والبلد كان جوابهم واحداً «الله ورسوله أعلم»<sup>(٤)</sup>.

ولما سأل النبي صلى الله عليه وسلم معاذاً رضي الله عنه عن حق الله على العباد، وحق العباد على الله، قال مباشرة دون تلكؤ «الله ورسوله أعلم»<sup>(٥)</sup>. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن من العلم إذا سئل الرجل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم»<sup>(٦)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (٨ / ٤١١)، كتاب «التفسير» / باب: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾. رقم (٤٧٢٦).

(٢) البخاري مع الفتح (١١ / ٤٩٣)، كتاب «القدر» / باب: الله أعلم بما كانوا عاملين. رقم (٦٥٩٧)، ومسلم (٤ / ٢٠٢٩)، كتاب «القدر» / باب معنى: «كل مولود يولد على الفطرة». رقم (٢٦٦٠).

(٣) البخاري مع الفتح (٢ / ٣٣٣)، كتاب «الأذان» / باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، رقم (٨٤٦)، ومسلم (١ / ٨٣)، كتاب «الإيمان» / باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء. رقم (٧١).

(٤) البخاري مع الفتح (٣ / ٥٧٣)، كتاب «الحج» / باب الخطبة أيام منى. رقم (١٧٤١).

(٥) سبق تخرجه.

(٦) «طبقات الحنابلة» (١ / ٧٠).

والتابعين لهم بإحسان: ومن ذلك ما رواه مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر أغمى عليه فذهب عقله فلم يقض الصلاة قال مالك: «وذلك فيما نرى والله أعلم أن الوقت قد ذهب، فأما من أفاق في الوقت فإنه يصلي»<sup>(١)</sup>.

وما رواه مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر بن الخطاب: أن عمر بن الخطاب قال: «لا يصدّرَن أحد من الحاج حتى يطوف بالبيت فإن آخر النسك الطواف بالبيت. قال مالك في قول عمر بن الخطاب فإن آخر النسك الطواف بالبيت: إن ذلك فيما نرى والله أعلم لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْبِرَ اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] وقال: ﴿ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣]. فمحمل الشعائر كلها وانقضاؤها إلى البيت العتيق»<sup>(٢)</sup>.

وبمثله قال الحسن أو قتادة عند قول النبي ﷺ: «لا يقولنَّ أحدُكم: صمْتُ رمضان كَلَّهُ، وَلَا قُمْتُه كَلَّهُ»، قال الحسن: قال أبي: وقال يزيد مرّةً: قال قتادة: «الله أعلم أخاف على أمته التزكية؟ أو لا بد من راقد أو غافل»<sup>(٣)</sup>.

وبمثله قال الترمذي عند حديث فاطمة بنت قيس عندما خطبها معاوية وأبو الجهم فاستشارت النبي ﷺ فيهما فقال لها: «أما أبو الجهم فرجل لا يرفع عصاه عن النساء، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، ولكن انكحي أسامة».

«فمعنى هذا الحديث عندنا والله أعلم: أن فاطمة لم تخبره برضاها بواحد منهما، ولو أخبرته لم يشر عليها بغير الذي ذكرت»<sup>(٤)</sup>.

ولا زال العلماء الربانيون على ذلك يردون العلم إلى الله عز وجل فإن ذلك سنة متبعة أخذها اللاحق من السابق.

(١) «الموطأ» (١/ ١٣)، كتاب «وقوت الصلاة»/ باب جامع الوقوت.

(٢) «الموطأ» (١/ ٣٦٩-٣٧٠)، كتاب «الحج»/ باب وداع البيت.

(٣) أحمد (٤٠/ ٥).

(٤) «سنن الترمذي» (٣/ ٤٤١).

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

ومعنى الصلاة في اللغة:

١ - الدعاء: ومنه قول النبي ﷺ: «إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ، فَلْيُجِبْ، فَإِنْ كَانَ صَائِئًا، فَلْيُصَلِّ، وَإِنْ كَانَ مُفْطِرًا فَلْيُطْعِم»<sup>(١)</sup>.

قال أبو عبيد قوله: «فَلْيُصَلِّ» يعني فليدع لهم بالبركة والخير، وكل داعٍ فهو مصلٍّ. ومنه قول الأعشى:

وقابلها الريح في دَنِّها وصلَّى على دَنِّها وارْتَسَمَ  
أي: دعا لها لا تحمض، ولا تفسد.

٢ - اللزوم: يقال: صلي واصطلي؛ إذا لزم، وسميت الصلاة صلاة؛ لأنها لزوم ما فرض الله، ومن هذا مَنْ يُصَلِّي في النار: أي يلزم النار ومنه قوله: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣] أي يلزم النار ذات اللهب<sup>(٢)</sup>.

فعلى هذا تكون الصلاة من الآدمي باقية على مسماها في اللغة، وهي الدعاء، دعاء الله أن يصلي على نبيه محمد ﷺ.

والصلاة على النبي محمد ﷺ من القرب العظيمة التي أمر الله بها في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].  
ورغب فيها رسوله ﷺ على العموم فقال: «من صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا»<sup>(٣)</sup>.

(١) مسلم (٢/ ١٠٥٤)، كتاب «النكاح»/ باب الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة. رقم (١٤٣١).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٣٦-٢٣٩).

(٣) مسلم (١/ ٣٠٦)، كتاب «الصلاة»/ باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد. رقم (٤٠٨).

وأوجبها في بعض المواضع ومن ذلك:

١ - الأمر بالصلاة عليه في التشهد الأخير كما هو قول ابن مسعود وابن عمر والشافعي وأحمد والشعبي وغيرهم.

٢ - عند سماع ذكره ﷺ حيث أمر بذلك فقال: «من ذُكرتُ عنده فليُصلِّ عليّ؛ فإنه من صلّى عليّ مرّةً صلّى الله عليه عشراً»<sup>(١)</sup>، وهذا أمر، والأمر يقتضي الوجوب. ويؤكد الوجوب وأنه ﷺ وصف تارك الصلاة عليه عند سماع ذكره بالبخل فقال: «البخل من ذُكرتُ عنده، ثم لم يُصلِّ عليّ»<sup>(٢)</sup>. وأرغم أنفه فقال: «رغم أنف رجل ذُكرتُ عنده، فلم يُصلِّ عليّ..»<sup>(٣)</sup>.

وغير ذلك من المواطن التي شرع فيها الصلاة على النبي ﷺ إما وجوباً أو استحباباً، قال ابن القيم مبيناً أنها من أجل القرب: «إنّ طلب الصلاة من الله على رسوله ﷺ هو من أجل أدعية العبد وأنفعها له في دنياه وآخرته»<sup>(٤)</sup>.

والصلاة على النبي ﷺ مطلقة في كل حين وآن وتتأكد في مواطن ومن هذه المواطن:

١ - عند تبليغ العلم وإلقاء الدروس وتعليم الناس في أول ذلك وآخره، وهذا مشهور عن السلف الصالح رحمهم كما روى جعفر بن بركان قال: كتب عمر بن عبدالعزيز «أما بعد فإن أناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة، وإن أناساً من القصاص قد أحدثوا من الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل صلاتهم على النبي ﷺ، فإذا

(١) سبق تخريجه.

(٢) أحمد (٢٠١/١)، والترمذي (٥٥١/٥)، كتاب «الدعوات»/ باب قول رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل». رقم (٣٥٤٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «بدائع الفوائد» (١٩٠/٢).

أتاك كتابي هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعائهم للمسلمين عامّة ويدعوا ما سوى ذلك»<sup>(١)</sup>.

وسر «الصلاة على النبي ﷺ في هذا الوطن؛ لأنه موطن لتبليغ العلم الذي جاء به ونشره في أمته»<sup>(٢)</sup>.

والصلاة من الله الشاء عليه في الملاء الأعلى<sup>(٣)</sup>، قال أبو العالية: «صلاة الله عليه ثناؤه عليه عند الملائكة»<sup>(٤)</sup>.

وبه قال الربيع بن أنس<sup>(٥)</sup> والخليل بن أحمد<sup>(٦)</sup>، وهو أرجح من قول من قال الصلاة هي الرحمة؛ لأمر:

١ - لأن الله جمع بينهما وغاير بينهما، فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾

[البقرة: ١٥٧].

٢ - أن صلاة الله خاصة بأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين<sup>(٧)</sup>، وأما رحمته فوسعت كل

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٤٦٨) رقم (١٦٩٤٣)، و«فضل الصلاة على النبي» للقاظمي إسماعيل بن إسحاق الجهمي (٦٩) رقم (٧٦)، قال ابن حجر: «إسناد حسن». «فتح الباري» (٨/ ٥٣٤).

(٢) «جلاء الأفهام» (٤٩١) فصل الموطن الثالث والعشرون من مواطن الصلاة عليه ﷺ عند تبليغ العلم إلى الناس وعند التذكير والقصص وإلقاء الدرس وتعليم العلم في أول ذلك وآخره.

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٣٧).

(٤) البخاري مع الفتح (٨/ ٥٣٢) كتاب «التفسير»/ باب تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

(٥) «القول البديع» (١٩).

(٦) «العين» (٧/ ١٥٤).

(٧) من المعلوم أن الصلاة على الشخص تأتي استقلالاً وتأتي تبعاً، فإذا كانت استقلالاً، فلا يصلي إلا على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإلى هذا ذهب ابن عباس حيث قال: «لا ينبغي الصلاة على أحد إلا =

شيء، فالرحمة ليست هي الصلاة، وإنما هي من لوازم الصلاة، ولذلك فإنه لا يصح وضع لفظه الصلاة في موضع كلمة الرحمة في النصوص كقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. فلا يصح أن يقال: وصلاتي وسعت كل شيء. وقوله ﷺ: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها»<sup>(١)</sup> «<sup>(٢)</sup>».

٣- أن الصحابة رضي الله عنهم فهموا المغايرة حين سألوا النبي ﷺ عن كيفية الصلاة عليه، وأقرهم النبي ﷺ، فلو كانت الصلاة بمعنى الرحمة؛ لقال لهم: لقد علمتم ذلك في السلام؛ لأن الرحمة وردت في أثناء بيان كيفية السلام لهم<sup>(٣)</sup>.

### وآل النبي ﷺ:

الآل «مشتق من آل يؤول إذا رجع فآل الرجل هم الذين يرجعون إليه ويضافون إليه

على النبين». «المصنف» لعبد الرزاق (٢/ ٢١٦) رقم (٣١١٩)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٤) رقم (٨٧١٦)، وعزاه ابن حجر لإسماعيل بن إسحاق في كتاب «أحكام القرآن»، وقال: «بسند صحيح». «فتح الباري» (٨/ ٥٣٤)، وسفيان حيث قال: «يكره أن يصلي إلا على نبي». «المصنف» لعبد الرزاق (٢/ ٢١٦) رقم (٣١١٩)، وإلى هذا ذهب مالك والشافعي وهو الراجح لما سبق، ولأن تخصيص النبي بالصلاة عليه يدل على توقيره أكثر من غيره من البشر، ولأن الأمر بالصلاة لم يرد على أحد إلا على النبي ﷺ.

أما الصلاة على غيره تبعاً فهي مشروعة، بل قد بلغت الروايات فيها مبلغ التواتر، كقوله ﷺ: «اللهم صل على محمد وآله وأزواجه وذريته»، وغيره من الأحاديث. أما ما ورد من صلاته على بعض أصحابه، فلعل هذا خاص به ﷺ؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم ليس مشتهراً بينهم الصلاة على غير النبي ﷺ، والله أعلم.

(١) البخاري مع الفتح (١٠/ ٤٢٦-٤٢٧)، كتاب «الأدب»/ باب رحمة الولد وتقيله ومعانقته. رقم

(٥٩٩٩)، ومسلم (٤/ ٢١٠٩)، كتاب «التوبة»/ باب في سعة رحمة الله تعالى. رقم (٢٧٥٤).

(٢) انظر: «جلاء الأفهام» (١٦٤-١٨٠) وفيه أوجه كثيرة لم أذكرها، فراجعها إن شئت.

(٣) «القول البديع» (٥٠).



ويؤولهم أي يسوسهم فيكون مآلهم إليه»<sup>(١)</sup>.

والذين يرجعون إليه ويسوسهم أربعة أصناف، وبهم فسر العلماء آله ﷺ فصارت أقوالهم أربعة:

١ - هم الذين حرمت عليهم الصدقة وهو بنو هاشم.

٢ - هم ذريته وأزواجه خاصة.

٣ - هم الأتقياء من أمته.

٤ - هم أتباعه إلى يوم القيامة.

وقوى ابن القيم الأول والثاني فقال: «والصحيح هو القول الأول، ويليه القول الثاني، وأما الثالث والرابع فضعيفان لأن النبي ﷺ قد رفع الشبهة بقوله: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لآلِ مُحَمَّدٍ»<sup>(٢)</sup>، وهذا لا يجوز أن يراد به عموم الأمة قطعاً»<sup>(٣)</sup>.

(وصحبه):

الصحابي مشتق من الصحبة. قال ابن فارس: «الصاد والحاء والباء أصل واحد يدل على مقارنة شيء ومقاربتة ومن ذلك صاحب.. وكل شيء لاءم شيئاً فقد استصحبه»<sup>(٤)</sup>. «فالأصحاب جمع صاحب، والصاحب اسم فاعل من صحبه يصحبه وذلك يقع على قليل الصحبة وكثيرها»<sup>(٥)</sup>.

(١) «جلاء الأفهام» (٢٢٩).

(٢) مسلم (٢/ ٧٥٢-٧٥٣)، كتاب «الزكاة» / باب ترك استعمال آل النبي على الصدقة. رقم (١٠٧٢)، بلفظ: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَنْبَغِي لآلِ مُحَمَّدٍ».

(٣) «جلاء الأفهام» (٢٥٠-٢٥١).

(٤) «معجم مقاييس اللغة». (٣/ ٣٣٥).

(٥) «الصارم المسلول» (٥٧٥).

وعلى هذا بنى العلماء تحديد من تنطبق عليه الصحبة ممن لا تنطبق فقال البخاري: «من صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه»<sup>(١)</sup>.

وبذلك حدد الصحبة أحمد بن حنبل فقال: «أصحاب رسول الله ﷺ القرن الذي بعث فيهم كل من صحبه سنة أو شهراً أو يوماً أو ساعة أو رآه فهو من أصحابه له من الصحبة على قدر ما صحبه»<sup>(٢)</sup>.

وعلي بن المديني بقوله: «من صحبه سنة أو شهراً أو ساعة، أو رآه، أو وفد إليه، فهو من أصحابه له من الصحبة على قدر ما صحبه»<sup>(٣)</sup>، ولذلك «اتفقوا على عدّ جمعٍ جمٍّ في الصحابة لم يجتمعوا بالنبي ﷺ إلا في حجة الوداع»<sup>(٤)</sup>.

ونتيجة لذلك استقر أهل السنة على تعريف الصحابي بقولهم: «الصحابي من لقي النبي ﷺ مؤمناً به، ومات على الإسلام»<sup>(٥)</sup>.

«فأدناهم صحبة هو أفضل من القرن الذين لم يروه، ولو لقوا الله بجميع الأعمال.. ومن رآه بعينه وآمن به ولو ساعة أفضل بصحبته من التابعين، ولو عملوا كل أعمال الخير»<sup>(٦)</sup>.

وأما السلام على النبي ﷺ: فقد أمرنا الله به في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

(١) البخاري مع الفتح (٣ / ٧).

(٢) «طبقات الحنابلة» (١ / ٢٤٢)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١ / ١٦٠).

(٣) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١ / ١٦٧).

(٤) «فتح الباري» (٧ / ٤)، وانظر: «الباعث الحثيث» (١٣٣).

(٥) «الإصابة» لابن حجر (١ / ١٦).

(٦) القائل هو أحمد بن حنبل برواية عبدوس بن مالك. «طبقات الحنابلة» (١ / ٢٤٣-٢٤٤).

وشرعه لنا رسول الله ﷺ حين قال لأصحابه رحمته: «ولكن قولوا: التَّحِيَّاتُ لله والصَّلَوَاتُ والطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عليك أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ..»<sup>(١)</sup>.

والسلام عليه رحمته مستفيض عند الصحابة رحمته بل هو محل إجماع هذه الأمة<sup>(٢)</sup>. ومن رحمة الله بهذه الأمة أن السلام عليه رحمته لم ينحصر عند قبره فقط. وإلا لشق على الناس لبعد الشقه ومشقة الوصول، بل هيأ الله ملائكة يبلغونه سلام أمته عليه كما في حديث ابن مسعود رحمته عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ لَهِ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ، يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ»<sup>(٣)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح (٢/ ٣٢٠)، كتاب «الأذان»/ باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد. رقم (٨٣٥).

(٢) «جامع المسائل لابن تيمية/ المجموعة الرابعة» (٤/ ٢٥٣).

(٣) أحمد (١/ ٣٨٧)، والنسائي (٣/ ٤٣)، كتاب «السهو»/ باب السلام على النبي ﷺ، و«المصنف» لعبد

الرزاق (٢/ ٢١٥) رقم (٣١١٦)، و«المصنف» لابن أبي شيبه (١١/ ٤٧٤) رقم (١١٧٧٠)، وإسماعيل

ابن إسحاق الجهمي في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» (٣٤) رقم (٢١)، وابن أبي عاصم في «الصلاة

على النبي ﷺ» (١٩) رقم (٢٨)، وقال ابن القيم: «هذا إسناده صحيح». «جلاء الأفهام» (٥٥).



## فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة .....	٥
دراسة الكتاب .....	٧
شرح البسملة .....	١٤
المسائل الأربع .....	١٩
المسألة الأولى : العلم .....	٢١
ترتيب تعلم العلم .....	٢٣
فضل العلم .....	٢٩
أنواع العلم بحسب متعلقاته .....	٣٨
أسباب حفظ العلم .....	٤٠
المسألة الثانية : العمل به .....	٥٢
بأي شيء يكون العمل .....	٥٦
أساليب الحث على العمل .....	٦١
خطورة التفريط وإضاعة الوقت .....	٦٩
المسألة الثالثة : الدعوة إليه .....	٧٣
حكم الدعوة إلى الله .....	٧٦
أقسام الدعاة .....	٨١
كيفية الدعوة .....	٨٤
من وسائل الدعوة .....	٨٧
الشروط التي ينبغي توفرها في الداعية .....	٩٣

- المسألة الرابعة : الصبر ..... ١٠٠
- أنواع الصبر ..... ١٠٩
- أهمية الصبر ..... ١٢٣
- من ثمرات الصبر ..... ١٢٨
- تفسير سورة العصر ..... ١٣١
- حكم الحلف بغير الله ..... ١٣٢
- قال البخاري : باب العلم قبل القول والعمل ..... ١٤٨
- المسائل الثلاث التي يجب على كل مسلم تعلمها والعمل بها ..... ١٥١
- الأولى : أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملاً ..... ١٥١
- الثانية : أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته ..... ١٧١
- تنوع الأساليب في التحذير من الشرك ..... ١٧٤
- معنى قوله : ولا مملك مقرب ولا نبي مرسل ..... ١٩٠
- أنواع الحقوق ..... ١٩٢
- تفسير قوله تعالى : ﴿وَأَنْ أَلْمَسَ جِدَ اللَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ..... ١٩٧
- الثالثة : أن من أطاع الرسول ووجد الله لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله ..... ٢٠٠
- حكم موالاة الكفار ..... ٢٠٢
- مكانة الولاء والبراء ..... ٢٠٦
- أقسام الناس في الموالاة والمعاداة ..... ٢٠٩
- طريقة القرآن والسنة في غرس عقيدة الولاء والبراء ..... ٢١٢
- حالات إظهار الموافقة للمشركين ..... ٢٣١
- من صور موالاة الكفار ..... ٢٣٢

- الفرق بين المداراة والمداهنة ..... ٢٣٧
- تفسير قوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. ﴾ ..... ٢٣٩
- معنى الحنيف ..... ٢٤٦
- الأصل في بني آدم هو التوحيد ..... ٢٤٩
- الإخلاص ..... ٢٦٨
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ..... ٢٧٦
- معنى قوله : وأعظم ما أمر الله به التوحيد ..... ٢٨١
- معنى قوله : وأعظم ما نهى الله عنه الشرك ..... ٢٨٧
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ .. ﴾ ..... ٢٩٥
- معنى قوله : فإذا قيل لك ما الأصول الثلاثة ..... ٢٩٨
- معنى قوله : ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه ..... ٣٠١
- معنى قوله : وهو معبودي ليس لي معبود سواه ..... ٣٠٥
- تفسير قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ..... ٣٠٦
- دلائل معرفة الله ..... ٣١١
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴾ ..... ٣١٩
- تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنْ رَبِّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ .. ﴾ ..... ٣٢٢
- بداية الأيام يوم الأحد ..... ٣٢٢
- معنى قوله : والرب هو المعبود ..... ٣٢٨
- تفسير قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ .. ﴾ ..... ٣٢٩
- تفسير قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً .. ﴾ ..... ٣٣٢

العبادة .....	٣٣٦
الدعاء .....	٣٤١
أهمية الدعاء .....	٣٤١
أقسام الدعاء .....	٣٤٥
تلازم نوعي الدعاء .....	٣٤٧
ضابط معرفة نوعي الدعاء .....	٣٤٨
أنواع الدعاء .....	٣٤٩
أسباب قبول الدعاء .....	٣٥٤
أسباب رد الدعاء .....	٣٥٧
الخوف .....	٣٦١
الخوف شعار الصالحين .....	٣٦١
أهمية الخوف .....	٣٦٦
أقسام الخوف .....	٣٦٨
الأسباب الجالبة للخوف .....	٣٧٤
الرجاء .....	٣٨١
أهمية الرجاء .....	٣٨١
أقسام الرجاء .....	٣٨٤
الأسباب الجالبة للرجاء .....	٣٩١
التوكل .....	٣٩٤
أهمية التوكل .....	٣٩٦
حكم التوكل .....	٤٠٢



أنواع التوكل	٤٠٣
الأسباب الجالبة للتوكل	٤٠٨
الأسباب والتوكل	٤١٥
الرغبة	٤٢١
الرغبة	٤٢٣
الخشوع	٤٢٥
أهمية الخشوع	٤٣١
الأسباب الجالبة للخشوع	٤٤٢
الخشية	٤٤٥
أهمية الخشية	٤٤٧
الإجابة	٤٥٠
أنواع الإجابة	٤٥١
أهمية الإجابة	٤٥٣
الاستعانة	٤٥٧
أنواع الاستعانة	٤٥٨
أهمية الاستعانة	٤٦٠
الاستعاذة	٤٦٦
أنواع الاستعاذة	٤٦٧
الاستغاثة	٤٧١
أنواع الاستغاثة	٤٧٢
الذبح	٤٨١
أقسام الذبح	٤٨١

- النذر ..... ٤٩٠
- أقسام النذر ..... ٤٩٠
- معنى قوله : مشرك كافر ..... ٤٩٧
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ... ﴾ ..... ٥٠٥
- معنى قوله و في الحديث : «الدعاء مخ العبادة» ..... ٥٠٩
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ... ﴾ ..... ٥١١
- تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ..... ٥١٤
- تفسير قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا... ﴾ ..... ٥١٦
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا... ﴾ وقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ..... ٥١٨
- تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ... ﴾ ..... ٥٢١
- تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ... ﴾ ..... ٥٢٣
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ... ﴾ ..... ٥٢٥
- تفسير قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ..... ٥٢٦
- تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ وقوله : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ..... ٥٢٩
- تفسير قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ... ﴾ ..... ٥٣١
- تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ... ﴾ ..... ٥٣٣
- تفسير قوله تعالى : ﴿ يُؤْفُونَ بِالْأُكُودِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ ..... ٥٣٨
- الأصل الثاني : معرفة دين الإسلام بالأدلة ..... ٥٣٩
- معنى قوله : الاستسلام لله بالتوحيد ..... ٥٤٣
- معنى قوله : الانقياد له بالطاعة ..... ٥٤٧

- معنى قوله : والبراءة من الشرك وأهله ..... ٥٥٠
- شهادة أن لا إله إلا الله ..... ٥٥٨
- تفسير قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ ... ﴾ ..... ٥٦١
- معناها ..... ٥٦٧
- أركانها ..... ٥٦٩
- شروطها ..... ٥٧١
- فضائلها ..... ٥٨٧
- مقتضياتها ..... ٥٩٠
- نواقضها ..... ٥٩١
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ..... ٥٩٨
- تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا ... ﴾ ..... ٦٠٩
- تفسير قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ... ﴾ ..... ٦١٥
- معنى شهادة أن محمداً رسول الله ..... ٦٢٠
- فرضية طاعة النبي ﷺ ..... ٦٢١
- تنوع الأساليب في الأمر بطاعته ..... ٦٢٢
- معنى قوله : وتصديقه فيما أخبر ..... ٦٢٩
- معنى قوله : اجتناب ما نهى عنه وزجر ..... ٦٣٥
- معنى قوله : وألا يعبد الله إلا بما شرع ..... ٦٣٩
- نواقض شهادة أن محمداً رسول الله ..... ٦٤٤
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ... ﴾ ..... ٦٤٨
- تفسير قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ... ﴾ ..... ٦٥١

- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ ... ﴾ ..... ٦٥٤
- المرتبة الثانية : الإيمان ..... ٦٥٧
- معنى قوله : وهو بضع وسبعون شعبة ..... ٦٦٦
- معنى قوله : وأعلاها قول : لا إله إلا الله ..... ٦٦٩
- معنى قوله : وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ..... ٦٧٠
- معنى قوله : والحياء شعبة من الإيمان ..... ٦٧٢
- أنواع الحياء ..... ٦٧٤
- ثمرات الحياء ..... ٦٨١
- أركان الإيمان ..... ٦٨٥
- الإيمان بالله ..... ٦٨٥
- توحيد الربوبية ..... ٦٨٦
- توحيد الألوهية ..... ٦٩٥
- الفرق بين توحيد الربوبية والألوهية ..... ٧٠١
- توحيد الأسماء والصفات ..... ٧٠٣
- ترابط أقسام التوحيد الثلاثة ..... ٧١٠
- ثمرات الإيمان بالله ..... ٧١١
- الإيمان بالملائكة ..... ٧١٦
- الإيمان بالملائكة يتضمن أموراً ..... ٧١٨
- ثمرات الإيمان بالملائكة ..... ٧٢٧
- الإيمان بالكتب ..... ٧٣٥
- الإيمان بالكتب يتضمن أموراً ..... ٧٣٨

- ثمرات الإيمان بالكتب ..... ٧٤٤
- الإيمان بالرسل ..... ٧٤٦
- الإيمان بالرسل يتضمن أموراً ..... ٧٦١
- ثمرات الإيمان بالرسل ..... ٧٦٧
- الإيمان باليوم الآخر ..... ٧٧٠
- ثمرات الإيمان باليوم الآخر ..... ٧٨٠
- الإيمان بالقدر ..... ٧٨٦
- مراتب بالقدر ..... ٧٩٨
- ثمرات الإيمان بالقدر ..... ٨٠٧
- معنى : خيره وشره ..... ٨١٢
- تفسير قوله تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ ...﴾ ..... ٨١٤
- تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ﴾ ..... ٨١٩
- المرتبة الثالثة : الإحسان ..... ٨٢١
- أنواع الإحسان ..... ٨٢٣
- مقامات الإحسان مع الله ..... ٨٢٤
- ثمرات الإحسان ..... ٨٣٣
- تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ ..... ٨٣٩
- تفسير قوله تعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ...﴾ ..... ٨٤١
- تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ...﴾ ..... ٨٤٥
- شرح حديث جبريل ..... ٨٤٧
- الأصل الثالث : معرفة النبي ﷺ ..... ٨٦٤

- نسبه ..... ٨٦٥
- ولادته ..... ٨٦٨
- أسماءه ..... ٨٦٩
- صفاته الخلقية ..... ٨٧١
- صفاته الخلقية ..... ٨٧٦
- بشريته ..... ٨٧٧
- اصطفائه ..... ٨٧٩
- عصمته ..... ٨٧٩
- البلاغ ..... ٨٨٠
- عموم رسالته ..... ٨٨١
- حكم الإيمان به ..... ٨٨٢
- عمره ..... ٨٨٤
- الفرق بين النبي والرسول ..... ٨٨٨
- دلائل نبوته ..... ٨٩٢
- حقوقه ..... ٨٩٨
- فضل مكة ..... ٩٠٨
- معنى قوله : بعثه الله بالندارة عن الشرك ويدعو إلى التوحيد ..... ٩٠٩
- تفسير قوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الْمَدَنُورُ ۝١﴾ ﴿قُرْآنَدَرُ﴾ ..... ٩١٣
- الهجرة القلبية ..... ٩١٧
- الإسراء والمعراج ..... ٩٢٤
- الهجرة البدنية ..... ٩٣١

- أقسام الهجرة من حيث البلاد وأهلها ..... ٩٣٧
- فضل الهجرة ..... ٩٤٢
- ثمرات الهجرة ..... ٩٤٣
- آثار ترك الهجرة ..... ٩٤٦
- حكم الهجرة ..... ٩٤٨
- ضابط إظهار الدين ..... ٩٥١
- بقاء الهجرة ..... ٩٥٣
- تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمُؤْمِنِينَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ ... ﴾ ..... ٩٥٦
- تفسير قوله تعالى : ﴿ يَعْبادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا بِأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَسِعَةً ... ﴾ ..... ٩٦٣
- معنى قوله : ولا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ..... ٩٦٥
- الأذان ..... ٩٧٠
- الجهاد ..... ٩٧٢
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ..... ٩٧٦
- وفاته ﷺ ..... ٩٨٢
- معنى قوله : ودينه باقٍ ..... ٩٨٦
- معنى قوله : بعثه الله إلى الناس كافة ..... ٩٩٥
- تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ... ﴾ ..... ٩٩٩
- معنى قوله : وأكمل الله به الدين ..... ١٠٠٤
- خطورة الابتداع ..... ١٠١٠
- تفسير قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ... ﴾ ..... ١٠٢٤
- تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ..... ١٠٢٨

- البعث ..... ١٠٣٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ... ﴾ وقوله: ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ ١٠٤٦
- الحساب ..... ١٠٤٨
- ثمرات الإيمان بالحساب ..... ١٠٥٥
- الجزاء ..... ١٠٥٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ... ﴾ ١٠٦٢
- كفر من كذب بالبعث ..... ١٠٦٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِبُيُوتِهِمْ ... ﴾ ١٠٦٧
- معنى زعم ..... ١٠٦٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ... ﴾ ١٠٧٢
- قيام الحجة ..... ١٠٧٦
- ضابط قيام الحجة ..... ١٠٧٨
- معنى قوله: أولهم نوح عليه السلام، وآخرهم محمد ﷺ وهو خاتم النبيين ..... ١٠٨٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ ... ﴾ ١٠٨٥
- معنى قوله: يأمرهم بعبادة الله وحده ..... ١٠٩٣
- معنى قوله: وينهاهم عن عبادة الطاغوت ..... ١٠٩٥
- أقسام الطاغوت بحسب أنواع المعبودات ..... ١١٠١
- تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِ أَعْبُدُوا اللَّهَ ... ﴾ ١١٠٣
- معنى قوله: وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت ..... ١١٠٦
- معنى الطاغوت ..... ١١١٥
- معنى قوله: والطواغيت كثيرون ورؤوسهم خمسة ..... ١١١٩



- ١١١٩ ..... إبليس لعنه الله
- ١١٢٧ ..... ومن عبد وهو راضٍ
- ١١٣٢ ..... ومن دعا إلى عبادة نفسه
- ١١٣٥ ..... ومن ادعى شيئاً من علم الغيب
- ١١٤١ ..... ومن حكم بغير ما أنزل الله
- ١١٥٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...﴾
- ١١٥٩ ..... معنى حديث: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة»
- ١١٦١ ..... عظم قدر الصلاة
- ١١٦٢ ..... كفر تارك الصلاة
- ١١٦٧ ..... معنى: وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله
- ١١٦٨ ..... أنواع الجهاد في سبيل الله
- ١١٧٢ ..... معنى قوله: والله أعلم
- ١١٧٥ ..... معنى قوله: وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم